

تاريخ غازان خان

تأليف
رشيد الدين فضل الله الهمذاني

دراسة وترجمة
الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد

الدار الثقافية للنشر



تأليف
رشيد الدين فضل الله الهمذاني

دراسة وترجمة
الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد

الدار الثقافية للنشر

عنوان الكتاب: جامع التواريخ للهمذانى

ترجمة ودراسة / د. فؤاد عبد المعطى الصياد

٢٤×١٧ سم. ٤٤٦ص.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٩/٢٢٨٨

الترقيم الدولى: ISBN: 977-5875-70-6

اسم الناشر: الدار الثقافية للنشر

Jami'e Al-Tawariekh

Dr. Fouad Abdal-Mouaty Al-Sayad

17 x 24 cm. 446p

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م



الدار الثقافية للنشر القاهرة

ص.ب١٣٤ بانوراما أكتوبر -هاتف وفاكس ٤٠٢٧١٥٧

Email: sales@thakafia.com

Website: www.thakafia.com

المقدمة والدراسة

كيفية نطق الحروف الفارسية
المستعملة فى هذا الكتاب

(١) الحرف الفارسى (پ) ينطق مثل حرف (P) فى اللغة الإنجليزية.

(٢) الحرف الفارسى (چ) ينطق مثل حرفى (CH) فى اللغة الإنجليزية.

(٣) الحرف الفارسى (ژ) ينطق مثل حف (J) فى اللغة الإنجليزية.

(٤) الحرف الفارسى (گ) ينطق مثل حرف (G) فى اللغة الإنجليزية.

فى مثل كلمات: Big - Gun - Garden

أو مثل الجيم المصرية فى اللهجة الدارجة.


مُقَدِّمَة

مُقَدِّمَة

هذه ترجمة كاملة قمت بها لتاريخ غازان خان الذى يكون قسما مهما من كتاب جامع التواريخ، تأليف مؤرخ المغول الكبير "رشيد الدين فضل الله الهمذانى". ولا شك أن الترجمة ضرورة إنسانية وفكرية وحضارية لا غنى عنها لكل أمة حية تنشد الكمال الإنسانى أو الاقتراب منه فى الأقل. كما أن ترجمة الآثار الفكرية من أجدى أنواع الترجمة وأهمها لأنها تفسح المجال واسعا أمام أبناء مختلف أمم الأرض للاطلاع على ميراث بعضها والإفادة منه وربما التأثر به أيضا[1].

ولن يتسنى للشعوب وفى طليعتها العرب أن تنال نصيبها من التراث الإنسانى بشقيه العلمى والثقافى إلا عن طريق الترجمة؛ فهى الجسر الوحيد الذى نعبر عليه إلى حياة علمية راقية[2].

وخير ما نذكره فى هذا المقام هو ما سبق أن قاله أستاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم أمين الشواربى: "لو استطاع كل متخصص فى علم من العلوم أو فن من الفنون أن ينقل إلى العربية كتابا واحدا من أمهات الكتب المتعلقة بموضوع تخصصه، لكان للعربية من مجموع هذه الترجمات ثروة طائلة كفيلة بأن تجدد الفكر العربى واللغة العربية تجديدا كاملا، ينتهى بنا إلى نهضة كاملة شاملة كالتى حدثت فى أوروبا عندما نقلت إلى لغاتها الكتب العربية والشرقية فى سالف الوقت والزمان، ولاستكملنا بهذه الثروة العريضة ما نقصنا فى الفترة التى وقفنا فيه موقف الفتور والتكاسل والتخلف والتواكل"[3].

كان رشيد الدين مؤرخا كبيرا وكاتبا موسوعيا أحاط علمه بكثير من أنواع المعارف والثقافات. ولكن شهرته كمؤرخ كانت تأتى فى المقدمة دائما. وعندما حاول المستشرقون

---

(١) سياست نامه أو سير الملوك، تأليف نظام الملك الطوسى، ترجمة الدكتور يوسف حسين بكار، الطبعة الثانية، ص٥ الدوحة دولة قطر، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

(٢) مجلة القافلة: مقالة الدكتور زهير عبد الوهاب بعنوان: حاجتنا إلى الترجمة، العدد الثالث، المجلد الرابع والأربعون، ص١٠، عدد ربيع الأول ١٤١٦هـ يولية أغسطس ١٩٩٥م، المملكة العربية السعودية.

(٣) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، تأليف المستشرق الكبير إدوارد جرانڤيل براون، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، ص ت، القاهرة ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م.

دراسة دراسة متعمقة كان أول ما استرعى نظرهم كتابه جامع التواريخ. وكانوا على صواب فيما ذهبوا إليه، لأن كتابه التاريخي هو الذى أذاع صيته ورفع قدره وسجل اسمه بين النابغين الأفذاذ من أبناء الشرق الإسلامي.

ومن المتفق عليه أيضا أن القيمة الحقيقية لهذا الكتاب إنما تتجلى فى المجلد الأول المتضمن تاريخ المغول؛ فعندما تحدث رشيد الدين عن هؤلاء القوم ذكر أصلهم ونشأتهم وقبائلهم وعاداتهم وتقاليدهم وفتوحاتهم على نحو دقيق ومفصل لم نشهده فى أى مصدر آخر.

ولا شك أن الباحث يهمه عندما يتناول التاريخ المبكر للإمبراطورية المغولية أن يستطيع التمييز بين الحقائق التاريخية المقبولة وبين الأساطير. ثم إن المعلومات عن المغول الأول لتبدو جوهرية للطالب الذى يريد أن يتناول بإحكام علاقتهم الخارجية فيبرز تأثيرهم فى الجنس البشرى خارج حدودهم. كذلك تبرز أهمية الكتاب فيما نقرؤه عن المغول فى الأحداث التى كان يعايشها المؤرخ؛ فقد عاصر دولة المغول فى أبهى فتراتها، وشاهد حصار بغداد وفتحها على يد هولاكو خان، والتحق بخدمة أعظم سلاطين الإيلخانيين وبلغ أسمى المراتب فى عهد غازان وأولجايتو وفترة من حكم أبى سعيد بهادر خان، ولعب دورا هاما فى سياسة دولة المغول وإدارتها. فإذا جاء هذا المؤرخ وأرخ لهذه الفترة، فإنه يؤرخ لأحداث كان يعاصرها ويشهدها بعينى رأسه، ويصفها وصف المثقف الخبير بشئون الحياة. كذلك استطاع الاطلاع على الوثائق المكتوبة والإفادة منها. وهذه ميزة كبيرة لم تتوافر لغيره ممن كتبوا عن تاريخ المغول من السابقين أو المعاصرين له.

لكل هذه الميزات لقى المجلد الأول من هذا الكتاب اهتمام المستشرقين والباحثين فخصوه بعنايتهم، وعكفوا على تحقيقه ونشره وترجمته إلى مختلف اللغات الأوربية وجاءت هذه الترجمات مصحوبة بالشروح والتعليقات. وكان فى مقدمة ما عنوا به القسم المشتمل على تاريخ الإيلخانيين "سلاطين المغول فى إيران"، فهو عظيم الأهمية:

أولا: وبالذات لعرض الأحداث التى وقعت فى القرنين السابع والثامن الهجريين "الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين"، وشملت إيران وجورجيا وأرمينية ووسط آسيا وغربها.

ثانيا: للحديث عن الإصلاحات المختلفة التى قام بها غازان خان.

ولم تكن اللغة العربية بمعزل عن الاستفادة من هذا الأثر الخالد أيضا؛ فقد شاركت المرحومين الأستاذين محمد صادق نشأت والدكتور محمد موسى هنداوى فى ترجمة النص المتعلق بتاريخ هولاكو خان، ونشر فى القاهرة عام ١٩٦٠م تحت عنوان: جامع التواريخ: رشيد الدين فضل الله الهمذانى: تاريخ المغول، المجلد الثانى – الجزء الأول – الإيلخانيون: تاريخ هولاكو.

وهذا القسم سبق أن حقق نصه الفارسى المستشرق الفرنسى كاترمير مع ترجمة فرنسية للمتن الفارسى، ونشر الأصل والترجمة فى باريس عام ١٨٣٦م. وقد صحب المتن كثير من الحواشى والتعليقات المستفيضة التى تدل على اطلاع واسع وعلم غزير. وصدرت هذه الطبعة بمقدمة باللغة الفرنسية ذات قيمة علمية كبيرة عن حياة رشيد الدين وآثاره. هذا وقد قام المرحوم الدكتور محمد القصاص بترجمة هذه المقدمة إلى اللغة العربية، تصدرت الترجمة العربية لتاريخ هولاكو خان على النحو الذى ذكرناه سابقا.

كذلك شاركت الأستاذ محمد صادق نشأت فى ترجمة النص المتضمن تاريخ أبناء هولاكو خان من آبا قاخان إلى كيخا توخان. وهذا النص سبق أن نشره بالفارسية المستشرق "كارل يان" فى براغ عام ١٩٤١م. وقد صدرت الترجمة العربية أيضا فى القاهرة عام ١٩٦٠م.

ثم قمت بمفردى بترجمة قسم آخر من هذا الكتاب بعنوان: "جامع التواريخ" تأليف "رشيد الدين فضل الله الهمذانى": "تاريخ خلفاء چنگيز خان من أوگتاى قا آن إلى تيمور قا آن، بيروت ١٩٨٣م. وذلك عن الطبعة التى نشرها بالفارسية المستشرق الفرنسى بلوشيه " Blochet " فى ليدن سنة ١٣٢٩هـ ١٩١١م ضمن سلسلة جب التذكارية. وقد تم صدور هذه الأجزاء الثلاثة بإشراف أستاذنا المرحوم الدكتور يحيى الخشاب ومراجعته.

وعلى هذا يتبقى من تاريخ الإيلخانيين قسم هام جدا، وهو الذى يتناول تاريخ غازان خان. ولعل هذا القسم هو أهم أقسام جامع التواريخ لأنه يتضمن الإصلاحات العديدة التى قام بها غازان وتناولت كل شئون الحياة من إدارية واقتصادية وقضائية وعمرانية. وقد قدر لهذه الإصلاحات البقاء الطويل بعد ذلك فى الممالك الإسلامية. ولا شك أن هذه الجوانب تجذب أنظار الذين يؤرخون للحضارة الإسلامية. كما تحظى باهتمام الباحثين والدارسين .

وقد لوحظ أن المؤرخ رشيد الدين ذكر تاريخ "بايدو" ضمن تاريخ غازان خان لأن "بايدو" فى الحقيقة تولى الحكم لفترة قصيرة جدا لا تزيد على ستة أشهر، من جمادى الأولى إلى ذى القعدة سنة ٦٩٤هـ أبريل إلى أكتوبر سنة ١٢٩٤م، فرأى رشيد الدين أن يكتب تاريخ هذا الإيلخان كجزء لا ينفصل عن تاريخ غازان الذى حارب بايدو وانتصر عليه، وتولى الحكم بعده فى سنة ٦٩٤هـ ١٢٩٤م، وذلك على النحو الذى يطالعه القارئ فى الترجمة.

هذا قليل من كثير مما حواه النص الفارسى لتاريخ غازان. ويرجع الفضل الكبير فى تحقيق هذا القسم أيضا إلى الأستاذ العالم المستشرق كارل يان " Karl Jhan " الذى قام بنشره بعنوان: "كتاب تأريخ مبارك غازانى: داستان غازان خان " تأليف رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبى الخير بسعى واهتمام وتصحيح أقل العباد كارل يان، هرتفورد، إنجلترا سنة ١٣٥٨هجرى مطابق ١٩٤٠مسيحى. وقد صدر المحقق هذه الطبعة بمقدمة كتبها باللغة الألمانية.

وفى عصرنا الحاضر نال كتاب جامع التواريخ حظا وافرا من عناية الأفراد والحكومات، وحدثت تطورات واتجاهات مختلفة، وكلها تؤكد ضرورة دراسته كأثر من آثار الشرق التاريخية.

ونظرا للأهمية القصوى للمجلد المتعلق بتاريخ الإيلخانيين، استقر الرأى على أن يبدأ العلماء الروس بنشره اعتمادا على أوثق المخطوطات الخاصة بكتاب جامع التواريخ والمحفوظة بمكتبات العالم. ثم عهد إلى الأستاذ "عبد الكريم على أوغلى على زاده" بتحقيقه ونشره، وصدر ضمن منشورات مجمع علوم جمهورية روسيا السوفيتية الاشتراكية بآذربيجان معهد التاريخ، باكو ١٩٥٧م.

ولما كان هذا المجلد يضم قسما كبيرا يشتمل على تاريخ غازان خان، وكان لا يزال فى نصه الفارسى، عقدت العزم على ترجمته أيضا إلى اللغة العربية؛ إذ رأيته أصح وأدق بالقياس إلى غيره من الطبعات.

بقى أن نقرر أن رشيد الدين قد أنهى المجلد الأول من كتابه بتأريخه لغازان خان، وأنه لم يستكمل تاريخ الإيلخانيين؛ إذ لا يزال هناك اثنان من كبار الإيلخانيين حكما إيران بعد

أولا : رشيد الدين وكتابه جامع التواريخ

هو رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير ابن موفق الدولة الهمذاني[١]. كان جده موفق الدولة يعيش مع الخواجة نصير الدين الطوسي في قلاع الإسماعيلية بقهستان ثم التحق بخدمة هولاكو خان على أثر استيلائه على تلك القلاع[٢].

ولد رشيد الدين في همذان سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م، وأمضى فترة شبابه هناك في تحصيل العلوم المختلفة وبخاصة الطب. وعن طريق مهنة الطب عمل طبيبا في بلاط آبا قاخان (٦٦٣-٦٨٠هـ/١٢٦٤-١٢٨١م) ثم صار يترقى شيئا فشيئا إلى أن عين وزيرا في عهد السلطان غازان خان (٦٩٤-٧٠٣هـ/١٢٩٤-١٣٠٣م)، واستمر يتقلد أعباء هذا المنصب في عهد السلطان أولجايتو (٧٠٣-٧١٦هـ/١٣٠٣-١٣١٦م) وابنه السلطان أبي سعيد بهادر خان (٧١٦-٧٣٦هـ/١٣١٦-١٣٣٥م).

كان رشيد الدين من أصل يهودي[٣]. ثم أسلم وخلص إسلامه. وكان يسير في حياته الرسمية سير المسلم الصحيح الإيمان الكامل العقيدة. وهناك علماء لا سبيل إلى الشك في حسن نيتهم وكفاءتهم شهدوا بصحة عقيدته في كتاباته وفي حياته، وأن أعماله كلها كانت خيرا وبركة على الإسلام والمسلمين.

---

(١) انظر المزيد من التفصيلات في كتاب مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني، الطبعة الأولى تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة ١٣٨٦هـ ١٩٦٧م؛ آئين كشور داري در عهد وزارت رشيد الدين فضل الله همداني، تأليف دكتر هاشم رجب زاده، تهران ٢٥٣٥ شاهنشاهي.

(٢) انظر كتاب المغول في التاريخ، تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد، ص٢٣٣ وما بعدها، القاهرة ١٩٧٥م.

(٣) انظر فؤاد عبد المعطي الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني، ص٩٤ وما بعدها؛ مجموعة خطابه هاى تحقيقي در بارهٔ رشيد الدين فضل الله همداني: مقالة الأستاذ عباس زرياب خويي بعنوان: سه نكته در بارهٔ رشيد الدين فضل الله"، ص ١٢٣-١٣٥، طهران ١٣٥٠هـ.ش؛ جامع التواريخ رشيد الدين فضل الله همداني، به تصحيح وتحشيهٔ محمد روشن مصطفى موسوى، جلد أول، ص٧٣ وما بعدها من المقدمة، تهران ١٣٧٣هـ.ش؛ Walter J. Fischel: Jews in Economic and Political life of Mediaeval Islam, Royal Asiatic Socity Monographs, Vol. XXII, PP. 118-125, London 1937, Encyclopaedia Judaica, Vol 13. P. Rec. Second Printing, p. 1566, Jeruslem, 1973.

دكتر شيرين بياني (اسلامى ندوشن): دين ودولت در إيران عهد مغول، حكومت إيلخاني: نبرد ميان دو فرهنگ، جلد دوم، ص٤٩٠-٤٩٣، چاپ أول، تهران ١٣٧١هـ.ش

استمر رشيد الدين يعيش معززا مكرما. لكنه فى أوائل عهد أبى سعيد وقع فريسة للدسائس والمؤامرات التى كان يحيكها له زميله فى الوزارة "على شاه الجيلانى" وانتهى الأمر بقتله بغير حق بأمر أبى سعيد بالقرب من تبريز فى جمادى الأولى عام ٧١٨هـ / ١٣١٨م، وهو فى الثالثة والسبعين من عمره. وبذلك أنهوا حياة أحد عظماء الحكماء والأطباء والكتاب والمؤرخين والوزراء[١]. وعلى أثر مقتله نهبت جميع أمواله وممتلكاته، وخربت محلة "الربع الرشيدى" التى أقامها شرقى تبريز، وأتلفت المكتبة التى كان يضمها هذا الربع، وكانت تحوى ستين ألف مجلد[٢].

كان رشيد الدين رجلا واسع الأفق غزير الثقافة، يعرف كثيرا من اللغات والثقافات العبرية والفارسية والعربية والتركية والمغولية. وعندما تولى غازان خان عرش المغول، وعرف فى مؤرخنا النبوغ والذكاء ولمس فيه الإخلاص والوفاء، لم يكتف بتقليده منصب الوزارة فحسب، بل كلفه بعمل أدبى كبير هو تأليف كتاب جامع فى تاريخ المغول. ولكى تكتمل عناصر النجاح لهذا المشروع، وضع غازان خان تحت تصرف رشيد الدين خير المصادر وأندرها فى الإمبراطورية المغولية كالوثائق والسجلات التى كان على رأسها "التون دبتر" (الكتاب الذهبى) الذى يشتمل على التاريخ الرسمى للمغول. كذلك استطاع رشيد الدين أن يحصل على الكثير من الروايات الشفوية التى كان يدور معظمها على لسان غازان نفسه والأمير "پولاد چينگ سيانگ" سفير الخاقان فى بلاط غازان خان. وكان كلا الرجلين قد اشتهر بمعارفه الواسعة وإحاطته التامة بتاريخ المغول[٣]. وهكذا تهيأت الفرصة لرشيد الدين لأن يكتب كتابا مدعما بخير الوثائق، كتابا يمكن اعتباره فريدا فى نوعه فى تاريخ المغول منذ أقدم الأزمنة حتى عصر التأليف.

اهتم رشيد الدين بهذا التكليف غاية الاهتمام، ووضع نصب عينيه أن ينجز مهمته على الوجه الأكمل. ورغم أنه لم يكن متفرغا تماما لهذا العمل الشاق استطاع أن يقطع شوطا بعيدا فى تأليف هذا الكتاب الذى أطلق عليه اسم "تاريخ غازانى". وبينما كان رشيد الدين

---

(١) على أكبر دهخدا: لغت نامه، شمارهٔ مسلسل ١٢٨، شمارهٔ حرف ر (بخش أول)، ص٤٦٩، تهران، فروردين ١٣٤٦هـ.ش.

(٢) أدبيات إيران در زمان سلجوقيان ومغولان، تأليف بروفسور "يان ريبكا"، ترجمهٔ دكتر يعقوب آژند، ص١٤٧، چاپ أول، تهران ١٣٦٤ هـ.ش.

(٣) انظر الترجمة العربية.

على وشك الفراغ من مهمته، مات فجأة السلطان غازان خان فى شوال ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، فتولى أخوه أولجايتو عرش المغول، وأبقى رشيد الدين فى منصبه، وكلفه بأن ينجز تاريخ المغول، وأن يستمر فى إهدائه إلى غازان اعترافا بالجميل نحو ذكرى هذا الراحل الذى بفضله كان التفكير فى تأليف هذا الكتاب. وفى الوقت نفسه، كلف السلطان أولجايتو وزيره رشيد الدين بمهمة جديدة هى أن يكتب مجلدا ثانيا يشتمل على تاريخ لجميع الشعوب التى اتصل بها المغول أثناء فتوحاتهم.

وفى هذه المرة أيضا استجاب رشيد الدين لطلب السلطان، وأرخ للدول التى قامت قبل الإسلام وبعده فى الشرق والغرب، ورجع فى استقاء مادته العلمية إلى مصادر متخصصة. كما استطاع بمساعدة العلماء الذين كانوا يقطنون تبريز والسلطانية فى ذلك الوقت وكان منهم الصينيون وأهل التبت والأويغوريون والهنود والفرنج أن يفرغ من تأليف كتابه فى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، وأطلق على العمل بأكمله اسم "جامع التواريخ"؛ فكان أقيم كتب التاريخ العامة. كما أن أهميته كبيرة فى الكتابة التاريخية بأسرها. كذلك كان أول تاريخ عالمى معروف بالمعنى الصحيح، وأول مجموع منظم للتطور التاريخى لكل الأوطان التى تحتل قارة أوراسيا (أوربا وآسيا) من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى. يقول المستشرق الروسى بارتولد: "اتخذ مصنف رشيد الدين صورة موسوعة تاريخية ضخمة لم يوجد لها مثيل عند شعب من شعوب القرون الوسيطة سواء أكان ذلك بآسيا أم بأوروبا. وإن مجرد الاضطلاع بتنفيذ مشروع ضخم كهذا يستند على مجهود علماء من مختلف الشعوب ليقف مثلا حيا للنتائج الإيجابية التى تمخض عنها الغزو المغولى حين ربط بين شعوب باعدت بينها الشقة واختلاف الثقافات، وحين تهيأت الظروف الملائمة لظهور ثمار ذلك. وكان رشيد الدين على ثقة من أن الأجيال القادمة ستفيد كثيرا من مصنفاته"[1].

---

(١) انظر بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الطبعة الأولى، ص١٢٠، الكويت ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

أقسام كتاب جامع التواريخ:

يقع هذا الكتاب فى مجلدين:

المجلد الأول: يشتمل على بابين:

الباب الأول: يحتوى على مقدمة وأربعة فصول فى تاريخ القبائل التركية والمغولية وأصولها مع تفاصيل مسهبة عن فروع الأتراك والمغول وأنسابهم وأساطيرهم.

الباب الثانى: تاريخ چنگيز خان وأجداده وأبنائه وأحفاده إلى غازان خان.

المجلد الثانى: يشتمل أيضا على بابين:

الباب الأول: يحتوى على تاريخ أولجايتو، وهو مفقود من جميع نسخ هذا الكتاب.

الباب الثانى: ويشمل التاريخ العام للعالم، ويقع فى مقدمة وقسمين:

القسم الأول: فى ذكر ملوك الفرس، وذلك منذ عصر گيومرث أول ملوك الفرس الأسطوريين حتى آخر عهد يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس الساسانيين.

وهذا القسم يقع فى أربع طبقات:

أ طبقة البيشداديين.

ب- طبقة الكيانيين.

ج- طبقة الإشكانيين.

د طبقة الساسانيين.

القسم الثانى: وينقسم بدوره إلى الأقسام الثلاثة الآتية:

١ - فى ذكر تاريخ النبى ﷺ وتاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين حتى آخر عهد المستعصم.

٢ - تاريخ الدويلات التى نشأت فى إيران على أثر ضعف الخلافة العباسية. وهذه الدويلات هى: الغزنوية السلجوقية الخوارزمية السلغورية (أتابكة فارس) الإسماعيلية.

٣ – تاريخ الدول الأخرى مثل تاريخ "أوغوار" جد الأتراك – تاريخ الخطا والصين – تاريخ بنى إسرائيل – تاريخ الإفرنج والقياصرة – تاريخ الهند. وهذا القسم ينتهى بمقالة طويلة عن الديانة البوذية[١] ومؤسسها ساكيمونى.

وكان من المفروض أن يكتب رشيد الدين مجلدا ثالثا فى جغرافية أقاليم العالم. وقد أشار السلطان أولجاتيو على وزيره بتأليفه أيضا؛ إلا أنه لم يعثر عليه فى جميع نسخ كتاب جامع التواريخ. ويبدو أن المؤلف لم يكتبه أو أنه كتبه، ولكنه فقد.

(١) انحسرت البوذية بدرجة كبيرة من الهند موطنها الأصلى، وانتشرت انتشارا واسعا فى اليابان وكوريا والهند الصينية ونيبال والتبت. (انظر موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين، تأليف جوزيف نيدهام، ترجمة محمد غريب جودة، ص ٤٢٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م).

أهمية كتاب جامع التواريخ:

يعد رشيد الدين بحق أكبر المؤرخين الفرس في الدولة الإيلخانية وكان ينظر إلى كتابه على أنه أحسن وأكمل كتب التاريخ العام في الأدب الفارسي، وخير ممثل للاتجاه إلى التأليف في التاريخ العالمي الذي ساد العصر المغولي؛ إذ كثرت فيه الموسوعات، وتعدد المكثرون من درس الموضوعات التاريخية المختلفة حتى ليصح أن يطلق عليه بحق عصر الموسوعات.

ونحن في الحقيقة إذا رحنا نكتب بالتفصيل عن أهمية كتاب جامع التواريخ والوقوف على قيمته الحقيقية، فسوف تتشعب الآراء وتطول الصفحات. ولهذا فضلنا أن نقتصر على أبرز ما يميز هذا الكتاب بالنسبة إلى غيره من الكتب.

أولا: تبدو عبقرية المؤرخ رشيد الدين حقا فيما كتبه عن تاريخ المغول؛ فقد كشف عن تاريخ هذه الجماعة، وأزال ما كان يكتنفه من إبهام وغموض. ولا شك أن الفصول التي تتناول الحديث عن الأتراك والقبائل المغولية وعن چنگيز خان وأجداده، وانضواء منغوليا تحت لوائه والعبارات المنسوبة إليه، وغير ذلك من ضروب البطولة والصراع لمما يعطي قصة رائعة عن الحياة البدوية التي لم تشوه بضروب المحسنات والتي تثير الرغبة الشديدة، وتلقى الأهمية الكبيرة لدى القراء الأتراك[1].

يقول الأستاذ أحمد زكي وليدي : "اختص رشيد الدين المغول والترك لأول مرة في التاريخ بنسبتهم إلى مدنية أصيلة تجمعهم، وأفسح لهم مجالا خاصا بهم"[2].

وإذن فهذا الجزء الخاص بتاريخ المغول ممتاز ورائع؛ حقق فيه مؤلفه كل ما وعد به. ونستطيع أن نشهد بأنه الكتاب الوحيد الذي نعثر فيه على أصدق المعلومات عن حياة چنگيز خان وخلفائه وعن عهدهم[3].

ثانيا: كان رشيد الدين من مؤرخي البلاط، والمشهور عن هؤلاء أنهم كان يهمهم قبل كل شيء إرضاء السلاطين والأمراء ومجاراتهم بما يريدونه، وكتابة ما يوافق أغراضهم

---

(١) بارتولد: مجلة العالم الإسلامي ص٩٩ Mir Islama.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، عالم الإسلام باللغة التركية، ج٩٨، ص٧١٠، استانبول ١٩٦٣م.

(٣) جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الأول، تاريخ هولاكو، مقدمة كاترمير، ص١٠٠، القاهرة ١٩٦٠.

وميولهم؛ فكان لا بد أن يظهر فى تأريخهم التحيز والتملق وإخفاء الحقائق. فهل كان رشيد الدين على شاكلة هؤلاء، وهل استطاع ككاتب مسلم أن يتجرد من التعصب عندما كان يتصدى لكتابة تاريخ الأمم الوثنية واليهودية والمسيحية، والذى كان يتعارض تعارضا تاما مع نصوص القرآن ومبادئ الإسلام؟.

للإجابة عن هذا السؤال نقول: على الرغم من أن رشيد الدين كان مؤرخا للبلاط، فإنه التزم الحياد النزيه بقدر المستطاع؛ فهو معجب بالمغول، يشيد بأعمالهم، ولكن دون مبالغة ولم يمنعه قط اتصاله بالمغول من أن يقول فيهم كلمة الحق؛ فكان يحكى قسوتهم الفظيعة وإسرافهم فى القتل. يقول فى هذا الشأن: "لا يخفى على من تتبع التواريخ الصحيحة وسلك الطريق المعقول أنه لم تكن البلاد مطلقا أكثر خرابا مما كانت عليه خلال هذه السنوات، خصوصا فى المواضع التى وصلت إليها جيوش المغول؛ إذ إنه منذ ابتداء ظهور آدم حتى قيام چنگيز خان وذريته، لم يتيسر لأى ملك مثل هذه المملكة الفسيحة التى سخروها وجعلوها تحت تصرفهم، ولم يقتل أحد فى العالم من الخلق مثلما قتل هؤلاء المغول[1].

أما كيف أرخ رشيد الدين للأمم غير الإسلامية فهذا أيضا مما يدعو إلى الإعجاب والتقدير، فرغم أنه برهن على تمسكه بالإسلام، إلا أنه كان يتجنب الطنطنة والتعصب وظل واثقا من نفسه طول الوقت؛ إذ كان يعتقد أنه من الضرورى أن تعرض تقاليد كل قوم حسب الصورة التى يحفظ بها الناس هذه التقاليد. يقول فى هذا الصدد: "على المؤرخ أن يكتب تاريخ كل قوم كما يبدو فى زعمهم، وليس عليه أن يزيد فيه أو ينتقص منه، فإذا كان حقا أو كان باطلا، فلينقل كما هو فى اعتقاد كل طائفة؛ وذلك يلقى عبء مسئولية الزيادة والنقصان والحق والباطل فى ذلك التاريخ على أصحابه لا على المؤرخ. وإننى أعود وأكرر هذا المعنى هنا أيضا حتى لا أؤاخذ على ما يبدو غير معقول وغير مستساغ، وحتى لا يمتد إلى لسان الطعن فأعذر فى هذا المعنى إن شاء الله الواحد العزيز"[2]. وعلى ضوء هذا الاعتراف الصريح يمكننا أن نقرر أن رشيد الدين لم يكن يعرف النقد التاريخى؛ ونعنى به

---

(١) انظر الترجمة.

(٢) جامع التواريخ: مخطوط المكتبة الأهلية بطهران، ص٤٣٦.

النظر فى التاريخ بعين النقد وبيان ما قد يعتوره من المغالط والأوهام[1]. يقول بارتولد "حاول رشيد الدين تسجيل الروايات التاريخية كما سمعها من رواتها بدون تغيير؛ فليس كتابه من هذه الوجهة تاريخا علميا بالمعنى المفهوم اليوم، إلا أنه يشغل فى آداب العالم مكانة ممتازة من حيث اتساع دائرته. ولم نر اجتماع علماء جميع الأمم المتحضرة فى العالم القديم وجمعهم للروايات التاريخية المتصلة بالتاريخ العام فى كتاب واحد لا قبل ذلك الزمان ولا بعده.

وقد كان علماء أوربا حتى القرن التاسع عشر يريدون أن يفهموا من التاريخ العام تاريخ أوربا الغربية فقط. ومن رواية أحد مساعدى رشيد الدين من كتاب المسلمين يتبين أنه منذ ابتداء القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) كان ينظر إلى تاريخ العرب والفرس كأنه "أحد الأنهر التى تصب فى بحر تاريخ العالم العام"[2].

ثالثا: أتيح لرشيد الدين فرصة الاطلاع على الوثائق المكتوبة واستخدامها على نطاق واسع فى استقاء المادة العلمية لتأليف كتابه. أما سلفه عطا ملك الجوينى[3] فعلى الرغم مما كان يتمتع به كتابه "جهانگشاى"[4] من شهرة كبيرة فى التأريخ للمغول، كانت تنقصه هذه الميزة؛ إذ كان اعتماده على الرواية الشفوية. كذلك عندما أرخ رشيد الدين لشعوب العالم المختلفة، كان يستقى معلوماته من أوثق المصادر، ومن أفواه العلماء الثقات والمتخصصين فى تاريخ كل أمة. ومعنى هذا أن رشيد الدين اعتمد الرواية الشفوية أيضا مصدرا من مصادر التعرف على التطورات السياسية والتاريخية. ولو لم يكن رشيد الدين ثقة

---

(١) انظر جرجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج٣، ص١٤٨، القاهرة ١٩٣١م.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الثالثة، ص١٢٩ - ١٣٠، نشر دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٨م.

(٣) انظر المزيد من التفصيلات عن هذا المؤرخ فى المقدمة المطولة التى كتبها العلامة محمد بن عبد الوهاب القزوينى، محقق كتاب تاريخ جهانگشاى، ج١، ليدن ١٣٢٩هـ - ١٩١١م؛ عطا ملك الجوينى وكتابه جهان گشا تأليف الدكتور السباعى محمد السباعى، ص٧ وما بعدها، القاهرة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م؛ علاء الدين عطا ملك الجوينى حاكم العراق بعد انقضاء الخلافة العباسية، تأليف الدكتور محمد السعيد جمال الدين، ص٥ وما بعدها، القاهرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٤) أى فاتح العالم والمراد به چنگيز خان.

فى كل ما كتب لما أشاد به معاصروه ومن جاءوا بعده، ولما قلده كثير من المؤرخين بعد مماته.

رابعا: – ترد بالكتاب إشارات جغرافية هامة عن مناطق كثيرة كانت مجهولة لدينا؛ لأننا إذا لاحظنا أن الأقاليم التى استطاع رشيد الدين أن يجمع عنها المعلومات الإيجابية الصحيحة هى الأقاليم التى لم تكن معروفة لنا قط، وهى الرقعة الممتدة من بحر قزوين حتى الأطراف الشرقية، وتحتل وسط آسيا جميعه، وتذهب حتى حدود الصين. وفى هذا العهد، كانت تلك الأقاليم تكون جزءا من الإمبراطورية المغولية. وقد وصفها رشيد الدين أدق وصف وأصدقه، وأضاف إلى ملاحظاته الشخصية القيمة ما استطاع أن يجمعه عن مواقع المدن وطبيعة الجو وحاصلات الأرض والعادات والتقاليد الخاصة. يقول كراتشكوفسكى: "فى العصر المغولى بلغ الأدب الجغرافى باللغة الفارسية أوجه، ويتبين لنا من خلال فحص مصنف رشيد الدين المشهور "جامع التواريخ" الذى وإن كان فى جوهره أثرا تاريخيا صرفا، إلا أنه يمكن اعتباره بنفس القدر مصنفا فى الجغرافية التاريخية أيضا"[1].

خامسا: – وفق رشيد الدين فى إعطائنا معلومات مفيدة فى بعض الأقسام التى يحتويها المجلد الثانى المتعلق بالتاريخ العام قد لا نجدها فى غيره من المصادر؛ فقد أفاض فى الحديث عن طائفة الإسماعيلية، وذكر خلاصة وافيه لكتاب "سرگذشت سيدنا"[2] الذى يشتمل على معلومات قيمة عن تاريخ الحسن بن الصباح مؤسس هذه الجماعة. فكانت هذه الخلاصة إلى جانب الخلاصة التى كتبها عطا ملك الجوينى فى الجزء الثالث من كتابه تاريخ جهانگشاى فى غاية الأهمية والقيمة[3]. ولا غرو أن يكون القسم الذى كتبه رشيد الدين عن هذه الطائفة أحسن ما كتب عن الإسماعيلية[4].

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى: القسم الأول، نقله إلى اللغة العربية صلاح الدين عثمان هاشم، ص٣٧٥، القاهرة ١٩٦٣م.

(٢) أى "سيرة سيدنا" والمراد بسيدنا هنا الحسن بن الصباح مؤسس فرقة الشيعة الإسماعيلية فى إيران.

(٣) انظر تاريخ جهانگشاى، ج١ ص كط من مقدمة المحقق محمد بن عبد الوهاب القزوينى، ليدن ١٣٢٩هـ ١٩١١م.

(٤) انظر جامع التواريخ: قسمت اسماعيليان وفاطميان ونزاريان وداعيان ورفيقان، تأليف خواجه رشيد الدين فضل الله همدانى بكوشش محمد تقى دانش پزوه ومحمد مدرسى (زنجانى)، ص١٢ من مقدمة المحققين.

كذلك أمكننا أن نعرف من هذا المجلد معلومات مفيدة يهمنا أن نحيط بها؛ فهناك مثلاً إشارات عن إقليم التبت واعتناق أهله البوذية وارتفاع شأن هذا الإقليم عند المغول؛ لأن البوذية كانت تنتشر منه، وتجذبهم إليها[1]. ويقرر رشيد الدين أن كهان التبت كانوا أعظم كهان البوذية مكانة خصوصًا في عهد قوبيلاى[2]. كذلك يذكر هذا المؤرخ معلومات مفصلة عن فن طباعة الكتب الذى كان معروفًا فى إيران كما كان معروفًا فى الصين منذ زمن بعيد.

وإذا انتقلنا إلى القسم الذى كتبه رشيد الدين عن الفرنج، فإننا سوف نجده أيضًا يشتمل على معلومات مفيدة ومثيرة للدهشة فى ذلك الوقت. يذكر أربرى Arberry أن الجوانب العديدة لثقافة رشيد الدين كانت مذهلة محيرة بالنسبة إلى دارس كان يعيش فى العصور الوسطى؛ فهذا المؤرخ كان يعرف قصة الكفاح بين البابا والإمبراطور، وأن أسكتلندا تدفع الضرائب لإنجلترا، وأنه لا توجد ثعابين فى أيرلندا[3]. وأما كارل يان فيصرح قائلاً: "بالرغم من أن تاريخ الفرنج يتمتع بثراء كبير فى التفاصيل الممتعة التى ذكرها رشيد الدين، يمكننا أن نقول بوجه عام من وجهة النظر التاريخية: إن ما كتبه لا يكاد يأتى بمعلومات جديدة أو غير معروفة تفيد البحث فى تاريخ أوربا فى القرون الوسطى. ومع ذلك فإن هذا الكتاب فى نظر المحققين، يصف بدقة الأفكار الخاصة بالعالم كما كان يتصورها المسلمون المتحضرون فى القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى)، وهى صورة تدل بوضوح تام على أن وجهة نظر المسلمين فى ذلك العصر فى الجغرافيا والتاريخ كانت تتمتع باتساع وانفتاح يفوق بكثير وجهة نظر الأوربيين[4].

كذلك عندما تحدث رشيد الدين عن تاريخ الهند بسط الحديث فى جغرافية هذه البلاد، وشرح مختلف العادات والتقاليد والأديان التى كانت تسود هناك[5].

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الرابع، ص٥٣٠.

(٢) انظر جامع التواريخ، جلد دوم: در تاريخ پاد شاهان مغول از اوگتاى قاآن تاتيمور قاآن، تحقيق بلوشيه، ص٥٤٥ الترجمة العربية لهذا القسم، ص٢٩٨.

(3) Classical Persian Literature, P.156 on Rashid al Din, London, 1958.

(٤) تاريخ افرنج بافصلى از جامع التواريخ، تأليف خواجه رشيد الدين فضل الله وزير همدانى، با مقدمه وحواشى وفهارس بكوشش محمد دبير سياقى، ص يازده (١١)، مدخل "كارل يان"، تهران ١٣٣٩هـ.ش ١٩٦٠م مجموعة خطابه هاى تحقيقى در بارة رشيد الدين فضل الله همدانى: مقالة كتبها "كارل يان" باللغة الإنجليزية بعنوان Rashid ge of Europe, PP. 9 25, Tehran, 1971.

(٥) انظر نفس المصدر السابق، مقالة كتبها بالإنجليزية K.A.Nizami, بعنوان:

وعلى هذا النحو يكون رشيد الدين قد نهج فى تأليف كتابه نهجا خاصا؛ إذ لم يتبع النهج الذى سار عليه بعض المؤرخين من العرب والفرس الذين كانوا يعرفون أن التاريخ العام هو التأريخ للأمم الإسلامية فقط، بل إنه كان يرى بحق أن التاريخ العام يجب أن يشمل وقائع الحياة لجميع أمم العالم المعروفة فى العصر المغولى، فيكون مشتملا على تاريخ الشعوب ابتداء من الفرنج فى المغرب حتى الصين فى الشرق[1]. وإذن فرشيد الدين مؤرخ لا مثيل له فى تعدد مصادره واتساع أفقه، ولن نلتقى بمؤلف مثله لا فى هذا العصر، ولا فى العصور التالية يعالج تاريخ العرب والفرس باعتباره "جدولا من الجداول العديدة التى تصب فى بحر التاريخ العالمى"، ويعمل جاهدا فى تبويب مادته من وجهة النظر هذه[2].

وعلى هذا يمكننا أن ندرك دون مشقة مقدار الخدمات الجليلة التى أداها رشيد الدين للباحثين حين قدم لهم هذا السفر الضخم المشتمل على التاريخ الصحيح لجميع البلاد المعروفة فى العالم حتى ذلك الحين. فهذا المؤلف يجمع بين سعة المعارف التى لا حد لها وحاسة النقد المستنيرة ويستعيض عن الأخبار الأسطورية التى كانت ثمرة الجهل والسذاجة بأخبار صادقة. ولذلك يجب أن يحرص على قراءته بشغف كل أولئك الذين يرغبون فى تحصيل المعارف الحقة، ويفضلون ذهب الحقيقة على بريق الغرائب والأخطاء[3].

سادسا: عدل رشيد الدين عن التأريخ حسب نظام الحوليات، وتجنب حشد جملة من الأحداث توضع تحت كل سنة، وتتصل بدول وشخصيات مختلفة لا تجمعها رابطة، ولا تقوم بينها صلة؛ فتأتى مبعثرة مشتتة لا يحصل منها على غرض. وفى بعض التواريخ قد تطغى أخبار الوفيات على الحوادث السياسية حتى لتتضاءل هذه، وتقتصر فى الغالب على جمل قليلة مقتضبة؛ فيترتب على هذا أن تصبح مهمة الباحث شاقة عسيرة إذا أراد تقصى الموضوع والإلمام بأطرافه من كل جوانبه. أما رشيد الدين فقد أرخ حسب الموضوعات وتناول تاريخ كل دولة وفقا لترتيبها التاريخى. وهذه الطريقة أقرب إلى الدقة وحسن التنسيق. كما أنها تساعد الباحث فى الحصول على المعلومات التى يريدها فى يسر

=Rashid-al-Din Fadl Allah and India, PP. 36-53.

(١) تاريخ إيران از دوران باستان تاپايان سدهٔ هيجدهم ميلادى، تأليف ن.و پيگولوسكايا وآخرين ترجمة كريم كشاورز، ص٣٠٥ تهران ١٣٥٤هزش.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى، تأليف كراتشكوفسكى، نقله إلى اللغة العربية صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الأول، ص٣٩٦، القاهرة ١٩٦٣م.

(٣) جامع التواريخ، المجلد الثانى، الجزء الأول: تاريخ هولاكو، مقدمة كاترمير، ص٩٦، القاهرة ١٩٦٠م.

وسهولة. وإذا كان قد وجد قبله من المؤرخين من دونوا التاريخ فصولا متصلة، فإنه يمتاز عنهم بالوضوح والدقة فى تبويب الموضوعات، ووضع الفهارس وإدراك الجزئيات إدراكا دقيقا والتوفيق فى ربط الحوادث وتنسيق الوقائع التاريخية. هذا فضلا عن أن كتابه - كما سبق أن رأينا سجل جامع لأخبار أمم الشرق والغرب، يتحدث عن الحوادث والكائنات من أول الزمان متتابعة، يتلو بعضها بعضا إلى وقت تأليفه.

سابعا: يتميز كتاب جامع التواريخ أيضا بسلاسة الأسلوب ووضوح العبارة وحسن التعبير والبعد عن التعقيد والغموض؛ فرشيد الدين لم يحاول أن يقحم فى كتابه أساليب البيان والصنائع البديعية، تلك الآفة التى ابتلى بها التاريخ، فأخرجته فى كثير من الأحيان عن الغرض الذى وضع من أجله. مثلما فعل معاصره وصديقه "وصاف الحضره"؛ فعلى الرغم من أهمية كتابه "تاريخ الوصاف" فى التأريخ للعصر المغولى فى الفترة ما بين فتح بغداد وأواسط عهد السلطان أبى سعيد أى حتى سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م، نراه قد أفرط فى استعمال الصناعات اللفظية وحشد كتابه بأبيات الشعر وآيات القرآن واقتباسات من عبارات البلغاء والأدباء فقلل ذلك كثيرا من قيمته والانتفاع به[1]. أما من يقرأ كتاب رشيد الدين، فإنه يستطيع أن يحصل على مراده فى يسر وسهولة، ولا يشعر بسأم أو ملل. هذا ويلاحظ بصفة عامة أن أسلوب جامع التواريخ يجرى على نسق واحد فى أغلب أجزائه. أما عندما ينقل مؤلفه أو يقتبس من كتب المؤرخين الإسلاميين فإن الإسلوب يتأثر قليلا، ويأتى مشابها لما هذه فى المصادر، ولكن هذا كان يحدث فى نطاق ضيق ومحدود، ويبقى بعد ذلك طابع أسلوب رشيد الدين هو الطابع الغالب. يقول المستشرق ريبكا: "كتاب جامع التواريخ الذى كتب بأسلوب سهل سلس له أهمية عالية. والمجلد الأول المشتمل على تاريخ المغول الذى يفصل جزئيات أكثر واطلاعات أوفى وأجمع، يعادل فى قيمته سائر الكتب المشابهة لا سيما الكتب الصينية والمغولية[2].

---

(١) لتلافى هذا النقص قام الأستاذ عبد الحميد آيتى فى طهران بعمل يشكر عليه إذ صفى تاريخ الوصاف من كل أنواع هذا الحشو، واقتصر على الرواية التاريخية فقط، وذلك فى دقة بالغة؛ فأسدى بذلك للعلم خدمة جليلة، ونشر هذا الكتاب تحت اسم: تحرير تاريخ وصاف، طهران ١٣٤٦ هـ.ش.

(٢) أدبيات إيران در زمان سلجوقيان ومغولان، ترجمة دكتر يعقوب آژند، چاپ أول، ص١٤٨ تهران ١٣٦٤هـ.ش.

بقى أن نقول فى صراحة إذا كان كتاب جامع التواريخ قد سلم من التكلف والتعقيد فإنه قد طَغى عليه سيل جارف من الألفاظ المغولية والتركية تتعلق بالإدارة ونظم الحكم وعادات المغول وتقاليدهم، شأنه شأن غيره من الكتب التاريخية التى ألفت فى تلك الفترة. وفى الحقيقة بدأت تلك الألفاظ تتسرب إلى اللغة الفارسية منذ عهد السلاجقة والأتراك الغز والقراخطائيين وآل أفراسياب. ولكن هذا التأثير كان محدودًا فى عهود هذه الدول بالقياس إلى ما صار عليه الحال فى العصر المغولى[1]. ولا شك أن هذه الألفاظ المغولية والتركية الكثيرة تحتاج من المترجم مزيدًا من اليقظة والدقة حتى يصل إلى تحديد معناها الدقيق باللغة العربية. وفى سبيل تحقيق ذلك، عليه أن يطلع على المزيد من الكتب والمعاجم المتخصصة.

ثامنًا: لم تقتصر قيمة كتاب جامع التواريخ على الناحية التاريخية والجغرافية فحسب، بل صارت له قيمة فنية كبيرة؛ إذ أن ازدهار فن التصوير يرجع إلى حد كبير إلى هذا المؤرخ بل إن أكثر صور المدرسة المغولية توجد ممثلة فى مخطوطات كتابه جامع التواريخ. وتبدو أهمية هذا الكتاب من الناحية الفنية على وجه الخصوص إذا ما لاحظنا أن أكثر مؤرخى العرب والفرس قبل رشيد الدين كانوا يعولون فى تعريف أبطال التاريخ على الأوصاف المجردة من إطراء أو إعجاب، ويندر أن يشيروا إلى وصف المظاهر الطبيعية أو الصناعية أو الأبنية أو غيرها من المرئيات ولا كانوا يصورون المواقع ولا الرجال لكراهية الإسلام للتصوير؛ فترتب على ذلك نقص هام فى التصوير العربى لخلو كتبه من الخرائط أو الرسوم أو الصور المنقولة من الطبيعة[2].

أما إيران فكانت فى طليعة الأمم الإسلامية التى لم يؤثر فيها تحريم التصوير تأثيرًا كبيرًا على الرغم من أن الفقهاء فى هذا البلد، كانوا يكرهون التصوير والمصورين. ويرجع تركز التصوير الإسلامى فى إيران إلى أن الإيرانيين شعب ميال إلى الفن بفطرته، وإلى أن أكثر الإيرانيين كانوا من ذوى المحيط العقلى الواسع والأفكار الحرة والتسامح الدينى؛ إذ كانوا يرون أن تحريم التصوير فى فجر الإسلام إنما كان يقصد به محاربة عبادة الأوثان. أضف إلى ذلك أن الإيرانيين ورثوا عن أسلافهم أساليب فنية فى النقش والتصوير. والواقع أن كتاب

---

(١) عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران، جلد أول، از حملهٔ چنگيز تاتشكيل دولت تيمورى، ص٥١٥، طهران ١٣١٢هـ.ش.

(٢) انظر جرجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج٣، ص١٥١، القاهرة ١٩٣١م.

جامع التواريخ يعد من أقدم المخطوطات التى تشتمل على صور دينية. هذا إلى جانب مناظر القتال والمعارك، والمناظر التى تمثل حكام المغول بين أفراد أسراتهم وحاشيتهم[1].

وأكبر دليل على اهتمام رشيد الدين بالفنون بصفة عامة والتصوير بصفة خاصة أنه أنشأ بالقرب من تبريز ضاحية جديدة أسماها "الربع الرشيدى"[2] أقام بها المنازل والحوانيت ومصانع الورق والفنادق والمستشفيات، ومكتبة ضمت ٦٠ ألف مجلد من الكتب العلمية والفنية باللغات المختلفة. واستقدم رشيد الدين إلى ضاحيته الجديدة رجال الفن وأرباب الصناعات من مختلف الجنسيات. وأقيمت أيضًا فى "أحياء أهل العلم" مساكن احتشد بها عدد يتراوح بين ستة آلاف أو سبعة آلاف نسمة من الأساتذة والطلاب. وكانت فنون الكتابة بصفة خاصة أحب الفنون إلى رشيد الدين. وعهد إلى مهرة الخطاطين والمصورين بنسخ عدد من المؤلفات المختلفة وتصويرها. وفى مقدمتها جميع مؤلفاته[3]. هذا ويذكر صاحب تاريخ الوصاف أن رشيد الدين أنفق أكثر من ٦٠٠٠٠ دينار فى النسخ والتحرير والزخرفة والتصوير والتجليد[4]. ولم تقف جهود المؤرخ عند هذا الحد، بل إنه راح يوقف

---

(١) انظر فنون الإسلام، تأليف الدكتور زكى محمد حسن، الطبعة الأولى، ص١٦٤ ١٦٥،١٦٧، القاهرة ١٩٤٨ التصوير وأعلام المصورين فى الإسلام، مقالة لنفس المؤلف، ص٩، هدية المقتطف السنوية بعنوان نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٩٣٨م.

(٢) للحصول على مزيد من التفصيلات عن الربع الرشيدى انظر مكاتبات رشيدى، حررها خواجه رشيد الدين فضل الله طيب، بسعى واهتمام وتصحيح محمد شفيع، ص ٥٢-٥٦، ٢٣٥-٢٣٧، ٣١٧-٣٢١، لاهور ١٣٦٤هـ-١٩٤٥م؛ نزهة القلوب، تأليف حمد الله مستوفى قزوينى، با مقابله وحواشى وتعليقات وفهارس بكوشش محمد دبير سياقى، ص٨٧، تهران ١٣٣٦هـ. ش؛ الكتاب التذكارى (يادنامه) لتخليد ذكرى "دينشاه إيرانى": مقالة محمود عرفان بعنوان: "بزرگترين بنياد خير در إيران"، ص ١٨-٣٠، بمباى ١٩٤٨م مجموعة خطابه هاى تحقيقى در بارة رشيد الدين فضل الله همدانى، مقالة مجيد رهنما بعنوان: "رشيد الدين وربع رشيدى"، ص ١١٢-١٢٢، طهران ١٣٥٠هـ.ش؛ عبد العلى كارنگ: آثار باستانى آذر بايجان ، جلد أول: آثار وأبنية تاريخى شهرستان تبريز، ص١٦٢ وما بعدها تهران ١٣٥١ هـ.ش.

(٣) انظر كتاب الفنون الإسلامية، تأليف م.س ديماند، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم الدكتور أحمد فكرى الطبعة الثالثة، ص٤٧، القاهرة ١٩٨٢م.

(٤) انظر كتاب تاريخ الوصاف، تأليف أديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازى، الملقب بوصاف الحضرة، ص٥٣٩، طبع بمباى.

على الربع الرشيدى الأوقاف الكثيرة من أملاكه وثرواته الطائلة للصرف على المؤسسات التى يضمها هذا الربع وعلى نزلائه من مختلف الطوائف والطبقات، وسجل كل هذا بنفسه بغاية الدقة والتفصيل فى سجل وقفية الربع الرشيدى"وقفنامة ربع رشيدى"، وذلك وفقًا لأحكام الشريعة الإسلامية. ولحسن الحظ سلمت هذه الوثيقة من الضياع، وأمكن تصوير نسخة منها نشرت فى طهران بإشراف عالمين فاضلين هما مجتبى مينوى وايرج افشار سنة ١٣٥٠هـ.ش ١٩٧٢م.

وفى الحقيقة لم يكن رشيد الدين مؤرخًا فحسب، بل كان كذلك عالما أديبًا له مؤلفات عديدة امتدت إلى كثير من أنواع المعارف الإنسانية؛ فقد ألف فى الطب وفى علم الأحياء والاقتصاد الزراعى والدين والأدب، وترك فى كل ذلك آثارًا قيمة إلى جانب مؤلفه التاريخى، مما ينهض دليلاً قويًا على عظمة هذا الرجل وعمق تفكيره[١]. تقول "دوروتيا كرافولسكى": "لم يكتب رشيد الدين فى التاريخ فقط، بل ترك أعمالاً ذات طابع كلامى وفلسفى. وهو يظهر فى هذه الأعمال سنيًا متشددًا"[٢].

وإلى جانب هذا التفوق العلمى البارز - الذى كان يزينه خلق طيب كريم - عرف عن رشيد الدين براعة التخطيط وحسن الإدارة وتقديره للعلم والعلماء. ونحن لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن رشيد الدين كان آخر نجم لمع فى سماء دولة الإيلخانيين؛ فقد صارت الأمور بعد رحيله بخطى سريعة نحو الاختلال والتدهور ثم الانهيار.

بهذا نكون قد انتهينا من الحديث عن رشيد الدين وكتابه جامع التواريخ، وننتقل - فى الصفحات التالية إلى الحديث عن رشيد الدين وتاريخ غازان خان.

---

(١) للحصول على معلومات مفصلة عن مؤلفات رشيد الدين الأخرى انظر: جامع التواريخ، تاريخ المغول المجلد الثانى، الجزء الأول الإيلخانيون: تاريخ هولاكو، مقدمة كاترمير، ص١٤٣ ١٦٥ ترجمة الدكتور محمد القصاص، القاهرة ١٩٦٠م؛ مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذانى، ص٣٧٣ وما بعدها؛ وقفنامة ربع رشيدى، أثر رشيد الدين فضل الله بن أبى الخير بن عالى الهمدانى، مشتهر به رشيد الطبيب؛ زير نظر مجتبى مينوى ايرج افشار، ص ٢١-٢٢، تهران ١٣٥٠هـ.ش.

(٢) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار: دولة المماليك الأولى لابن فضل الله العمرى: دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكى، التمهيد ص٣٣، الترجمة العربية.

ثانيا: رشيد الدين وتاريخ غازان

كان عصر المغول أحفل العصور بالمؤلفات التاريخية. ومن المسلم به أن جامع التواريخ هو أفضل وأجمع هذه المصادر. وقد أورد رشيد الدين معلومات قيمة بعيدة عن الغرض والهوى والتعصب بقدر المستطاع، واتبع غاية الدقة فى وصف المسائل السياسية والاجتماعية. فهذا المؤرخ الذى كان يعمل فى خدمة المغول لا يستطيع أن يخفى وحشية چنگيز خان وقسوته. وكان لا يتردد فى الكشف عن الجوانب المظلمة والمجحفة بحق الأقوام المغلوبة على أمرها. وإذا كان يثنى على چنگيز خان وأعقابه؛ فإنه يبدو من الواضح أن هذا لم يخرج عن مراعاة موقفه الدقيق الذى يقتضيه أحيانا أن يغمض عينه عن الحقيقة المؤلمة وفقط يبدو أن مدحه وثناءه على غازان كان نابعا من صميم قلبه وحقيقة شعوره نحو هذا العاهل المغولى[1].

وإذا كانت عبقرية رشيد الدين كمؤرخ قد تجلت فى تأريخه لچنگيز خان، فإنها لتتجلى أيضا بصورة أتم وأشمل فى تاريخه لغازان خان. يبدو ذلك واضحا فى إحاطته الكاملة بجميع أطراف حياة هذا الرجل منذ ولادته حتى وفاته، وتتبع ما تم فى عهده من إصلاحات؛ فالأقوال التى وردت فى هذا الشأن لم تذكر فى أى مصدر آخر على نحو ما نراه فى مؤلف رشيد الدين من الإفاضة والتفصيل.

وفى الحقيقة حينما أراد رشيد الدين أن يؤرخ لغازان خان، تحسّ أنه قد أخذ على عاتقه تمجيد هذا السلطان؛ ورأى من واجبه الأول أن يبرز تلك الشخصية فى صورة كاملة من شتى جوانبها، فكان فيما كتبه عنه موفقاً غزير المادة. ولقد مهَّد له منصبه الرسمى – الذى كان يشغله أن يكون على علم تام بكل التفصيلات والتنظيمات المعمول بها فى حكومة المغول. وعندما ذكر قصة إصلاحات غازان خان، كان على مقربة منها، وواقفًا على دقائقها وتفاصيلها وشاهد عيان لكل ما تم من إنجازات، ومشيرًا بالرأى السديد والتفكير والعقل الراجح كى تؤتى هذه الإصلاحات ثمارها اليانعة وتحقق هدفها المنشود. وهكذا كتب رشيد الدين قصة الإصلاحات هذه بدرجة تفوق المادة الغزيرة التى كتبها فى الأجزاء الأخرى من كتابه، وبصورة حية صادقة قلما نصادفها فى العصور الوسطى بين المؤرخين فى آسيا وأوربا[2].

---

(١) انظر مجموعة خطابه هاى تحقيقى در بارة رشيد الدين فضل الله همدانى: مقالة بعنوان: بررسى أوضاع اجتماعى إيران از خلال جامع التواريخ بقلم د. شيرين بيانى، ص٦٠، طهران ١٣٥٠هـ.ش.

(٢) بارتولد: مجلة العالم الإسلامى Mir Islama، ص٥٨.

ونحن فى الحقيقة لا نستطيع أن نأخذ على رشيد الدين ما كتبه عن غازان بتلك الصورة التى قد لا تخلو أحيانًا من المبالغة، وذلك لسبب بسيط هو أن مؤرخين من "المعاصرين أواللاحقين" قد أجمعوا على تمجيد غازان خان والإشادة بما قام به من إصلاحات وذلك من قبيل الوصاف والبناكتى وحمد الله المستوفى القزوينى ومحمد ابن علـى الشبانكارى ومحمد بن هندوشاه النخجوانى وميراخواند وخواندمير فهؤلاء قد أثنوا على غازان خان ثناء عاطرًا وأشادوا بما قام به من إصلاحات. أما المستشرق الفرنسى جروسيه[1] " Grousset " فقد راح يتهم رشيد الدين بالتحيز لغازان إلى أقصى حد؛ إذ زعم أن هذا المؤرخ كان مجبورًا على إخفاء عيوب هذا الإيلخان، وعلى العكس راح يطرى محاسنه بمبالغة تامة. ونحن لا نوافق جروسيه على هذا التعميم.

أول ما نلاحظه على تاريخ غازان خان هو أن مؤلفه رشيد الدين كان يستشهد بالعديد من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وأبيات الشعر العربى والأقوال المأثورة لتأييد وجهة نظره. وكان يضع كل ذلك فى موضعه المناسب. ولا غرو فقد كان رشيد الدين يجيد اللغة العربية، ويؤلف بها، ويعد من المتمازين من أصحاب اللسانين الفارسى والعربى. وإذن فليس بصحيح ما ذكره الأستاذ عباس العزاوى[2] من أن عربية رشيد الدين كانت ركيكة ضعيفة. ولما كان غازان خان يعرف جيدًا تفوق رشيد الدين فى اللغة العربية، كان يصحبه فى حملاته على الشام ليحرر المنشورات بهذه اللغة، يحث فيها المدافعين عن المدن والقلاع على المبادرة بالتسليم حقنًا للدماء؛ فكان هذا يحدث أثره الفعال ويحقق غازان غرضه المنشود دون قتال[3].

أما عن الموضوعات الرئيسية التى اشتمل عليها تاريخ غازان خان، فإنه يمكن حصرها فى الأقسام الثلاثة الآتية:

---

(١) إمبراطورى صحرا نوردان، ترجمة عبد الحسين ميكده، چاپ سوم، ص٦١٨، تهران ١٣٦٨هـ.ش.

(٢) التعريف بالمؤرخين (١) فى عهد المغول والتركمان (٦٠١هـ - ١٢٠٤م) : (٩٤١هـ - ١٥٣٤م)، ص١٤٦، بغداد ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.

(٣) انظر الترجمة العربية.

القسم الأول– يختص بحياة غازان خان منذ ولادته ونشأته وتربيته تحت إشراف جده آباقا خان، وإعداده للمهمة الخطيرة التى تنتظره. وقد عهد به إلى أحد كبار العلماء من الخطا يشرف على تربيته ويعلمه الخط المغولى الأويغورى والعلوم والآداب. وفى مدة خمس سنوات، استطاع أن يتقن تلك المعارف. وبعد أن حصّل هذه العلوم، شرع فى تعلم الفروسية والرماية، وشغف بالصيد والقنص والرمى والتنقل والارتحال.

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام، وشيّد لها عدة معابد فى خراسان. وكان يسر كثيرًا بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين والذين كانوا قد وفدوا إلى إيران فى جماعات كبيرة منذ فرض المغول سلطانهم على هذه البلاد[1].

ولما اعتلى أرغون والد غازان عرش إيران، اختار ابنه ليكون نائبًا عنه فى حكم إقليم خراسان، وعهد إلى "نوروز" بأن يكون ملازمًا لغازان ومساعدا له فى إدارة هذا الثغر الهام. ولكن بعد مدة خرج نوروز على طاعة غازان، وجهر بالتمرد والعصيان. فما كان من غازان إلا أن حاربه بشجاعة واستبسال. ولما وجد نوروز أنه لا يقوى على مقاومته، أعلن الخضوع، وقدّم فروض الطاعة، فعفا عنه غازان وضمه إلى صفه، وصار واحدًا من أخلص أتباعه إلى أن حقد عليه غازان بعد اعتلائه العرش وعمل على التخلص منه.

كذلك مما يسترعى النظر فى هذا القسم أن رشيد الدين قد أبرز شجاعة غازان عندما وصل رسل گيخاتو خان (٦٩٠ ٦٩٤هـ / ١٢٩١ ١٢٩٤م) ومعه عدة أحمال من أوراق النقد "الچاو"[2] والأدوات الخاصة به من الورق الأبيض والأختام وغير ذلك بقصد ترويج هذه العملة فى خراسان. وكان غازان فى ذلك الوقت تابعا ونائبا عن عمه گيخاتو خان فى إدارة هذا الإقليم، وهو نفس المنصب الذى كان يشغله فى عهد أبيه أرغون، فقال غازان: إنه لا بقاء للآلات الحديدية والأسلحة فى مازندران وما جاورها من مناطق بسبب جوها الشديد الرطوبة، فكيف يمكن أن يبقى الورق دون أن يتلف؟! .. ثم أمر بإحراقه تماما، وامتنع عن تنفيذ قرار السلطان گيخاتو[3]. كذلك تضمن هذا القسم نزاع غازان مع بايدو وقيام الحرب بينهما.

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، تأليف سير توماس. و. أرنولد، ترجمه إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرون، ص٢٦٣، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧م.

(٢) انظر المزيد من التفصيلات عن هذه العملة الورقية فى كتاب الشرق الإسلامى، ص٢١١ وما بعدها.

(٣) انظر الترجمة.

ولعل أهم ما اشتمل عليه هذا القسم أيضًا هو أن رشيد الدين زوّد القارئ بتفصيلات وافية عن الحدث العظيم الذى غير مجرى حياة غازان ومن جاء بعده من حكام المغول فى إيران، ألا وهو اعتناقه الإسلام بناء على مشورة نوروز واتخاذه هذا الدين - لأول مرة - دينًا رسميًا لدولة المغول فى إيران.

والواقع أنه قبل غازان خان، كان فى الإدارة الإيلخانية بإيران تياران يتنازعان حول الصورة التى ينبغى أن تكون عليها الدولة الناهضة. أما التيار الأول فيريد إنشاء دولة مركزية قوية المسيطر فيها الإيلخان وكبار موظفيه وضباطه. وأما التيار الآخر فإنه كان لا يزال متعلقًا بقيم الأرستقراطية البدوية المغولية إبان حركة جنگيز خان الكبرى. ولا شك أن الموظفين الإيرانيين الكبار فى الدولة كانوا من أنصار التيار الأول لما فيه من تدعيم لمكانتهم ومن محافظة على ثقافتهم المدنية ومدنهم ومجتمعهم. وقد فاز هذا التيار بالفعل بوصول غازان إلى العرش. ومع تحول غازان خان إلى الإسلام، سقطت الفواصل القائمة بين الحاكم وشعبه[1].

وهكذا لم يكن هناك بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالد، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه. ويرجع الفضل فى ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين كانا يحاولان إحراز قصب السبق فى ذلك المضمار. وليس هناك فى تاريخ العالم نظير ذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، وكل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الأقطار والأقاليم[2].

ونتيجة لاعتناق غازان الإسلام، كان لا بد من تغيير سلوك المغول وقواعدهم ومقرراتهم؛ إذ لم يعد هناك مفر من العدول عن العمل بقواعد الياسا التى وضعها جنگيز

---

(١) انظر كتاب العرب وإيران: دراسات فى التاريخ والأدب من المنظور الإيديولوجى تأليف دوروتيا كرافولسكى، ترجمه عن الألمانية الدكتور رضوان السيد، ص١٨٨ - ١٨٩، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، الترجمة العربية، ص٢٥٠.

خان[1]، وترك عادات المغول وتقاليدهم القديمة. وكان هذا مما دفع غازان إلى وضع ياسا جديدة عرفت بالياسا الغازانية[2]. وليس هناك شك فى أن هذه الياسا التى وضحها وشرحها بالتفصيل المؤرخ رشيد الدين هى أرقى وأنسب للحياة الجديدة، وما ذلك إلا لأنها واقعة تحت تأثير الحضارة الإسلامية ووجود وزير مثل رشيد الدين فضل الله[3].

ولكن ثارت شكوك وشبهات حول إسلام غازان خان فى عصره وبعد عصره؛ غير أنه لم ينهض دليل قوى فى سيرة هذا الإيلخان يؤيد هذه المزاعم بل على العكس رأيناه قد أخذ على عاتقه المحافظة على شعائر هذا الدين فى حماسة وغيرة طوال عهده[4]؛ حتى أنه وهو على فراش المرض قبيل وفاته، لم ينس أن يوصى الحاضرين بالتمسك بأهداب الدين الحنيف والمحافظة على الإصلاحات التى قام بها، والتى كانت من وحى اعتناقه الإسلام، ونتيجة مباشرة له. كما حثهم على الالتفاف حول أخيه وولى عهده "أولجايتو". وأخيرًا نصحهم بضرورة الاتحاد والتآزر ونبذ الخلاف[5].

ورشيد الدين وزير غازان ومؤرخ عصره يؤيد بالبرهان صحة عقيدة غازان ورسوخ إيمانه فيقول: "وكان ظن أكثر الناس أن سبب إسلامه، يرجع إلى ترغيب بعض الأمراء والمشايخ وحثهم له على ذلك. ولكن بعد التفحص، علم أن ذلك الظن خطأ؛ لأنه أثناء الخلوة بى أنا العبد الضعيف مؤلف هذا الكتاب قرر أن هناك عدة ذنوب لا يعفو الله عنها أكبرها أن يسجد شخص لصنم؛ إذ إنه من المؤكد والمقطوع به أن الله لن يغفر ذلك الذنب وأن المساكين من الناس المبتلين بالجهل هم الذين يسجدون للأصنام، وأنا أيضًا كنت مثلهم. ولكن الحق تعالى وهبنى النور والعلم، فنجوت وتطهرت من ذلك الإثم بهداية

---

(1) انظر تفصيلات عن هذه الياسا فى كتاب المغول فى التاريخ، تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، ص٣٣٨ وما بعدها، القاهرة ١٩٧٥م.

(2) خلاصة تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنگى إيران تاپايان عهد صفوى، مجموعة مقالات دكتر ذبيح الله صفا (٢)، ص١٨٨، تهران٢٥٣٦ شاهنشاهى.

(3) مجموعة خطابه هاى تحقيقى دربارة رشيد الدين فضل الله همدانى. مقالة بعنوان: انعكاس أوضاع اجتماعى در آثار رشيد الدين فضل الله بقلم د. غلا محسين يوسفى، ص٤٢٢، طهران ١٣٥٠هـ.ش.

(4) الشرق الإسلامى، ص٢٥٣ وما بعدها.

(5) تاريخ وصاف، ص٤٥٧-٤٥٨، طبع بمباى؛ عبد الله القاشانى: تاريخ أولجايتو ص ١٣-١٤، طبع طهران ١٣٤٨هـ.ش.

حضرة الحق تعالى. وتوضيح هذا الكلام أنه ليس هناك شىء قط يحمل الإنسان إلى الجحيم سوى الجهل؛ بل إن الجهل نفسه هو جحيم لا يمكن الخروج منه. فكيف يستسيغ العقل السجود أمام جماد؟! إن هذا الإقدام دليل على الجهل المحض"[1].

وفى موضع آخر من كتاب تاريخ غازان خان يؤكد رشيد الدين هذا المعنى وبعيدًا عن اللبس والإبهام يقول: "إن غازان كان صادق الشعور فى اعتناقه الإسلام، ويكرر وينفى أن يكون سبب اعتناقه هذا الدين تأثير بعض الأمراء والمشايخ، بل كان بهدى من الله؛ إذ إنه من المجرب أن المسلمين إذا أجبروا أقل الناس شأنا على أن يكون ملكًا أو حاكمًا عليهم، فإنه حسب ميله هو نفسه يدين بعقيدتهم. فإذا وجد الفرصة سانحة فى تلك الولاية أو فى ولاية أخرى فإنه يرجع إلى عقيدته الأولى. وإذن فأية حاجة تضطر مثل هذا السلطان الرفيع القدر، الباطش القوى إلى الالتفات إلى كلام شخص من الأشخاص فى مثل هذا الأمر الخطير، فيتحول عن مذهبه أو يختار دينا آخر مكرها؛ لا سيما وأن آباءه قد استولوا على ممالك العالم فى زمن كفرهم؟!

وبناء على هذه المقدمات علم أن أجره يكون فى هذا الأمر مثل أجر إبراهيم الخليل – صلوات الله عليه فقد أدرك منذ البداية بفضل نور الهداية الربانية ضلال عبادة الأوثان، فحطم صنمه وعرف الله بإيمانه الوجدانى. كذلك كان إسلام السلطان على هذا المنوال. ورغم عظمة الملك وجبروته، فإنه عندما تحول عن عبادة الأصنام واعتنق دين الإسلام، حطم كل الأصنام التى كانت بلاد إيران وخرب تخريبا تاما كل بيوت الأوثان وجملة المعابد غير الشرعية، وأدخل فى الإسلام جميع عابدى الأصنام والكفار الذين كانوا يزيدون على عدد الرمال؛ بحيث إنه لم يضطر إلى قتل أى مخلوق. ولا بد أن هذا يكون له زيادة فى الأجر[2].

والمنصفون من الباحثين الأوربيين دافعوا عن عقيدة هذا السلطان وأثبتوا أن إسلامه كان عن صدق وإخلاص لا عن تظاهر ونفاق[3].

كذلك تحدث رشيد الدين فى هذا القسم عن الدسائس والمؤامرات التى كانت تحاك ضد غازان وضد كبار معاونيه من القواد والساسة، وبيان ما اتصف به من حزم وشدة لمجابهة هذه المشاكل والتغلب عليها. وكان يقول فى هذا الصدد: إن قتل شخص من

---

(1) انظر الترجمة.

(2) انظر نفس المصدر.

(3) انظر الشرق الإسلامى، ص ٢٥٦ وما بعدها.

الأشخاص أمر صعب عليّ جدًا، ولكن إذا لم تراع السياسة والحزم فى المحافظة على القضايا الكلية والجزئية فإنه لا يمكن تدبير الملك[1].

القسم الثاني: يتضمن التاريخ السياسي للفترة التي حكم فيها غازان خان، كما يتضمن شرحًا للحروب التي خاضها، والفتوحات التي تيسرت له. ولعل أهم ما اشتمل عليه هذا القسم أيضًا يتمثل في نكبة "نوروز" نائب غازان خان، وأكبر شخصية فى عهده. فمن المعروف أنه منذ أن تصالح نوروز مع غازان ، وتعهد له بألا يخالفه؛ بر بوعده. وكان له فضل كبير فى حثه على اعتناق الإسلام. كما شجعه على ضرورة مقاومة بايدو وانتزاع العرش منه. والحق أن "نوروز" بذل جهودا كبيرة في هذا السبيل حتى تم لغازان النصر على خصمه بايدو، واعتلى عرش المغول فى إيران فى نهاية سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م.

ولو كان نوروز يفكر في خيانة غازان وطعنه من الخلف والتخلى عنه مرة أخرى لانتهز فرصة إقامته الجبرية عند بايدو، وانضم إلى صفه بعد أن بذلت معه محاولات عديدة من وسائل التهديد والإغراء؛ وما ذلك إلا لأن "نوروز" فى نظر بايدو وأتباعه هو الساعد الأيمن والعقلية المفكرة التى ترسم لغازان الخطط وتوجهه التوجيه الصحيح، وأن استقرار البلاد منوط بالاتحاد بين نوروز وبايدو[2]. ولكن هذه المحاولات كلها باءت بالفشل، ولم تفلح في إقناع نوروز بالتخلى عن موقفه المؤيد لغازان. وأخيرا لجأوا إلى أخيه "لگزى" الذى كان من جملة أمراء بايدو فى ذلك الوقت لعله يفلح فى إقناع أخيه بالتخلى عن غازان والانضمام إلى صفوفهم، ولكنه فشل فى مهمته. وكان رد نوروز القاطع فى هذا الشأن يتلخص في هذه الكلمات الصريحة: "يا أخى! إننى منذ ثلاثة أشهر فى موضع "شبورغان"[3] قد حلفت بعد العصيان والطغيان أيمانا مغلظة، وقطعت العهود لغازان بألا أخالفه بعد هذا ما دمت حيا، ولا أسلك معه سبيل العناد، وأن أكون صديقا لصديقه وعدوا لعدوه. فبأى وجه أنقض العهد وأنكث الميثاق. أتريد أن أكون ملوما ومذموما فى الدنيا ومسئولا ومعاقبا فى الآخرة؟! . كما أن رابطة المحبة والمودة فى ولائى وخدمتى لغازان هى بدرجة من الاستمرار والدوام والاستحكام؛ بحيث لا تنفصم إلى نهاية العمر

(١) انظر الترجمة.

(٢) انظر كتاب الشرق الإسلامى، ص٢٣٦.

(٣) تكتب أيضا شبورقان، وتخففها العامة فتقول شبرقان: مدينة طيبة من الجوزجان قرب بلخ، وبينهما وبين أنبار مرحلة من جانب الجنوب وكانت عامرة آهلة أيام الغزو المغولى، يقصدها التجار ويبيعون فيها الأمتعة الكثيرة. (معجم البلدان، ج٣، ص٣٢٣، دار صادر، بيروت ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٦٨).

وانقضاء الحياة؛ لأنه اليوم الخاقان بالاستحقاق والملك على الإطلاق، وإنى أرى من واجبى أن ألتزم بطاعته فى كل أمر، فليس لنوروز أمير أو ملك سواه، وليس لى شأن بالآخرين"

ولما وجد لگزى أنه لن يستطيع أن يؤثر على أخيه، قال له: "يا أخى! . أنت ما دمت مصرًا على هذه العقيدة، ومتمسكًا بهذا الرأى؛ فلن تأمن على نفسك من هؤلاء الرهط". فرد عليه نوروز فى ثبات وإيمان قائلاً: "رضينا بقضاء الله وقدره. فأى شىء صوَّره الزمان ولم يمحه، ومن الذى عاش ولم يمت. وإذا قدر الله أجلى على هذا النحو فمن الذى يمكنه رد ذلك أو دفعه؟! . وإذا لم يقدره سبحانه، فلست أخشى مائة ألف عدو قاهر"[1].

ولكن بعد هذه الجهود الجبارة التى بذلها نوروز فى خدمة غازان، بدأت عناصر الشر تتجمع وتدبر المؤامرات ضده، فأوحوا إلى غازان أنه كان يتصل سرًا بسلطان مصر، وأنه أطمعه فى انتزاع الملك من المغول فى إيران. ولحبك هذه المؤامرة زوّرت عدة رسائل على لسان نوروز تؤيد هذا الاتهام؛ فصدر قرار الإيلخان باستئصال شأفة جميع أفراد أسرة نوروز وأتباعه، ونفذ هذا على الفور[2]. كذلك كلف غازان قائده "قتلغ شاه" بمحاربة نوروز والقضاء عليه، ولكنه لاذ بالفرار بعد أن انفض جنوده من حوله، وسار هائمًا على وجهه إلى أن لجأ إلى حماية "فخر الدين كرت" ملك هراة الذى توسم فيه نوروز خيرًا إذ كانت تربطه به صلة قرابة من جهة. كما كان يطوقه بمننه وأفضاله الكثيرة من جهة أخرى. ولكن الملك فخر الدين تنكر لكل هذا، واعتقل نوروز وأرسله مكبلاً بالقيود إلى القائد المغولى قتلغ شاه[3].

ويتحدث رشيد الدين عن هذه الواقعة فيقول: "سأل قتلغ شاه "نوروز" لم فعلت هذا؟! .. أجاب: إن غازان يستطيع محاكمتى لا أنت. وكلما سئل بعد ذلك، لم يجب على الأسئلة الموجهة إليه. وسبب ذلك أنه لم يرتكب ذنبًا قط، وأنه لا إثم عليه". ثم أمر قتلغ شاه بقتله واحتز رأسه وأرسله إلى غازان. وكان هذا فى ٢٢ من ذى القعدة سنة ٦٩٦هـ[4].

---

(١) انظر رشيد الدين: تاريخ مبارك غازانى (داستان غازان خان)، تحقيق كارل يان، ص٧٣-٧٤.

(٢) حمد الله المستوفى القزوينى: تاريخ گزيده، باهتمام دكتر عبد الحسين نوائى، ص٦٠٤، تهران ١٣٣٦-١٣٣٩هـ.ش.

(٣) انظر كتاب الشرق الإسلامى، ص٢٨٣.

(٤) انظر الترجمة.

إذن فرشيد الدين هنا يعترف اعترافًا صريحًا ببراءة نوروز من التهمة الموجهة إليه. ولكنه يعود ويتناقض مع نفسه، ويذكر فى أكثر من موضع من تاريخ غازان أن نوروز عمد إلى الخيانة عدة مرات، وكان السبب فى تخريب خراسان، وأنه يعمل على تبديد الأموال. وليس هذا بصحيح لأن "نوروز" استمر على إخلاصه لغازان كما سبق أن ذكرنا. ولم يبد على تصرفاته ما يؤاخذ عليه.

وعلى هذا يكون رشيد الدين قد وقف إلى جانب غازان يؤيده ويبرر أفعاله بغير حق لأنه فى مركز القوة والسلطة ولا ينبغى أن يقف إلى جانبه شخص آخر يمكن أن ينافسه. يقول بروكلمان:[1] "اصطنع غازان فى فرض سلطانه على ذوى قرباه وعلى أمراء المغول أبلغ القسوة وأثقل العنف، وحتى الأمير نوروز الذى كان له الفضل فى ارتقاء العرش لم يلبث أن ذهب ضحية هذه السياسة".

والواقع أن تمتع غازان خان بالسلطة المطلقة التى لا تقف عند حد تكون أحيانًا مصدرًا فى إنزال النكبات والمصائب على رؤوس مرءوسيه خصوصًا أولئك الذين يقتربون منه. يقول دوسون ( )[2]: "لا توجد صفحة من كتاب جامع التواريخ فى الجزء الذى يتناول الحوادث التى وقعت فى عهد غازان لم يتحدث فيها المؤلف عن قتل هذه الشخصية أو تلك من الشخصيات البارزة".

ورغم كل هذا نرى رشيد الدين يدافع عن غازان ويجرده من كل عيب؛ فيصادفنا مثلاً قوله: "وإذا حلف المطلعون على بواطن الأمور بالأيمان المغلظة أن سلطان الإسلام خلد ملكه لم يقتل أحدًا مطلقًا إلا ذلك الشخص السيئ الخلق، ويلزم القضاء عليه، وأن وجود الأشرار هو عين الضرر للعالمين فإن أيمانهم صحيحة لا تستلزم الكفارة"[3]. فهذا القول لا يخلو أيضًا من مبالغة، ويخالف الحقيقة. ولنا أن نتساءل: إذا كان الشخص المعادى لغازان يستحق العقاب فما ذنب إخوته وأفراد أسرته وأنصاره وأتباعه إذا كانوا أبرياء؟ . للأسف كان يقضى عليهم أيضًا. وهذا ما كان يحدث فى عهد غازان وغير غازان من ملوك المغول

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى، ج٢، ص٢٧٤، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٤٩م.

(2) Histoire des Mongols, IV, P.200

(٣) انظر الترجمة العربية.

السابقين. فنحن لا ننسى مثلاً نكبة الجوينيين فى عهد والده أرغون خان[1] ومأساة الجوپانيين فى عهد أبى سعيد[2]. ففى شريعة المغول أنه ما دام الشخص – كائنًا من كان – قد نكب، ينبغى أن ينكب كذلك كل من يتصل به من قريب أو بعيد. وهذا لا شك ظلم فادح وتصرف جائر بعيد عن الحق والعدل، ولا يمكن تبريره مهما حاول رشيد الدين.

وإذن فالأمر الذى لا شك فيه أن غازان خان على الرغم من أنه يعد أكفأ سلاطين المغول فى إيران، وأنه رزق القدرة الكافية على إدارة شئون الحكم، كان قاسيًا ومتشددًا إلى أقصى حد، ولا يقيم وزنًا لأى شخص مهما كانت منزلته، وحتى أقاربه وذووه لم ينجوا من بطشه وفتكه. روى أنه خلال شهر واحد قتل خمسة من أمراء الأسرة الحاكمة وسبعة وثلاثين من أمراء المغول الآخرين[3]. وكما يقول هورث "Howorth"[4]: "برهن غازان بذلك على أنه ليس أقل من أبيه (أرغون) جرأة على سفك الدماء".

وفى موضع آخر جاءت كلمة الحق على لسان رشيد الدين؛ وذلك عندما أبرز – من غير قصد النزعة الديكتاتورية السافرة فى شخصية غازان خان، إذ يقول عنه: "لم يكن يدع سبيلاً لأى أمير أو وزير كى يعترض ويتحدث عن شأن من الشئون، ولم يكن يقيم وزنًا أو اعتبارًا لأى واحد يعرض فكرًا أو رأيًا، بل يظل الجميع منتظرين ومترقبين إشاراته لتنفيذ ما يأمر به إلى حد أنه لم يترك مجالاً لمخلوق كى يسأله حتى عن يوم الرحيل". ويبالغ رشيد الدين مبررًا هذا التصرف، فيقول: "وفى الحقيقة لم يشق ذلك على أى شخص منهم لأنهم جميعًا شاهدوا أن نفسه هى الأكمل ورأيه هو الأصوب من كل الوجوه. وكذلك حركاته وسكناته مُرَتَّبه إلى أقصى حد، فلا جرم أن رأوا أنفسهم لا شىء بالقياس إلى كفاءته"[5].

كذلك من الموضوعات اللافتة للنظر والجديرة بالتأمل فى هذا القسم الثانى، الحملات التى شنها غازان على القوات المصرية والسورية فى بلاد الشام، والتى انتهت بهزيمته على يد المصريين والسوريين، وتخليص الإقليم السورى نهائيًا من سيطرة المغول.

---

(١) الشرق الإسلامى، ص ١٥٣ ١٦٠.

(٢) نفس المرجع، ص٤٤٨ وما بعدها.

(٣) انظر كتاب فتوحات مغول، تأليف ج ج. ساندرز، ترجمة "أبو القاسم حالت"، ص١٣٤، تهران ١٣٦٣هـ.ش.

(4) History of the Mongols, Vol,3,PP.404-405.

(٥) انظر الترجمة.

قام غازان خان بثلاث حملات على الشام؛ ففى المرة الأولى وجد هذا السلطان الفرصة سانحة لمحاربة المماليك بحجة الدفاع عن الإسلام والمسلمين فى هذا الإقليم فتقدم الجيش المصرى يقوده السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والتقى الجيشان عند "مرج المروج" شرقى حمص حيث دارت معركة عنيفة فى ١٧ من ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م أسفرت عن انتصار المغول.

وعندما أرّخ رشيد الدين لهذه الحملة لاحظنا أنه راح يكيل المدح للسلطان غازان وصار يطرى شجاعته وبطولته؛ فيذكر أنه وقف فى القلب كأنه جبل شامخ. وكان المصريون معتمدين إلى أقصى حد على عددهم وعدتهم، غير أنهم لم يكونوا يدركون أنهم وضعوا أقدامهم على أذناب الحيّات، وأيديهم على الأشواك. ولما فتح العرب الكمين على المغول كانت القوات المغولية تقف لهم بالمرصاد، فداهمتهم وشتتت شملهم، وسمع سلطان الإسلام صوتًا من الوادى الأيمن يقول: لا تخف نجوت من القوم الظالمين[1]، فكان لتلك البشرى أثر قوى فى نفسه المباركة، وصار يزمجر كالأسد الهصور، ويخترق صفوف الأعداء، ويجندل أبطالهم بطعن السنان. ثم صاح على جنوده فنزلوا وأمطروا الأعداء بوابل من السهام، وشنوا عليهم هجومًا كاسحًا. وفى النهاية هُزِم المصريون. ثم يسترسل رشيد الدين فى مدحه وثنائه على غازان وإبراز تفوقه على أعدائه[2].

بعد ذلك ينتقل رشيد الدين إلى الحديث عن الحملة الثانية سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م فيتفق مع غيره من المؤرخين على عدم حدوث التحام بين المغول والمصريين نظرًا لسوء الأحوال الجوية، وهطول الأمطار الغزيرة وكثرة الوحل واشتداد البرودة، بحيث إن قائدين من قواد المغول لم يستطع أحدهما أن يتصل بالآخر وهلك كثير من دوابهما بسبب الوحل والبرد. فما كان من غازان إلا أن أرسل قائدًا ثالثًا على رأس عشرة آلاف جندى حتى ينقلوا المحاصرين بدوابهم. وعندما وصلوا إلى هناك، استطاعوا أن ينقذوا أنفسهم بمشقة كبيرة. ولما رأى غازان هذه الصعوبات قرر العودة من حيث أتى دون قتال[3].

أما عن الحملة الثالثة التى قام بها غازان على الشام، والتحمت قواته بقوات الناصر محمد ابن قلاوون فى الثانى من رمضان عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م عند "مرج الصفر" فقد أسفرت

(١) قرآن كريم، سورة القصص، آية ٢٥ .

(٢) انظر الترجمة العربية.

(٣) انظر نفس المصدر.

عن انتصار القوات المصرية والسورية انتصارا ساحقا على قوات المغول. وبصعوبة بالغة نجا من الهلاك القائدان المغوليان قتلغ شاه وچوپان، وقليل من الجنود. وبانتصار المصريين فى هذه المعركة تكون قد فشلت ثالث محاولات المغول فى إخضاع سورية، وتمكن المماليك من قهر أخطر وأشد عدو واجهته مصر منذ ظهور الإسلام[1].

وهنا نلاحظ أنه عندما تحدث رشيد الدين عن هذه الحملة، اختصر الحديث وتخلى عن صفة الحياد التى تحتم على المؤرخ أن يذكر الحقائق مجردة عن كل غرض أو هوى فى حالتى النصر والهزيمة. ولا شك أن رشيد الدين سلك هذا السلوك محافظة على شعور غازان الذى يود أن يراه منتصرا دائما.

وبعد انتهاء المعركة، أسرع القائد المغولى "قتلغ شاه" فى العودة حيث قابل غازان خان فى "كشاف"[2]. ومن المحتمل أن يكون هو أول من أبلغ السلطان نبأ كارثة الهزيمة. وعن رد الفعل عند غازان وسماعه هذه الأخبار المزعجة، وكيفية استقباله قتلغ شاه، لم يقل رشيد الدين كلمة واحدة[3]. كذلك نلاحظ أن هذا المؤرخ لم يحدثنا بشيء يذكر عما تم فى المجلس الذى عقده غازان فى مدينة الإسلام "أوجان" فى السادس من صفر سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م للتحقيق فى الأخطاء التى ارتكبها قواد الجيش المغولى، وكانت سببا فى الهزيمة المنكرة التى لحقت بهم. وكل ما قاله فى هذا الصدد هو أن المحققين كانوا يستجوبون المتهمين على ضوء الملاحظات التى أبداها غازان، وأن قواعد الياسا الكبرى قد طبقت فى كل الشئون الحربية[4]. وإذن فالمغول بعد إسلامهم لم يتخلوا عن التمسك بأحكام الياسا كلما وجدوا فى ذلك مصلحة لهم هذا على حين أننا إذا نظرنا إلى مؤرخ آخر هو أديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازى الملقب بوصاف الحضرة، والذى كانت تربطه برشيد الدين علاقة ود وصداقة[5] فإننا نراه يسلك مسلكا آخر مخالفا لرشيد الدين؛ إذ يعطينا تفصيلات وافية عن معركة "مرج الصفر" فى كتابه "تجزية الأمصار وتزجية

(١) تاريخ سورية ولبنان، تأليف الدكتور فيليب حتى، ج٢، ترجمة الدكتور كمال اليازجى، الطبعة الثانية، ص٢٧٢ بيروت ١٩٧٢.

(٢) كشاف: بالضم: موضع من زاب الموصل (ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٤٦١).

(3) The Cambridge History of Iran, V.5. Dynastic and Political of the Il-Khans, by Boyle. P.394, Cambridge, 1968.

(٤) انظر الترجمة العربية.

(٥) انظر مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذانى، ص ٢٣٣.

الأعصار"، والذى اشتهر باسم "تاريخ وصاف"[١]. ومنه نعلم أن عدد قتلى المغول بلغ عشرة آلاف جندى والأسرى عشرين ألفا[٢].

كذلك يزودنا الوصاف بمعلومات عما تم فى المجلس الذى عقده غازان لمحاكمة المسئولين عن الهزيمة. وكان فى مقدمتهم قتلغ شاه وچوپان. وقد تبادل هذان الاثنان الاتهام فى حضرة غازان. وبدأ چوبان بالحديث فادعى أن قتلغ شاه لم يقم بحمايته كما ينبغى، ولم تطأ قدمه أرض المعركة لمساعدة الجنود الذين كانوا معرضين للدمار. فرد عليه قتلغ شاه مدافعا عن نفسه؛ فزعم أن الوقت لم يكن مناسبا للهجوم، وأن چوبان قد خالف الأمر. ولهذا كان كارها لتصرفه. وبناء على هذا رأى من المصلحة تجنب خوض المعركة إلى جانب چوپان فى ذلك الوقت[٣]. فلما سمع غازان هذا، أمر بتوقيع العقوبة على المقصرين ومنعهم من دخول المعسكر عدة أيام. ولم يستثن من العقوبة چوپان نفسه، إذ ضرب بالهراوة ثلاث ضربات[٤].

شىء آخر يثير الإعجاب ويحمد للوصاف باعتباره مؤرخا، هو أنه على الرغم من اشتغاله بخدمة المغول وتمتعه بإنعامهم وقربهم، كان لا يستطيع أن يخفى شعوره الذى ظهر

---

(١) يعد هذا الكتاب واحدا من أهم المصادر فى تاريخ المغول فى إيران، وروايته فى وصف الحوادث تختلف عما جاء فى كتاب معاصره رشيد الدين؛ مما يدل على أن كلا المؤلفين قد اعتمد على مصادر مستقلة عن تلك التى اعتمد عليها الآخر. هذا فضلا عن أنه يحتوى على أخبار لا توجد فى رشيد الدين. وقد أخذ عنه المتأخرون مثل ميرخواند؛ غير أن أسلوبه ردىء جدا. وقد أتم الوصاف كتاب الجوينى. وبالإضافة إلى هذا يتحدث عن الأطراف مثل فارس وكرمان وشبانكاره. ولا شك أن مصادر التاريخ المحلى كذلك قد أخذت عن تاريخ الوصاف.

Spuler: Die Mongolen in Iran, P.9, Leipzig, 1939.

(٢) انظر التفصيلات فى كتاب تاريخ وصاف، ص ٤٠٩ ٤١٣، طبع بمباى.

(٣) يقول بيبرس المنصورى: وأخبرونا بأنهم لما ضاق بهم الأمر، وأحاط عليهم العسكر حوطة الحصر، جاء جوبان أحد مقدميهم. إلى قطلو شاه، وقال له: أريد أن تعطينى عسكرا أهجم به على المسلمين، فما وافقه على ذلك فعاتبه وقال له: أنت الذى عزرتنا وسقتنا إلى ها هنا، وخالفت ما رسم لك به قازان فإنه لم يأمرك بالتقدم إلى هذا المكان، بل أوصاك أن تقيم بحمص ولا تتعداها ولا تتقدم إلى مكان سواها، وضرب فرسه وولى عنه، وجمع أصحابه، وحملوا على حمية، ونزلوا من الجبل طالبين طريق الرحبة. (مختار الأخبار: تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ ، ص ١٢٦، حققه دكتور عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

(٤) تاريخ وصاف، ص٤١٤، طبع بمباى.

بوضوح فى أسلوبه حينما تحدث عن ملوك الأطراف البعيدة عن إيران. فقد كان كغيره من الناس لا يزال ينقم على المغول ويرى فيهم قوما طغاة جبارين سفاكين للدماء، نكبت بهم الأمم الإسلامية، فكان يتوق إلى أن يرى هذه الأمم تنهض من كبوتها وتسترد مجدها وتستطيع أن تستذل هؤلاء القوم وتغلبهم على أمرهم. وقد ظهر هذا الشعور بوضوح عندما راح الوصاف يشرح أحوال ملوك مصر من الأيوبيين والمماليك، ويصف الحروب التى اشتبك فيها المماليك مع المغول، تلك الحروب التى أسفرت عن نصر محقق للمماليك واندحار تام للمغول[1]. تقول دوروتيا كرافولسكى: "لكن الوعى بالتناقض الذى لا يبدو واضحًا فى عمل رشيد الدين التاريخى يظهر فى عمل مؤرخ فارسى آخر هو شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازى (عاش بين ٦٦٣ و ٧٣٠هـ تقريبًا / ١٢٦٤ - ١٣٣٠م) الملقب بوصاف الحضرة، والذى كان يحظى بدعم رشيد الدين وتأييده. فقد تجرأ وصاف الحضرة، فأشاد بإسلام المماليك ودولتهم وانتصاراتهم على المغول أعداء الإسلام آملاً أن يأتى اليوم الذى يستطيع فيه المسلمون التحرر من وحشية المغول وحكمهم غير الإسلامى"[2].

كذلك الحال عندما تحدث المؤرخون العرب[3] عن الحروب التى دارت رحاها بين غازان من جهة وبين الناصر محمد بن قلاوون من جهة أخرى، نلاحظ أن مؤلفيها حرصوا

---

(١) تاريخ وصاف، ص ٨٣ ٨٤، طبع بمباى؛ مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله الهمذانى، ص٢٣٤.

(٢) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار: دولة المماليك لابن فضل الله العمرى: دراسة وتحقيق كرافولسكى، الطبعة الأولى، ص ٣٣ ٣٤ من التمهيد المطوّل، الترجمة العربية، بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

(٣) من هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال لا الحصر، أبو الفدا المؤيد عماد الدين: المختصر فى أخبار البشر، المجلد الثانى الجزء الثالث، ص ٤٢ ٤٤، ٤٨ ٤٩، نشر مكتبة المثنى، القاهرة بدون تاريخ؛ ص ٣١٦ ٣١٨ ٣٥١ ٣٥٩، المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ؛ نفس المؤلف: التحفة المملوكية فى الدولة التركية: تاريخ دولة المماليك البحرية فى الفترة من ٦٤٨ ٧١١هجرية، تحقيق دكتور عبد المجيد صالح حمدان، ص ١٥٦ ١٦١ ، ١٦٣ وما بعدها، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م؛ نفس المؤلف: مختار الأخبار: تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق دكتور عبد الحميد صالح حمدان، ص ١١١ ١١٤، ١٢٣ - ١٢٧، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م؛ أبو بكر عبد الله بن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء التاسع، وهو الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، ص ١٥ ٢٠، ٤٥ ٤٧، ٥٨ ٨٨ =

على أن يزودونا بمعلومات صحيحة، ولم يحاولوا إخفاء الحقائق وراحوا يكشفون عن الثغرات التى وجدت فى صفوف المصريين والسوريين وكانت سببًا فى هزيمتهم أمام قوات المغول فى موقعة مرج المروج. وهكذا جاءت رواياتهم صادقة وبعيدة عن الغرض والهوى. وكان من الطبيعى أن تتحدث هذه المصادر عن معركة النصر الحاسمة فى موقعة مرج الصفر، وتشيد بكفاءة الجنود المصريين والسوريين.

والواقع أن الجهاد الذى أدى إلى هذا النصر المؤزر على المغول ليمثل جانبًا مهمًا من تاريخنا القومى الذى نفخر ونعتز به على الدوام. وهناك حقيقة يجب أن نقررها، وهى أن المواجهة الطويلة نسبيًا بين المغول والمماليك، كانت حدثًا تاريخيًا ترك آثاره الواضحة فى أذهان النّاس ونمّى لديهم إحساسًا عميقًا بالقومية العربية والإسلامية، وشعورًا فيّاضًا بالفخر والزهو بالانتصارات الرائعة التى أحرزها المصريون والسوريون فى مصر والشام اعتمادًا على كفاح الشعوب فى هذه المنطقة وخارجها. كما أبرز فعالية الأبطال ودورهم اللامع المشرق فى التاريخ[1].

هذا وقد شك بعض المؤرخين فى إسلام غازان مستندين إلى أنه كان فى حروب مستمرة مع المماليك الذين كانوا يعدون فى ذلك الوقت حماة الدين الإسلامى، والذين كانوا يحملون لواء الزعامة للبلاد الإسلامية. هذا من جهة ومن جهة أخرى كان غازان يرحب بتعاون المسيحيين معه ضد هؤلاء المماليك. وعلى هذا لم يتردد فى التحالف مع المسيحيين الأوربيين فى سبيل القضاء على عدوهما المشترك[2]. ولكن خاب ظن هؤلاء وهؤلاء بانتصار المماليك انتصارا حاسما فى موقعة مرج الصفر على النحو الذى ذكرناه سابقا.

= القاهرة ١٣٧٩هـ ١٩٦٠م؛ تقى الدين أحمد بن على المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ج١، ق٣، ص ٨٨٧ ٨٩٥، ٩٣٣ ٩٣٨، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧٠م؛ محمد بن أحمد إياس الحنفى: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الأول القسم الأول، تحقيق الدكتور محمد مصطفى، ص ٤٠٣ ٤٠٥، ٤١٢ ٤١٦، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

(١) انظر مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار- دولة المماليك الأولى لابن فضل الله العمرى (٧٠٠ ٧٤٩هـ / ١٣٠١ ١٣٤٩م): دراسة وتحقيق كراڤولسكى، الطبعة الأولى، ص ١٢ ١٣ من التمهيد المطول، ترجمة الدكتور رضوان السيد، بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

(٢) انظر دكتر حبيب لوى: تاريخ يهود إيران، جلد سوم، ص١٠٦، تهران ١٣٣٩هـ.ش ١٩٦٠م ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى، ج٣، ص٧٣٦ ٧٣٧، بيروت ١٩٦٩.

وردّنا على هذا الادعاء نقول إن غازان كان مسلمًا مخلصًا فى إسلامه ما فى ذلك من شك. وإذا كان قد حارب المماليك المسلمين فما ذلك إلا استجابة للطبيعة البشرية التى جبلت على حب العظمة والظهور والميل إلى السيطرة والتوسع والرغبة فى الغزو والفتح. كذلك أقدم غازان على اتخاذ هذه الخطوة تحقيقًا لسياسة جرى عليها أسلافه من قبل لمدة طويلة دون أن يحققوا أهدافهم إذ لحقت بهم الهزائم المتكررة، ويريد هو أن ينتقم لهم. وها نحن فى العصر الحديث مثلاً نجد الأوربيين رغم اتحادهم فى الدين قد اضطرتهم المنافسات السياسية والعوامل الاقتصادية إلى شن الحروب بعضهم ضد البعض، فجرّوا العالم إلى حربين عالميتين، عانى العالم من ويلاتهما مدة طويلة. وإذا كان غازان قد اتحد مع المسيحيين ضد المسلمين، فما ذلك إلا لأنه وجد نفسه فى حاجة إلى مساعدتهم. وأن التحالف معهم إنما هو وسيلة أملتها عليه السياسة فحسب، وليس للدين دخل فيها لا من قريب ولا من بعيد[1].

القسم الثالث: فيه يتحدث رشيد الدين بالتفصيل عن أربعين حكاية: الحكايات الست الأولى منها تتضمن مختلف المعارف والثقافات التى اطلع عليها غازان خان، والحِرف والصناعات التى مارسها ممارسة فعلية، وبيان ما اتصف به من خلق طيب كريم وما تميز به من فصاحة وبلاغة وصبر وجلد وسخاء وكرم. غير أن قيمة هذا القسم تبلغ الذروة عندما يتحدث المؤرخ بالتفصيل عن إصلاحات غازان خان؛ تلك التى تشمل جوانب الحياة المختلفة من إدارية واقتصادية وعمرانية واجتماعية. وهذه النواحى هى التى يهتم بها مؤرخو الحضارة. كما تحظى بعناية الباحثين والدارسين؛ خصوصا من يدرس العصر المغولى الذى ذاع عنه أنه عصر تخريب وتدمير وتحطيم للحضارة والمدنية وتشريد للعلماء والأدباء.

وفى الحقيقة عندما اعتلى غازان عرش المغول فى إيران، وأعلن الإسلام دينا رسميا للدولة قضى على الهوة السحيقة التى كانت تفصل بين الحكام والمحكومين. بسبب اختلاف الدين، ونعم الجميع بأخوة الإسلام، فأزيلت الحواجز الجنسية والطبقية التى كانت تفصل بين هؤلاء، مما ساعد على اندماج المغول فى المجتمع الإسلامى، واشتد تأثرهم بالبيئة الحضارية الإسلامية. وفى الحقيقة كان إسلام غازان خان نعمة كبيرة، وسعادة لا حد لها بالنسبة إلى إيران؛ ذلك أن الحكومة الباطشة العنيفة القاسية، تصير محنة بل كارثة تحل

---

(١) انظر المجتمع العربى، تأليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب بجامعة عين شمس، الطبعة الأولى، ص ١٧٦ ، ١٧٧، القاهرة ١٩٦٦م.

بالرعايا المظلومين. ولا شك أن النكبة تكون أشد وأنكى إذا كان دين الحكام يخالف دين المحكومين؛ خصوصًا إذا علمنا أن الكثيرين من أفراد هؤلاء الحكام كانوا يضمرون عداء صريحًا وحقدًا دفينًا للمسلمين. ومن هنا عدت حكومة المغول فى إيران - قبل غازان خان- أقسى وأعنف الحكومات، غير أن كل هذا قد تغيّر تغيرًا كاملاً بفضل إسلام غازان خان[1]. كذلك فى عهد هذا الحاكم المغولى تحدد موقف الدولة من الأقليات غير المسلمة التى كانت تحظى منهم بالكثير من العطف والرعاية على حساب المسلمين؛ فقد انتهت هذه السياسة إلى غير رجعة، وفرضت على هذه الطوائف الجزية بصورة منتظمة، وحددت مكانتهم فى المجتمع الإسلامى كأهل ذمة لا يرقون إلى مستوى المسلمين[2].

ومما هو جدير بالذكر أيضًا هو أن حكم غازان قد هيأ للمغول فترة هدوء كفوا فيها أيديهم إلى حد ملموس عن القتل والغارة، وعادوا إلى الحالة الطبيعية فزاد تأثرهم بحضارة المغلوبين، وجدوا فى إصلاح ما أحدثه آباؤهم وأجدادهم من تخريب وتدمير وصاروا أكثر استعدادًا للمساهمة بنصيبهم فى إنهاض الحضارة الإسلامية من كبوتها. وفى الحقيقة لم يكتف غازان بصبغ حياته الخاصة بالصبغة الإسلامية، بل تعدى ذلك إلى رفع المظالم عن طبقات الشعب الكادحة، ومحاربة ضروب الفساد فى مختلف شئون الحياة، وذلك كله طبقًا لما تنص عليه الشريعة الإسلامية[3].

لقد كان هدف غازان هو استقرار الأمور السياسية الداخلية ووضع علاج حاسم للجراح الدامية التى كانت قد وجدت قبله فى الجسد العليل بل المستهلك لبلاد إيران. وفى الحقيقة كانت تسود البلاد كلها حالة من الفوضى والفساد؛ فكان لا بد من القيام بسلسلة من الإصلاحات الواسعة التى تهدف إلى الترفيه عن الرعية والعمل على استئصال الداء من جذوره. ولقد رأى بثاقب فكره أن يستعين بالكُتّاب وأرباب القلم ورجال السياسة المحنكين من الإيرانيين؛ وذلك من أجل تنفيذ برنامجه الإصلاحى الشامل، فنصّب رشيد الدين الذى

---

(1) انظر براون: تاريخ أدبى إيران أز نيمة قرن هفتم تا آخر قرن نهم هجرى (از سعدى تاجامى) ترجمة على أصغر حكمت، ص٤٧، تهران ١٣٢٧هـ.ش / ١٩٤٨م.

(2) الدكتور محمد صالح القزاز: الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية، ص٢٩٤ ، ٢٩٥، النجف ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.

(3) انظر الدكتور مصطفى طه بدر: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، ص٣٧، القاهرة بدون تاريخ.

كان طبيبًا ومن أبرز أهل القلم، ومن كبار العلماء والمثقفين، نصبّه وزيرًا لكل الممالك التى يحكمها غازان؛ فعمل هذا الوزير مع من شاركه فى منصب الوزارة على إيجاد حكومة قوية ثابتة ومقتدرة فى ظل السيطرة الكاملة والنفوذ المطلق للسلطان غازان وذلك بهدف تقوية أساس دولة الإيلخانيين، فكان رشيد الدين بذلك، العامل الرئيسى فى تنفيذ كل الإصلاحات التى تمت فى هذا العهد.

وهكذا بفضل مساعدة رشيد الدين وجهوده ورأيه الصائب أنجزت جميع الاصلاحات التى كان يتوق غازان إلى تحقيقها فى مختلف شئون دولته[1]. ونتيجة لهذه الجهود المثمرة أصلح الجهاز الإدارى الذى كان يشمل الدواوين المختلفة. كما أدخلت تعديلات جوهرية على جهاز القضاء، وأصبح يسير تمامًا وفق أحكام الشريعة الإسلامية. كذلك أحدث غازان نظمًا جديدة فى الجيش. ولم تقف جهوده عند هذا الحد، بل إنه سعى سعيًا جديًا فى تثبيت حقوق الملاك والمزارعين، وعمل على اتساع رقعة الأراضى المزروعة، وذلك بشق الترع والقنوات، مما أدى إلى ازدهار الزراعة[2] وإصلاح الحالة الاقتصادية فى البلاد وتحسين أوضاع الناس. ومن الإنصاف أن نذكر أن غازان خان أعاد كذلك النظام والأمن والأمان إلى مختلف المناطق التى تعرضت لكثير من القلاقل والهزات العنيفة. كما أنه بذل جهودًا جبارة فى سبيل أوضاع الطبقات الفقيرة، والقضاء على المظالم التى تعرضوا لها فى عهد أسلافه من حكام المغول.

وهكذا رأينا غازان خان بمجرد أن اعتلى العرش، أخذ يسعى سعيًا جديًا فى أن يجبر النقص الذى حدث فى كل أجهزة الدولة نتيجة لأخطاء السالفين؛ وذلك بما كان يبذله من طاقة جبارة وعزيمة قوية، وبمساعدة وزرائه الأكفاء، وفى مقدمتهم رشيد الدين. وفى الحقيقة سعى غازان بإخلاص فى تغيير معالم الحياة المختلفة المليئة بالعيوب إلى معالم أخرى

---

(١) آئين كشور دارى در عهد وزارت رشيد الدين فضل الله همدانى، تأليف دكتر هاشم رجب زاده، ص ٧ – ٨، تهران ٢٥٣٥ شاهنشاهى.

(٢) عن الإصلاح الزراعى انظر الترجمة العربية للحكايتين السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين وللحصول على مزيد من التفصيلات انظر كتاب كشاورزى ومناسبات أرضى در إيران عهد مغول، تأليف إيليا باولو يج بطروشفسكى، ترجمة كريم كشاورز، جلد أول، چاپ دوم، ص١٥٢ وما بعدها، تهران ٢٥٣٥ شاهنشاهى.

مشرقة تعيد الأمن والاستقرار للناس، وتؤمنهم على حياتهم وأرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم. ومن البديهى أن غازان ظل طوال فترة حكمه يتمتع بعزيمة قوية لا تفتر. ولم يتخل عن عزمه على تحقيق مآربه. وعندما يرى العقبات تقف فى طريقه، وتحول دون الوصول إلى أهدافه، كان لا يتردد فى اللجوء إلى الشدة التى تبلغ حد القسوة يستدل على ذلك بأحداث القتل التى لا أول لها ولا آخر؛ وذلك على العكس من عمه گيخاتو خان (٦٩٠ - ٦٩٤هـ / ١٢٩١ - ١٢٩٤م) الذى كان تنقصه الشجاعة والجرأة؛ إذ كان فى أغلب الأحيان يمتنع عن تنفيذ أوامر القتل والإعدام. وفى عهد غازان بأكمله بذلت جهود كبيرة مرهقة، وشنت حملات متعددة. ورغم الجهود المضنية التى بذلها غازان فى سبيل الإصلاح، لم تتح له الفرصة كى تخرج أفكاره كلها إلى حيز التنفيذ؛ فسرعان ما لبست فترة حكمه القصيرة ثوبا حزينا ووضع موته المبكر حدا فاصلا لهذه الجهود الجبارة التى قام بها والمساعى المتواصلة التى بذلها فى سبيل إصلاح دولته. فالحزن عليه، وقبل هذا على مصير بلده الذى كان فى أمس الحاجة إلى حاكم قوى مثله[1].

وإن الروايات التى ذكرها رشيد الدين فى كتابه، وشملت الأحداث المعاصرة له لتدل بوضوح تام على أن هذا المؤرخ لم يكن متفرجا غريبا عن هذه الحوادث، أو على أنه المؤرخ الذى يؤرخ فقط، ولكن تدل أيضا على أنه هو الذى يلعب دورا هاما فى هذه الأحداث ويشير على غازان بالرأى السديد، ويساعده على تنفيذ مشروعاته وإصلاحاته، مما يثبت أنه الرجل الذى يهتم بكل التفصيلات التى تتعلق بشئون الدولة. ولا شك أن هذه الإصلاحات هى بمثابة مرآة تبدو عليها حياة الناس ووقائع عصرهم، وتعتبر أسنادا تاريخية قيمة جديرة بالدراسة والبحث. ولقد تنبه الباحثون إلى أهمية دراسة النواحى الحضارية فى حياة الشعوب لأنها النتاج الحقيقى الواقعى لمسيرة التاريخ البشرى. ونحن إذا عرفنا أن المصادر التاريخية غالبا ما تهتم بالجوانب السياسية والحربية فى حياة الشعوب، فإنه ينبغى أن نقدر تمام التقدير ما كتبه رشيد الدين عن غازان خان الذى استطاع فى سنوات قليلة أن يعيد الحياة والازدهار إلى ربوع البلاد التى كان يحكمها.

---

(١) شپولر : تاريخ مغول در إيران: سياست، حكومت وفرهنگ دورة إيلخانان، ترجمة دكتر محمود آفتاب، ص ٩٧ - ٩٨، تهران ١٣٥١ هـ.ش.

والواقع أن حديث رشيد الدين عن الإصلاحات التى تمت فى عهد غازان والتى سجلها بقلمه أروع تسجيل فى كتابه جامع التواريخ، لا نصادف مثله - على هذا النحو من التفصيل والوضوح فى كتابة أى مؤرخ آخر. وفى الحقيقة عندما أراد هذا المؤرخ الرسمى أن يكتب شيئًا عن السلطان الذى كان يحكم فى ذلك الوقت اعتبر رفع شأنه واجبه الأول. وهو فى الحقيقة جدير بأن ينال هذه الدرجة الرفيعة عند مؤرخه رشيد الدين.

ما نلاحظه على هذا القسم الثالث هو أن رشيد الدين عندما تحدث فى الحكاية الأولى منه، والتى كتبها بعنوان: "فى فنون كمالات سلطان الإسلام وعلومه ومعرفته الصناعات المختلفة، ووقوفه على أسرارها" نراه قد تناول الصفات التى اتصف بها غازان، والصناعات التى عرفها ومارسها؛ فذكر أن هذا العاهل كان يحب صحبة الأدباء والحكماء والفضلاء والعقلاء الممتازين ويجالسهم ويطرح الأسئلة عليهم ولا يترك مجالاً لأى محتال أو مزور يتحدث فى حضرته بكلام فيه خداع ورياء. وكان على اطلاع تام على الأديان والملل والنحل، وواقفًا على معتقدات كل طائفة بحيث إنه عندما كان يتباحث مع أئمة تلك المذاهب، يعجزون عن الإجابة عن واحد من عشرة أسئلة يوجهها إليهم. وأما عن اللغات المختلفة؛ فكانت المغولية لغته الأم. وكان يلم بالعربية والفارسية والهندية والكشميرية والتبتية والخطائية والفرنجية وسائر اللغات[1].

وكان يعرف أيضا تاريخ السلاطين المتقدمين والمتأخرين، ويقف على آدابهم وعاداتهم ونظمهم. وأما عن الحرف المختلفة فإنه لا توجد حرفة قط لم يمارسها بيده؛ وذلك من قبيل الصياغة والحدادة والنجارة والنقش وصب المعادن والخراطة. كذلك مارس صنعة الكيمياء ووقف على طريقتها فى مدة وجيزة، وأحاط أيضا علما بالصناعات الدقيقة الظريفة. وقد اطلع على علم الطب وعرف الأدوية ووقف على أكثر خواصها، واكتشف الأعشاب الطبية، وعرف فوائدها. كذلك امتد نشاطه إلى المعادن وكيفية استخراجها وصهرها، وصار يحيط بما يحويه منها كل موضع من الجبال والصحارى التى يراها. وأما التعاويذ فإنه يعرف

(١) يقول ابن حجر العسقلانى: "كان غازان يتكلم بالفارسية مع خواصه، ويفهم أكثر ما يقال باللسان العربى". (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ج٣ ص٢١٣ نشر دار الجيل، بيروت ١٣٥٠هـ).

منها ما يقرأ لكل آفة. وأخيرا وليس آخرا فإنه كان يحيط أيضا بأسرار علم النجوم والهيئة. وبهذا يكون غازان قد حصل نصيبا من كل علم يتصور. وقد صرح فى النهاية بأن خلاصة العلوم علم الإلهيات. وإلى الآن ما زال غازان يشغل نفسه دائما بالتعليم والتعلم.

وإننا لنتساءل حقا: هل يمكن لفرد واحد مهما أوتى من ذكاء وعبقرية أن يحيط علما بكل هذه المعارف والثقافات والصناعات؟! ولم لا يكون رشيد الدين قد قال هذا على سبيل التملق والتزلف والمبالغة؟!

فى الحقيقة نرى رشيد الدين نفسه يشعر بهذا الحرج، فيسرع بالدفاع عن وجهة نظره دفاعا منطقيا مستشهدا بالمعاصرين له والقريبين من مسرح الأحداث فيقول: "وأهل هذا العهد واقفون على تلك الحقائق، وهم شهود على أن الحال يجرى على هذا المنوال، وذلك حتى لا يطعن القراء فى كلامى قائلين: لقد حدثت مبالغة فيما كتبت"(1).

بعد ذلك ننتقل إلى الحديث عن أهم الإصلاحات التى قام بها غازان، والتى كانت صادرة من وحى إسلامه وصفاء نيته. وكان مهتديا فيها بتعاليم الإسلام السمحة ومبادئه القويمة؛ فدفعه هذا إلى القيام بهذه الإصلاحات التى رفعت منزلته إلى مقام كبار المصلحين والمشرعين، على أن نبين بوضوح إلى أى حد وفق رشيد الدين فى عرض هذه الموضوعات بعيدا عن المبالغة والنفاق والرياء؟!

فى الحكاية السابعة بعنوان "فى إبطال الديانة الوثنية وتخريب معابد الوثنيين" نعلم أنه عندما اعتنق غازان الإسلام، أمر بتحطيم كل الأصنام ومعابدها، وهدم بيوت النار والمعابد الأخرى التى لا يجوز وجودها شرعا فى ديار المسلمين. كذلك أجبر غازان البوذيين على الدخول فى الإسلام، وهدد المنافقين منهم الذين يتظاهرون باعتناق هذا الدين،وخيرهم بين أمرين: إما أن يرحلوا إلى بلادهم وإما أن يظلوا ثابتين على ما فى قلوبهم وضمائرهم بشرط ألا يحاولوا تلويث الدين الإسلامى بنفاقهم. وهددهم بأنه سوف يجعل المخالفين منهم طعمة للسيف. ويعلق رشيد الدين على هذا الموقف الحازم من جانب غازان خان قائلا: "وفى وقتنا هذا فإن القليلين منهم الذين بقوا فى إيران لا يجدون فرصة مواتية لإظهار عقيدتهم

---

(1) انظر الترجمة.

أو مذهبهم، وذلك مثل أقوام المجوس والملاحدة الذين يستوطنون هذه البلاد منذ زمن قديم، ولكنهم يخفون معتقداتهم".

وفى الحكاية التاسعة بعنوان: " فى شجاعة السلطان وإعداد الجند للحرب" نرى المؤرخ رشيد الدين يطرى شجاعة غازان ويبرز مقدرته الفائقة فى قيادة الجيوش ويثنى على مهارته فى خوض غمار المعارك، ويصوره على أنه قائد محنك يرسم لجنوده الخطط الكفيلة بالصمود أمام أعدائهم والانتصار عليهم. كذلك يؤكد ضرورة إرسال الجواسيس بصفة مستمرة لتقصى الحقائق عن العدو والاطلاع على أحواله وجمع المعلومات عنه. وبعد جمع هذه المعلومات توضع كل الأفكار والخطط والأعمال موضع التنفيذ وإلا فإن التصرف الذى يقوم على غير هذا الأساس يكون كالملاكمة فى الظلام.

إلى جانب هذه التعبئة المادية لا ينسى غازان التعبئة الروحية، وهى الأخرى ضرورة لازمة للثبات أمام العدو، وإلحاق الهزيمة به؛ ففى حالة مغادرة الجنود قواعدهم، عليهم أن يتوجهوا دائما بنية طيبة، وأن يشتغلوا بذكر الله تعالى، وأن يطهروا أنفسهم فلا يرتكبوا أفعالا سيئة، وأن يكونوا محبين لمواطنيهم ووطنهم، وعليهم ألا يظلموا أحدا حتى يثق الناس بهم، ويبذلوا هممهم الطيبة فى سبيلهم، ويدعوا لهم بتضرع فيستجاب لهم؛ إذ إنه ليس للجند ذخيرة قط أفضل من دعاء الخير والهمة الطيبة.

وفى ختام هذه الحكاية يعلق رشيد الدين على مضمونها بقوله: "وعلى هذا المنوال كان السلطان ينصح جماعة الأمراء والجنود، وظل ينصحهم، بل إنه تحدث إليهم بكلام كثير أدق من هذا لم يبق فى الذاكرة. وإننا لو رحنا نشرح كل ما قاله لأدى ذلك إلى التطويل. وحيث إن المقصود هو إيراد شواهد وأمثلة، يكون هذا القدر كافيا خاصة وأن الزوائد والإضافات معلومة ومحققة للجميع.

وأما الحكاية الحادية عشرة، فقد جاءت بعنوان " فى منع سلطان الإسلام الجنود وغيرهم من التفوه بكلمات الكفر؛ إذ لاحظ غازان خان أن بعض الأمراء والجنود وغيرهم يطلقون ألسنتهم بالفخر والتباهى بآرائهم الصائبة كما دأبوا على التلفظ بألفاظ قد تؤدى إلى الكفر. وكان يلاحظ على الجند بصفة خاصة أنهم إذا ما تم لهم النصر على العدو ووفقوا فى حياتهم، نسبوا كل هذا إلى أنفسهم، وأطروا شجاعتهم. أما إذا هزموا فى إحدى المعارك أو أنهم لم يوفقوا فى عمل من الأعمال، قالوا: "إن هذا قضاء الله وقدره، وإلا فقد سعينا وبذلنا الجهود الجبارة".

وللحيلولة دون الوقوع فى هذا الخطأ أصدر غازان مرسوما نص فيه على أن من يتفوه بهذا الكلام يكون مذنبا، وعليه أن يثق أن الحسنة من فضل الله وأن السيئة إنما هى نتيجة الأفعال المستهجنة التي يقدم عليها الإنسان. وغازان فى إجرائه هذا إنما يسترشد بما جاء فى القرآن الكريم: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا﴾ (١).

الحكاية الثالثة عشرة: "فى أبواب البر التى أنشأها سلطان الإسلام فى تبريز وهمدان والبلاد الأخرى، والأوقاف التى وقفها، وتنظيم المنشآت".

هذه الحكاية تتضمن أعمالا بارزة قام بها غازان. وهى أيضا من وحى الإسلام ومتفقة مع تعاليمه السامية؛ لأنها تحث على فعل الخير، وتدعو إلى العطف على الطبقات الفقيرة التى هى فى أمس الحاجة إلى المساعدة والأخذ بيدها حتى تنهض من كبوتها، وتستطيع أن تساير ركب الحياة فى المجتمع بطريقة سليمة كريمة بعيدا عن الانحراف والسلوك المشين.

هذه الجهود تتمثل فى الأوقاف(٢) الكثيرة التى وقفها غازان على المؤسسات الخيرية المقامة فى الولايات المختلفة للقيام بأعمال البر والإحسان. ويتضح ذلك فى الإنفاق على المساجد والمدارس والمؤسسات الخيرية والمستشفيات ودور الكتب والقضاء والحمامات والجرايات والأيتام والأرامل والمسنين وذوى العاهات، وإغاثة المحرومين والمستحقين. وكذلك فى سبيل الإشراف على تربية الأطفال اللقطاء الذين يلقى بهم فى عرض الطريق فهؤلاء يجدون العناية والرعاية، ويعهد بهم إلى المرضعات اللائى يوفر لهن كل ما يحتجن إليه حتى يبلغ الأطفال سن الرشد والتمييز. وهذه العناية تشمل أيضا الإنفاق على دفن الموتى من الغرباء الذين يموتون فى تبريز، ولم يكونوا يملكون مالا يفى بإجراءات دفنهم. وفى صراحة وتواضع راح غازان يقول: " ومع أنه ليست لنا مرتبة الصالحين، لكن تشبها بهم عمدنا إلى إنشاء أبواب البر كى تكون مثوى لآخرتنا. وبذلك تصير لنا خيرات وصدقات جارية، وببركات تلك الخيرات، تأخذ بيدنا رحمة الله تعالى، ويدخر لنا ثواب دائم. وإنه من

(١) سورة النساء، آية ٧٩.

(٢) انظر مقالة بعنوان "الوقف صورة مشرقة فى التاريخ الإنسانى للحضارة الإسلامية" كتبها إبراهيم نويرى فى مجلة القافلة الصادرة فى شوال ١٤١٨هـ يناير فبراير ١٩٩٨م، العدد العاشر المجلد السادس والأربعون، ص ٢ ٣، الدمام، المملكة العربية السعودية.

المفضل إلى أقصى حد أن نسرع فى إنجاز هذه المؤسسات فى الوقت الذى منحنا الحق تعالى القدرة، وهيأ لنا الفرصة حتى تتم هذه الأعمال بيمن التوفيق"[1].

ومما يذكر أيضا بالخير والثناء على غازان هو أنه لم يقتصر على تقديم مساعداته للإنسان، بل امتدت رعايته إلى الحيوان؛ فقد أمر بأن تنثر الحبوب فوق أسطح المنازل فى أشهر الشتاء الستة الباردة فى إيران عندما تشتد البرودة وينزل الثلج، فتلتقط الطيور هذه الحبوب آمنة مطمئنة، ولا يحاول أحد قط اصطيادها. وكل من يقصدها بسوء تحل عليه لعنة الحق تعالى وسخطه، وعلى المتولى وسكان تلك البقاع أن يمنعوا المعتدين ويردعوهم وإلا يكونوا آثمين.

كذلك شمل غازان بعطفه الفئات المغلوبة على أمرها من الغلمان والجوارى والأطفال الذين يكلفون بنقل الماء، وتتكسر أوانيهم والكيزان التى يحملونها أثناء نقل الماء إلى المنازل، ويخشون عقاب ساداتهم، فإن المتولى يعوضهم عنها أوانى جديدة، وذلك بعد أن يتحرى الحقيقة.

ونتيجة لإيمان غازان العميق واعتماده على الله وطلب المعونة منه، أنه فى كل ولاية حل بها، وراوده أمل، وعن له مراد ومست حاجة مستترة لجأ إلى حضرة الحق تعالى، وأفضى إليه بسره، والتزم نذرا وأدى صدقة.

وهكذا ملأ الإيمان قلب غازان، فكان يسر دائما إلى الحق تعالى بحاجاته، وهو متأكد – دون أدنى شك من أنها مقضية لدى الحضرة الإلهية بفضل الخيرات والصدقات والنذور، ولا يضيع أجر ذلك أبدا.

وفى النهاية يعلق رشيد الدين على أعمال الخير والبر التى قام بها غازان ورصد لها المبالغ الطائلة، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة، فيقول على سبيل المبالغة "ولا شك أن أى مخلوق لم ير فى أى عصر ومن أى سلطان مثل هذه الخيرات الكثيرة والمبرات والإنعامات والصدقات الجارية". وأخيرا يدعو رشيد الدين لغازان قائلا: "فليمنح الحق جل وعلا هذا السلطان العادل الكريم مزيدا من التوفيق على هذه الخيرات، وليوصل بركاتها ومثوباتها إلى أيامه المباركة"[2].

---

(١) انظر الترجمة.

(٢) انظر نفس المصدر.

خصوصًا بما تم فى هذا المجال فى عهد ملكشاه ووزيره الكبير نظام الملك الطوسى، فغازان مقتنع تمامًا بأن ما صنعوه هو عين الصواب؛ ولذلك رأى أن يسير على منوالهم.

ولما كان رشيد الدين هو المستشار المخلص الأمين لغازان، والذى يساهم بعقله وتفكيره فيما يقوم به العاهل المغولى من إصلاحات، نلاحظ أن هذا المؤرخ كان معجبًا بالسلاجقة مشيدًا بجهودهم البارزة فى شتى المجالات، لا سيما فى مجال القضاء؛ إذ كان يرى فيهم المثل الأعلى فى تحقيق العدالة بين الناس، وإصدار الأحكام وفقًا لتعليمات الشريعة الإسلامية. وعلى هذا راح رشيد الدين يذكر صراحة أن غازان اقتدى بالسلاجقة فى عدم النظر فى القضايا التى مضى عليها أكثر من ثلاثين سنة. كما اقتدى بهم فيما يتعلق بالأوقاف وضرورة مراعاة شروط الواقفين وعدم إتاحة الفرصة للتلاعب والتزوير، وتوقيع العقوبة على المخالفين. والدليل على إعجاب رشيد الدين بالسلاجقة أنه عندما أرّخ لهم فى المجلد الثانى من كتابه جامع التواريخ المشتمل على التاريخ العام، راح يمدحهم ويذكرهم بالخير. يقول: "لم يكن من هؤلاء السلاطين أعظم، وعلى الرعية أشفق، ولرعاية الخَلْق أجدر من ملوك السلاجقة رحم الله الماضين منهم ﴿والله يؤتى ملكه من يشاء﴾[1]. وقال جل ذكره: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم من الخيرة﴾[2]. وما ذلك إلا أنه قد ظهرت فى عهدهم خيرات ومبرّات كثيرة من إحياء معالم الدين، وتشييد قواعد الإسلام وإن مآثرهم التى أقاموها من بناء وإنشاء المساجد والمدارس والأربطة والقناطر والأسبلة والأوقاف والخيرات، وما أنفقوه من أموال على العلماء والصالحين والقضاة والسادات والزهاد والعبّاد والأخيار والأبرار، لم يوجد مثلها فى أى عصر، ولا تزال آثارها باقية إلى الآن فى الممالك الإسلامية.

تلك آثارنا تدل علينـــا فانظروا بعدنا إلى الآثار[3].

---

(١) قرآن كريم: سورة البقرة، آية ٢٤٧.

(٢) قرآن كريم: سورة القصص، آية ٦٨.

(٣) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، جلد٢ جزء ٥: ذكر تاريخ آل سلجوق، بسعى واهتمام أحمد آتش، ص ٣ ، ٤، أنقرة ١٩٦٠م.

كذلك رأى غازان ضرورة تحرى الدقة فى اختيار القضاة نظرًا لعظم المسئولية التى يتحملونها، وحتى يضمن القيام بواجبهم على الوجه الأكمل. وبذلك تتحقق العدالة على أيديهم أثناء نظر القضايا التى تعرض عليهم. وفى نظير ذلك قرر منح القضاة امتيازات خاصة من قبيل إعفائهم من الضرائب، وإعطائهم مرتبات مجزية حتى لا يمدوا أيديهم إلى غيرهم فيقبلون الرشا والهدايا. وكان يحافظ على كرامة القضاة وتوفير الحماية الكافية لهم فى قاعة الجلسة. وفى سبيل تحقيق ذلك، كان يعهد إلى الشحنة بتوقيع العقوبة على من يرفع صوته للتشويش على القاضى أثناء انعقاد الجلسة أو محاولة التأثير عليه. كما ألزم القضاة بتنفيذ أحكام الشرع بكل دقة، وعليهم أن يمعنوا النظر فى المحاضر المزورة والصكوك والسجلات المموهة، ومحاولة تقصى حقائق الأمور والأحوال حتى يصلوا إلى غورها.

• وبالإضافة إلى ما سبق، ألزم غازان القضاة بضرورة مراعاة الدقة المتناهية وشدة الاحتياط فى الاستماع إلى شهادة الشهود التى يترتب عليها صدور الحكم فى القضايا المختلفة؛ فقد رأى غازان بثاقب فكره أن القضاة يبدون تساهلا فى هذا الشأن ولا يجتهدون فى تحرى الحقيقة، ودون أن يتطرق اطمئنان إلى نفوسهم أو يغلب الظن ويطغى الشك فى صحة الشهادة وسلامتها؛ فيترتب على هذا الإهمال ضياع حقوق الأبرياء من المتقاضين. ومن المعروف أن شهادة الزور فى الدين الإسلامى تعد من أكبر الكبائر؛ فقد ورد فى الحديث الشريف عن أنس: "أكبر الكبائر الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وشهادة الزور". وعلى هذا يقف القضاة عاجزين أمام شاهدين، ولا يخشون مغبة هذا الإهمال. ومن المعروف أن ثبوت الحق شرعا، ولو أنه متوقف على شهادة شاهدين؛ إلا أن الشهادة مقيدة بشرط توافر العدالة. والعدالة أمر عظيم لا تتوافر إلا فى أفراد البشر وعلى سبيل الندرة؛ إذ إن هوى النفس يستولى على أكثر الخلق. إذن يجب على القاضى أن يفكر دائما فى أن شهادة زيد أو عمرو لا تخلو من هوى النفس أو انحياز إلى إحدى الجهات أو مراعاة شخص من الأشخاص، ولا يجوز أن ينخدع هذا القاضى لمجرد أن الشاهد يبدو فى سمت الرجال الصالحين، ويزين ظاهره بزخرف القول.

وما دام الأمر على هذا النحو، كان على القاضى أن يستعين بسلامة التفكير ولطائف الحيل وصفاء الذهن؛ فيسأل كلا من الشاهدين على انفراد كى يتبين التناقض فى أقوالهما

ويستمر فى سؤال كل منها عدة مرات حتى تتضح الحقيقة، فإما الصحة التى يمكن الاعتماد عليها وإصدار الحكم بموجبها، وإما الشبهة التى توجب التوقف عن إصدار الحكم؛ فيكون ذلك سببًا فى النجاة من ورطة الحكم بالباطل. ونتيجة لهذه الإصلاحات البناءة صارت الأمور الشرعية والقضايا الدينية تبرم وفقًا لأوامر الله تعالى ورسوله عليه السلام. وبذلك استقرت حقوق الخلق فى مواضعها الصحيحة.

وأخيرًا يبين رشيد الدين على لسان غازان الهدف الذى يهدف إليه من وراء إصلاحه القضاء فيقول: "إنه لا يخفى على الجميع أن غايتنا من تنفيذ هذه الأوامر ليست إلا رعاية جانب الحق جل وعلا وتقوية الشرع الإسلامى لا زال معظمًا وبسط العدل وراحة الرعية. كما أن من التنبيه هو أن يقتفى القضاة آثار الحق والعدل. وإن غرضنا من تكرار التحذير والتخويف هو جبر لحال الإنسان وليس تحطيمه، ورفع قدر القضاة لا الحط من شأنهم، وتكريمهم لا إهانتهم. وإذن فالأولى أن يستمع القضاة لهذه التعليمات طائعين وأن ينتفعوا بما جاء فيها وأن يتأكدوا من أن كل من يعمل بها ويرجح جانب الحق ويصون منصب الشرع الشريف من شَيْن[1] التلبيس، ويتخذ الاحتياط التام فى الفصل فى القضايا سوف يكون مشمولاً بعطفنا إلى جانب الأجر الجزيل الجميل[2].

وفى الحكاية السابعة عشرة بعنوان: "فى المحافظة على الرعايا ورعايتهم ودفع الظلم عنهم" نلاحظ أن غازان خان سعى سعيا جديا فى سبيل أن يعيش الناس دائما فى راحة تامة. وقد صرح بأن الفائدة من حاصل عمر المرء فى الدنيا إنما تكون فى تحقيق الصالح للناس. وعلى هذا ألزم نفسه أن يجد ويجتهد إلى أقصى حد فى هذا المجال لتدارك العيوب. ومن الإنصاف أن نذكر أن هذا العاهل قد نجح نجاحا باهرا فى إعادة الأمن والنظام إلى ربوع هذه البلاد التى تعرضت للقلاقل والهزات. كما أنه بذل جهودا جبارة فى سبيل تحسين أوضاع الطبقات الفقيرة والأخذ بيد العناصر المغلوبة على أمرها والقضاء على المظالم التى تعرضوا لها فى عهد أسلافه من حكام المغول، ويريد ألا تتكرر هذه المآسى فى عهده. ولهذا يتوجه بكلام صريح وواضح إلى أفراد الهيئة الحاكمة من أسرته، ويطلعهم على

---

(١) الشين: العيب والقبح وخلاف الزين. يقال شانه شينا: شوهه وعابه (المعجم الوسيط، ج١ ص٥٠٤).

(٢) انظر الترجمة.

سياستهم التى تقوم على التعالى والغطرسة اعتمادًا على أنهم هم السادة المسيطرون، وأما غيرهم فهم العبيد المطيعون.

يقول لهؤلاء مهددًا ومحذرًا: "أنا لا أحابى التازيك (السكان من الإيرانيين) وإذا كانت هناك مصلحة لأن أغير على الجميع، فليس هناك من هو أقدر منى على القيام بهذه المهمة. ولكن إذا توقعتم منى بعد ذلك زادًا أو طعامًا، أو التمستم هذا أو ذاك، فسوف أغلظ لكم فى القول، وآخذكم بالشدة والعنف. وينبغى أن تفكروا جيدًا فى أنكم لو أثقلتم على الرعية، وأكلتم لحوم أبقارهم، واستوليتم على بذورهم وغلالهم فما عساكم تفعلون بعد ذلك؟! . كما أنكم إذا ضربتم نساءهم وأطفالهم وآذيتموهم؛ فإن عليكم أن تفكروا: كيف أن نساءنا وأبناءنا أعزاء علينا، وأن حال فلذات أكبادهم تكون هى نفس حال أطفالنا، وهم أيضًا آدميون مثلنا تمامًا. وقد فوّض الحق تعالى أمرهم إلينا، وسوف نُسأل عما يصيبهم من خير أو شر. فكيف نجيب؟ ونحن عندما نؤذيهم نكون جميعًا شبعى ولن يعود علينا ضرر نتيجة وجودهم. فما الداعى إذن إلى إيذائهم وإلحاق الضرر بهم وأية عظمة وشهامة تحصل لنا من وراء ذلك؟! .. وماذا نجنى غير الشؤم الذى سوف يحيق بنا نتيجة سوء عملنا، ولن ننجح فى أى عمل نقوم به. يجب أن يظهر فرق واضح بين المطيع والعاصى من الرعية. والفرق بين الحالتين هو أن الرعايا المطيعين فى أمان من الحاكم والعصاة غير آمنين. وإذن فكيف يجوز ألا نؤمن المطيعين فيكونون منا فى عذاب ونصب؟! . لا بد أن تستجاب دعوتهم بلعنتنا والدعاء بالسوء علينا. وعلى هذا ينبغى التفكير فى هذه الأمور. وأنا دائمًا أسدى إليكم هذه النصائح وأنتم عنها غافلون".

وهكذا نتيجة لأمثال هذه النصائح بقى واحد من ألف من تلك المتاعب التى كانت تلحق بالرعايا قبل هذا؛ فلا غرو أن ازداد جمهورهم فى مختلف الممالك توجهًا بالدعاء للدولة. فليكن هذا الدعاء مقرونًا بالاستجابة بحق الحق وعزته[1].

ولا شك أن ما جاء على لسان غازان من نصائح غالية لأبناء قومه وتحذيرهم من مغبة سوء معاملتهم الرعايا لمما ينادى به الإسلام الذى يدعو إلى المساواة ويحث على فعل الخير دائمًا.

---

(١) انظر الترجمة.

وفى الحكاية السادسة والعشرين بعنوان: "فى منع إقراض المال بالربا والقضاء على التعامل بالربح الفاحش" تحدث رشيد الدين عن الأضرار التى لحقت بالمجتمع نتيجة التعامل بالربا، وكشف عما جرته هذه العادة المذمومة من متاعب ومشكلات على مختلف الطبقات، وما سببته من إفساد الذمم وتخريب الضمائر، الأمر الذى أدى إلى تنحية الكبار المخلصين من مناصبهم وإجبارهم على ترك أعمالهم حتى يفسحوا المجال للعابثين والنهازين للفرص فى الاستغلال والإفساد، وحتى لا يكونوا عقبة أمام هؤلاء الضالين المضلين. فكانت النتيجة المتوقعة أن عمت الفوضى وكثر النصب والاحتيال، وأدى الأمر إلى إفلاس الكثيرين. وصدق الحكماء الذين قالوا: "إن الملك يختل ويزول عندما ينحى الأشخاص الأكفاء عن مزاولة الأعمال المناسبة لهم وتسند إلى غير الأكفاء".

فطن السلطان غازان ببعد نظره وثاقب فكره إلى أن أس كل هذه المفاسد هو التعامل بالربا؛ فإذا منع ذلك؛ فإنه يكون قد قوى الشرع الإسلامى من جهة وأخرج الخلق من ورطة الضلال إلى جادة الهداية من جهة أخرى.

ولما اقتنع غازان بأنه لا بد من وجود علاج حاسم لهذا الوضع الذى أدى إلى الإفلاس والخسران، أصدر مرسوما فى شعبان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م يقضى بتحريم التعامل الربا. ولكن وجدت معارضات فى بادئ الأمر، فلم يصغ إليها وأصر على رأيه. وكان يرد على المعارضين قائلا: "إن الله تعالى والرسول عليه السلام يعلمان مصالح العالم أفضل منا. وهذا ما أمر به الله[١] ورسوله ولن أسمع قط كلاما يخالف ذلك".

ونتيجة لهذا الموقف الحازم والإصرار على الرأى الصحيح، زالت كل الأضرار التى كانت تحدث، واستقامت المعاملات، وعم الإنصاف كافة الطبقات. ثم يحتاط رشيد الدين للأمر حتى لا يتهم بالمبالغة فيصرح قائلا: "ولا شك أن أهل هذا الزمان يدركون قيمة هذه الأمور؛ إذ إنهم شاهدوا هذه المفاسد. أما الذين يعيشون بعد هذا ولم يروا حقيقة ما حدث فأنى لهم أن يدركوا فائدة هذا القانون؟!"

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى القرآن الكريم: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس؛ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. (سورة البقرة، آية ٢٧٥).

وأخيرًا يدعو رشيد الدين لغازان بقوله: "فليوفق الحق تعالى هذا السلطان كى يقضى دائمًا على هذه الرسوم المذمومة، وحتى يجعل قواعد الشرع الشريف ممهدة وراسخة".

وفى الحكاية السابعة والعشرين بعنوان: "فى منع المغالاة فى صداق الزواج" يبين رشيد الدين كيف عالج غازان خان موضوعًا اجتماعيًا مُهمًّا يتعلق بالعلاقة بين الرجل وزوجته. ومعنى هذا أنه كان للأسرة أيضًا نصيب كبير من عنايته فهو يرى بحق أن الحكمة الإلهية فى تشريع الزواج أن يكون هناك تناسل وتوالد بين الآدميين للحفاظ على النوع البشرى واستمرار الحياة. وعلى هذا لم يدخر غازان وسعًا فى اتخاذ الوسيلة الكفيلة بالمحافظة على الأسرة، والعمل على ترابط أفرادها.

ومن هذا المنطلق حرص غازان على أن تقوم العلاقات الإنسانية بين الرجل وزوجته على أسس سليمة من التفاهم والمحبة. فإذا تعرضت هذه العلاقات لخطر الخلاف والنزاع، وتعذر التوفيق بين الطرفين، فإنه من الأفضل أن يفترق الزوجان. ولكن غازان رأى بحق أنه فى هذه الحالة قد يقف الصداق المغالى فيه عقبة كأداء تحول دون الفراق فتتحول الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق.

والواقع أنه إذا روعيت بين الزوجين طرق المحبة والوفاق فإنه لا يستطيع أحد أن يفصلهما الواحد عن الآخر. وإذن لا يكون للزوجة نفع من المغالاة فى الصداق ولا يتصور أن يقع ضرر على الزوج من هذا الإجراء. أما إذا لم يحدث بين الجانبين اتفاق واتحاد، فإنه عندما يكون الصداق كبيرًا، لا يستطيع الزوج أن يطلق زوجته لأن ذلك يتطلب المزيد من المال؛ وهذا من شأنه يؤدى إلى استمرار الخصام والنزاع بين الزوجين، ويجر فى النهاية إلى زيادة الكراهية والحنق والغضب، فيقضى كل منهما حياته فى ضجر ومحنة. أما إذا كان الصداق قليلاً، فإنه بالنطق بلفظ الطلاق تنتهى المرافعة بالمفارقة، ويتخلص كل من الزوجين من شر النزاع والجدال، ويبحث كل منهما عن زوج آخر يناسبه[1]. والله تعالى يقول: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته. وكان الله واسعًا عليمًا﴾ [2].

(١) خواندمير: حبيب السير، م٣، ج١، ص١٦٨.

(٢) قرآن كريم، سورة النساء، آية ١٣٠.

تنبه غازان إلى تلك المغالاة فى الصداق، ورأى أنها لا تتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية التى تقول على لسان النبى صلى الله عليه وسلم: "خير النكاح أيسره وخير النكاح أقله كلفة"[١]. وما دام الرسول صلى الله عليه وسلم قد استحسن المهر القليل فى الزواج، ينبغى أن يخفض الناس الصداق إلى أقصى حد؛ بحيث إنه لا تجب عليه الزكاة.

بناء على هذا أصدر غازان أمره بتقليل الصداق، فجعل حده الأقصى تسعة عشر دينارًا ونصف، وكلف القضاة بألا يصدقوا على عقود الزواج إذا زاد على هذا المبلغ. ولا شك أن مسألة تحديد الصداق هى من شئون الحياة الموكول معظمها إلى اجتهاد المفكرين والمصلحين. ومتى رأى الحاكم تحديد ذلك بقدر معلوم يتلاءم مع مصلحة جميع الناس، فإنه جائز قطعًا، وليس فى الشرع ما يمنعه إذ هو من المصالح التى تتفق مع مقاصد الشارع كما جاء فى الحديث الشريف: "يسروا ولا تعسروا"[٢].

وفى الحكاية التاسعة والعشرين بعنوان: "فى منع الناس من احتساء الشراب" يتحدث رشيد الدين عن تحريم غازان خان على الناس احتساء الخمر فى الطرقات والأسواق بسبب ما كان يحدث من عربدة ومشاجرة بين السكارى، وإلحاق الأذى والضرر بالناس، غير أن غازان لم يمنع شرب الخمر منعًا تامًا؛ لأنه على حد قوله: إذا فعل ذلك فلن ينفذه أحد. وللمحافظة على حرمة المساكن أصدر أمرًا بألا يدخل أى مخلوق منازل الناس للبحث عن السكارى حتى لا يسلك العسس سلوكًا يتجاوز حد الاعتدال، وحتى لا تحل المتاعب والمشقات بالخلق. وعلى سبيل الاحتياط قرر أن تعرض عليه الموضوعات المهمة التى تتعلق بشئون الدولة فى حالة صحوه ويقظته. وقد اتبع هذه القاعدة داخل إيران وخارجها فنحن نعلم أنه بعد أن انتصر غازان على قوات الناصر محمد بن قلاوون فى موقعة مرج المروج سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م واحتلاله مدينة دمشق، خرج إليه ابن تيمية فى "مرج راهط" ليشكو له ما جرى من التتار بعد أمانه، فلم يمكنه الاجتماع به لشغله بالسُّكْر، فاجتمع بالوزيرين سعد الدين ورشيد الدين فقالا: "لا بد من المال". فانصرف[٣].

---

(١) الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود: قضية تحديد الصداق، ص١٠، دولة قطر، الدوحة ١٣٩٦هـ.

(٢) نفس المرجع، ص١٩.

(٣) السلوك: ج١ ق٣، ص٨٩٢، الطبعة الثانية، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زياده، القاهرة ١٩٧٠م.

ورغم هذا نرى رشيد الدين يدافع عن غازان. وفى مبالغة واضحة راح ينفى عنه نقيصة غيابه عن وعيه أثناء تناوله الشراب؛ بحيث إنه لا يستطيع أى مخلوق أن يموه عليه على سبيل التحايل والتلبيس والمغالطة[1].

والواقع أن شرب الخمر حرام ومنهىّ عنه فى الإسلام سواء أكان هذا فى الأسواق أم فى غيرها. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾[2].

وفى الحكاية الثامنة والثلاثين بعنوان: "صدور الفرمان بإقامة دور خاصة للرسل فى البلاد ومنع الشحن والحكام من النزول فى منازل الناس" يتحدث رشيد الدين عن جانب آخر من الجهود التى كان يبذلها غازان خان فى سبيل راحة الناس والقضاء على أسباب شكاواهم، وذلك بالمحافظة على ممتلكاتهم وأعراضهم وإعادة الطمأنينة إلى نفوسهم. وهذا مبدأ قويم يدعو إليه الإسلام، ويحرص على ضرورة مراعاته والتمسك به. وكانت العادة قد جرت فى عهد المغول أن يوفد الحكام وكبار رجال الدولة الرسل مزودين بالأخبار الهامة إلى الإيلخان وكبار الشخصيات. ولكن قبل غازان، خرجت المسألة عن هذا الهدف إلى ضروب من سوء الاستغلال إلى أن وصل الأمر إلى حد الاعتداء على حرمة المساكن؛ إذ كان الشحن والحكام ينزلون هؤلاء الرسل فى بيوت الناس، وذلك عن طريق الأدلاء الذين كانوا يصحبونهم إلى بيوت الرعايا قائلين لأصحابها: "إن هؤلاء الرسل ينزلون ضيوفا عليكم". وفى مقابل ذلك كانوا يأخذون من هؤلاء الرسل نقودا نظير تأدية هذه الخدمات. وكان هؤلاء الأدلاء لا يكتفون بذلك، بل يأخذون أيضا السجاجيد وملابس النوم وأدوات المطبخ. وأكثر هذه الأدوات كان يستولى عليها إما الرسل وأتباعهم، وإما الأدلاء؛ بحجة أن الرسل قد استولوا عليها ولم يردوها. ولو فرض وأعيد بعضها فأية قيمة لها بعد أن ظل الرسل يستعملونها مدة طويلة. ولقد كانت المنازل التى ينزل فيها الرسل أحسن المنازل وأفخمها. وفى اليوم الذى يغادر فيه رسول أحد المنازل، كانوا يحلون آخر محله، وما ذلك إلا لأن الرسل كانوا دائما يصلون تباعا ولا ينقطعون.

---

(١) انظر الترجمة العربية.

(٢) قرآن كريم: سورة المائدة، آية ٩٠،٩١.

وقصارى القول أنه عندما ينزل رسول فى إحدى المحلات، كان السكان هناك يقعون فى عذاب ومشقة؛ إذ إن غلمان هؤلاء الرسل وخدمهم يدخلون منازل الجيران عن طريق أسطحها، ويستولون على الأشياء التى تصادفهم من مأكولات ومشروبات وأصناف علف الدواب. ومهما كان الملاك يصرخون وينوحون كان صياحهم صرخة فى واد، لا يمكن أن تصل إلى أى من الأمراء والوزراء. وأدهى وأمر من كل هذا أن هؤلاء الرسل كانوا يدخلون بيوت الناس ويرتكبون أعمالا شائنة مخلة بالآداب، كما تروى قصة هذا الشيخ الهرم الذى قدم ذات يوم إلى الديوان، وصار يخاطب الأمراء والوزراء فى صراحة تامة قائلا: "إننى رجل هرم ولى زوجة شابة وأولادى مسافرون، وقد ترك كل منهم زوجة شابة حسناء. كما أن لى بنات. وها هم الرسل قد احتلوا منزلى، وجميعهم من الشباب القوى النشيط ويتصفون بجمال الوجه. وقد مضى عليهم زمن يقيمون عندى فيشاهدنهم أولئك النسوة ولن يستطعن أن يقنعن بى وبأولادى المسافرين، وأنا عاجز عن مراقبة كل ما يحدث ليلا ونهارا. ثم يضيف الرجل فى حسرة وألم مبينا أنه إذا كانت الأمور تجرى على هذا النمط من الاختلاط المعيب، فإنه لعدة سنوات أخرى لن يوجد طفل شرعى فى هذه المدينة وسيكونون جميعا أبناء أتراك مخلطين.

فلما وقف غازان على أطراف هذه المشكلة أمر بأن يكتفى بإيفاد رسول واحد، وأن يكون إيفاده لتصريف مصالح الملك الضرورية. وإذا كان يراد إبلاغ السلطان أخبارا مهمة فإنه يختار لهذا الغرض الرسل العداءون وسعاة البريد. كذلك منع منعا باتا نزول هؤلاء الرسل فى مساكن الرعايا، وأمر بتشييد دور خاصة لهم على أن تزود بالمعدات اللازمة من فراش وملابس وكل ما يحتاجون إليه. كذلك رصدت مبالغ تنفق بصفة مستمرة على هذه الدور وتعميرها. وبالإضافة إلى هذا، أصدر غازان مرسوما يقضى بأن يقيم الحكام لأنفسهم ولأتباعهم منازل خاصة بهم أو يستأجرونها.

وبهذه الإجراءات الحاسمة زالت تلك المتاعب، وقضى نهائيا على الوسطاء فاستراح الناس، ونسوا ما كان يحل بهم من عذاب ومشقة. أما جمهور الغائبين من السكان الذين كانوا قد نزحوا عن أوطانهم، وصاروا يتنقلون مشردين من مدينة إلى أخرى، فإنهم جميعا قد أخذوا يعودون إلى منازلهم وديارهم الأصلية وذلك بمحض اختيارهم، وألسنتهم تلهج بالدعاء من صميم قلوبهم وبإخلاص تام. فليستجيب الله دعاءهم.

وأخيرًا فى الحكاية الأربعين التى كتبها رشيد الدين بعنوان: "فى حظر إقامة الجوارى بالقوة فى دور البغاء" نراه يذكر هذه الحكاية من بين إصلاحات غازان خان الاجتماعية التى تهدف إلى محاربة الرذيلة بشتى الطرق وكافة الوسائل. وكانت العادة قد جرت قبل تولى هذا العاهل أن تجبر العاهرات على السكنى فى المدن الكبيرة بجوار المساجد والخوانق وبيوت الناس. وكان التجار والمستغلون يجلبون الجوارى من أطراف البلاد، ويفضلون بيعهن لأصحاب بيوت الدعارة أكثر من غيرهم؛ لأن هؤلاء الناس الذين لا خلاق لهم كانوا يدفعون أثمانًا خيالية، خصوصًا للجوارى الجميلات؛ مما يحقق لهؤلاء التجار الكسب والإثراء سريعًا وبأبسط الطرق وأيسر السبل.

ولقد رأى غازان بحق أن فتح هذه المواخير وإجبار العاهرات على السكنى فيها لممارسة الرذيلة، أمر محظور ومذموم، ومخالف لأحكام الشريعة[1]. ولهذا ينبغى المبادرة بعلاج الموضوع، والعمل على غلق هذه البيوت. ولكنه رأى أن هذه العادة كانت متبعة منذ قديم الأيام؛ مما يتعذر معه مكافحة البغاء دفعة واحدة. فلا بد إذن من الحذر والتأنى والصبر مؤقتًا على هذا المكروه. وإذن فالسبيل إلى تحقيق هذا الهدف هو التدرج فى علاج الوباء.

وبناء على هذا صدر مرسوم غازان خان الذى يقضى بأن كل جارية لا ترغب فى ممارسة الرذيلة فى بيوت الدعارة، لا تباع إلى جماعة المشرفين عليها. وأما من يقمن فى تلك البيوت، فإن كل من تريد أن تغادرها لتعيش عيشة شريفة، لا تمنع من ذلك، ويحدد لها ثمن تشترى به، وتزوج من الزوج الذى يقع عليه اختيارها[2].

هذا قليل من كثير مما حواه تاريخ غازان خان، صاغه بقلمه وزيره ومؤرخه رشيد الدين فضل الله. وقد لاحظنا أن هذا المؤرخ كلما شعر بأن كلامه قد يحمل على سبيل التهويل والمبالغة، والإغراق فى المدح والثناء على غازان خان، يسارع إلى الاستشهاد بالمعاصرين فهؤلاء قبل غيرهم شهود على ما أحدثه غازان خان من إصلاحات مختلفة وهم وحدهم يستطيعون أن يحكموا بصحة ما كتبه عنه هذا المؤرخ.

---

(١) يقول الله تعالى فى هذا الشأن: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنًا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ (قرآن كريم، سورة النور، آية ٣٣).

(٢) انظر الترجمة.

ولكن رشيد الدين يحتاط للأمر ولا يكتفى بالروايات الشفوية، بل يشير أيضًا إلى الوثائق والسجلات المكتوبة التى هى خير دليل على صدق ما يقول. وعلى هذا رأيناه فى الحكاية السادسة التى كتبها بعنوان: "فى بذل سلطان الإسلام وعطائه وجوده وسخائه على الوجه المستحسن القائم على أساس المعرفة"[١] يتحدث بالتفصيل عما قام به غازان من مجهودات فى سبيل إصلاح شئون المال والاقتصاد، وتوخيه العدالة فى فرض الضرائب وتحصيلها[٢]. وفى نهاية الحديث عن هذه الإصلاحات يصرح رشيد الدين بقوله: "لا بد أن الناس يحملون كلامى هذا على سبيل المبالغة ويقولون: من الذى رأى الملوك السابقين، ومن وقف على أوضاع خزائنهم حتى يستطيع القيام بهذه المقارنة؟! لكن الشاهد على هذه الأمور هى سجلات الدخل والخرج لخزائن السابقين، وكلها محفوظة فى دار المحفوظات، ولا يزال قسم منها موجودًا حتى الآن.

فأى شهادة فى هذه الدنيا أكثر عدلاً وصدقًا من السجلات والدفاتر التى لم ترها عين، ولم تخطر على بال أحد؟! ولكن عند مطالعتها يتضح صدق هذا المقال أو كذبه"[٣].

والأمر الذى لا شك فيه أن ما قام به غازان خان من إصلاحات، كان نتيجة اعتناقه الإسلام عن إخلاص وإيمان؛ فلقد أخذ على نفسه أن يعمل بتعاليم هذا الدين ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وها نحن نراه يوضح الهدف الأول من وراء هذه الإصلاحات حين يقول: "هو تأكيد تلك الأحكام، حتى يتحقق الرفقاء من شدة عنايتنا واهتمامنا باستقامة أمور الدين، فتزول من النفوس نقيصة التساهل والتهاون فى شئون الشرع، وتحل محلها فضيلة الصلابة والثبات"[٤].

ولقد صدق المستشرق الإنجليزى براون حين قال: "على الرغم من أن غازان لم يكن أول سلطان مغولى يعتنق الدين الإسلامى، فإنه فى الحقيقة كان أول شخص يعيد إلى هذا الدين الحنيف عظمته وجلاله"[٥].

---

(١) انظر الترجمة.

(٢) جاءت النقوش المكتشفة فى آنى وأنقرة والرقية إلى عهد خلفاء غازان مصدقة لما قاله رشيد الدين عن هذه الاصلاحات (انظر بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ج٢، نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى، الطبعة الأولى، ص٢٧٤، بيروت ١٩٤٨م).

(٣) انظر الترجمة.

(٤) نفس المصدر.

(٥) تاريخ أدبى إيران ازنيمة قرن هفتم تا آخر قرن هشتم هجرى: عصر استيلاى مغول وتاتار، ترجمة وحواشى بقلم على أصغر حكمت، ص٢٠، تهران ١٣٢٧هـ.ش = ١٩٤٨م.

هذا الخلق المتين وهذه الأعمال الجيدة والإصلاحات المفيدة التى شملت جميع نواحى الحياة لا يمكن أن تصدر إلا من رجل قلبه عامر بالإيمان، يقظ الضمير، بعيد النظر يخشى ربه، ويعمل بأوامره، وينفذ تعاليمه. ومن هنا كان لنا أن نقرر أن هذه الإصلاحات قامت على أسس إسلامية خالصة(١).

وبناء على هذا لا نوافق على رأى المستشرق الألمانى شپولر (Spuler) الذى يزعم أن نظم غازان فى كثير من النواحى تسير على النمط المتبع فى الغرب؛ فالحاجات متشابهة والأساليب متشابهة، وأجهزة الديوان فى عهد غازان تستند إلى أساليب شرقية قديمة مأخوذة من إدارة إمبراطورية روما الشرقية(٢)؛ إذ إنه من الجلى الواضح أن هذه النظم سواء فى الديوان أو فى المصالح الأخرى تستند كلها إلى أحكام الشريعة الإسلامية.

وفى الحقيقة بعد أن اعتنق غازان الدين الإسلامى صار واحدًا من المؤمنين الذين خلصت نيتهم وصفت سريرتهم، واتجهوا بكل ما فى طاقتهم إلى رعاية آداب هذا الدين وإقامة شعائره على أحسن وجه. يقص علينا ابن الفوطى ضمن أحداث سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م أن غازان توجه إلى بغداد، ودخل المدرسة المستنصرية من الدار المجاورة، وكان يسكن بها نظام الدين محمود شيخ المشايخ. وكان المدرسون والفقهاء قد جلسوا على عادتهم، والربعات الشريفة فى أيديهم. فلما عاينوه قاموا وخدموه؛ فأمر رشيد الدين أن يقول لهم: أنتم مشغولون بقراءة كتاب الله عز وجل كيف جاز لكم تركه، والاشتغال بغيره؟! . فقال أحد المدرسين: السلطان ظل الله فى أرضه، وطاعته وتعظيمه والانقياد له واجب فى الشرع. فدخل خزانة الكتب ولمحها، ثم عاد إلى الدار المذكورة، فبات بها"(٣).

ورغم أن المستشرق الفرنسى "جروسيه" يرى أن حكم غازان يحدد اللحظة التى تحول فيها هؤلاء البدو البدائيون شيئًا فشيئًا إلى الحياة المستقرة فى إيران، إلا أنه راح يدعى أن هذا الاستقرار لسوء الحظ لم يتم دون أن يكون له مضار؛ لأن هؤلاء المغول عندما خرجوا عن تسامحهم العام إلى اعتناق دين خاص هو الإسلام، وإلى اعتناق مذهب خاص فيه لم يلبثوا أن فقدوا جنسيتهم، وأن فقدوا معها مميزاتهم، وأن تركوا أنفسهم للوسط الذى

---

(١) الشرق الإسلامى، ص٣٤٠.

(٢) تاريخ مغول در إيران، ترجمة دكتر محمود مير آفتاب، ص٢٩٢، تهران ١٣٥١هـ.ش.

(٣) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، ص٤٩٢ - ٤٩٣، تحقيق مصطفى جواد، بغداد ١٣٥١هـ.

هضمهم وشربهم وأخفاهم. ولكن لم يكن الوقت قد اتسع ولا الوسيلة قد تهيأت لظهور هذه النتائج الضارة فى أيام غازان الحازم"[1].

ونحن لا نوافق على هذا الرأى؛ لأنه إذا كان "جروسيه" يتحدث عن التسامح العام للمغول؛ فإننا نرد عليه بأننا نرى أغلب المغول قوما متعصبين ضد الإسلام والمسلمين فجغتاى بن جنگيز خان مثلا كان أشد أبناء العاهل المغولى قسوة وأكثرهم بطشا. وكان يشرف على تنفيذ أحكام والده وقوانينه كما نصت عليها الياسا. وقد لاقى المسلمون منه الأمرين؛ إذ كان ينزل بهم أشد العقاب على أقل هفوة، وكثيرا ما يكون العقاب الرهيب هو الإعدام[2]؛ فمثلا من يذبح الحيوان على الطريقة الإسلامية كان جغتاى يأمر بقتله على الفور، لأنه خالف طريقتهم التى أقرتها الياسا[3].

والحقيقة أن ما حدث للمغول فى إيران من الضعف والتفسخ والانحلال ثم الفناء حدث أيضا فى جهات أخرى مثل الصين وروسيا وغيرهما من الجهات التى كانت تخضع للمغول. والسبب الرئيسى فى ذلك هو تفرق أمراء المغول بعد أن كانوا وحدة متماسكة. وسرعان ما دب النزاع والقتال بينهم؛ فكانت النتيجة الحتمية لكل هذا هو السقوط والانهيار. وبذلك أثبتت الحضارات أنها أقوى من سلطة المغول الهمجية[4].

وهناك أسباب أخرى كان لها أثرها المباشر فى ضعف المغول وانهيارهم، فنحن لا ننسى الصراع الرهيب الذى نشب بين أفراد الأسرة حول ولاية العرش والحرب الطاحنة التى دارت بينهم فى سبيل الوصول إلى كرسى السلطنة؛ تلك الحروب التى طالما حذرهم منها جدهم الأعلى جنگيز خان؛ فقد كان ينصحهم دائما بالاتحاد والتآزر.

يروى أنه عندما كان على فراش الموت، جمع أولاده وقال لهم: "اعلموا يا أولادى الجياد أنه قد قرب سفرى إلى دار الآخرة ودنا أجلى. وأنا بقوة الإله والتأييد السماوى استخلصت

---

(1) Grousset: des Steppes, P. 457

الترجمة الفارسية لهذا الكتاب، چاپ سوم، ص٦٢٥، تهران ١٣٦٨هـ.ش.

(٢) انظر الجوزجانى: طبقات ناصرى، جلد دوم، تحقيق عبد الحى حبيبى، ص ١٥٤ ١٥٧، كابل ١٣٤٣هـ.ش.

(٣) انظر المقريزى: الخطط، المجلد الثالث، الجزء الأول، ص ١٤٦ ١٤٧.

(٤) هارولد لام: جنگيز خان وجحافل المغول، ترجمة مترى أمين، مراجعة وتقديم الدكتور زكى [illegible] محمود، ص ١٥٥ ١٥٦، القاهرة ١٩٦٢م.

مملكة عريضة فسيحة، حيث يسلك من وسطها إلى طرف منها مسيرة سنة من أجلكم أنتم يا أولادى وهيأتها لكم. فوصيتى إليكم أنكم تشتغلون بعدى بدفع الأعداء ورفع شأن الأصدقاء، وتكونون جميعا على رأى واحد حتى تعيشوا فى نعمة وعز ودلال، وتتمتعوا بالسلطة والجاه"[1].

هذا ويذكر الدكتور زكى محمد حسن سببا آخر لانهيار دولة الإيلخانيين هو أن خلفاء هولاكو لم يفطنوا فى بداية الأمر إلى ما فى نمو النظام الإقطاعى فى إيران من خطر على دولتهم؛ فتطرق إليهم الانحلال، وانقسمت إيران بعد سقوط هذه الأسرة إلى دويلات محلية ظلت قائمة حتى قضى عليها تيمور لنگ فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) حين استقر له الأمر فى بلاد ما وراء النهر، وبدأ سلسلة فتوحات أخضع فيها إيران وجزءًا من جنوبى الروسيا والهند، وهزم بايزيد سلطان الأتراك العثمانيين عند أنقرة سنة ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م[2].

ونظرا لغزارة المادة العلمية التى كتبها رشيد الدين عن غازان بوجه عام وما قام به من إصلاحات فى مختلف ميادين الحياة بوجه خاص، صار ما كتبه منبعا ومرجعا مهما لمعاصريه ومن جاء بعده من المؤرخين. ونحن نخص من هؤلاء بالذكر محمد بن هندوشاه النخجوانى فى كتابه "دستور الكاتب فى تعيين المراتب"[3] وخواندمير فى كتابه "حبيب السير"[4].

(١) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، ج١، نشر وتحقيق دكتر بهمن كريمى، ص ٣٨٥ تهران ١٣٣٨هـ.ش.

(٢) الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى، ص٢٨، الناشر دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م
نفس المؤلف: التصوير فى الإسلام عند الفرس، ص١١، الناشر دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

(٣) مؤلف هذا الكتاب هو شمس الدين محمد بن هندوشاه النخجوانى المعروف بشمس المنشئ. ألفه سنة ٧٦٠هـ وقدمه إلى السلطان أويس الجلائرى (٧٥٧ ٧٧٦هـ). وأهم ما اشتمل عليه الكتاب يتمثل فى مجموعة من الإسنادات والوثائق والعرائض المرفوعة من الأهالى إلى السلطان والأمراء على شكل رسائل تتعلق بالشئون الاقتصادية المختلفة من زراعة وتجارة وتقسيم للأراضى وزراعتها. وكذلك الأوقاف والإقطاعات الخاصة بالأسرة الحاكمة والأهالى والكتاب على هذا النحو يشتمل على موضوعات مهمة تتصل بصفةخاصة بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى والسياسى لبلدان الشرق الأدنى والأوسط. كما أنه مفيد أيضا لتاريخ آذربيجان. قام بتحقيق هذا الكتاب عبد الكريم على اوغلى زاده، ونشر فى موسكو عام١٩٦٤.

(٤) انظر مؤرخ المغول الكبير، ص٣٣٤ وما بعدها.

أما الأول فقد تأثر بما كتبه رشيد الدين عن إصلاحات غازان بصفة خاصة، فنراه فى أكثر من موضع من كتابه ينقل عبارات رشيد الدين بنصها أو بتغيير طفيف. فعلى سبيل المثال عندما تحدث غازان إلى الأمراء المغول ينصحهم بأن يعاملوا رعاياهم معاملة حسنة ويحذرهم من الإساءة إليهم، وينذرهم بإنزال أشد أنواع العقوبات إذا لم يكفوا عن إيذائهم نرى النخجوانى يعقب على ما ذكره قائلاً: "يقول الوزير العادل الشهيد الخواجه رشيد الدين فضل الله طاب ثراه الذى دوّن أخبار السلطان السعيد المغفور: "إنه بواسطة استماع هذه النصائح، صار يحدث واحد من ألف من المتاعب التى كانت تحدث قبل هذا من المتغلبين والمعتدين بالنسبة إلى الرعايا الضعفاء. وقد اشتغل جمهور الرعايا فى الممالك بالدعاء للسلطان السعيد نوّر الله مرقده"[1]. كذلك نراه فى صفحة ٢٠٣ تحت عنوان: "النوع السادس: فى منع المكارين وأمثالهم من إيذاء الرعايا" يتأثر بما ورد فى كتاب رشيد الدين إلى حد كبير؛ فالعنوان هو نفسه العنوان الذى كتبه رشيد الدين تقريبًا فى "الحكاية التاسعة والثلاثين": "فى منع المكارين والجمّالين والسعاة من إيذاء الناس"[2]. والعبارات مصوغة فى أسلوب يختلف قليلاً عما ورد فى كتاب رشيد الدين. وكذلك فعل النخجوانى فى حديثه عن الإصلاحات الاقتصادية التى تمت فى عهد غازان خان"[3].

وأما "خواندمير" مؤلف كتاب حبيب السير، فقد راح هو الآخر ينقل عن رشيد الدين. وكان يصرح بهذا فى أكثر من موضع؛ فهو مثلا عندما تحدث عن أخلاق غازان خان وإصلاحاته تحت عنوان: "ذكر شمة از محاسن أوصاف ومحامد آثار غازانى، وبيان قوانين پسنديده آن"[4]، نراه يمدح هذا العاهل ويثنى عليه، ويكشف عن نواحى العظمة فى شخصيته، ويذكر عنه أنه لم يقصر فى تأسيس بناء الدولة وتمهيد مراسم العدل والاهتمام بشئون الرعية. وقد اختصر خواندمير الحكايات الأربعين التى ذكرها رشيد الدين فى عشرين حكاية لتكون دليل صدق وشاهد عدل على إثبات ما يدعيه، واعترف بأنه نقل هذه الحكايات من كتاب جامع التواريخ[5].

---

(١) دستور الكاتب فى تعيين المراتب، ص١٩٩ وما بعدها.

(٢) انظر الترجمة العربية.

(٣) دستور الكاتب، ص ٣١٦ ٣١٧.

(٤) حبيب السير، م٣، ج٣، ص٩١ وما بعدها.

(٥) خواندمير: حبيب السير، م٣، ج٣، ص٩١.

وهكذا فإن من يدرس تاريخ المغول يرتاح حقًا عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفه هؤلاء القوم من فظائع تقشعر لهولها الأبدان، وما سفكوه من دماء بغير حساب إلى أسمى العواطف الإنسانية وأنبل المشاعر الرقيقة التى أعلنت عن نفسها فى سلوك غازان وأعماله المجيدة. وإن المرء قد تعتريه الدهشة وتتملكه الحيرة، لأن هذه الإنجازات كلها قد تمّت على يد غازان الذى كان جده الأعلى هولاكو غازيًا جبارًا سفاكًا للدماء ونحن لا يمكن أن ننسى أنه محطم الخلافة العباسية وقاتل الآلاف المؤلفة من الأنفس البريئة. ولكن ما تلبث أن تزول الدهشة وتنتفى الحيرة عندما يعلم أن هذا التحول الكبير إنما يرجع أولاً وقبل أى اعتبار إلى الإسلام الذى اعتنقه غازان عن اقتناع وإخلاص، وآمن به إيمانًا راسخًا صادقًا، ونفّذ تعاليمه فكانت النتيجة هذه الإصلاحات العظيمة التى قامت على أسس إسلامية قويمة[1].

وإذن فغازان رغم قصر مدة حكمه يعد دون شك واحدًا من أكبر السلاطين فى الشرق، وذلك بواسطة القواعد والقوانين التى خلّفها والإصلاحات التى قام بها. ونحن لا نعدو الحقيقة إذ اعتبرناه أيضًا واحدًا من السلاطين المشهورين فى إيران من حيث السياسة التى انتهجها ومن حيث التنظيم والإدارة، فهو من هذه الوجهة يعد أكبر سلاطين الإيلخانيين على الإطلاق.

ولكن يجب أن نضع فى الاعتبار أن ما ناله غازان من فخر وعظمة وسمعة طيبة إنما كان بمعونة وزيره العبقرى الفذ رشيد الدين فضل الله الهمذانى الذى كان من جهة يدير الممالك الواسعة لغازان بكفاءة وتدبير. وكان من جهة أخرى الساعد الأيمن لغازان فى الترفيه عن الرعية وإصلاح الشئون الاقتصادية وتشييد الأبنية والآثار الخيرية.

ونحن لا ننسى جانبًا هامًا آخر هو أن رشيد الدين خلّد – على صفحات الدهر – فى كتابه الذائع الصيت "جامع التواريخ" محامد غازان وأعماله المجيدة ووقائع أيامه بقلمه السلس الجذاب. وبالإضافة إلى هذا ينبغى ألا نغفل ذكر النخبة الممتازة من العلماء والأدباء والفضلاء الذين اجتمعوا حول رشيد الدين فى تبريز نتيجة شغفه بالعلوم والآداب وتشجيعه الأدباء والعلماء والفضلاء الذين بذل كل واحد منهم جهدا مشكورا فى هذا

---

(١) الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو خان) ص ٣٤٠.

السبيل؛ بحيث إنه يمكننا أن نقول: "إن عصر غازان وأولجاتيو وأبى سعيد يعد من أكثر العصور إشراقًا فى تاريخ إيران"[1].

والآن أكتفى بهذا القدر من الدراسة، وأترك المجال للقارئ كى يعكف على قراءة الترجمة بأكملها، ويستخلص منها ما يشاء. وأنا على ثقة تامة من أنه سوف يظفر بمتعة عقلية كبيرة، ويجد فى تاريخ غازان المزيد من العظات والعبر، ويتأكد أنه إذا توافر للإنسان العزم الصادق واليقين الراسخ، فسوف يتخطى العقبات ويحقق الأهداف.

لقد أعجبتنى كلمة الكاتب الصحفى الكبير الأستاذ "رجاء النقاش" التى يقول فيها عن التاريخ: "عندما نقرأ التاريخ نشعر بالمتعة؛ فالتاريخ هو ملخص الحياة، وفيه مواقف وشخصيات وصراعات ومغامرات، وفيه أيضًا ألوان متعددة من حسن الحظ وسوء الحظ. والذين يعشقون قراءة التاريخ لا يتوقفون وهم يقرأون عن المقارنة بين ما جرى فى الماضى وما يجرى فى العصور الحاضرة، بل كثيرًا ما يقارن قارئ التاريخ بين أحواله الشخصية وبين ما يقرؤه من شخصيات قديمة وأحوال ماضية. وهذا هو ما يضاعف متعة التاريخ فى نظر قرائه وعشاقه، فهم يستمتعون مرتين: مرة بمعرفة ما حدث وما جرى فى عصور سابقة، ومرة أخرى بالتفكير والتأمل والمقارنة بين ما حدث فى الماضى وما يحمله الحاضر من أحداث. والتاريخ آخر الأمر هو فن، ولكنه أكثر من كل الفنون قدرة على التأثير فى النفوس؛ لأننا ونحن نقرؤه نعرف أنه حقيقى وصادق وبعيد عن الخيال"[2].

---

(١) عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران، جلد أول: از حملهٔ چنگيز تاتشكيل دولت تيمورى، ص ٢٨١ ٢٨٢، طهران ١٣١٢هـ.ش.

(٢) صحيفة الأهرام، ص٢٤ بتاريخ ٢٢ يوليو ١٩٩٦.



الترجمة العربية

لتاريخ غازان خان



[ص ٢٤٦]

تاريخ

غازان خان بن أرغون خان بن آبا قاخان بن هولاكو خان ابن تولوى خان بن چنگيز خان

وهو يشتمل على ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

فى تقرير نسبه العريق، وذكر أحواله منذ مولده المبارك حتى عهد جلوس أرغون خان على عرش السلطنة وذكر زوجاته (خواتينه) وأولاده، وشجرة نسبهم الشريف.

القسم الثانى:

فى مقدمة جلوسه الميمون، وصورة العرش والخواتين "والأمراء الأنجال"[١] والأمراء وجلوسه على عرش السلطنة، وتاريخ حكمه، والحروب التى قام بها، والفتوحات التى تيسرت له.

[ص ٢٤٧]

القسم الثالث:

فى سيره الحميدة، وسجاياه المحمودة، وآثار عدله وإحسانه وخيراته ومبراته وفنون آدابه ومستحب عاداته، والكلمات التى قالها فى كل سنة على وجه التحقيق وسبيل التدقيق والأحكام المحكمة والقوانين المبرمة المشتملة على رعاية مصالح كافة الخلق، والتى نفذها فى كل شأن من شئون الحياة، ونوادر الحكايات والأحوال التى لم تذكر فى القسمين السابقين.

وهى نوعان:

أحدهما: ما كان مبوبًا. وهو عبارة عن أربعين حكاية.

وثانيهما: ما يسجله القلم بصورة متفرقة حسب القضايا والحوادث المختلفة.

(١) ترجمة لكلمة شاهزادگان للتمييز بينها وبين كلمة "أمير" من غير أبناء الملوك.

فى تقرير نسبه العريق، وذكر أحواله منذ مولده المبارك حتى عهد جلوس أرغون خان على عرش السلطنة، وذكر خواتينه وأولاده، وشجرة نسبهم الشريف.

غازان خان هو الابن الأكبر لأرغون خان الذى تزوج، وهو فى الثانية عشرة من عمره من والدة غازان المسماة "قولتاق" ابنة "بيتكچى" الصغرى من قبيلة "دوربان". وكان أرغون قد خطبها من "كرك تيمور" الذى كان أخا "لأرقتو" و"مولاى". وكان الأمير "تبسين" قد تزوج من أختها الكبرى المسماة "أشلون".

كانت "قولتاق" فى غاية الكمال والجمال. وكان أرغون يحبها حبا شديدا لدرجة أنه أراد أن يستقبلها، ولكن منعه من ذلك الأميران "سرتاق" و"جوجغان". ولشدة تعلقه بها صعد برج القصر، وجلس فوق سطحه، وصار يشاهدها من بعيد.

وصفوة القول أنه بعد إتمام مراسم الزفاف والزواج، تكونت مواد العنصر الشريف لغازان، واستقر صدف مشيمة ذلك القمر الملكى فى در البحر الخاقانى. وبعد تسعة أشهر وفى أسعد ساعة **[ص ٢٤٨]** من فجر ليلة الجمعة التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م الموافق (بير بيكو مينج آى) عام الخروف جاء من كنه العدم إلى حيز الوجود، طالع غازان المبارك القدم فى "آبسكون"[(١)] من نواحى مازندران، وذلك وقت طالع السعد ببرج العقرب، وسهم السعادة وسهم الغيب، فأضاء عين الدنيا بجماله.

ووقت ولادته رصد الكواكب جماعةُ المنجمين المهرة الذين كانوا حاضرين واستخرجوا فى احتياط تام طالع المولود، فوجدوه مسعودًا للغاية. فقال كل منهم (شعر فارسى فى الأصل ترجمته):

لقد نظرت إلى طالعك فرأيت
إقطاعك سيكون مائة ألف نفس

---

(١) آبسكون: جزيرة صغيرة منعزلة على بحر قزوين. اشتهرت فى التاريخ بأنها آخر مكان لجأ إليه السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه فارًا من جحافل المغول، ومات فيها ذليلاً فى سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م. (انظر: كى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية. نقله إلى العربية، بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ص٤١٩ ٤٢٠ بغداد ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م؛ الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ص ١٢٢ ١٢٣ القاهرة ١٩٧٥م).

ثم عهدوا به إلى مرضعة حسنة الخلق تدعى "مغالجين"، وهى زوجة رجل خطائى اسمه "ايشنك"، وكانت قد جاءت مع "قولتاق خاتون"، وعرف عنها أنها امرأة عفيفة، محمودة السيرة، تليق بتربية أبناء الملوك. وكان ابنها "هندو" على قيد الحياة.

وصفوة القول أن مرضعته الرحيمة، صارت تربيه فى حِجْر الشفقة. وكذلك انطلق لسانه فى عهد المهد بالألفاظ المليحة والكلمات الفصيحة طبقًا لما يقول الشاعر:

(شعر عربى فى الأصل)

فى المهد ينطق عن سعادة جده   أثر النجابة ساطع البرهان

بحيث إنه حير الجميع.

ولما كانت عادة المغول ألا يسمحوا لبعولة مرضعات أبناء الملوك أن يقربوا نساءهم ولأن "ايشنك" الخطائى جامع زوجته فى ذلك الوقت، فحملت منه – أصيب الأمير غازان بإسهال نتيجة تغير لبن مرضعته. ولهذا السبب استردوا الأمير منها، وأركبوه جوادا وهو فى الثالثة من عمره، وسلموه لأم حسن الذى كان أميرا على طائفة "توقجيان" من قبيلة "سولدوس"، واسم والده "حسن آشتو" واسم والدته "آشتاى". وكان لآشتو ولد آخر يدعى "تولاى" يعمل ساقيا وطاهيا.

وعندما بلغ الأمير غازان الثالثة من عمره، أرسل أرغون الأمير "قتلغ شاه" من مشتى مازندران إلى حضرة آبا قاخان لإنجاز بعض المهام، فحظى بالمثول بين يدى الحضرة فى "موغان"[1]، فاستفسر آبا قاخان عن أحوال الأمير غازان. فرد "قتلغ شاه" بأنه فى الثالثة من عمره ويركب الجواد. فأظهر آبا قاخان ميلا شديدا إلى رؤيته.

وعند عودة "قتلغ شاه" قال له آبا قاخان: لقد بلغت من الكبر عتيا وتطوف بخاطرى – من وقت لآخر فكرة الرحيل إلى الآخرة. وإذا كان ولدى أرغون يحب ابنه غازان حبا

---

(١) موغان: تكتب أيضا موقان: مدينة بخراسان من أعمال طوس. ولها سوق وسور حصين. وبها تجار أثرياء وضياع وفعلة. ولها حصن منيع. ويوجد بها قبر على بن موسى الرضا. وبجبل موقان معادن الفضة والنحاس والحديد. وفيها كذلك كثير من أحجار الفيروز. وكانت موقان دار الإمارة بخراسان إلى أيام الطاهرية ثم انتقلت منها إلى نيسابور. (انظر كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، تأليف محمد بن عبد المنعم الحميرى حققه الدكتور إحسان عباس، الطبعة الثانية، ص٥٦٦، بيروت ١٩٨٠م).

جما، ولا يريد مفارقته لأنه وحيده فإنى أتوق إلى أن يرسله إلى حتى يلهو بالبواشق[1] والصقور.

فلما بلغ قتلغ شاه تلك الرسالة لأرغون، قال: ليس لى غير هذا الابن، فكيف أستطيع أن أرسله إلى والدى؟! . غير أن الامتثال لأوامر الأب واجب على. وإذن فالمصلحة تقتضى أن أتوجه بنفسى إلى حضرة والدى، واصطحب ولدى معى.

وفى أول شهور فصل ربيع من عام ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م، غادر أرغون مازندران قاصدا زيارة حضرة والدة [ص٢٥٠]، واصطحب معه ابنه، ومثل بين يديه فى "قونقور أولانگ"[2].

وعندما سمع آبا قاخان خبر قدومها، بادر باستقبالهما، وذلك لفرط شغفه بلقاء الأمير النجل غازان. وما أن رآه حتى رفعه عن صهوة الجواد وأجلسه على مقدم سرجه، وابتهج برؤيته.

وحيث إن آبا قاخان كان يشاهد على غازان أبهة الملك وشمائل السلطنة صرح قائلا: "إن هذا الولد جدير بأن يبقى معى، وأن أقوم بنفسى بتربيته". ومع أنه كان يحب ابنه أرغون حبا شديدا، فإن حبه له قد ازداد، ورسخ فى قلبه أكثر من ذى قبل، وذلك بسبب تعلقه بغازان.

وفى تلك الفترة من الإقامة، وتيمنا بوصول ذلك النجل، صار آبا قاخان مشغولا بأسباب المتع واللهو والمرح. وكان يبذل الإنعامات والهدايا للجميع. وعند عودة أرغون قال آبا قاخان: "ليبق الابن غازان عندى هنا حتى أقوم بنفسى بتربيته". ولما لم يكن لبولغان خاتون الزوجة الكبرى لآبا قاخان ولد ذكر، قال أرغون: إذا صدر الأمر، فإنى أقدمه إليها على سبيل العبودية والخدمة. فأعجب بذلك آبا قاخان. وكانت بولغان خاتون قد توجهت

---

(١) المفرد "باشق" وهو نوع من جنس البازى، من فصيلة العقاب النسرية وهو من الجوارح يشبه الصقر ويتميز بجسم طويل ومنقار قصير بادى التقوس (مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج١، ص٥٨).

(٢) "قنقر أولانگ" الاسم المغولى للمدينة التى شرع فى إنشائها السلطان أرغون خان، وأتمها السلطان أولجايتو وأطلق عليها اسم "السلطانية" وذلك فى سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٥م، وجعلها عاصمة الدولة الإيلخانية. (انظر كى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ص ٢٥٧ بغداد ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م).

إلى ناحية "سغورلوق"، فتبعها أرغون مسيرة منزل واحد وأدى لها التحية والولاء، وسلم لها غازان، ثم عاد إلى خراسان. فسرت بولغان خاتون سرورا شديدا، وقالت: إن هذه كرامة، وهدية لى من الله، وهو مثل ولدى من صلبى.

ولقد ترك أرغون لابنه غازان عشرة من الخدم، هم: حسن وكوكا وما جار وأدرم وبوقا وقردغميش وقلچاى والتون وبوقا وآقاجى وهم من قبيلة اونكقوت. **[ص٢٥١]** ثم صرح آبا قاخان قائلا: ليبق غازان فى هذا المخيم، وينسب إليه، ثم يئول إليه من بعدى، ويقوم مقامى.

ويجمل القول أن الأمير غازان كان يقيم فى مقر "بولوغان خاتون"، وملازما لحضرة آبا قاخان. ولأن غازان كان طفلا، كان آبا قاخان يحبه أكثر من ابنه الصغير "گيخاتو"؛ بحيث إنه كان يؤاخذ گيخاتو إذا ما ضايق غازان أثناء اللعب.

وعندما كان آبا قاخان يمل ازدحام الناس وضجيجهم، وفى الوقت الذى يطلب فيه زوجته "توادى خاتون" التى شغف بحبها، كان ينزلها على بعد ما يقرب من نصف فرسخ من المعسكرات. ولم يكن أى مخلوق من الإخوة والأبناء يبقى هناك. ولكنه لفرط حبه لغازان، كان ينزله بجوارها، وكان يصحبه فى سكره وصحوه وأوقات صيده وظعنه وإقامته وفى أى وقت يشاء. ولم يكن يطيق صبرا عن بعده لحظة واحدة. وكان يصرح دائما بأنه تتجلى فى رأس هذا الصبى السعادة، ويبدو عليه الإقبال التام.

ولأن غازان كان عاقلا إلى أقصى حد، صار فى أول سن الطفولة يجمع الأطفال والأتراب، ويعلمهم القواعد والقوانين، وأساليب الصراع والنزال. كذلك عين أحد أقاربه من بين كبار أفراد الأسرة، ومن الأصدقاء المقربين؛ بحيث إنه لو تجاوز شخص حده، فإنه كان يؤاخذه طبقا لقواعد الياسا[1]، ويعاقبه بالزجر والتعنيف. ولم ينصرف إلى اللعب واللهو شأن الأطفال الآخرين، بل كان من عادته فى اللعب أن يأمر بأن تحاك له من اللباد والثياب "دمى" على هيئة الآدميين والخيل ثم يدججها بالسلاح، ويجعلها تواجه بعضها بعضا كجيشين متحاربين الواحد منها فى مواجهة الآخر، **[ص٢٥٢]** ثم يشير ببدء الحرب والطعن.

---

(١) للحصول على معلومات مفصلة عن الياسا التى وضعها چنگيز خان انظر كتاب المغول فى التاريخ للمترجم ص٣٣٨ وما بعدها، القاهرة ١٩٧٥م.

وعندما بلغ غازان الخامسة من عمره، عهد به جده أبا قاخان إلى "ياروق بخشى" الخطائى حتى يشرف على تربيته، ويعلمه الخط المغولى والأويغورى والعلوم والآداب. وفى مدة خمس سنوات، أتقن تلك الفنون. وبعد أن حصل هذه المعارف، شرع فى تعلم الفروسية والرماية.

(شعر فارسى فى الأصل ترجمته)

بينما كانت لا تزال رائحة اللبن تفوح من فيه

جاءته الرغبة فى الطعن بالسيف والرمى بالسهام

وكان دائما يطارد الحيوانات، ويجرى الخيل بطريقة أدهشت البشر.

وفى سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م عندما توجه آبا قاخان إلى خراسان لمقاومة جنود القراونة الذين كانوا قد خربوا فارس، اصطحب معه "بولوغان خاتون" وغازان، فقدم أرغون لاستقبال أبيه. وفى سمنان[1] لحق بالحضرة، وجدد الأب والابن اللقاء. ولما غادر الجميع سمنان، مارسوا الصيد عند الجبل الواقع بين سمنان ودامغان[2].

وفى ذلك الوقت بلغ الأمير غازان الثامنة من عمره. وهناك شغل بالصيد[3]. ولما كان هذا أول صيد له، مكث ثلاثة أيام فى دامغان من أجل طلاء يده بالشحم[4]. وقد أقيمت الولائم وحفلات اللهو ثم غمس "بوقا" صاحب السلاح "قورجى" – الذى كان "مركانا" بمعنى أنه يجيد الصيد يد الأمير غازان فى شحم الصيد.

---

(١) سمنان: تقع بين دامغان والرى على طريق خراسان. جوها معتدل، وتستمد ماءها من النهر. وهى مدينة حسنة ومتوسطة بها أسواق وصناعات، وتنتج الرمان والفستق، والتين بها غاية الجودة (انظر حمد الله المستوفى القزوينى: نزهة القلوب بكوشش محمد دبير سياقى، ص٢٠٠ الروض المعطار، ص٣٢١؛ بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية، ص٤٠٧).

(٢) دامغان: تقع بين الرى ونيسابور، وهى أقرب إلى نيسابور. وقد أطلق عليها العرب أيضا اسم قومس. يميل جوها إلى الحرارة، وهى قليلة الماء. ومن فواكهها الكمثرى الجيدة (انظر نزهة القلوب، ص٢٠٠ الروض المعطار، ص٢٣١؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٠٥).

(٣) كان للأولاد الصغار فرص يظهرون فيها مهاراتهم فى الصيد، ويبدون عدم اكتراثهم بما قد ينجم عن ذلك من أخطار. وفى الحق كان الصيد يدرب الصغار على مطاردة الأعداء الآدميين ووضعهم فى مركز حرج. (انظر چنگيز خان وجحافل المغول، تأليف هارولد لام، ترجمة مترى أمين، ص٥٥، القاهرة ١٩٦٢م).

(٤) جرى العرف عند المغول أن يوضع شحم الصيد الذى يصيده الصبى لأول مرة على إصبعه الأوسط وكذلك يفعلون مع من يقدم أول رأس لقتيل تحت العلم فى المعركة.

وعندما كان آبا قاخان يغادر دامغان، أمر بأن تسافر بولغان خاتون ومعها غازان عن طريق مازندران؛ ولأن الوقت كان أول الربيع لم يكن العلف قد توافر بعد. وسلك هو طريق بسطام. ثم اتخذت بولوغان خاتون ومعها غازان طريق "شهرك نو"، ولحقا بحضرة آبا قاخان في "مرغزار رادكان". ثم رحل آبا قاخان إلى كيتو جام وهراة، وسير ابنه أرغون إلى ناحية غور وغرجه لصد القراونة. [ص٢٥٣] وعندئذ قال غازان لجده آبا قاخان: لو أذنتم لى فإنى على استعداد للسير كى أكون فى خدمة والدى. فاستحسن آبا قاخان منه ذلك، وأمر له بزق من الشراب الخاص حتى يلحق بأبيه أرغون. ثم اصطحبه إلى موضع "باغ حين" مما يلى طوس حيث قام بتوديعه ثم قفل راجعا.

بعد ذلك أوفد آبا قاخان "سالجوق خاتون" إلى ناحية دماوند وأعاد معها غازان أيضا. ثم استدعى "مايجو بخشى" والد الأمير "تارمدار" ووالدته "توكال تى"، وقال لهما: "إننى أثق بكما ثقة مطلقة وأودعكما غازان كابن لكما، وسوف يكون معكما "ياروق بخشى" أيضا. وعليكم أن تذهبوا مع "سالجوق" إلى مصيف "دماوند" حتى يتوافر لغازان الحظ السعيد. وهكذا أمضوا الصيف هناك.

ولما عاد آبا قاخان وقت الخريف، لحق بحضرته غازان فى ورامين الرى. وكان آبا قاخان لفرط حبه الشديد لحفيده، يلبس قلنسوة عتيقة فى بعض الأحيان، ثم يأتى متنكرا إلى مخدع غازان، ويداعبه وهو مستلق فى ثياب النوم. وكان يعريه، ويأمر "آشتا ايكاجى" بألا يضع وسادة تحت رأسه. وكذلك لم يسمح بأن يضعوا وسادة على سرج فرس غازان جريا على عادة أبناء الملوك، بل يجلسوه على سرج بلا غطاء حتى يصير متقشفا.

وكانت توغتاى خاتون تكرر قولها: "ليت السلطان يهبنى غازان كولد لى أتبناه، إذ إنه ليس لى ولد. ولكن لما كان آبا قاخان يحب زوجته بولغان خاتون حبا جما، ويريد أن يجعل مقرها خاصا بغازان، كان يجيبها بقوله: "إن والده أرغون قد وهبه لبولغان خاتون كابن لها [ص٢٥٤]، فكيف يمكن استرداده منها؟! وكان دائما يصرح بأن آيات السعادة والإقبال تبدو على جبين هذا الغلام. وكان يضرب لذلك مثلا مغوليا يقول: "كالضرس بين الكرشمة: يعنى الكرشمة اللينة التى ينبت منها ضرس، وكان يدعوه بهذا الاسم "كرشمة" مداعبا.

وفى سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م عندما عاد آبا قاخان من بغداد، وتوفى فى همذان، كان غازان فى العاشرة من عمره، فبكى على جده بكاء حارا، فكانت الخواتين والأمراء جميعا يرقون لنواحه وعويله. ولما عاد أرغون خان من خراسان، ولحق بالمعسكرات فى مراغه رجع بعد جلوس أحمد على العرش. وكان غازان لا يزال مقيما عند بولوغان خاتون كما كان مقررا من قبل.

وفى سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م عندما كانت بولغان خاتون تمضى الشتاء فى بغداد، كان معها الأميران گيخاتو وغازان. وكان أحمد فى أران[1]. أما أرغون فقد قدم من خراسان إلى بغداد، ومكث هناك خلال فصل الشتاء. وفى وقت الربيع توجهت بولوغان خاتون إلى خراسان، فتزوج منها أرغون خان، وأدخلها فى حبالته[2]. ولكن ظل غازان فى معسكرها جريا على القرار والقاعدة.

وعندما توجه أحمد إلى ناحية خراسان، أراد أرغون أن يعود من حيث أتى، وذلك على النحو المذكور فى تاريخ أرغون. ثم أوفد أرغون ابنه غازان إلى أحمد ثانية، فأدركه بناحية سمنان. وقد لاحظ عليه أحمد أمارات الملك، وشمله بعطفه، وأطرى شجاعته كثيرا. ثم أذن له بالانصراف من بسطام. وعندما قدم أرغون إلى أحمد – الذى كان معه ايلدار – صار أحمد يقول كلاما سفيها فى مواجهة أرغون. فرد عليه غازان، وأبدى فصاحة وبلاغة، فبقى الجميع حيارى مدهوشين لحسن جوابه وسؤاله.

وبعد أن نصر الحق تعالى أرغون وتعقب أحمد فى آذربيجان، سارت بولوغان[3] خاتون أيضا متوجهة إلى تلك النواحى. أما غازان فقد تركوه فى خراسان ليحل محل أبيه، وتركوا له أكثر المخيمات. وكان برفقته الوزراء الكبار، وأيضا "أيسن بوقا" الذى كان أميرا لذلك المعسكر **[ص ٢٥٥]**، كذلك بقيت الخزائن كلها هناك لغازان.

ولما توفيت بولوغان خاتون، تزوج أرغون بعد مدة من سيدة تحمل نفس الاسم "بولوغان خاتون" وهى موجودة الآن، وقد أسكنها محل الأخرى. وعندما شاهدت خزائن

---

(١) أران: ولاية واسعة وبلاد كثيرة منها جنزه "گنجه". وبين آذربيجان وأران نهر يقال له الرس. وأران أيضا قلعة مشهورة من نواحى قزوين (معجم البلدان، ج١، ص١٣٦).

(٢) جريا على عادة المغول التى تبيح للأبناء الزواج من زوجات آبائهم. ويستثنى من ذلك أمهاتهم.

(٣) يكتب هذا الاسم: بولغان أو بولوغان أو بلغان.

بولوغان خاتون المتوفاة، اختارت منها لنفسها قليلا من الثياب وأدوات الذهب والفضة. وقالت عن الباقي: بموجب فرمان آبا قاخان تكون الخزانة والموطن والمخيم ملكا لغازان فينبغي أن تختم هذه الأشياء ويحافظ عليها. وقد أجمع الذين شاهدوا هذه الخزانة على أن مثلها لم يتح لأى شخص آخر مطلقا؛ إذ كان يوجد بها الكثير من الجواهر واللآلئ الثمينة بحيث لا يمكن وصفها. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن آبا قاخان - لفرط حبه الشديد لبولوغان خاتون، كان كلما ذهب إلى الخزانة، يأخذ منها جوهرة ثمينة، ويعطيها إياها فى الخفاء. ولكن بعد أن توفيت بولوغان خاتون، مد الخزنة أيدى الخيانة إلى محتويات هذه الخزانة. فعلم بذلك غازان، وكان دائما يؤاخذهم على خيانتهم. وحتى لا تحدث هذه السرقات كانت تلك الخزانة تختم بالختم.

ولما توفى أرغون خان، تزوج گيخاتو من بولغان خاتون رغم إرادتها ولم يدع غازان يذهب إليها، كما سبق أن ذكر فى تاريخه[1]. ثم أعادها گيخاتو من تبريز فتأثرت تأثرا شديدا لتلك الحالة. وكانت تصبر دائما على هذا الوضع. وقد استمر الأمر على هذا المنوال حتى مقتل گيخاتو وانتصار غازان على بايدو، وصار سلطانا، فتزوج من بولوغان خاتون. وفى أواخر ذى القعدة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م وصل الحق إلى مستحقه.

وفى الوقت الذى قدم فيه أرغون خان إلى خراسان، وجلس على العرش وترك غازان هناك نائبا عنه، لم يتح لهما اللقاء بعد ذلك. وسوف نذكر أحواله فى خراسان خلال تلك المدة فى قسمين إن شاء الله تعالى.

---

(١) انظر جامع التواريخ، المجلد الثانى الجزء الثانى: تاريخ أبناء هولاكو من آبا قاخان إلى گيخاتو خان. نقله إلى العربية محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطى الصياد، ص١٧٠، القاهرة ١٩٦٠م.

ذكر زوجات غازان وأبنائه

[ص٢٥٦] تزوج غازان في البداية من "يـدى قورتقـه"، وهـي ابنـة منكـو تيمـور گوركان من قبيلة سولدوس. وكانت والدتها طوقلغشاه بنت مباركشاه بن قراهولاكو بن ييسوتوى بن مواتوكان بن چغتاى. وبعد ذلك تزوج مـن بولوغـان خـاتون الخراسـانية بنـت الأمير تسوكا. وكانت والدتها بنت أرغون آقا. ثم تزوج من آشيل خـاتون بنـت توقتيمـور أمير التومان (عشرة آلاف جندى) ابن نوقاى يارغوچى. ومن بعدها تـزوج مـن كوكـاجي خاتون التي جيء بها من منغوليا، وهي من بين قريبـات بولوغـان خـاتون الكبرى، والتي أنزلها في مخيم توقوز خاتون وتوقيتى خاتون. ومن بعدها تزوج مـن بولوغـان خـاتون بنـت اوتمان بن أخي أبتاى نويان. وقد أنجب منها ولدا اسمه "آلجو". توفي في صغره. كذلـك كانت لها بنت اسمها "اولجاى قتلغ" زوجتها من ابن أخيها .. وبعدهـا تـزوج مـن "دنـدى خاتون" ثم من "كرمون خاتون" وهي بنت قتلـق تيمـور بـن آبتـاى نويـان. وقـد أحلـها محـل كوكاجي خاتون.

ما ذكرناه هو قصة زوجات غازان، وقد تم شرحها. أما جـدول شعبه الشريفة لأبنائه فهو على هذا النمط الذى نثبته.

القسم الثانى

من تاريخ غازان

فى مقدمة جلوسه المبارك، وصورة العرش والأمراء الأنجال والأمراء عند جلوسه على عرش السلطنة، وتاريخ عهد حكمه والحروب التى قام بها، والفتوح التى تيسرت له

مقدمة جلوسه المبارك ابتداء من ذلك العهد الذى اختاره فيه أرغون نائبا عنه فى خراسان إلى أن تغلب على بايدو

وذلك القسم عبارة عن عدة حكايات:

حكاية حاله فى خراسان فى عهد والده:

لما نجا أرغون خان بعون الله تعالى من يد أحمد، وتعقبه إلى ديار آذربيجان، وجلس على عرش الملك، ترك الأمير غازان نائبا عنه فى خراسان، ومنحه تلك البلاد مع جيوش كثيرة، وعهد إليه بتلك المنطقة التى تعد من أعظم الثغور. وظل يقيم هناك طبقا لأوامر والده. وكان يرعى مصالح تلك البلاد، ويرتب شئونها. وكانت الرسل تتردد دائما من أجل إبرام مختلف المهمات. وظل الأمير نوروز يلازمه. وكان غازان يبذل الجهود والمساعى فى تصريف شئون الجند والإمارة.

وفى شهر ذى الحجة سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م، عندما عاد غازان خان من مشتى مرو وكان نوروز فى خدمته، توجس هذا خيفة بسبب قتل صديقه بوقا وأتباعه[١]. **[ص٢٥٨]**

---

(١) الأمير بوقا كان شخصية كبيرة فى عهد أرغون والد غازان. وكان قد عهد إليه بالإمارة والوزارة وذلك مكافأة له على دوره البارز فى القضاء على السلطان أحمد تكودار وتولية أرغون عرش المغول فى إيران. ثم نقم عليه "أرغون" بسبب طغيانه واستبداده، فقضى عليه وعلى جميع أتباعه. ولما كانت تربطه بنوروز صلة صداقة، خاف نوروز على نفسه وثار على غازان وحاربه. (انظر كتاب الشرق الإسلامى=

فما كان منه إلا أن استأذن غازان قائلا: "تصل أنباء عن المتمردين، فأريد أن أعود إلى دياري، وأشاهد الآلاف من أتباعي. وإذا دعت الحاجة، فسوف أزحف بالجيش. فلما حصل على الإذن عاد إلى دياره. ثم ترك زوجته الأميرة طوغان مع والدته "سرميش" وإخوته "يراتاى غازان" و"حاجى" و"نارين حاجى" وأبناء أخيه فى ملازمة الحضرة.

بعد ذلك أرسل أرغون الأمير "تكنا" على رأس الأمراء بصفته معاونا لغازان فى حكم خراسان. ولكن لم ترق لغازان عادات "تكنا" وسيرته. ولما لم يكن ذلك مناسبا لطبعه لم يتيسر له أن يفعل ما يريد. وكان الأمير قتلغ شاه نويان قد عاد من ناحية آذربيجان، وأقام على حدود "خوجان" بسبب اعتلال صحته.

أما نوروز فقد سار إلى "وادى جز" حيث المقر الشتوى لجماعته، وأمضى الأمير "كينشو" فصل الشتاء فى هراة تنفيذا لحكم المرسوم. وعندما حل الربيع، رحل الأمير غازان من مرو إلى ناحية سرخس[1] حيث مكث عدة أيام. ثم قدم إلى "قرابته" سرخس" حتى تسمن الدواب وانصرف إلى اللهو والرمى. ولخوف نوروز من أرغون بسبب تهمة بوقا صار يرسل تباعا، وينتحل الأعذار قائلا: "إن ما أصابنى من وجع فى قدمى هو المانع من وصولى إلى الحضرة". ثم أحضر أمراء السرايا ممن هم تحت إمرته وكذلك أتباعه، وقال لهم: "سمعت أنه قد وصل أمر من أرغون إلى الأمير النجل غازان يقضى بأن "نوروز" وأتباعه كانوا يتآمرون مع بوقا، فينبغى اعتقالهم وإعدامهم جميعا. ولما كان الأمير "كينشو" قد تزوج من أخت "نوروز"، أرسل إليه أيضا رسالة بهذا المعنى، بحيث إنه خوفه وحذره، وجعله متحدا معه. وفى تلك الأيام القريبة، وصل "ساداق ترخان" و"بيكلاميش" اللذان أرسلهما غازان إلى حضرة أرغون. ثم أقام مدة شهر فى "قرابته". وهكذا ذاع على الأفواه تمرد نوروز وفتنته. وفى تلك الأثناء، وصل أيضا الأمير قتلغ شاه.

= فى عهد الإيلخانيين "أسرة هولاكو خان، تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، ص١٦٠ وما بعدها منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر، الدوحة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م).

(١) سرخس: بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الخاء المعجمة، وآخره سين مهملة. ويقال سرخس بالتحريك. والأول أكثر. مدينة قديمة من نواحى خراسان، كبيرة واسعة. وتقع بين نيسابور ومرو فى وسط الطريق. وتكثر فيها مراعى الإبل والأغنام. ولو أن ما يزرع من أراضيها محدود المساحة بسبب قلة مائها. ولأهلها مهارة فى صنع المقامع والعصائب المنقوشة المذهبة (انظر معجم البلدان، ج٣، ص٢٠٨ بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٣٨).

بعد ذلك استأذنت "سرميش" والدة نوروز والأميرة طوغان وكذلك إخوته وأبناء إخوته في المسير بحجة أن "نوروز" قد زوج ابنته من "ساربان بن نيكبى"، وأن الجمع فى انتظارهم كى يحضروا مراسم الزواج والأفراح على أن يعودوا بعد حفلات الزفاف فلما ذهبوا لحقوا بنوروز.

وفى أوائل ربيع الأول سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م رحل غازان من "قرابته"، وسار إلى ناحية طوس وراذكان[1]. ثم أرسل "ساداق" برسالة إلى نوروز يقول فيها: "إننا قد ارتحلنا، لنلحق بك هناك؛ فينبغى أن تقابلنا عند نهر فرغانة أى عند "كشف رود". فلما وصل "ساداق" إلى نوروز، اعتقله وقيده، ثم استجوبه بضرب العصى والهراوات قائلا: "لقد كنت فى خدمة أرغون، فصارحنى: ما حكمه علي؟! فأجاب: "خير وحسنى". وعندما هم نوروز بقتله تحدث ببضع كلمات مضطربة خوفا على حياته، غير أن والدة "نوروز" "سرميش" والأميرة طوغان حالتا دون قتله، فزج به فى السجن. ثم سار به فى الطريق. وهكذا شرع نوروز فى إثارة الفتنة والاضطراب. أما غازان فقد نزل بعد ذلك فى منطقة "كشف رود" عند "سد معين".

وفى يوم الخميس ٢٧ من ربيع الأول سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م **[ص٢٦٠]** قدم نوروز بالجيش الذى معه، ليداهم المعسكر المعظم لغازان. واتفق أن بوقا وتكنا وكورك والأمراء الآخرين كانوا قد نزلوا عند النهر، واجتمع جمع غفير وعسكر الجيش عند حافة ربوة خارج وادى النهر.

ولما كانت العناية الربانية ترعى غازان، أدرك نوروز ذلك التجمع، وظن أن تلك الجحافل تابعة لغازان خان، فحاصرهم؛ فأخذوا يهللون ويصيحون جريا على عادة المغول. وبسبب اللطف الإلهى، استيقظ غازان مبكرا، وغسل وجهه، وحضر المقربون إليه، وركب الأمير قتلغ شاه استعدادا للقتال، وازداد الضجيج. كذلك ركب غازان. وكان الأمير قتلغ شاه فى خدمته. وقد سارا إلى ناحية رباط "سنگ بست" على طريق نيسابور. وبذلك نجا

---

(١) راذكان أورادكان: قرية من قرى طوس. وقيل بليدة تقع فى نصف الطريق بين خبوشان وطوس. خرج منها جماعة وافرة من أهل العلم. ويقال: إن الوزير نظام الملك كان منها. (معجم البلدان، ج٣، ص١٣؛ بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية، ص٤٣٥).

من تلك الغارة المفاجئة بفضل العون الإلهي. وقد أعتق "نوروز" الأمير بوقا[1] وتكنا وكورك. وأمر بإجلاء الجنود من المعسكرات ومنازل الأمراء جميعا، وأرسلهم إلى "بزاوكان". ثم نهبوا كل ما وجدوه، وقتل "نوروز" بوقا. وكان يحتفظ بتكنا والأمراء الآخرين مسجونين عنده.

وعندما بلغ غازان نيسابور، كان هناك الأميران ساتلميش ومولاى فالتحقا بخدمته. ثم اعتزم غازان السير إلى مازندران. وتصادف أن الدرع الذى كان فى غاية الحسن والجمال قد أسقطه السياس من العيبة[2] وبحثوا عنه مدة، فلم يعثروا عليه.

أما سبب عزيمة غازان على التوجه إلى مازندران، فيرجع إلى وجود الأمير "هولاجو" بها. وكان يشاع أنه متفق مع نوروز. وكان نوروز يكتب المنشورات إلى الولايات بهذا المعنى **[ص٢٦١]**، فأراد غازان أن يعتقل "هولاجو" قبل أن ينضم إلى نوروز، فسار بسرعة فائقة؛ بحيث إنه ركب من نيسابور، فبلغ ظاهر "شهرك نو" خلال خمسة أيام. وبقى الأمير "كورتمور" بمفرده. وقد انضم إلى الحضرة أمراء جيش مازندران. وكان هولاجو فى ظاهر مدينة جرجان[3] على مقربة من "كورداغى".

وفى يوم الجمعة السابع من ربيع الآخر، داهموا "هولاجو"، وطفقوا يهللون ويصيحون قبل أن يصلوا إلى دياره. وكان "هولاجو" يشكو من ألم فى قدمه، فخرج مسرعا قبل أن يلبس نعله، وعزم على الفرار. وعندما وصل الجنود إلى منزله، ولم يجدوه تعقبه الأميران مولاى وباينجار وقبضا عليه بالقرب من "سنگ سواد"، وأحضراه. ثم نهب الجنود دياره. ولما اقتادوه إلى الحضرة، وسألوه عن أحوال نوروز أنكر وقال: ليست لدى معلومات عن أحواله، وإننى لم أكن متواطئا معه، ولم تخطر ببالى هذه الفكرة قط.

---

(١) بوقا هذا شخص آخر غير الأمير بوقا وزير أرغون السابق ذكره.

(٢) العيبة: وعاء من أدم ونحوه، يكون فيه المتاع. الجمع عيب وعياب (انظر المعجم الوسيط، ج٢، ص٦٣٩).

(٣) جرجان: مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان، ليس لها نظير فى نواحيها. والغالب على أعمال جرجان الجبال والقلاع. ويعرف عن أهلها الوقار والمروءة واليسار. وفيها مياه كثيرة وضياع واسعة. وليس بالمشرق بعد مجاوزة العراق، مدينة أجمع ولا أظهر حسنا من جرجان. وبها الزيتون والنخل والجوز والرمان وقصب السكر والأترج. وفيها يجود الإبريسم ويحمل إلى كل الآفاق. وقد خرجت جرجان كثيرا من العلماء والأدباء (معجم البلدان، ج٢، ص١١٩ - ١٢٠؛ الروض المعطار، ص ١٦٠ - ١٦٢).

وفى ذلك اليوم نزل غازان على مقربة من جرجان. وفى اليوم التالى، أرسل "هولاجو" إلى حضرة أرغون رسالة، وذلك على يد "تايتمور". أما غازان فقد أقام يوما، وتفقد الجنود. ومن هناك تحرك إلى جانب خبوشان[1] وطوس ورادكان لمواجهة نوروز؛ بحيث إنه فى اليوم السابع، وصل إلى موضع "سلطان ميدان كلندر" الذى كان على بعد ثمانين فرسخا. وفى آخر النهار، وصل خبر من الحراس يفيد أنه يبدو ظل جيش المتمردين، فصدر الأمر بأن يتسلح الجيش كله. ولما رأى المتمردون [ص٢٦٢] الجيش المنصور من بعيد، ساروا إلى ناحية رادكان. وفى تلك الليلة ظلت الرايات السلطانية فى "سلطان ميدان". ثم هطل مطر غزير أتلف معظم الدروع وسروج الخيل.

وفى الصباح الخامس عشر من ربيع الآخر، توجهت الرايات السلطانية إلى رادكان فى طلب نوروز، فالتقوا به فى موضع يسمى "اينجكه سو". واصطف الفريقان، فأسرع الجيش المظفر إلى مداهمتهم، وذلك لفرط شجاعته، وقاتل الجند قتالا عنيفا؛ لا سيما الأمير قتلغ شاه. ومن الجانب الآخر ثبت كينشو ونوروز وتكنا.

وفى نهاية الأمر ظهر وهن فى جنود هذا الطرف (أى جنود غازان) فولوا الأدبار منهزمين. وكذلك توقفت الرايات السلطانية مدة طويلة فى مواضعها. ثم أمر غازان الأمراء قتلغ شاه وساتلميش وسوتاى بجمع فلول الجنود. ورغم ما بذلوه من جهد لم يستطيعوا جمعهم. وعندئذ تحركت الرايات السلطانية إلى "جوين"[2] عن طريق أرغيان. وعقب أمراء الجيش، وصل ايغورتاى وغازان والآخرون. ومن كل ولاية جوين لم يقدم أى مخلوق إلى الحضرة سوى "مهتر نجيب الدين الفراش" الذى خرج على الفور عندما وصلوا إلى قرية

---

(١) خبوشان أو خوجان: مدينة تقع فى المستنقعات التى تخرج منها نهرا ترك بالقرب من طوس. سمى رستاقها "أستوا". وقد عرف بخصوبة أرضه، وأعاد هولاكو خان بناء خبوشان فى المائة السابعة (الثالثة عشرة). ثم وسع حفيده أرغون هذه المدينة كثيرا وطقسها معتدل. وهى تنتج القمح والقطن وفواكهها كثيرة. وقد وسع حفيده أرغون هذه المدينة كثيرا (بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية، ص٤٣٥).

(٢) جوين: اسم ولاية على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور، وجميع قراها متصلة واحدة بعد الأخرى. وأكثر سكانها من الشافعية، وتستمد جوين ماءها من القنوات، وحاصلاتها متنوعة. وإلى جوين ينسب خلق كثير من الأئمة والعلماء. (انظر معجم البلدان لياقوت، ج٢، ص١٩٢ ١٩٣، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م؛ نزهة القلوب، ص١٨٤، تهران ١٣٣٦هـ.ش)

"زيرآباد"، وقدم أكمل فروض الطاعة وعنى بالخيل عناية فائقة، وقام بالخدمات الجليلة اللائقة من كل نوع؛ فلا جرم أن سلطان الإسلام عندما تربع على عرش السلطنة، شمله بعطفه، ومنحه كثيرا من الامتيازات، وجعله من جملة المقربين إلى الحضرة. **[ص٢٦٣]** ومنحه قرية "زير آباد" التى كانت من أملاكه الخاصة. كذلك منحه مرسوم الترخانية[١] وفوض إليه الإشراف على الخزانة، وإدارة الخانقاه التى بناها فى قرية "بوزينجرد" من أعمال همذان. وهى عبارة عن عمارة مرتفعة وبناء رائع. وقد أوقف عليها أوقافا كثيرة من الضياع والعقار، وجعل ولايتها له ولأولاده وأعقابه، وصار ملحوظا بنظر العناية والعاطفة السلطانية.

وعلى هذا لا يخفى أن كل من يؤدى للسلاطين خدمة جليلة ومرضية لا بد أن يجنى نتيجتها وثمرتها، ويكون موقرا ومحترما فى نظر الجميع. وحتى هذا الوقت فى عهد السلطان أولجايتو خلد الله سلطانه كان هذا الشخص لا يزال يباشر هذه الأعمال ويتمتع بما كان له من توقير واحترام.

والحق أنه رجل شريف ومرتب، طيب الذات، حسن السيرة؛ فلا غرو أن يكون جديرا بملازمة السلاطين، وينال منهم دائما الخيرات والمبرات. وهكذا فإن كثيرا من الناس من الصلحاء والعلماء وسائر أصناف الطوائف ينعمون في وجود غازان بالراحة والرفاهية.

وصفوة القول أنه عندما وصلت الرايات السلطانية إلى مكان قريب من جاجرم[٢] تشاوروا فى الأمر، وقالوا: إن المصلحة تقضى بأن نذهب إلى حضرة أرغون خان أو أن

---

(١) الترخان هو الرجل المعفى من الضرائب، ويكون له حق الاستحواذ على ما يغنم فى الحرب، ويدخل على الخان الأعظم دون استئذان، ويخصص له عدد من الجند والأتباع يكونون تحت تصرفه، ويعطى من الدواب والحمير والمنقولات ما لا يدخل تحت حد وحصر، ويعفى من المساءلة عن الذنوب التسعة الأولى التى يرتكبها. ويكون لأبنائه أيضا حق التمتع بهذه الامتيازات وقانون الترخانية خاص بهذه الطبقة. (انظر عطا ملك الجوينى: تاريخ جهانگشاى، جلد أول در تاريخ چنگيز خان وأعقاب او تاكيوك خان، ص ٢٧ ٢٨، بسعى واهتمام وتصحيح محمد بن عبد الوهاب القزوينى، ليدن ١٣٢٩هـ / ١٩١١م).

(٢) جاجرم: يقال له أيضا أرغيان. بلدة لها كورة واقعة بين نيسابور وجوين وجرجان. تشتمل على قرى كثيرة. وهى بلد حسن. وتتميز مساكنها بالفخامة. تنتج القمح، وتكثر بها الفاكهة. (انظر معجم البلدان، ج٢، ص٩٢؛ نزهة القلوب، ص١٨٤؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٣٣ ٤٣٤).

نقيم فى كالبوش. فرد عليهم غازان بقوله: حيث إننا قد أرسلنا الرسولين: يغميش وأرمنى بلاء، ينبغى أن نصبر حتى نعرف ما عساه أن يحدث. ثم توقف فى كالبوش. ولما كان بها موطن "ايغورتاى غازان"، وكان مطلعا أيضا على الأوضاع فى مازندران، قدم هناك خدمات جليلة. بعد ذلك عين غازان طائفة من الحراس ليرابطوا حتى صمنقان وجرمقان.

وفى تلك الأيام وصل نظام الدين يحيى من ولاية "بيهق"[1]، وأحضر معه كل ما تحتاج إليه الحضرة السلطانية، وما يلزم المعسكر من الخيول القبجاقية والآلات الذهبية [ص٢٦٤] والفضية والمخيمات والسرادقات والأوانى والبغال والإبل. كما قدم للأمراء خدمات مستحسنة، ثم عاد إلى بيهق حسب الأمر الصادر إليه كى يعد الأموال والميرة للجند.

وقبل الاشتباك مع نوروز بيومين، هاجم الأمير "إلادو" وطائفة أمراء القراوناس ديار نوروز، ونهبوا كل ما فيها. فلما وقف نوروز على ذلك الأمر تعقبهم. أما كينشو والآخرون فقد أقاموا فى رادكان. وكما هى عادة القراونة، انقسموا – بعد تلك الغارة – إلى فرقتين أو ثلاث فرق وانفضوا من حول الأمير "إلادو"، وانضم بعضهم إلى الأمير نوروز، وسار بعضهم إلى ديارهم، وشرعوا فى إثارة الفتن والاضطرابات. وعندما شاهد "إلادو" تشتتهم وتفرقهم، نقل خيامه إلى حدود "بادغيد" فى واد حصين وانضم إلى الحضرة، فشمله غازان بغاية عطفه ورعايته، وأقام مدة أربعين يوما فى "كالبوش". وعندما قدم الجنود من حضرة أرغون، يتقدمهم الأمير بايدو، ونورين آقا وابنه انضموا إلى حضرة غازان، وشغلوا عدة أيام بإقامة الولائم والاحتفالات. ثم رحل غازان من هناك – بطالع السعد إلى "خبوشان" عن طريق سمنقان.

وعندما علم نوروز بوصول الجنود من ناحية العراق، وعرف أنهم يقصدونه، نقل خيامه وأمتعته إلى هراة، وقدم هو نفسه إلى حدود جرمقان. وعندما رأى أنه لا طاقة له بالمقاومة

---

(١) بيهق: ناحية كبيرة وكورة واسعة، كثيرة البلدان والعمارة من نواحى نيسابور. تشتمل على ثلاثمائة وإحدى وعشرين قرية بين نيسابور وقومس وجوين. وكانت قصبتها أولا خسروجرد ثم صارت سبزوار. وقد خرجت بيهق عددا كبيرا من الفضلاء والعلماء والفقهاء. والغالب على أهلها مذهب الشيعة الغلاة. (انظر معجم البلدان، ج١ ص ٥٣٧ ٥٣٨؛ تاريخ بيهق، تأليف أبى الحسن على بن زيد البيهقى المعروف بابن فندق: مقالة العلامة محمد بن عبد الوهاب القزوينى، ص: ى وما بعدها، طهران ١٣١٧هـ.ش.).

عاد من حيث أتى، فصار الجيش المنصور يتعقبه حتى حدود جام. وفى موضع "نجار سراى" التى تلى جام [ص٢٦٥] دخل فى طاعة غازان "أولجتيو" مع جماعة القراونة وبتماجى بن يكه يندون من أتباع نوروز. ولما بلغوا "خرجرد جام" كان نوروز قد ساق كل الدواب التى وجدها فى خراسان، سواء أكانت له ولجنوده أم كانت للعرب والتركمان وغيرهم. وكان يأخذها معه.

ولما وصل الجنود المنصورون متعاقبين، شاهدوا ابتداء من مدخل جام حتى مدخل هراة الحزون(١) والسهول وكلها تعج بالدواب التى تركها وراءه نوروز وجنوده. وفى عدة أماكن أخرى شوهد كثير من الدواب قد نفق. ونظرا لشدة العفونة، أصبح السير متعذرا فكان المغول يأخذون تلك الدواب، ويسيرون بها. وفى القرى كانوا يبيعون كل خروف بدانق واحد. وحيث إنه كان قد صدر أمر بألا يهتموا بالغنائم، لم يجرؤوا على أن يأخذوا منها المزيد. وقد حمل نوروز كل ما خف حمله من المتاع. ثم سار مع الأميرة "طوغان" وعائلات الإخوة وعدد معدود عن طريق فره وسبزوار وهى منطقة صحراوية قاحلة.

ولما كان الوقت صيفا، لم ير غازان من المصلحة فى شيء أن يرسل الجند فى إثر نوروز وأقام عند باب هراة على ضفاف نهر "بول مالان". ثم أرسل الأمراء إلى بادغيس لاستدعاء "كينشو" والجيش المعظم. وعلم كينشو بهذا الأمر، فخرج مع نسائه وأطفاله وأتباعه إلى جبال الغور وغرجستان. أما أمراء المعسكر المعظم وتكنا وجنود القراونة الذين كانوا معه فقد رحلوا جميعا إلى هراة. ومما يدل على ثبات "كينشو" وسكونه وأمانته – خلال تلك المدة أنه لم يستول على دينار واحد من الخزائن الخاصة أو الأموال والدواب التابعة لبيوت الأمراء الذين كانوا هناك، ولم يتصرف فيها. بل إنه فى الواقع أدى خدمات جليلة.

[ص٢٦٦] وبعد عدة أيام رحلوا من هراة، واتجهوا إلى ناحية "رادكان" ومن هناك سير غازان إلى حضرة أرغون "ايغورتاى غازان" فى صحبة تكنا ليشرحا له أحوال جيش خراسان. وعلى الرغم من وجود المزيد من الفتن والاضطرابات التى كانت تحدث فى خراسان، لم يكن غازان يغفل دقيقة واحدة قط عن مراعاة قواعد العدل والإنصاف. وكان

---

(١) مفرد حزن. والحزن من الأرض: ما غلظ. ومن الدواب ما صعبت رياضته. ومن الناس من خشنت معاملته. المعجم الوسيط، ج١، ص١٧١).

يبذل قصارى جهده في رعاية شئون الرعية. وكان قد سن قانونا يقضي بألا يدع أي مخلوق من الجنود أو غيرهم الدواب تتلف مزارع الناس وبساتينهم. وقطعا لا يطعمونها الغلات، ولا يعيثون في الولايات فسادا، وألا يشقوا قط على الرعايا.

بعد ذلك تحرك غازان من رادكان إلى "شتركوه" مع طائفة القراونة الذين كانوا قد تركوا في ناحية "جام"، وذلك كي يصطاف. وهناك شغلوا باللهو والشراب. وقد أكرمهم غازان غاية الإكرام.

وفي أثناء ذلك ورد نبأ من الحراس يفيد أن العصاة قد ظهروا، فتحركت الرايات السلطانية إلى ناحية رادكان. وكانت تلك الإشاعة كاذبة. وبسبب إدمان غازان الشراب اعتلت صحته. ثم قدم الجمع من هناك إلى خبوشان. وقد ظل غازان مريضا ما يقرب من أربعين يوما. وبعد ذلك استرد صحته.

وخلال تلك المدة وفد الأمير "شيكتور آقا" و"طوغان" من لدن حضرة أرغون، وأمضيا الصيف والخريف مع أتباعهما في منطقة خبوشان ورادكان وشتركوه. فلما صار الجو باردا، استقر الرأي على أن يمضوا الشتاء في نيسابور. أما غازان فقد مضاه في "مويدى" ومضاه الأمير بايدو في موضع "شامكان" الذي يقع بين بيهق ونيسابور. ولقد اشتد البرد في ذلك الشتاء، ونزل الثلج بغزارة فهلك أغلب الدواب، وبقي أكثر الناس مترجلين **[ص٢٦٧]**.

ولما حل ربيع سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م قضوا الصيف في مناطق رادكان وخبوشان وشتركوه. وفي هذا العام كان الأمن مستتبا في كل الجهات. وقد أحضروا الأموال من لدن أرغون، وقسموها على الجنود. بعد ذلك سار طوغان حتى منطقة بادغيس ثم عاد. وفي أوائل الصيف بسبب عدم توافر الميرة في خراسان، صدر الأمر بأن يعود الأمير بايدو ومن كان معه من الجنود الذين كانوا قد ساروا من العراق وآذربيجان، وأن يلازمه "نورين". ثم قدم غازان إلى ناحية بام وارغيان لتوديع بايدو، وعاد بعد ذلك.

وفي ذلك الصيف تغيرت نيات طائفة من القراونة، ودخلوا ولاية جوين، يتقدمهم "دانشمند بهادر"، وصاروا يعربدون ويخربون، فعين غازان الأمير "مولاى" لمقاومتهم واستمر غازان طوال الصيف والخريف يشتغل بالصيد والنزهة في منطقتي خبوشان

ورادكان. كما عهد إلى الأمراء بتنظيم الجيش، وإلى أصحاب الديوان بضبط الأموال وإعداد الميرة للجند. ثم أمر بقضاء الشتاء فى "تزن باورد"، وإقامة سد على النهر الذى يدعى "كال تزن"، وعمر عدة قرى.

وفى ذلك الخريف، وصل المدعو "خوارزمى ترخان" من لدن أرغون خان لضبط شئون خراسان وتدبير الأموال فى هذا الإقليم. كذلك أمر غازان بأن يباشر الجميع أعمالهم وفقا للفرمان السابق. وبموجب الفرمان أيضا أمر باعتقال نواب طوغان فى قهستان وإحضارهم إلى الحضرة. وأما الكتاب والعمال فى خراسان، فقد زج بهم فى السجن، وحقق معهم.

وفى آخر الشتاء شرع جمع من القراونة فى التمرد فى ناحية سرخس وساروا إلى جهة مرو **[ص٢٦٨]**. ثم تحركت الرايات السلطانية إلى "وادى مرغه" . وقد سير غازان "الإدونويان" للقضاء على فتنة القراونة، فحاربهم إلى أن أخضعهم وألزمهم الطاعة. بعد ذلك أقام غازان مدة فى ناحية "ارجاه" و"شوكان". ومن هناك سار إلى سرخس، ثم نزل "بقراتيه" التى تسمى "شيرسيل".

وفى شهور سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م وصل نبأ يفيد بأن "نوروز" سوف يصل قاصدا خراسان بجيش معد تماما ومعه ساربان وأبوكان أغول واوركتيمور وقواد يساوور. وكان سبب ذلك هو أن "نوروز" عندما هزم قبل ذلك فى منطقة هراة، فر هاربا، وسار إلى قايدو[1]. وبعد أن قدم له خدمات كثيرة، التمس منه أن يمده بجيش فأجابه إلى طلبه وأرسل إليه جيشا، وسير أيضا ابنه "ساربان" على رأس جيش آخر لمساعدة نوروز. فما كان من غازان إلا أن أرسل "قبرتو" مع طائفة من القواد لاستطلاع الأخبار، فساروا إلى "مرغاب" ثم عادوا وقالوا: إن المتمرد سوف يصل حقيقة على رأس جيش كبير.

---

(١) قايدو: هو ابن قاشى بن أوكتاى قا آن بن چنگيز خان (انظر جامع التواريخ: تاريخ خلفاء چنگيز خان من أوكتاى قا آن إلى تيمور قا آن: نقله إلى العربية الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، ص ٣٢١ ٣٢٢، بيروت ١٩٨٣ رحلات ماركو پولو، ترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، ص ٣٥١ ٣٥٢، القاهرة ١٩٧٧؛ بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، ص٧٠٤ وما بعدها الكويت ١٤٠١هـ / ١٩٨١؛ الشرق الإسلامى، ص٤٧).

ولما لم يكن جنود غازان مجتمعين، رحل الحاضرون منهم إلى موضع آخر حيث مرغانه وكشف رود، وصاروا ينتظرون حتى يصل الأمير قتلغ شاه والجنود الذين كانوا يمضون الشتاء فى هراة. كذلك أرسلوا الأمير "كونجك" لاستدعاء جنود مازندران. وعندما وصلوا إلى "جسر معين" "بول معين"، استأذن الأمير مولاى، وسار إلى قهستان حتى يحضر الجنود من هناك. وكانت أخبار المتمردين تصل تباعا، فرحل غازان من هناك، [ص٢٦٩]، ونزل فى أعلى المشهد الرضوى، وظل فى انتظار الأمير قتلغ شاه. وأثناء النهار وصل "قبان اختاجى" من ناحية آذربيجان موفدا من قبل الأمراء الذين كانوا قد أثاروا الفتنة هناك، وقتلوا جوشى واوردقيا وسعد الدولة، ثم أرسلوا قبان حتى يضرم نار الفتنة فى خراسان مع نفر من المفسدين. كذلك أخبر أن جيوش آذربيجان والعراق سوف تصل من لدن أرغون خان. أما غازان خان فقد عرف بما كان له من فراسة وكياسة – أن ما يقوله "قبان اختاجى" كذب. ولكن لما كانت الأخبار تصل تباعا عن تحرك المتمردين، لم يتفحص حقيقة الأمر.

وفى اليوم التالى، وصل الأمير قتلغ شاه، وصرح بأن جيوش نوروز المتمرد، قد وصلت إلى رباط "سنگ بست"؛ فشمله غازان بعطفه، وألبسه قباءه الخاص، وأعاده ليلا كى يحضر الجيوش صباحا إلى الحضرة فى موضع يلى المشهد المقدس، وذلك لخوض غمار المعركة. وفى منتصف الليل ورد نبأ من الحراس يفيد بأن العصاة اجتازوا جسر معين "پول معين"، فاقتضى الرأى العالى أن يسير الجيش الأعظم ليلا بمعداته مع الخواتين إلى "أسفرايين"[(١)].

وفى صباح غرة ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م تحرك غازان من هناك. وكان فى صحبته الأمراء: نورين آقا وإلادو وايغورتاى غازان وغيرهم. ثم ارتحل إلى ناحية تقع أسفل المشهد الرضوى، ومكث هناك ساعة واستعرض الجيش، وظل منتظرا وصول الأمير قتلغ شاه كى يحارب المتمردين. وفى وقت الظهيرة قدم "جمجمة" من قبل قتلغ شاه، وقال:

---

(١) أسفرايين وتكتب أيضا أسفراين: بليدة حصينة من نواحى نيسابور على منتصف الطريق من جرجان. واسمها القديم "مهرجان". سماها بذلك بعض الملوك لخضرتها ونضارتها. وفيها أسواق ومياه جارية وخانات. وهواؤها رطب. وتكثر فيها الأعناب والقمح. (انظر معجم البلدان، ج١، ص١٧٧؛ الروض المعطار، ص٥٧؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٣٤ ٤٣٥).

عندما وصلنا إلى "سنگ بست"، كانت الجيوش كلها قد سارت عن طريق "وجنك" و"اسحاقباد" إلى نيسابور [ص٢٧٠]. وعلى أثره جاء الأمير قتلغ شاه إلى الحضرة. وبعد ساعة ظهر سواد الجنود. ولما كانوا كثيرين – على حين أن جنود هذا الجانب (أى غازان) كانوا قليلين تشاور الأمراء فى الأمر، ورأوا أن المصلحة تقضى بتجنب الحرب وعدم خوض غمار المعركة. كذلك صرح "إلادو" بقوله: إنه ليس من صالحنا مواجهتهم. ثم ضرب هذا المثل المغولى الذى يقول: "إن الالتحام بجيش العدو المتمرد أمر سهل؛ أما التخلص منه فأمر عسير". وأنتم تعرفون أياما كثيرة تجيبون فيها على أرغون. أما جواب هذا اليوم فعلى أنا".

وأخيرا استقر الرأى المبارك على أن يتريث الحاضرون، ويعودوا، ويرابطوا فى أحد المواضع حتى تتجمع الجيوش بأكملها. ومن هناك تحرك غازان إلى ناحية "رادكان"، فصار المتمردون يتعقبونه. وفى آخر النهار داهم غازان بقواته جنود المتمردين بالقرب من طوس وتحاربوا. ثم ارتحل فى اليوم التالى، ورابط فى عدة مواضع. ولم يتصادف حدوث ذلك. ثم نزل فى "سلطان ميدان" ليلا، وارتحل صباحا. وقد عرض "إلادو" قائلا: "ما دام القتال ليس ميسرا. وقد سار أهلى وعشيرتى وأكثر الجنود إلى ناحية "جوين". فلو أذن لى قائدى، فإنى سوف ألحق بهم. فصرح له غازان بذلك، وذهب "إلادو" إلى حال سبيله. كذلك قال: "ارايتمور" والد "شيرين ايكاجى": لقد ذهب أهلى وجنودى أيضا إلى ناحية نيسابور، فلأذهب، وآتى بهم. فمضى هو كذلك. أما ايغورتاى غازان فكان يحب زوجته توزميش خاتون ابنة الأمير مباركشاه. وكان قد سيرها مع أهله إلى "كبود جامه". وفى نيته أن يأخذها وينضم إلى نوروز [ص٢٧١]، فطلب هو أيضا الإذن بحجة أنه سوف يذهب إلى دياره حتى يعبئ جنود مازندران، ويحافظ على تلك الحدود. فأذن له هو الآخر ورحل. أما الأمراء نورين آقا وقتلغ شاه وسوتاى فقد ظلوا ملازمين للحضرة.

بعد ذلك تحرك غازان سالكا طريق أرغيان. وكانت أخبار الأعداء تصل تباعا. ثم توقف برهة فى مدينة إسفراين، ومر من هناك ونزل فى قرية "كسرغ"، من أعمال إسفراين وفى منتصف الليل علم نورين وقتلغ شاه وسوتاى أن طائفة القراونة الذين كانوا فى "هزاره"، وجيء بهم إلى المعسكر كى ينضموا إلى "باتاى" ينتوون إثارة الفتن. وقد تشاوروا

فيما بينهم، ثم استقر رأيهم على أن يتمردوا، ويعودوا أدراجهم. فعرضوا تلك الحال على غازان، ورأوا من الصالح أن يغادروا ذلك الموضع على أن يبقى الأمير قتلغ شاه ليقف على حقيقة الأمر. ثم تحركت الرايات المباركة إلى ناحية "جوربد"؛ بحيث إن غازان وصل إليها في الصباح. ثم عاد ذلك الجمع من هناك، وهاجموا ديار "كونجك" و"قتلغ خواجه" وبقية الحرس ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم، وانضموا إلى المتمردين. وكذلك كان جنود الأعداء يأتون في إثرهم حتى بلغوا "جوربد".

فلما وصل السلطان إلى هناك، أمر بترحيل أسر قاجير بن سرتاق وسوقار وسواتو والقراونة الآخرين الذين كانوا قد نزلوا هناك في ناحية جاجرم وبسطام[1]، وأقام غازان هناك إلى آخر النهار. وعندما وصل الأمير قتلغ شاه، وعرض الأخبار عن وصول المتمردين نزل غازان في جاجرم حيث أقام تلك الليلة، وعاد نوروز من جديد. وإن ما حدث في تلك السنة بخراسان من ضروب القتل والسلب والتخريب ليفوق حد الوصف والبيان؛ فلقد حاصروا مدينة نيسابور، ولكن بيمن غازان وإقباله، وقى الحق تعالى هؤلاء المسلمين شر الكفار[2]**[ص٢٧٢]** فلم يسيطروا عليهم. لكنهم مع هذا أغاروا على القرى، وأسروا كثيرا من السكان. ثم قصد المتمردون "بارونقى" من نواحي نيسابور، حيث يوجد محاربون أشداء.

ولما كان الموضع حصينا للغاية، لجأ كثير من الناس إليه بأموالهم ودوابهم. ثم ذهب المتمردون إلى أحد الوديان، فحاصرهم السكان وسدوا عليهم الطريق من فوقهم، وقتلوا ما يقرب من ألف فارس من الكفار. ثم عاد المتمردون من هناك، وذهبوا إلى مشهد طوس وانتزعوا أربع كرات فضية، كانت قد وضعت كحلية في أعلى الضريح. ولقد قتل الأهالي

---

(١) بسطام أو بسطام: بلدة بقومس على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين. منها أبو يزيد البسطامي الزاهد. وبها تفاح جيد يحمل إلى العراق.(معجم البلدان،ج١، ص ٤٢١ . انظر كتاب بسطام وبايزيد بسطامي نگارش اقبال يغمائي، ص٨ ص١٧، تهران ١٣١٧هـ.ش).

(٢) من الملاحظ هنا أن رشيد الدين يطلق على غازان ورفاقه اسم مسلمين ويعتبر أعداءهم كفارا. هذا على الرغم من أن العكس هو الصحيح؛ إذ إن غازان وأتباعه كانوا يدينون بالبوذية في ذلك الوقت. أما عدوه نوروز فكان يعتنق الإسلام.

كثيرا من هؤلاء الجنود؛ بحيث إن الأعداء عندما وصلوا إلى حدود بادغيس[1]، واستعرضوا الجيش، لم يجدوا ما يقرب من خمسة آلاف فارس. ولهذا السبب اعتبروا "نوروز" مذنبا ومقصرا، وضربوه بالعصا.

وفي اليوم التالى ارتحلت الرايات الملكية عن طريق بسطام ودامغان. وكان جميع الأمراء قد علموا بوفاة أرغون، ولكنهم يخفون ذلك عن غازان. فلما وصل إلى بسطام، أقام بها يوما؛ لأن الخواتين كن هناك. ثم اتجه إلى دامغان. وكان قبل ذلك قد أرسل "أبيشقا" أخا إلادو برسالة إلى حضرة أرغون، ولكن لأنه كان قد سمع بوفاته، توقف فى دامغان. وكان جميع سكانها قد خرجوا من المدينة، ومضى بعضهم بصحبة "شاه ايلدوز" إلى گردكوه[2] وبعضهم إلى حصن "دين مايان"، وهو مكان حصين.ولهذا السبب عاد "أبيشقا" من دامغان **[ص٢٧٣]**، ووصل إلى الحضرة فى بسطام وعرض على غازان أحوال سكان دامغان.

وعندما وصلت الرايات السلطانية بدامغان، لم يتقدم لاستقباله مخلوق قط، ولم يكن الأهالى قد أعدوا الهدايا والعلف والميرة، فغضب عليهم غازان. ولما كان الأكابر والأعيان هناك فى حصن مايان، أمرهم بالخروج، فأبوا، فأمر بمحاصرتهم. وبعد حرب استمرت ثلاثة أيام بلياليها، طلبوا الأمان، ودخلوا فى الطاعة وأعطوا غازان أموالا كثيرة من النقود والأمتعة وقدموا للجيش المؤن والأبقار والأغنام، فصفح غازان – لفرط عطفه ورحمته – عن ذنوب هؤلاء المجرمين. ثم أشار بتخريب القلعة. وبعد جلوسه المبارك أمر بتعميرها.

---

(١) باذغيس أو بادغيس: عبارة عن بليدات وقرى كثيرة ومزارع بنواحى هراة. وأصلها بالفارسية "بادخيز" أى قيام الريح أو هبوب الريح لكثرة الرياح فيها. (تقويم البلدان ص ٤٥٤؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٥٦).

(٢) گردكوه: قلعة تقع على بعد ثلاثة فراسخ من دامغان فى وسط الجبل يراها الواقف بدامغان. ويطلق على هذه القلعة أيضا اسم "دز گنبدان" أى القلعة المقببة. ويعرف رستاقها الخصب بمنصور آباد، وزراعاتها ومحصولاتها وفيرة.
وگردكوه إحدى قلاع الإسماعيلية المنيعة التى كانت تسيطر عليها طائفة الإسماعيلية فى إيران. وقد قاوم المدافعون عن هذه القلعة قوات المغول بقيادة هولاكو مقاومة عنيفة استمرت ع رين سنة إلى أن سقطت فى أيديهم فى عهد آبا قاخان (انظر جامع التواريخ، جلد سوم، متن علمى وانتقادى فارسى بسعى واهتمام عبد الكريم على أوغلى على زاده، ص ٣٥ ٣٦، باكو ١٩٥٧؛ نزهة القلوب، ص ٢٠١؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٠٥. وللوقوف على مزيد من التفصيلات عن التطور التاريخى لهذه القلعة انظر كتاب "قلاع إسماعيلية در رشتة كوهاى البرز، تأليف دكتر منوچهر ستوده، ص١٤٦ وما بعدها، تهران ١٣٤٥ هـ.ش).

بعد ذلك سار إلى ناحية سمنان. وخلال تلك الأحداث، كان معين الدين مستوفى الديوان الأعظم، وجمع من الكتاب يسيرون إلى نيسابور فقبض عليهم، وسيقوا إلى الحضرة فلم يلتفت إليهم غازان إلى أن صدر الأمر باسترداد المراسيم (يرليغها) والأختام الحمراء (آل تمغها) التى كانت فى عهدتهم. ثم أذن لهم بالانصراف، فانصرفوا.

وعندما وصل غازان إلى سمنان، شاور الأمراء، فأحاطوه علما بوفاة والده أرغون. فقدم الأمير مراسم العزاء. وجريا على عادة المغول أمر بانتزاع الريشة من قلانس الحاضرين. ثم قدم الأمير "مولاى" من قهستان إلى سمنان عن طريق الصحراء، وانضم إلى الحضرة فاختصه غازان بأنواع العطف والرعاية. ثم صدر الأمر بتزويجه من شقيقة الأمير ساتلمش. ولما عاد "ايغورتاى غازان" من "سلطان ميدان" متجها إلى "كبود جامه"[1] وجرجان كانت تراوده فكرة فاسدة؛ فاصطحب معه "ترميش"، وقدم حتى حدود "سلطان دوين" واستراباد وصاح قائلا: إن تلك الولاية ملك قايدو **[ص ٢٧٤]** وصار يشق على جنود المغول الذين كانوا يقيمون فى تلك المناطق، ويدأب على إثارة الفتن. ولما لم يكن كبار الأمراء حاضرين، اتفق سايغان إياجى ومالاق وآخرون، وهجموا عليه فجأة، وطاردوه من هناك، وصاروا يتعقبونه حتى أخرجوه من حدود جرجان وكبود جامه. فهام على وجهه مع نفر قليل ومضى إلى حال سبيله. وكان قبل ذلك يشق كثيرا على جماعة السادات والأهالى والرعايا فى مشهد طوس. والسلام.

---

(١) كبود جامه: ولاية توجد وراء مدينة استراباد التى تقع فى إقليم جرجان قرب حدود مازندران. وفى كبود جامه يكثر الحرير والقمح والكروم. وهى كثيرة الغنى والخير؛ إلا أن الخراب لحق بها فى حروب تيمور فى المائة الثامنة (الرابعة عشرة). (نزهة القلوب، ص١٩٩؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤١٦).

حكاية

أحوال غازان خان بعد وفاة أرغون خان حتى وقت رحيله إلى ناحيةآذربيجان فى عهد گيخاتو خان ثم عودته من تبريز إلى خراسان

بعد ذلك مكثت الرايات السلطانية عدة أيام فى سمنان. ثم تحركت نحو فيروزكوه[1] وسار حتى حدود دماوند بالقرب من ميشان حيث أقام عدة أيام. وهناك أنجبت بلغان خاتون الخراسانية ولدا لكنه توفى. ثم قدموا إلى فيروزكوه. وقد ورد نبأ يفيد بأن گيخاتو قادم من الروم. أما الأمراء الذين أثاروا الفتنة فى المعسكرات فقد تفرقوا، وانضم بعضهم إلى گيخاتو، ورافق بعضهم "بايدو". وقد فر "طوغان" من بينهم، وقدم إلى خراسان. ولهذا السبب أمر غازان باعتقال "مولاى" وسجنه. وعندما ورد نبأ اعتقال طوغان، أطلقوا سراح مولاى بشفاعة الأمراء.

ولما تحقق نبأ اعتلاء گيخاتو[2] العرش، أوفد إليه غازان الأمير قتلغ شاه برسالة، عرض فيها أحوال التخريب فى خراسان، وشئون الجيش هناك. ثم أرسل الأمراء "هورقداق" و"قرا بن جاورجى" [ص ٢٧٥] وقتلغ تيمور وآخرين إلى خراسان. وفى صيف سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م بموضع "أسيران" الواقع بين فيروزكوه وسمنان والذى يدعى مصيف "نكاتو" كان غازان يشتغل دائما بالصيد والأخذ بأسباب المتعة. هذا على حين أن أصحاب الديوان كانوا

(١) فيروزكوه: قلعة حصينة فى جبال غرجستان بين هراة وغزنة اتخذها الغوريون عاصمة لهم. وقد استمروا فى الحكم إلى أن اكتسح المغول بلادهم، وسقطت عاصمتهم فى يد چنگيز خان سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م بعد أن أنزل بها الخراب والدمار (انظر معجم البلدان، ج٤ ص٢٨٤؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٥٩).

(٢) كان التقليد يقتضى اختيار الأكبر سنا لخلافة الإيلخان المتوفى؛ لكن الأكبر سنا يمكن أن يكون الأخ الأكبر للمتوفى. وبالفعل كان گيخاتو خان هو الأخ الأكبر لأرغون والد غازان. كما يمكن أن يكون أكبر أبنائه. ولم يكن هناك عرف يحدد متى ينبغى إحلال الجيل الأصغر محل الجيل الأكبر فى تعاقب السلطة. وكان المعتاد أن ينتصر الأكفأ والأقدر على فرض نفسه وسيطرته فى حالة تقدم اثنين كمرشحين لتولى السلطة. ويتم ذلك الاحتكام إلى السلاح. (انظر دوروتيا كرافولسكى: العرب وإيران، ص ١٩٢ – ١٩٣، الترجمة العربية، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

يقومون بجمع المؤن للجنود وتدبير أموال الولاية. وقد وصل الأمير قتلغ شاه إلى حضرة گيخاتو في أران، وعرض عليه حقيقة الأوضاع في خراسان. ونظرا لاشتغال گيخاتو بالمتعة والبهجة واللهو والأنس، لم يعبأ به كثيرا، فرجع هو أيضا من حيث أتى، وقدم إلى حضرة غازان. وبعد ذلك حلت الرايات السلطانية بناحية دامغان وبسطام. ثم هناك اتجهت إلى كالبوش، وأرسلت "قتلغ خواجه" و"لالا" إلى ناحية بيهق لاستدعاء "نظام الدين يحيى". لأن هذا الشخص قد جاوز حده كثيرا بخراسان؛ إذ قتل جمعا من الأكابر رغم أنهم كانوا تابعين له، واغتصب من الناس أموالا طائلة ولهذا ظل متوجسا خيفة، وتقاعس في المجيء. بعد ذلك دخلت الرايات السلطانية جرجان عن طريق قلعة "جناشك"، وقضت ذلك الشتاء في "سلطان دوين استراباد".

ولقد أرسل گيخاتو إلى غازان خان الأمير النجل أنبارجي والأمراء "دولاداى" و"قونجقبال" و"ايلتمور" لإمداد جيش خراسان، فحظوا بشرف المثول أمام حضرة غازان في "سلطان دوين". ثم صدر الأمر بأن يمضوا الشتاء في ناحية "قراتوغان". وفي أواخر الشتاء أشيع أن "نوروز" قدم إلى نيسابور قاصدا "جوين" حتى يخرج نظام الدين يحيى **[ص٢٧٦]** من قلعة "أندمد". ولما كان الجو لا يزال باردا والدواب هزيلة، تحركت الرايات السلطانية إلى "كالبوش" حيث مكثت عدة أيام. ثم أرسل غازان الجواسيس إلى الأطراف والنواحي وزحف مع عدد قليل إلى ناحية "جوين" ثم رجع. بعد ذلك عادت الرايات الملكية إلى جرجان حتى تسمن الدواب.

وفي أول ربيع سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م سير غازان الأمير "أنبارجي" مع الجنود الذين كانوا قد قدموا معه، وذلك عن طريق "دهستان" و"يارز" و"نسا" و"أبيورد"، وأرسل معهم "هوراقداق" لإعداد المؤن وما يحتاج إليه حتى لا يجوروا على البلد ويخربوه. كذلك تحركت الرايات السلطانية. وفي تلك السنة حلت بخراسان ضائقة شديدة بسبب القلاقل والاضطرابات؛ بحيث تعذر وجود من من الغلة بمائة دينار، فعين غازان الصاحب الأعظم الخواجه سعد الدين على رأس أصحاب الديوان لإعداد المؤن للجنود، وتدبير الأموال في خراسان ومازندران والري. وفي تلك الرحلة، كان طعام أكثر الجند من لحوم الصيد. بعد ذلك نزلت الرايات السلطانية على ضفاف نهر هراة الذى يسمى "جوقجور". وبسبب غزارة المياه عبروا بمشقة بالغة. ثم سار إلى الحضرة الأمير النجل "أنبارجي" وأمراء العراق.

بعد ذلك وصل نبأ من الحراس يفيد أنهم رأوا ظل المتمردين. فرحلت الرايات السلطانية إلى ناحية بادغيس، وأقامت فى "بولداق بادغيس"، فأرسل غازان الجواسيس إلى الأطراف ولكن لم يكن هناك أثر أو خبر عن العصاة فى موضع قط. ولأن مؤن الجند قد نفدت صار الجنود يسرقون خيول بعضهم البعض [ص٢٧٧] ويأكلون لحومها. وبسبب عدم وجود الأغذية وقعوا فى مشقة بالغة. وهنا ذكر الأمراء أنهم على مقربة من هراة حيث توجد مناطق لم ينضج فيها الشعير، وأنه من المصلحة أن يذهبوا إلى هناك. وعلى هذا رحلوا قاصدين تلك الجهة، ونزلوا على جسر مالان "پول مالان". ولكن صدور هراة وأكابرها لم يكونوا فى المدينة بسبب الفتن والاضطرابات. وكان الملك "شمس الدين كرت" يقيم فى قلعة "خيسار". ومن المعروف أن هذا الملك كان قد سجن ابنه الأكبر "فخر الدين"[1] بسبب تألمه منه وغضبه عليه. أما ابنه الأصغر "علاء الدين"، فقد أرسله إلى حضرة غازان ليكون ملازما له.

ولما كانت ولاية هراة قد خربت بسبب المتاعب والأضرار التى نتجت عن عبور الجيوش، ولم يحدث فيها عمران، عطف غازان على الأهالى هناك، ولم يشق عليهم.

أما سكان فوشنج[2]، فلأنهم كانوا قد لجأوا إلى القلعة عندما وصلت إلى هناك جيوش العراق، ولم يقدموا المؤن المطلوبة، وشنوا الحرب، غضب عليهم غازان بسبب تصرفهم هذا وأصدر أمرا بمحاصرة القلعة، واستولى الجنود عليها بمشقة بالغة، وأخرجوا منها الدواب والثيران والأغنام والمؤن الوفيرة، وأسروا أغلب السكان هناك.

وعندما غادرت الرايات السلطانية هراة، وصلت إلى فوشنج. وهنا عرض سكانها ضعف حالهم؛ فعطف عليهم غازان، وأصدر أمرا بإطلاق سراح نسائهم وأطفالهم الذين كانوا قد أسروا، وطيب خاطرهم. ثم ركب بطالع السعد، وقدم ناحية رادكان. ولأن گيخاتو لم يرسل أموالا إلى جيش خراسان، احتشد هناك جنود كثيرون، وتعرضوا لكثير من

---

(١) انظر كتاب الشرق الإسلامى، ص٢٨٣.

(٢) فوشنج أو بوشنج: مدينة بينها وبين هراة عشرة فراسخ. وتقع فى واد كثير الشجر والفواكه. وهى تنتج العنب بأنواعه الكثيرة المتعددة. وأكثر خيرات مدينة هراة مجلوبة منها، وطواحينها كلها تعمل بالهواء. ومن هذه المدينة خرجت طائفة متميزة من أهل العلم. (معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٣ ٤٥٤؛ نزهة القلوب، ص١٨٨).

المشقات والمتاعب؛ فصمم غازان على التوجه إلى گيخاتو، ليبين لـه حقيقـة الأوضـاع مشافهة، ولكنه عدل عن عزمه، وقدم إلى "شتركوه".

ونظرا لانقطاع أخبار العصاة، ونفاد المؤن، استأذن جنود العراق وآذربيجان فى الانصراف. ثم أمضى غازان الصيف فى شتركوه وشيد بها "جوسق مراد"، **[ص٢٧٨]** ولم يكن السلاطين قد أقاموا عمارة فى تلك الجهات. وفى هذه الأيام وصل نبأ يفيد أن الأوغاد والسفلة (رنود وأوباش) قد اجتمعوا، وقتلوا أولاد ملك زوزن[1]، وطائفة من عظماء تلك الولاية، واستولوا على إحدى القلاع؛ فصدر الأمر بأن يسير الأميران سوتاى ومولاى للقضاء على هؤلاء المجرمين. وعندما اقتربا من القلعة، كان شاه على ابن ملك سجستان قد جاء من قهستان طمعا فى الاستيلاء على "خواف"، وقام بحصار القلعة فداهمه الأميران فجأة، وقتلا أغلب أتباعه، وسطوا على أموالهم ودوابهم. غير أن شاه على خلص نفسه بصعوبة بالغة، ولاذ بالفرار. وبعد ذلك أخضع الأميران المقاتلين فى تلك القلعة، وقتلا المشاغبين ومثيرى الفتنة، واستمالا الرعية ثم عادا.

وفى شعبان سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م صدر الأمر باعتقال "على عماد الدين" خطيب نيسابور الذى كان رجلا عظيما، غير أنه كان يتدخل لصالح نوروز، وكثرة الحديث عنه اعتمادا على صيته؛ فأحضروه من نيسابور وأعدموه. وفى ذلك الصيف لم تحدث وقائع تذكر. وعندما دخل الشتاء أمضاه غازان فى "سلطان دوين استراباد". ثم أوفد الأمير نورين إلى سمنقان وشقان.

وفى أوائل الربيع أشيعت أخبار عن ظهور المتمردين، فتحركت الرايات السلطانية إلى ناحية جرجان و"شهرك نو" و"مورجا باد". ثم وصل الأمير "نورين" إلى حضرة غازان. وفى أوائل شهور سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م رحل من هناك، ومكث عدة أيام فى "سمنقان" وأرسل الجواسيس إلى مختلف النواحى. وقد اتضح أن الأنباء عن ظهور المتمردين كانت كاذبة. ومرة أخرى راودت غازان فكرة العودة إلى ناحية آذربيجان. والسلام.

---

(١) زوزن: بضم أوله وقد يفتح: كورة واسعة بين نيسابور وهراة ويحسبونها فى أعمال نيسابور. وهى نقطة مهمة فى نظام الطرق. ومن أعمالها مائة وأربع وعشرون قرية. وفيها بيت نار للمجوس. كانت زوزن تعرف بالبصرة الصغرى لكثرة من خرجت من الفضلاء والأدباء وأهل العلم. (معجم البلدان، ج٣، ص١٥٨؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص٣٩٨).

حكاية

توجه غازان إلي ناحية ألاتاغ[1] بقصد مقابلة گيخاتو ثم عودته من تبريز وهزيمة نوروز

تشاور غازان مع الأمراء، وعقد العزم على الرحيل إلى آذربيجان وكلف الأمير الكبير "قتلغ شاه" وبقية الأمراء بالمحافظة على خراسان ثم عاد من سمنقان. وكان في حضرته الأمراء نورين وساتلمش وسوتاى؛ الذين دخلوا عن طريق "شهرك نو" ومازندران. كذلك قدم إلى حضرة الأمير قتلغ شاه، وسار حتى موضع "تميشه" حيث يقيم غازان. وفى هذه البلدة تزوج الأمير قتلغ شاه من ابنة "جيرغوتاى"، وعاد بعد ذلك. أما الرايات السلطانية فقد سارت من تميشه حتى شوريل من نواحي مازندران؛ حيث كان المعسكر المعظم. وقد قطع غازان فى ليلة واحدة ما يقرب من واحد وثلاثين فرسخا. وحدث أن أحد زعماء مازندران خاف ولم يحضر إلى الحضرة؛ فاتهم بالتمرد. ولكن غازان لم يعبأ بذلك وعقد العزم على الرحيل إلى العراق وآذربيجان، وسلك طريق "شاه دز" متجها إلى "فيروزكوه" وأقام عدة أيام فى دماوند. ومن هناك عهد إلى الأمير "ساتلميش" والخواجه سعد الدين بتحصيل أموال خراسان ومازندران وقومس والرى وإدارة شئون تلك المناطق والمحافظة على الولايات وتعيين مؤن الجند. ثم توجه غازان إلى تبريز، وكان نورين آقا يرافقه. وقبل ذلك سير "يغميش" إلى گيخاتو للإعلام بوصوله، ثم عاد إلى منطقة أبهر، وصرح بقوله: "إن گيخاتو يتساءل: ما الداعي إلى مجيء غازان؟!... كان ينبغى أن يعود إلى خراسان، وأن يرسل جماعة من قبله لإنجاز المهمات، وتقديم الملتمسات. فكان رد غازان: "حيث إننا وصلنا إلى هنا، كيف نعود، دون أن يرى الواحد منا الآخر؟! ".

وعلى هذا توجه غازان إلى تبريز، وسير الأميرين "إلادو" و"مولاى" لتصريف المهمات وتوجه هو إلى تبريز. وعند قنطرة زره [ص٢٨٠] وصل إلى الحضرة السادة: نجيب وعنبر وريحان من خواص أرغون خان وعندما وصل غازان باليمن إلى تبريز، مكث عدة أيام.

---

(١) ألاتاغ: تكتب أيضا "ألاطاق". وفيها تكثر المياه، وتجود مزارع العلف، وتتعدد مناطق الصيد. وقد أقام فيها أرغون خان قصرا كان يمضى فيه أكثر أيام الصيف. (نزهة القلوب، ص١١٨).

وكان رسل گيخاتو يصلون تباعا كي يعود غازان. وفى نهاية الأمر وصل "كمجو" و"باردو"، وصرحا لغازان بقولهما: "إن كيخاتو يأمرك بالعودة أيضا فى نفس هذا اليوم. وقد أرسل إليك هدايا قليلة. فلم يلتفت إليها غازان، ورد عليهما قائلا: "حيث إن گيخاتو لا يريد لقاءنا فنحن أيضا لا نريد لقاءه مائة مرة".

بعد ذلك غادر غازان تبريز بطالع السعد، وأقام فى "يوز آغاج" حيث تزوج من "آشيل خاتون" ابنة الأمير "توقتمور". وهناك أقام حفل الزفاف. وقد وصل إلى الحضرة الأمير "محمد ايداجي" الذى كان على رأس إمارة إصفهان، فقدم الهدايا اللائقة، وحظى بأنواع الرعاية والتكريم، وصار ملازما لغازان".

وبعد شهر توجهت الرايات السلطانية إلى خراسان. وفى مدينة "أبهر"[1] تقدم إلى الحضرة الخواجة[2] ، وطائفة من الرسل الذين كان أرغون خان قد أرسلهم إلى حضرة القا آن[3] لإحضار إحدى قريبات بلغان خاتون الكبرى كى يتزوج منها،[4] فجاءوا بـ "كوكاجين خاتون" مع هدايا أخرى خطائية وصينية تليق بالملوك. وكان غازان مقيما فى "أبهر" فتزوج من "كوكاجين"[5]. وبعد إتمام مراسم الزفاف، أرسل إلى گيخاتو هدايا، كان من بينها ببر وعدة أشياء أخرى.

بعد ذلك سار إلى ناحية دماوند. وعندما نزل عند حدود فيروزكوه، وصل رسل الأمير قتلغ، وبشروه قائلين: "لقد حاربنا (نوروز)، فاندحر، وفر منهزما وراجلا إلى جبال نيسابور. وقد استولى جنودنا على كل الأموال والدواب والخيول المحملة بالأدوات والثياب. وعلى أثر ذلك تحركت الرايات السلطانية إلى دامغان وبسطام. وإلى بسطام وصل الأمير

---

(١) أبهر: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحى الجبل. (معجم البلدان، ج١، ص٨٢).

(٢) هكذا فى المتن.

(٣) المقصود به قوبيلاى قا آن الذى كان يحكم فى مدينة پكين عاصمة الصين (انظر جامع التواريخ تأليف رشيد الدين فضل الله الهمذانى: تاريخ خلفاء چنگيز خان من اوگتاى قا آن إلى تيمور قا آن الترجمة العربية، ص٢٣٦ وما بعدها؛ إمبرطورى صحرا نوردان، تأليف رنه كروسيه ترجمة عبد الحسين ميكده، ص٤٨٧ وما بعدها جاب سوم، تهران ١٣٤٨هـ.ش).

(٤) انظر الشرق الإسلامى فى عهد الايلخانيين (أسرة هولاكوخان) ص١٩٧ - ١٩٩٩.

(٥) لأن أباه أرغون كان قد توفى.

قتلغ شاه والأمراء فأنعم عليهم غازان بالغنائم التى غنموها، واختصهم بأنواع الرعاية والتكريم [ص٢٨١]. ومن هناك دخلوا جرجان عن طريق خرمابه.

بعد ذلك نزل غازان "بسلطان دوين استراباد"، وصار يمارس ضروب المتعة والصيد. وبسبب إفراط الأمير قتلغ فى الشراب، اعتراه مرض شديد؛ فلازمه الأطباء وفقا للأمر الصادر إليهم، حتى استرد صحته، وصارت كما كانت من قبل. ومنذ ذلك الوقت أقلع عن الشراب. وحتى وقتنا هذا لم يحتس الشراب أبدا.

أما عن "كيا صلاح الدين" فقد تحاشى مقابلة غازان عندما حل هو ومرافقوه بولايته وهم يقصدون آذربيجان. وبعد أن عاد غازان من تبريز، ومثل بين يديه "كيا صلاح الدين" فى الرى وتشفع له الأمراء الآخرون، عفا عنه. ولكنه عندما عاد إلى ولايته، رجع إلى العصيان مرة أخرى؛ فكلف غازان الأمير "سوتاى" بالقضاء عليه، فذهب هذا، وأعدمه وأحضر من هناك مالا وفيرا ودواب عديدة، فوزعها غازان على الجنود. وفى ذلك الشتاء كانوا فى مازندران، ولم ترد أخبار من أية ناحية.

بعد ذلك تحرك فى الربيع إلى ناحية دماوند، ثم سار عن طريق "چهار ديه"، ومكث شهرا فى دامغان. ثم غادرها إلى فيروزكوه عن طريق "سلطان ميدان". وأمضى الصيف فى دماوند. ومن هناك أرسل قائدين من قواد الجيش هما مولاى وهورقداق إلى خراسان فأبلغاه نبأ يفيد أن أهل نيسابور ينوون الخروج عن الطاعة، وليسوا مشغولين بالرحيل، فلم يعبأ غازان بذلك. ومن غاية لطفه الفطرى، سير الرسل منذرين بالوعد والوعيد. ولكن دون جدوى؛ فتحرك بنفسه إلى تلك الجهة، ووصل إلى هناك فى ذى القعدة سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م، ونزل فى "مويدى". ثم أرسل الخواجه سعد الدين إلى المدينة ليحذر أهلها فاستطاع هذا بنصائحه ومواعظه أن يعيدهم إلى جادة الصواب، لأنه ليس من المستساغ أن يقتل الأتباع المخلصون القدماء بواسطة جرائم حفنة من المفسدين. وعندما ذهب الخواجه سعد الدين إلى المدينة تقدم إليه القاضى صدر الدين والپهلوان عمر وأعيان نيسابور وقالوا: "نحن نفكر فى أرواحنا. فإذا تعهد الخواجه بأن يعطينا الأمان، فإننا سوف نخرج [ص٢٨٢]، ونؤدى فروض الطاعة. فقبل الخواجه أن يعرض الأمر على الأمير غازان وقال لهم: "سوف أعمل ما فى وسعى حتى لا يصيبكم أذى. كذلك خرج من المدينة

القاضى صدر الدين والپهلوان عمر مع طائفة من السكان، وتقدموا إلى الأمراء الكبار فأرسلوهم إلى الحضرة. وكان غازان قد رحل من "مويدى" وحل بنيسابور، وصرح قائلا: "لن ندمر ملكنا ورعيتنا بسبب حفنة من الغوغاء؛ فينبغى أن يسلموا طائفة المفسدين ومثيرى الفتن وهم: فخر الدين الريس وحسام الدين أيبك الخطائى، أبو بكر على عايشه وعثمان مشكانى ومحمد عبد الملك. وعلى السكان أن يؤدوا الخراج بصدق وأمانة؛ حتى نعود من هنا فى أمن وسلامة. ولكنهم ماطلوا فى تسليم تلك الجماعة. وصدر الأمر بمحاصرة نيسابور فلجأ أهلها إلى مسجد حصين، ودخل الأمراء عليهم، كل منهم من ناحية. ولما طوقهم الجنود، عجزوا عن المقاومة بسبب خوفهم وفزعهم. ثم نهب الجند الأحياء والأزقة وقصدوا المسجد، ونقبوا عدة أماكن فيه، وتسلقوا الجدران؛ فصاح هؤلاء المساكين، وطلبوا الأمان. فصفح غازان عنهم لفرط رأفته وشفقته. وذلك على الرغم من كثرة ذنوب المتمردين، ورغم أن بعض الناس الأبرياء قد قتلوا. كذلك أشار غازان على الجنود بالكف عن السلب والقتل.

ولكن لما كان الجنود قد هجموا مرة واحدة، لم يتيسر منعهم. وعندئذ ركب غازان خان بنفسه المباركة، وتجول فى المدينة، وقتل واحدا أو اثنين من النوبتجية، كما أمر بتعليق أعضائهم على البوابات.

وبهذا خاف الجنود وارتدعوا، وكفوا أيديهم عن القتل والنهب. وقد اعتقل الجماعة المذكورون الذين أثاروا الشغب والفتنة وأعدموا، ولم يسمح غازان بإخراج دابة واحدة من تلك الولاية. كذلك استمال الرعايا، فأمنوا على أنفسهم، واتجهوا إلى التعمير والزراعة. بعد ذلك تحركت الرايات السلطانية إلى ناحية جرجان وقضى غازان ومرافقوه ذلك الشتاء فى "سلطان دوين استراباد". والسلام.

حكاية

خضوع نوروز، ودخوله فى طاعة حضرة غازان مرة أخرى، وإقامة الولائم والحفلات وتقديم الهدايا

فى أوائل المحرم سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م، وصل غلام "نوروز" موفدا من قبله إلى غازان خان، وذكر أن "نوروز" يقول: "إننى عبد وابن عبد قديم. ولكن بسبب افتراء الجنيثين من الناس وبهتانهم شردت نفسى عن الخضوع للحضرة؛ فإذا عطف على غازان، وصفح عن ذنبى، وعفا عنى، وتناسى جرمى؛ فإننى سوف أتوجه إلى الحضرة ثم أرحل على أن أقوم بتنفيذ شروط العبودية.

ونظرا لكمال شفقة السلطان وعدله، تجاوز عن ذنوب نوروز وقبل عذره. كما شرفه بأجوبة سلطانية كريمة. وفى نهاية الرسالة التى عرضها "ساتلمش" على غازان، جاء فيها: "إذا تلطف السلطان، وأرسل جندا على سبيل المدد إلى منطقة "مروجوق"، فإن العبد سوف ينضم إليهم بعد مفارقته هذه الجماعة. وإذا تعقبهم أحد، فسوف يكونون مددا للقضاء عليه؛ وذلك حتى أنال شرف العبودية بفضل إقبال السلطان. فأجاب السلطان غازان: "حيث إنه الآن فصل الشتاء وليست هناك أخبار واردة من الأطراف والجوانب، فإننى سوف أتحرك بذاتى المباركة إلى تلك الجهات باسم الصيد". ثم خص ساتلمش بأنواع التكريم والرعاية، وقفل راجعا.

وكان جواب الرسالة هو أنه ينبغى على نوروز أن يكون عند كلمته. ثم سار السلطان باليمن والبركة. وكان فى ركابه الأميران الكبيران: نورين وقتلغ شاه آقا. وعندما بلغ ولاية "بازر" فى موضع "كوشك"، ووصل من قبل نوروز أخوه "حسين حاجى" وايجيل بن جاردو بهادر لنفس الغرض الذى كان ساتلمش قد جاء من أجله شملهما الأمير النجل بعطفه. ثم سار من هناك حتى سرخس. وبعد أن استراح، رحل متخذا طريق "دالان قودون".

وعندما خرج الجمع من بين الجبال [ص٢٨٤] والتلال، وظهرت فى صحراء مرو وشبورغان الديار والخيام والدواب، صدر الأمر بأن يتفحص أمرهم "باوداى" الذى كان

أميرا للمشرفين على تعبئة الجيوش. وقد عاد بعد مدة ومعه ساتلمش غلام نوروز، فعرضا معا على غازان قائلين: إن نوروز قد نزل هناك ينتظر وصول الرايات السلطانية؛ فوقف السلطان فوق ربوة فما كان من نوروز والأمير النجل طغان إلا أن أسرعا، فوصلا إلى الحضرة، وتشرفا بلقاء غازان. وقد مكث السلطان ثلاثة أيام فى تلك القرية، وأقيمت الولائم والأفراح.

ولما كان العمار بعيدا والشراب قليلا، أمر السلطان بأن يقيموا مراسم الصلح بتبادل كئوس الماء. وهناك أمر بإقامة ناد يطلق عليه المغول اسم "اوبا". وعفا عن ذنوب نوروز وخصه بأنواع الرعاية والتكريم. ثم عاد إلى ناحية "مروجوق"، وساروا إلى طريق "شاخ". وقد اعترى "نورين آقا" ألم شديد جدا فى قدمه، وتحمل فى تلك الرحلة مشقة بالغة. وقد انضم إلى الحضرة أمراء جيش القراونة "توغاى" وآخرون. ثم رحل غازان عن طريق "اندخوى"، وتشرف بالمثول بين يدى الحضرة أبناء عمر أغل ايكو وآخرون. ثم سار إلى طريق فارياب، واشتبكت طلائعه بطلائع المتمردين، وقتلت منهم كثيرين، وقبض على بعضهم وسيقوا إلى الحضرة. وعندما سئلوا عن الأحوال، ذكروا أن جيش المتمردين يوجد فى فارياب وجُوزجانه. وعندما نزل بفارياب ترك المتمردون الخزائن والأمتعة والجنود الذين عجزت دوابهم عن السير هناك.

بعد ذلك تحرك غازان إلى ناحية شبورغان حيث الطريق مقفر للغاية، ولا ماء فيه. وأخيرا وصل ليلا بالقرب من تلك المنطقة فى موضع "اينجكه سو" وأمر بألا يشعل أى مخلوق نارا حتى لا يعلم المتمردون بوجودهم، وأن يهاجموهم فجأة عند الصباح. فعلم المتمردون [ص٢٨٥] أن الرايات السلطانية قد وصلت إلى فارياب، فعادوا وخرجوا إلى طريق صان وجريك. ثم نزل الجيش المنصور عند وادى نهر شبورغان. وصدر الأمر بأن يتعقب المتمردين الأمراء الكبار قتلغ شاه والآخرون، وأقامت الرايات السلطانية فى تلك المناطق. وأما جنود القراونة الذين كانوا قد التجأوا إلى أماكن حصينة خشية المتمردين فإنهم قدموا جميعا إلى الحضرة. ثم ساروا إلى ناحية سرخس بناء على الأمر الصادر إليهم. هذا على حين أن الأمراء الذين كانو قد تعقبوا العصاة فى مناطق جبل "صان" و"جريك" قد أدركوا هؤلاء المتمردين فى أوائل ربيع الأول سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م وشنوا عليهم حربا شعواء، وهزموهم، وقتلوا منهم كثيرين، ثم وصل هؤلاء الأمراء إلى الحضرة ومعهم أسرى كثيرون، وغنائم لا حصر لها.

وقد أقاموا عشرين يوما فى تلك المناطق. وشرع جميع الجنود الذين كانوا مرافقين للحضرة فى نقل الغلال من المخازن، وصاروا يأكلون منها ويطعمون دوابهم. ونظرا لكثرة هذه الغلال لم يظهر نقص فيها.

وفى تلك الأيام انضم نوروز أيضا إلى الحضرة. وبعد ذلك رحل غازان من هناك. فلما وصل هو ومرافقوه إلى "فرامرزان" كان هناك الأمير النجل "طوغان"، وأهل نوروز؛ فأقاموا الولائم والاحتفالات عدة أيام، وأحضروا هدايا محدودة، وقدموا مراسم الخدمات من كل نوع. ومن هناك تحرك غازان ومرافقوه عن طريق "سرخس"؛ حتى إذا بلغوا "قراتپه" وصل "بوغداى ايوداجى" من لدن گيخاتو، وأطلعه على مخالفة بايدو والأمراء لگيخاتو، فلم يعبأ بهذا.

بعد ذلك استأذن نوروز، وعاد إلى دياره بناحية "بادغيس". ثم توقفت الرايات السلطانية عدة أيام، وسارت عن طريق "ازجا" و"شوكان". وعندما وصلت إلى وادى "جز" عزمت على المسير إلى "مرج رادكان" لتصطاد طائر الحجلة كذلك وصل من قبل بايدو المدعو قتلغ شاه وطائفة من الرسل وعرضوا على غازان أخبار النزاع بين كيخاتو وبايدو، وقالوا إن جميع الأمراء كبيرهم وصغيرهم وأفراد الأسرة الحاكمة وخواتين الأمراء [ص ٢٨٦] قد اتفقوا على أن يسير أمير العالم إلى تلك الناحية، ويجلس على عرش السلطنة التى يستحقها إرثا واكتسابا. ولكن الأمير النجل لم يعر ذلك اهتماما، وأعاد جماعة الرسل. ثم تشاور مع الأمراء الكبار، وأرسل رسولا لاستدعاء نوروز ثم أقام عدة أيام فى "رادكان" و"جشمة كلسب". ثم قدم ومن معه إلى "خبوشان". وغادرها بعد عدة أيام. وعندما نزل "بدوير" لحق نوروز بالحضرة.

ولأن العتاد وأغلب الجنود والأمير النجل "سوكا" الذى قدم من قبل گيخاتو كانوا فى مازندران، استقر الرأى المبارك على أن يذهبوا إلى "سلطان دويك". ومن هناك يقصدون العراق وآذربيجان. ثم قدم غازان إلى "شهرك نو" فى جرجان، ونزل فى سلطان دوين استراباد. وفى المعسكر المعظم انهمكوا فى إقامة الولائم والأفراح واللهو والأنس. ثم أرسل أورايتمور ايداجى إلى بايدو قائلا له: "إننا سوف نصل على الأثر". والسلام.

حكاية

توجه غازان من خراسان إلي العراق العجمى ومحاربته بايدو فى منطقة هشترود وقربان شيره

تحرك غازان خان باليمن وطالع السعد من "سلطان دوين" قاصدا العراق وآذربيجان. ثم قدم عن طريق "چهار ده" إلى دامغان. بعد ذلك أراد أن يتجول فى قلعة "گردكوه". لكن الأمراء قالوا: لأن أمامنا عملا خطيرا ليس من المناسب الآن التفاؤل بولوج القلعة. ثم أمر بأن يغادر القلعة أبناء تاج الدين الذين كانوا حراسا عليها، وذلك مع نسائهم وأطفالهم [ص ٢٨٧]. وقد سلم مفتاح القلعة للخواجة سعد الدين حبش، وعهد إليه بالمحافظة عليها.

وعندما قدم غازان إلى سمنان، وصل "اوردوبوقا" موفدا من قبل گيخاتو، ومعه عدة أحمال من أوراق النقد "الچاو"(1) والأدوات الخاصة به من الورق الأبيض والأختام وغير ذلك. فقال غازان خان: "إنه لا بقاء للآلات الحديدية والأسلحة فى مازندران. وما جاورها من مناطق بسبب جوها الشديد الرطوبة؛ فكيف يمكن أن يبقى فيها الورق دون أن يتلف"؟! ... وأمر بإحراقه تماما. ثم قدم من هناك إلى طهران عن طريق فيروزكوه حيث تشرف "بورالغى" وأمراء العراق بلقاء الحضرة. ولما بلغوا موضع "خيل بزرگ" قدم ثانية "أورايتمور ايداجى" من قبل بايدو وعرض قائلا: "إن بايدو قد رجع فى كلامه، وظهرت فى رأسه الرغبة فى السلطنة. وقد أثار الأمراء "طغاجار" و"قونجقبال" و"دولاداى" وغيرهم الفتن، وأراقوا دماء أوردوقيا وجوشى وغيرهما. وبسبب خوفهم من حضرة غازان ووحشتهم منه، اتفقت كلمتهم جميعا على توليه بايدو الحكم، وهم يفكرون فى إثارة الفتن والشغب.

---

(1) انظر مزيدا من التفصيلات عن التعامل بهذا النوع من العملة الورقية فى كتاب "مجموعة مقالات عباس إقبال آشتيانى، شامل يكصد ويك مقاله بامقدمه وتصحيح آقاى دكتر محمد دبير سياقى بعنوان "چاو چاپ اسكناس"، ص ٣٣٧ ٣٣٤، تهران ١٣٥٠هـ.ش، الشرق الإسلامى، ص٢١٣ وما بعدها).

ولما لم يكن غازان خان يفكر فى مخالفة بايدو، لم يحضر معه جنودا كثيرين، ولم يصطحب الفرقة المدرعة بأسلحة الحرب إلى حد أنهم تركوا هناك الطوق المبارك والطبل الخاص. وقد تشاور مع الأمراء. وبدافع الشجاعة السلطانية، لم يلتفت إلى ما قالوه. ثم أرسل مولاى ويغميش برسالة إلى بايدو يقول فيها: "إننا سوف نصل بذاتنا المباركة. فأين نتقابل الواحد منا مع الآخر؟! . ثم استدعى "اوركاوك".

وعندما قدم باليمن إلى "آق خواجه" من منطقة قزوين، وصل إلى الحضرة "شادى گوركان" الذى كان قد أرسله بايدو والأمراء فتحدث بشتى الأقوال التى يتكلم بها أصحاب التخليط والتمويه. وفحوى هذه الأقوال التى جاءت على لسان بايدو: "إنه لم يكن لى تفكير ولا رغبة فى الحكم. ولكن نظرا لبعد الأمير النجل غازان، وقعت **[ص ٢٨٨]** الفتن والقلاقل بين الرعية. ولهذا السبب اتفق أفراد الأسرة الحاكمة على أن أعتلى العرش. والحالة هذه فإن الأمير النجل سوف يجاب إلى كل ما يطلبه. وليس فى ذلك مجال للمضايقة. ولكن ينبغى أن يعود غازان من حيث أتى"، غير أن هذا الأمير لم يعبأ بذلك وسار فى طريقه. فلما وصل إلى "قونقور أولانگ"، قدم مولاى ويغميش، وأخذا يتحدثان بمثل هذا الكلام المزخرف. وفى نفس ذلك اليوم انفصل "تاولدار" عن بايدو، ووصل إلى حضرة غازان، فشمله برعايته، واختصه بأنواع العطف والتكريم. ثم رحل غازان من هناك ونزل فى طريق "رباط مسلم". ثم استدعى "شادى گوركان" ورسل بايدو، وأنبهم تأنيبا شديدا لدرجة أن شادى گوركان يئس من حياته. بعد ذلك أرسل غازان رسائل شديدة اللهجة بخصوص تولى بايدو الحكم.

وفى الوقت الذى ذهب إلى هناك مولاى ويغميش، تفوه ايلدار – فى حالة سكره – بكلمات قال فيها: لقد اتفقنا نحن أفراد الأسرة الحاكمة على أن نولى بايدو مقاليد الحكم. فإذا لم يتفق معنا الأمير النجل غازان فى هذا الرأى، فإن الخصومة تقع بيننا.

وأخيرا أذن للرسل فى العودة. ثم كلف الأميرين الكبيرين: نورين وقتلغ شاه باستعراض الجنود والتفتيش عليهم. وعلى الفور أرسل "ايسا بوقا" الكاتب برسالة إلى بايدو قال فيها: "نحن سوف نصل". وعلى أثر ذلك سلك طريق "توكاتو". ثم عبر "سفيد رود"[1]. وفى

---

(١) "سفيد رود" أى النهر الأبيض. تسقى روافده الكثيرة نواحى آذربيجان الجنوبية الشرقية. ويؤلف معظم مجرى هذا النهر الحدود الفاصلة بين آذربيجان وإقليم الجبال. ويصب أخيرا فى بحر قزوين بعد مروره بإقليم جيلان. (بلدان الخلافة الشرقية، ص٢٠٣).

اليوم التالى الثلاثاء غرة رجب سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م الموافق الثانى من شهر "شون آى" وصل إلى بايدو نبأ وصول الأمير النجل غازان، فأرسل فى الطليعة الأمير النجل ايلدار والأميرين ايلجيداى وجيجك. وأما من هذا الجانب (المقصود به غازان) فكان على الميسرة الأمير قتلغ شاه ونورين آقا، ووقف فى القلب الأمير النجل "سوكا" و"بورالغى" و"نوروز" والأمراء الآخرون الذين كانوا فى حضرة غازان.

وعندما اقتربوا من بايدو، أوفدوا أمامهم بوقداى اختاجى وتحدثوا فى كل أنواع الكلام عن الصلح والمودة، وضرورة مراعاة صلة الرحم بين أفراد الأسرة الحاكمة، غير أن غازان لم يلتفت إلى ذلك [ص ٢٨٩]، والتحم الجنود من الطرفين بعضهم ببعض. وكان الأمير قتلغ شاه فى المقدمة كالطود الثابت. ولما كان الأمير النجل "ايلدار" قد تفوه بكلام خطير اقتضى رأى غازان العالى المبادرة بتأديبه.

ولم تكن قد قرعت بعد طبول القلب إيذانا ببدء المعركة، وقبل أن يتحرك جنود القلب من جانب العدو، هاجمهم الأمير قتلغ شاه، ودحرهم بحملة واحدة؛ بحيث إنه عندما وصل الخبر إلى القلب فى جيش العدو، كانت الهزيمة قد حلت به، وقتل منه ما يقرب من ثمانمائة جندى، وانهزم الباقون. وقتل "تغاى" نائب "ايلدار". ثم أحضر "أرسلان أوغول" إلى الحضرة مترجلا، وطلب أن يهجم جنود خراسان دفعة واحدة ليستأصلوا شأفة أعدائهم ويفنوهم. ولكن غازان حال دون ذلك مدفوعا بما فطر عليه من رحمة، وقال: إن هؤلاء الجنود جميعهم عبيد آبائنا وأجدادنا. وإذن فكيف نقتلهم بسبب حفنة من المشاغبين ومثيرى الفتن؛ هم أولئك الذين ولوا "بايدو" الحكم؟... غير أن نوروز وبقية الأمراء صاروا يبالغون مصرين على أنه ينبغى اغتنام الفرصة. فما كان من غازان إلا أن صاح فيهم ونهرهم فالتزموا السكون.

وعندما اعتقل "أرسلان أغول"، وسيق إلى غازان، قال ابن عم بورلتاى: "بما أن "أرسلان" سل السيف فى وجوه عبيد الدولة، فإنى سوف أقتله لو أذن لى السلطان بذلك غير أن غازان لم يلتفت إلى هذا القول. ثم أمر بأن يحضروا من خزانته الخاصة قباء وقلنسوة ومنطقة (حزاما) وحذاء، وألبسوا الأسير هذه الأشياء، وأركبوه جوادا مخصيا من جياد الخاصة. كما أمر بإحضار جرحى المعركة، وصار يضع المرهم على جروحهم، وكان

يسقيهم الأدوية المذابة فى الشراب. فلا جرم أن الحق تعالى وضع أطراف الممالك وأكنافها فى قبضة سلطنته جزاء وفاقا لتلك العاطفة وهذه الرحمة.

ولما رأى بايدو وأمرؤه أن "ايلدار" و"توكال" اللذين هما أشجع رجالهم قد هزما، عرفوا أنهم لا طاقة لهم بمقاومة أعدائهم فسلكوا طريق المسالمة والشفاعة، وجاء بايدو وسط ميدان المعركة، ووقف على قمة ربوة مع الأمراء: طغاجار ودولاداى وقونجقبال. **[ص ٢٩٠]** ومع أن سلطان الإسلام قد خذلهم وهزمهم، تجشم السير إليهم. وكان الأمراء نوروز ونورين وقتلغ شاه وسوتاى ملازمين للحضرة. وقد اتفق الجانبان على اللقاء، وسأل بعضهم بعضا وقالوا: "ينبغى أن يعقد بيننا عهد وميثاق نتعهد فيه بألا يؤذى بعضنا بعضا. فصاح الأمراء من هذا الجانب (جانب غازان) قائلين: ينبغى أن نحسم أولا أمر الملك والسلكنة. وبعد ذلك يبرم العهد والميثاق.

والخلاصة أنهم أحضروا الشراب، واحتسوه فى الكئوس. أما المسلمون منهم فتصافحوا وأقسموا بألا يفكروا فى الإساءة بعضهم إلى البعض. ثم قالوا: غدا يتقرر أمر الحكم والسلطنة. ولما كان النهار قد انتهى، وآذن بالمغيب، عاد كل منهم إلى مقره. وفى تلك الأثناء انفصل عن بايدو أفراد أسرة الخاتون المعظمة "بولوغان خاتون" منهم الشيخ "هورقاسون" وجمع آخر، وانضموا إلى الحضرة. ولما كان جنود بغداد وموغان قد اقتربوا كان بايدو يرسل إليهم الرسل تباعا لاستدعائهم أثناء المفاوضات وكان الأمراء يصلون مع جنودهم لحظة بعد أخرى، فظهرت لهم شوكة كبيرة آخر النهار. وفى اليوم التالى سار الجيشان حتى "قربان شيره" لمناوشة الواحد منهما الآخر. ثم دخل جيش السلطان غازان واديا ضيقا يبلغ طوله فرسخا. ولم يكن أمامه غير طريق واحد؛ فأسرع "توكاتو بهادر" مع ألفى فارس، واستولى على مدخل الوادى. وكان قونجقبال يتبعه ليعاونه. فلما علم بايدو ذلك، وعرف أن هذا التصرف يؤدى إلى الحرب، أوفد على الفور رسولا يأمر أتباعه بفتح الطريق أمام جنود غازان، ولا يمنعونهم من الخروج؛ فغضب قونجقبال من ذلك التصرف.

وصفوة القول أنهم نزلوا فى تلك الليلة بعضهم بجوار البعض؛ بحيث إنهم كانوا يشربون من عين واحدة على الرغم من أن جميع الجنود كانوا يمسكون بأعنة خيولهم مدججين بأسلحتهم، ولم يستريحوا فى تلك الليلة. وفى اليوم التالى الإثنين السابع من رجب، أخذ جمع

من الساعين فى الصلح يترددون بين الجانبين.[ص٢٩١] وأخيرًا استقر رأى الأميرين توقتيمور وسوتاى على أن يقام سرادق بين الطرفين على أن تحضر "توداى خاتون" التى يقع موطنها على مقربة من ذلك المكان، وتعقد الصلح بين الطرفين. وفى تلك الأثناء قدم "قنجقبال" وعرض قائلاً: "إذا كان الظفر من نصيب غازان، فإن الأمير "آقبوقا" سوف يقضى علينا. ولهذا السبب قتلوه فى نفس ذلك اليوم.

وبعد حديث طويل تقرر أن يجتمع الأمراء وسط ميدان المعركة، ويقر الطرفان بصواب وجهة نظر الطرف الآخر. وعلى هذا ذهب من هذا الطرف (أى غازان خان) الأمراء نوروز ونورين وقتلغ شاه وتوقتيمور. ومن طرف بايدو قدم طغاجار وقونجقبال ودولاداى وصاروا يتناقشون حتى منتصف النهار. وكان جنود بايدو يصلون لحظة بعد أخرى فصارت تزداد قوتهم.

ولما رأى الأمراء ذلك، استقر رأيهم على أن يرسل بايدو إلى حضرة الأمير النجل غازان المخيمات الخاصة بأرغون خان والخاتون المعظمة بولوغان واوروك خاتون والأمير النجل خربنده مع الأمراء الأنجال الآخرين، وأن تُسلم له أمواله وخزائنه. ويكون لغازان أيضًا من الجانب الآخر مناطق "سفيدرود" والعراق وخراسان وقومس ومازندران ونصف إقليم فارس مع كل أملاك الخاصة هناك. وعندما عرضوا ذلك الأمر على حضرة غازان، طلب أن يسلموه طغاجار أيضًا مع عشرة آلاف من القراونة الذين هم من خاصة أرغون. وبموجب هذا الاتفاق نهى الحديث عند هذا الحد ونعود. فأجاب بايدو بحضور الأمراء قائلاً: "إن الأمير النجل غازان يعلم أن أرغون كان يعتبرنى ابنًا له من صلبه، وكان يعين لكل ابن مشتى خاصًا فى جهة من الجهات فى صحبة أحد الأمراء. وكان طغاجار مع عشرة آلاف جندى من القراونة فى صحبتى دائمًا فى بغداد. وها أنا أقر ذلك حسب أمر أرغون خان، فإنه هو الحاكم". وأخيرًا استقر رأى السلطان والأمراء على هذا، وقالوا: "فلتسلم هذه المقررات لغازان حتى نعود". ثم أرسل بايدو "دولاداى" يحمل الطعام والشراب إلى الحضرة، فحظى بالإعزاز والرعاية، وناوله قدحًا من الشراب.

بعد ذلك أشار السلطان غازان قائلاً: لنعد عن طريق "سياه كوه"؛ غير أن بايدو والأمراء لم يرضوا بهذا الرأى. والسبب فى ذلك هو أن جيش القراونة كان مقيمًا هناك، فخافوا أن

ينضموا إلى غازان خان إذا ما قرّ فى تلك الناحية **[ص٢٩٢]** فتحدث الفتنة مرة أخرى. ثم أوفدوا "پولاد چينگسانگ[1]" إلى الحضرة ليقنع غازان بالعودة من الطريق الذى قدم منه.

وفى اليوم التالى أرسل پايدو ابنه "قپچاق" مع طائفة من الأمراء إلى حضرة غازان لإبداء رعايتهم وإعزازهم له، ولتناول أقداح الشراب، وليبلغوه أن بايدو يقول: "إن الأمير النجل قدم إلى هنا باليمن والبركة، وتم الصلح والاتفاق بيننا. فإذا ما انصرفنا دون أن يرى الواحد منا الآخر، ولو للحظة، فسوف يظن القريب والبعيد أن الكدر لا يزال بيننا. وإذن فالأولى أن نجلس ساعة بعضنا مع البعض لنجدد عهد اللقاء، ثم يعود الأمير النجل باليمن والبركة". ولإبلاغ هذا الالتماس، قدم أيضًا الأميران سوتاى وتوقتيمور عدة مرات. وأخيرًا تقرر أن تعد دار ينزل فيها كلا الجانبين مع عدة أشخاص من خواصه، ويقابل الواحد منهما الآخر.

وفى ذلك اليوم تودد السلطان غازان إلى "قپچاق اغول" وشمله بعطفه ورعايته، وخلع عليه، وأركبه جواده وأعاده. ثم تشاور مع الأمراء نوروز ونورين وقتلغ شاه فلم يروا المصلحة فى هذا الاجتماع. كما أن المنجمين قالوا: "إنه يوم نحس. فأرسل غازان "سوتاى" وتوقتيمور إلى بايدو ليقولا له : "إن اليوم نحس حسب قول المنجمين، وقد اقترب أيضًا وقت الليل، وغدًا صباحًا سوف يقابل الواحد منا الآخر. ثم كلف الأميرين نوروز وتوقتيمور بأن يقيما معه هذه الليلة، على أن يذهبا فى الصباح إلى بايدو. وبعد ذلك يصرفان شئون الملك، ويسيّران الجنود. ثم رحل غازان ليلاً باليمن والبركة بعد أن أوقدوا النيران فى كافة البيوت، وسار فى طريقه حتى إذا حلّ الصباح كان قد عبر نهر "سپيدرود"، وانضم إلى الحضرة أمراء الجند الذين كانوا هناك. ثم خرج وسلك طريق "ديه منار"، وبات ليلته فى زنجان.

وفى اليوم التالى أرسل غازان "كورتيمور" من "مسلم" إلى بايدو ويقول له: "لقد سرنا إلى ناحية دماوند، وتركنا هناك الأميرين نوروز وتوقتيمور فينبغى أن تكون عند كلمتك فتيسّر الجنود والخواتين، وتحسم أمر الملك بالمشافهة".**[ص٢٩٣]** ومن هناك مَرّ غازان "بقونقور أولنگ"، ووصل إلى موضع "كره رود" الذى يسميه المغول "تركان موران".

---

(١) كان يعمل سفيرًا للخاقان فى بلاط إيران، ويتمتع بمنزلة كبيرة بين الايلخانيين (انظر كتاب الشرق الإسلامى، ص٢١٣، ٢٧٤).

وهناك وصل إلى الحضرة "كشهر بخشى"، وأبلغه رسالة بايدو التى يقول فيها: "كان من المتوقع أن نجدد عهد اللقاء، ونأتنس لحظة بمجاورة الواحد منا الآخر. وحيث أن الأمير قد ارتحل فإن الصلاح يكون فى ذلك. والآن ينبغى أن يفى كل منا بوعده". فأعاد السلطان غازان "كشهر بخشى" بصحبة إبراهيم شكورجى (سكورجى) برسالة إلى بايدو يقول فيها: "ينبغى أن تبرم الأمور بأكملها مع نوروز وتوقتيمور وكورتيمور، وتعيدهم فى أسرع وقت". ومن هناك توجه غازان إلى دماوند حيث أمضى الصيف.

وعندما رجع الأمراء: نوروز وتوقتيمور وكورتمور، ظهر أن بايدو قد أبدى أعذارًا غير مقبولة فيما يتعلق بتصريف المهمات، وتدبير شئون الملك، وإرسال الخواتين والجنود، ولم يف بما تعهد به مما أثار غضب غازان؛ فأمر بأن يذهب الأمراء جميعًا مع جنودهم لإعداد العلف وتسمين الدواب.

أما عن حال نوروز ومن معه من الأمراء، فكان على هذا النحو: عندما وصلوا إلى بايدو، والتمسوا إليه أن يصدر مرسومًا بشأن البلاد والجنود والخواتين، توجس خيفة بسبب عودة السلطان غازان، فاعتقل رسله. ثم أرسل قونجقبال ودولاداى وايلجيداى فى المقدمة لتعقب غازان، وتحرك هو نفسه فى اليوم التالى. وفى يوم الأربعاء التاسع من رجب عبر غازان "سفيد رود". وفى يوم الجمعة الحادى عشر قدم "كورتيمور" برسالة. وكان الأمراء يتتبعون أثرهم حتى شرويان، ثم عادوا من هناك، واتصلوا ببايدو فى منطقة سجاس[1] ورحلوا فى يوم الاثنين الرابع عشر من رجب حتى ربوة شرويان ثم عادوا من هناك.

وأما عن بايدو فقد **[ص٢٩٤]** تشاور مع الأمراء فيما يتعلق بالتصرف فى شأن نوروز وتوقتيمور. فأجابوا جميعًا: "لا يمكن أن نمسهما بسوء". ما عدا "توكال" الذى كان يسعى فى إراقة دم نوروز؛ إذ قال فى هذا الصدد: "إن نوروز هو الملجأ والظهير لغازان. وإذن فقتله يكون ضرورة لازمة". لكن طغاجار وأمراء آخرين لم يجيزوا ذلك بسبب صلات

---

(١) سجاس أو سُجاس: بلدة تقع على بعد خمسة فراسخ غرب السلطانية، ويجاورها أكثر من مائة قرية أغلب سكانها من المغول. وكان فى الجبل المجاور لها قبر أرغون خان. وجريًا على عادة المغول أخفى هذا القبر. وكان الناس يجدون مشقة فى عبور تلك المنطقة إلى أن جاءت اولجاى خاتون فأظهرت قبر أبيها وأقامت هناك خانقاها للدراويش. (نزهة القلوب، ص ٦٩ ٧٠؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٥٨).

القربى والصداقة فعاد توكال مهمومًا لعدم الأخذ برأيه، ورحل إلى ولاية جورجيا "كرجستان" حيث موطنه، ولم يعد منها حتى حادث مقتل بايدو.

وعن موقف طغاجار فنظرًا للعداء الذى يكنه له "توداجو" نفر من حكم بايدو. وكذلك الحال بالنسبة إلى "صدر الدين"؛ ويرجع سبب ذلك إلى أن منصب الوزارة لم يتيسر له فحقد على بايدو، وصار يحرض "نوروز" عليه، واتفق معه على مؤازرة غازان. كذلك أشار على نوروز بأن يتظاهر بالموافقة على ما يراه بايدو وأتباعه، وأن يبرم معهم عهدًا على أى نحو يريدونه.

بعد ذلك شمل بايدو "نوروز" بعطفه. وأخيرًا استقر الرأى على أن يعقد معه ميثاقًا يتعهد بموجبه بأن يرسل إليه غازان مقيدًا[1]. وعلى هذا سمح بايدو لنوروز بالعودة، وخصه بمزيد من الرعاية والتكريم. كذلك فوضت إمارة يزد من قبل بايدو إلى "سلطان شاه" نجل نوروز، وحررت له حوالة على يزد بعشرة آلاف دينار.

وفى يوم الثلاثاء الخامس عشر من رجب سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م أعادوا نوروز وتوقتيمور والرسل الآخرين. وفى اليوم التالى عاد ايلجيداى الذى كان يتعقب غازان. ثم لوى بايدو العنان، وسار صوب "سوغورلق" وفى يوم السبت التاسع عشر من رجب نزل فى موطنه الكبير بسوغورلوق. والسلام.

---

(١) يقول بيبرس الدوادار فى كتابه زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج٩، ص٢٨٨ ٢٨٩، تحقيق د. زبيدة محمد عطا المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ: "لما استوثق نيروز من الأمراء الذين استمالهم، علم قازان بأمرهم، فتجهز للسير من خراسان، وبلغ بايدو خبره فأوجس خيفة منه، وذكر ذلك لنيروز، فقال له: أنا أكفيك أمره، وأدفع عنك شره، ومتى وجهتنى إليه ثنيت عنك عزيمته، وفرقت جماعته وأرسلته إليك مربوطًا، فاستحلفه أنه لا يخون عهده إذا فصل من عنده ثم سرحه؛ فسار إلى خراسان، وأخبر قازان بكل ما كان وخرجا معًا لقصد بايدو. وسارا طالبين الأردو. وأرسل نيروز فيه قدرًا مربوطة فى عدل. وقال: "قد وفيت بما قلت لك، وأرسلت قازان إليك مربوطًا بالوثاق، ولم أغيّر ما وقع به الميثاق. فغضب بايدو لرسالته، وتبينّ له مكره به من مقالته". انظر أيضًا الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو خان) ص٢٣٨.

حكاية

انشراح الصدر المبارك لسلطان الإسلام غازان بنور الإيمان واعتناقه الإسلام هو والأمراء بحضور الشيخ زاده صدر الدين إبراهيم بن حمويه الجوينى دامت بركاته

عندما يكون الله تعالى وتقدس قد أراد فى أزل الآزال أن يخلق عبدًا سعيدًا، ويختصه بأنواع التأييد، يجعل قابلية السعادة [ص٢٩٥] فى طينته وجبلته مخمرة ومركزة. وإن الألفاظ الدرية النبوية الدالة على تحقيق هذا المعنى، وتصديق هذه الدعوى لدليل واضح وبرهان ساطع. "السعيد من سعد فى بطن أمه"[١]. وبعد ذلك يربيه مربى العناية الربانية فى مهد التربية بيد العناية، ويوصله بالتدريج إلى مدارج الكمال، ويرشده بمرور الشهور إلى النظر فى حقائق الأمور حتى يتأمل فى أحوال الصور والمعانى، ويطلع بذلك على حقيقة كل شىء وبطلانه وتتحول آثار سعادته من القوة إلى الفعل بفضل ذلك التدبر والتفكر ويتحقق ظهور كل ما تقتضيه سر الحكمة الإلهية القائمة عليه إرادة تلك السعادة، وفقًا لنص القرآن الكريم: ﴿وكان أمر الله قدرًا مقدورًا﴾[٢].

وبموجب هذه المقدمات، فإنه لما اقتضت عناية ذى الجلال ومشيئة الأزلى أن يتدارك الوهن والفتور اللذين قد تطرقا إلى أطراف الملة الإسلامية بتقلب الشهور والأعوام، وتعاقب الليالى والأيام على يد أحد خواص العباد الذى يتولى حكم الأمصار والبلاد. لذلك جعل ذات صفات غازان الملائكية مستعدة لفيض أنوار الهداية والإلهام الربانى.

---

(١) أخرجه البيهقى فى المدخل والبزار فى مسنده عن أبى هريرة. وجاء على هذا النحو: "السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه". وسنده صحيح. وأخرجه الطبرانى فى الصغير مقتصرًا على "السعيد من سعد فى بطن أمه" (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تأليف إسماعيل بن محمد العجلونى الجراحى، ج١، ص٥٤٨، حلب بدون تاريخ).

(٢) الآية بأكملها ﴿ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرًا مقدورًا﴾. (سورة الأحزاب آية ٣٨).

ولما كان فى أوائل طفولته يتربى فى رعاية جده الأعظم آباقاخان وكان ميالاً إلى طريقة الكهنة البوذيين، ومعتقدًا معتقداتهم، عهد به إلى واحد أو اثنين من كبار الكهنة، وكلفهما بأن يجدا فى تعليمه إلى أقصى حد، وحثه على اقتباس مراسم طريقتهما. وعلى هذا كانا يلازمانه. ودائمًا كانا يواظبان على ترغيبه فى تلك الملة.

ولكن الأمير النجل لفرط كياسته ودهائه وفطنة ذهنه وذكائه اطلع — فى وقت قصير على عيوب تلك الطريقة "عُجرها وبُجرها"[1]، ووقف على غوامض ودقائق أقوال تلك الطائفة وأفعالها وحاز درجة الكمال؛ بحيث إنه صار متعمقًا إلى درجة كبيرة فى الطريقة البوذية[2].

غير أنه بتأثير العناية الأزلية، صار ينظر بفكره الثاقب **[ص٢٩٦]** ورأيه الصائب إلى أسرار البوذية. كما كان يتأمل حقيقة الأديان والملل؛ فسطعت ولمعت أشعة أنوار الديانة المحمدية على ضميره المنير، وذلك بسبب فيض الإلهام الإلهى، وصار يظهر فى خاطره العاطر الميل إلى هذه الملة الصحيحة.

ولكنه نظرًا لتمكنه وتثبته، ظل سائرًا على تلك الطريقة البوذية. وكان فى هذا المجال متمكنًا وثابت القدم. وبسبب غلوه فى تلك العقيدة أقام معابد عالية للأصنام فى "خبوشان" بخراسان. وكان يؤدى طقوسها بصورة جعلت جميع اللامات والرهبان متعجبين مندهشين من تلك الرياضات والمشقات. ومع هذا كان مجدًّا إلى أقصى حد فى البحث عن أسرار الحق، وتحقيق طرق الصواب. إلى أن اجتمعوا بـايدو؛ وكان الأمراء الحاضرون يبرمون العهد والميثاق؛ فالمسلمون منهم كانوا يقسمون بالقرآن الكريم، على حين أن المغول كانوا يقسمون بالذهب.

ولقد اغتنم نوروز هذه الفرصة، فعرض على غازان قوله: ماذا يحدث لو يقوى السلطان ملاذ العالم الدين الإسلامى باعتناقه الإسلام والإيمان به؟ فرد عليه غازان بقوله: إن هذه

---

(١) عُجر وبُجر: يقال عجره وبجره أى ذكر عيوبه وأمره كله ما أخفى منه وما أبدى. (المعجم الوسيط: ج٢ ص٥٨٥).

(٢) انظر دكتر شيرين بيانى (اسلامى ندوشن): دين ودولت در إيران عهد مغول، جلد دوم، حكومت إيلخانى: نبرد ميان دوفرهنگ، چاپ اول، ص٤٤١ وما بعدها، تهران ١٣٧١هـ.ش.

الفكرة تجول بخاطرى منذ زمن. عندئذ أخرج نوروز قطعة من اللعل المصقول النادر، وركع على ركبتيه وقال: "ولو أنه ليس للعبد سبيل إلى هذه الجرأة؛ بحيث يقدم هدايا لأبناء الملوك. ولكنى أطمع فى أن يتعطف السلطان على عبده، فيحتفظ بهذه الهدية لحين عودتى من مهمتى ووصولى إلى الحضرة".

فلما قدم نوروز وبقية الأمراء من لدن بايدو دون أن ينجزوا مهمتهم غضب السلطان وصار يفكر فى تدارك الأمر. وهنا طرح نوروز تلك القضية مرة ثانية بحضور الشيخ زاده العظيم صدر الدين إبراهيم ابن قطب الأولياء الشيخ سعد الدين حمويه – أعزه الله وقدس نفسه – وكان يلازم السلطان فى أغلب الأوقات، فيستفسر منه عن الدين الإسلامى وحقائقه، ويتباحث معه فى هذا الشأن، فينشرح صدره للإسلام[1]. ولقد كان نزول السكينة على صدره المبارك يقوى سطوع أنوار الإيمان فى ضميره، فيستولى عليه إمداد الهداية، فقال: حقًا إن الإسلام [ص٢٩٧] دين متين ومبين للغاية. ويحتوى على كل الفوائد الدينية. وإن معجزات – الرسول عليه الصلاة والسلام – لمؤثرة فى القلوب وباهرة وعلامات صحتها – على صفحات الدهر واضحة وظاهرة. ولا شك أن المواظبة على أداء الفرائض والواجبات والنوافل تؤدى إلى الوصول إلى الحق. وأما عبادة الأصنام فإنها عديمة الجدوى، وبعيدة كل البعد عن العقل والعلم. وعند أصحاب الرأى والكفاية يكون وضع الجبهة على الأرض أمام الجماد محض جهالة وحماقة، ويبدو أيضًا – من وجهة نظر الحق – أمرًا مكروهًا أمام الإنسان الذى هو سيد الروح والعقل. ولا يوجد أى إنسان كامل يرضى أن يضع جبهته على الأرض أمام الصنم. وعلى وجه الصدق، فإن صورة الصنم تليق بعتبة الباب، يطؤها الناس بأقدامهم دون مشقة. ثم إن اتفاق كافة الناس على الإسلام وإنكار عبادة الأوثان، أمر مقطوع به، وليس فيه مجال للتأويل.

وصفوة القول فإن غازان خان نطق بكلمة التوحيد فى أوائل شعبان سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م بحضور "الشيخ زاده صدر الدين إبراهيم بن حمويه"[2]،ومعه كافة الأمراء. وبهذا

---

(١) الآية القرآنية: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصَّعَّد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ (سورة الأنعام، آية ١٢٥).

(٢) هو الشيخ الصوفى الزاهد والإمام الجليل صدر الدين أبو المجامع إبراهيم ابن الشيخ سعد الدين محمد بن المؤيد بن أبى بكر بن حمويه الجوينى الشافعى. ولد سنة ٦٤٤هـ فى آمل بطبرستان، وتتلمذ على أكثر علماء عصره. وقد =

صار الجميع مسلمين. ولقد أقيمت الولائم والأفراح، واشتغل الحاضرون بالعبادة. وشمل غازان برعايته جماعة السادات والأئمة والمشايخ، وأجرى عليهم الإدرارات والصدقات. وفيما يتعلق بتعمير المساجد والمدارس والخوانق وأبواب البرّ، بالغ فى إصدار الأحكام المتعلقة بهذه المؤسسات. وعندما حلّ شهر رمضان، صار مشغولاً بالطاعة والعبادة مع طائفة الأئمة والمشايخ.

ولا يخفى على كافة العقلاء أن إسلام وإيمان سلطان الإسلام غازان خان إنما كان عن صدق وإخلاص، ومبرءًا من شوائب الرياء والرعونة، وصافيًا خالصًا؛ إذ إنه لا يتصور أن يكون هناك إجبار وإلزام فى اعتناقه الإسلام مع وجود عظمة السلطان وشوكته، وكمال القدرة على إبرام الأمور وتنفيذها. ومن المسلم به أنه فى حالة عدم الاحتياج وفرط الاستغناء لا يمكن أن يكون هناك رياء ومراء. والله الموفق.

رحل فى طلب العلم والحديث إلى العديد من البلاد والمدن العربية والإسلامية وفى سنة ٦٧١هـ تزوج من إحدى بنات المؤرخ الفارسى عطا ملك الجوينى. وعلى يديه أسلم السلطان غازان فى سنة ٦٩٤هـ، ونال حظوة كبيرة فى بلاط هذا السلطان. وقد توفى هذا العالم الجليل فى سنة ٧٢٢هـ، ودفن فى "بحر آباد" إحدى قرى جُوَيْن (انظر كتاب شد الإزار فى حط الأوزار عن زوار المزار، تأليف معين الدين أبى القاسم جنيد شيرازى، بتصحيح وتحشية محمد قزوينى وعباس إقبال، ص٣٧١ ٣٧٢، حاشية٧، طهران ١٣٢٨هـ.ش الشرق الإسلامى، ص٢٥٠، ٢٥١، حاشية٣).

حكاية

توجه الرايات المباركة لسلطان الإسلام إلي بايدو للمرة الثانية وخضوع أمرائه

بعد أن نطق غازان بكلمة التوحيد، وتبعه جمهور الأمراء [ص٢٩٨] وأعلنوا إسلامهم، وصاروا مشغولين بالعبادة، قدم رسولاً بايدو: المدعو "قتلغ شاه"[1]، وشيخ المشايخ "محمود"، فتحدثا عن كل أنواع الكلام غثه وسمينه. وقد اغتنم الشيخ محمود الفرصة وعرض كلام الأمراء الذين في معية بايدو وقلوبهم مع غازان، وأبلغ رسالة كل منهم، وأخذ عليها الجواب مختومًا بالختم الذهبي. وفي اليوم الثالث أذن غازان للرسولين بالإنصراف. ولما عاد الشيخ محمود، وأبلغ تلك الجماعة الإجابة المختومة بالختم الذهبي عقدوا النية على نصرة سلطان الإسلام، واتفقت كلمتهم على الإخلاص له.

كذلك لأن "صدر الدين الزنجاني" لم يبلغ غايته في عهد بايدو وذلك بسبب إسناد منصب الوزارة لجمال الدين الدستجرداني، صار هو الآخر يحرض طغاجار على المخالفة والمناواة. ولهذا كان بايدو وأتباعه يخشون مكائده؛ فشملوه برعايتهم التامة، ومنحوه الفرمان والپايزة، وعينوه حاكمًا على بلاد الروم. فلما اجتاز حدود "هشترود"[2] تذرع بإحدى الحجج، وأرسل إلى تبريز أهله وأتباعه مع الأمير "ياغلاقو" الذى كان في صحبته. ثم ذهب بنفسه إلى "سراو" بحجة أنه يريد قرضًا، وعرّج من ذلك الطريق على "جيلان". ومن سوغورلوق عقد عزمه على التوجه إلى قزوين لإخطار أخيه قطب الدين بتلك الفكرة فخرج هو الآخر من المدينة متذرعًا بإحدى الحجج. ثم توجه إلى جيلان، وانضم إلى أخيه وذهبا معًا إلى سلطان الإسلام غازان خان. وفي فيروزكوه تشرفا بتقبيل الأرض بين يدى غازان، وبحضور الأمير نوروز الذى كان قد قدم من خراسان منذ وقت قريب. وقد ذكر الأخوان أقوالاً مرضية نقلاً عن لسان طغاجار.

---

(١) "قتلغ شاه" هذا شخص آخر يحمل نفس اسم "قتلغ شاه" أحد أمراء غازان وقائد قواته المسلحة.

(٢) هشترود (الأنهار الثمانية) مخرجها الجبال شرق مراغه ذات اثنين وثلاثين طاقا (بلدان الخلافة الشرقية، ص٢٠٤).

ولما كان نوروز قد شمل برعايته جنوده، وهيأهم للقتال، أمر غازان بحشد كافة الجيوش. وقد جرت تلك الأحوال في شهر شوال. ولأن بايدو كان خائفًا هلعًا، أرسل "قتلغ شاه" مرة أخرى بأقوال مموهة؛ غير أن سلطان الإسلام [ص٢٢٩] - بفرط كياسته- عرف أن الأمر لا يخلو من كيد ومكر؛ فأمر بتعريته، وبضربه بالعصيّ والهراوات وبهذا تفحص منه حقيقة الأحوال. إذ راح يشرح كل أحوال بايدو وأمرائه وجنوده وتفكيرهم في إثارة الدسائس والفتن وتلمس العيوب. ثم أضاف قائلاً: لقد أرسلوني حتى أعلم إن كنتم تنوون الزحف أو لا. فأمر غازان بتقييده وسجنه في قلعة استونابند بهبلرود.

وفي يوم الجمعة منتصف شوال توجه غازان باليمن والبركة صوب الري، وسار الأميران نوروز وقتلغ شاه في المقدمة، وصار نوروز جريًا على عادته يذيع الأنباء عن كثرة جنود غازان. وعندما وصل سلطان الإسلام إلى "هبلرود"، فر من بايدو الأمير چوپان وقورومشي گوركان بن عليناق، وانضما إلى الحضرة، فسر سلطان الإسلام سرورًا شديدًا بوصولهما، واعتبر ذلك فألاً ميمونًا، وأكرمهما إكرامًا بالغًا، ومنح كلا منهما قباء وقلنسوة ومنطقة (حزامًا) مرصعة. ثم تحرك من هناك، ونزل عند وادي نهر "قوهه" وأقام عدة أيام. وقد انتهز الأميران چوپان وقورومشي هذه الفرصة فقالا: لو يتعطف علينا سلطان الإسلام فسوف نرحل ونسير في المقدمة مع الأميرين الكبيرين نوروز وقتلغ شاه؛ فأذن لهما بذلك وانضما إليهما.

بعد ذلك ترك سلطان الإسلام غازان خان زوجته بولوغان الخراسانية هناك، وسار عقب الأمراء. وعندما وصل إلى آمد خواجه قزوين، قدم "أرغا بيتكچي" أخو بوغداي اختاجي من قبل نوروز، وأعلن أن الأميرين طغاجار وبوغداي انفصلا عن بايدو وأنهما يقصدان حضرة سلطان الإسلام. وقد انضما إلى نوروز. ثم سار السلطان من هناك عن طريق "سجاس" حيث وصل إلى خدمته الأمير النجل خربنده والأمير النجل "ايلدار". وعندما قدم غازان إلى بهستان على ضفاف "سپيدرود"، وصل إلى الحضرة الأمراء دولاداي ايداجي وايلتمور بن هندوقور مع طائفة أخرى. ثم رحل من هناك، ونزل "بيوز آغاج" في انتظار [ص٣٠٠] نوروز وقتلغ شاه اللذين خرجا إلى "نخجوان" و"أرس" يتعقبان بايدو وتوكال.

وبعد ذلك قدم غازان إلى أوجان، ووصل من قِبَل نوروز وقتلغ شاه الأمير "باينجار" يعلن أن بايدو قد أسر، وسيق من ناحية نخجوان إلى تبريز. وهو يقول: أريد أن أتحدث إلى السلطان بكلمة أو كلمتين. فما هو الرأى؟ غير أن السلطان قد عرف بفراسته أنه ليس لدى بايدو كلام مفيد يقوله، وإنما يبحث عن حجة يتذرع بها. وعلى هذا صدر الأمر بعدم إحضاره إلى الحضرة والخلاص منه هناك. وكانوا قد أخرجوه من تبريز، ووصلوا به إلى "باغ بيكش" حيث أنهوا حياته فى يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م.

وعلى أثر ذلك، نفذ حكم المرسوم الذى يقضى بتخريب كل معابد البوذيين ودور الأصنام والكنائس والبيع فى دار الملك تبريز وبغداد وسائر بلاد الإسلام. وقد شكر المسلمون الله تعالى شكرًا كثيرًا على هذا الفتح المبين؛ لأن أهل الأزمان السالفة لم ينالوا تلك الأمنية.

بعد ذلك عقد سلطان الإسلام العزم على السير إلى دار الملك تبريز، فاستقبله صدر الدين الزنجانى الذى كان قد ذهب إلى المدينة لتدبير المصالح، ثم سار حتى بلغ "كندرو"، وكان يريد أن يطلع الناس على منزلته وجاهه، فصار يتعالى ويتغطرس إلى حد الوقاحة. وكان يتحدث وهو على صهوة جواده. وفى ذلك اليوم كانت النوبتجية للأمير مولاى، فقال لصدر الدين الزنجانى: ليس هذا السلوك هو سبيلك! فلا تتجاسر، والزم حدك". ولكن صدر الدين لم يعبأ به؛ فضربه مولاى بالسوط عدة مرات على رأسه، وأقصاه عنه. ولهذا السبب ولأسباب أخرى انحط شأن صدر الدين.

وفى يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ذى القعدة نزل سلطان الإسلام فى عظمة تامة بظاهر تبريز فى السراى المبارك "بشم".

وبموجب الفرمان أعدم ايلجيتاى قوشجى دون محاكمة، وأعطى السلطان بولوغان الخراسانية ما يملكه. وبعد ذلك وصل نوروز وقتلغ شاه وقدمت من "سوقورلوق" بولوغان خاتون والخواتين الأخريات. وفى جوسق العادلية أقيمت الولائم والاحتفالات، وحقق مع قنجقبال وجيجك، وقتل قونجقبال قصاصًا لدم آقبوقا [ص٣٠١] ثم أسرع غازان من هناك إلى "قراتپه"، وضرب جيجال بالهراوة وأطلق سراح توداجو، وأرسل الأمير "نورين"

على رأس جيش إلى خراسان ومازندران، ثم عاد إلى تبريز حيث وجّه هذا النداء ومضمونه أن على الجميع أن يراعوا مسلكهم، ولا يظلم بعضهم بعضًا، ولا يثيروا الفتنة والفساد، ولا يعطوا دانقًا ذهبيًا قط لأى مخلوق بدون حوالة مختومة بالختم الذهبى.

بذلك نال العالم والعالمين بفضل عدل سلطان الإسلام وميامن إنصافه الزينة والنظام والراحة التامة، ولهجت ألسنة القريب والبعيد والترك والتازيك(1) بالدعاء للدولة الممتدة أيامها، وتعبيرًا عن الشكر لمثل هذه الموهبة الفذة قدموا صدقات لا حد لها. ومن وراء حجاب الغيب، صاح هاتف الإقبال وقال:

(بيت فارسى فى الأصل ترجمته)

كان ملك العالم قد بقى بغير سلطان ورئيس

أما الآن فجاء سلطان جدير بأن يزين رأسه

بعد ذلك أرسل السلطان من تبريز الأمير مولاى للإمارة والحكم فى ديار بكر وديار ربيعة، ورعى الأمير نوروز رعاية تامة، وأصدر مرسومًا ينص على أن تفوض إليه الوزارة لجميع الرعايا. وهو يقيم الآن فى تبريز، ويصرف مصالح الناس ثم يجىء عقب ذلك إلى أرّان.

وفى يوم الإثنين ٦ من ذى الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م تحرك غازان خان من دار الملك تبريز قاصدًا مشتى "أران". وفى ناحية تبريز تزوج من بولوغان خاتون زواجًا شرعيًا رغم أنها كانت ضجيعة والده أرغون خان. ولكن حيث أن الزواج كان قد تمّ مع اختلاف الديانة فى ذلك الوقت، وأن السلطان والخاتون فى الوقت الحاضر، كلاهما على دين الإسلام، فإن هذا النكاح يعتبر نكاحًا صحيحًا شرعًا(2).

---

(1) كان الإيرانيون أول من أطلق هذه الكلمة على العرب، ثم انتقلت إلى الصينيين، ويحتمل أن تكون قد وصلت إلى الترك. ومن المعلوم أن دلالة هذه الكلمة قد تغيرت تمامًا؛ ففى القرن الحادى عشر الميلادى كانت تطلق على غير العرب وربما على الإيرانيين. وأغلب الظن أن الأتراك أطلقوها على كل المنتسبين إلى المدنية الإسلامية. ثم بعد ذلك على الإيرانيين خاصة، لأن الأتراك كانوا يعرفونهم أكثر من غيرهم من المسلمين. (انظر: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، تأليف المستشرق الروسى و.بارتولد، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان، ص٣٨، القاهرة ١٩٥٨م).

(2) بخصوص زواج غازان من بولوغان خاتون يقول ابن حجر العسقلانى عن غازان: "لما أسلم قيل له: إن دين الإسلام يحرم نكاح نساء الآباء. وكان قد استضاف نساء أبيه إلى نسائه. وكان أحبهن إليه بلوغان خاتون، وهى أكبر=

وقد زف عليها باليمن والسعادة. وجريًا على المعهود والمعتاد أقيمت الولائم والأفراح، وأظهروا المباهج والمسرات. ثم خرجوا إلى طريق "اهروبيشكين"، واتجهوا إلى موغان، ونزل الموكب عند (أبو بكر آباد) بموضع "بول خسرو".

وبعد أسبوعين نال نوروز التشرف بالحضرة، واجتمع فى "قراباغ" من أران كافة الخواتين والأمراء والأنجال والأمراء وأركان الدولة وأعيان الحضرة، واتفقوا جميعًا على تولية سلطان الإسلام الحكم بلا رياء ونفاق، وحرروا جملتهم إقرارًا مكتوبًا شاهدًا على ذلك. وقد اختاروا لجلوسه المبارك [ص٣٠٢] يوم الأحد الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م الموافق الثالث والعشرين من شهر طوقسونج آى، قوبين ييل، وأجلسوا سلطان الإسلام على عرش الخانية بالطالع المسعود. وقد ركع كافة الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء كل فى مكانه وأداروا الكئوس، وهنأوا العالم بجلوسه المبارك وقالوا:

(بيت من الشعر الفارسى فى الأصل ترجمته)

اسـع بنفسك واجتـهد لأن الروح العالمية

مرتبطة بتلك الروح العزيزة التى تملكها أنت

=نساء أبيه، فهمَّ أن يرتد عن الإسلام؛ فقال له بعض خواصه: إن أباك كان كافرًا ولم تكن بلغان معه فى عقد نكاح صحيح، إنما كان مسافحًا بها، فاعقد أنت عليها، فإنها تحل لك ففعل. ولولا ذلك لارتد عن الإسلام. واستحسن ذلك من الذى أفتاه به لهذه المصلحة. (الدرر الكامنة، ج٣، ص٢١٣، حيد آباد الدكن، ١٣٥٠هـ).

حكاية

بدء تنظيم شئون الجيش والبلاد بأمر سلطان الإسلام بعد جلوسه المبارك

بعد إقامة مراسم الأفراح والأنس، اتجه رأى غازان - الذى هو زينة للممالك - إلى ضبط وتنظيم شئون المملكة. وفى الأربعاء سلخ ذى الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م، أرسل الأمير طغاجار ليتولى إمارة الروم وحمايتها؛ وذلك لأنه رجل سريع التقلب. ومن المصلحة أن يكون بعيدًا عن الحضرة. وفى يوم الجمعة سلخ المحرم سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م قدم الرسل من خراسان، وأخبروا أن الأميرين "دوا" و"ساربان" ابنىْ "قايدو" انتهزا فرصة غياب الرايات السلطانية، ودخلا خراسان ومازندران، وشرعا فى النهب والسلب، فتشاور سلطان الإسلام مع الأمراء، واستقر الرأى على أن يسير الأميران سوكا ونوروز للقضاء عليهما. غير أن سوكا ذهب إلى دياره. ومهما حاولوا استدعاءه كان لا يستجيب متعللاً بشتى الأعذار. وأخيرًا أرسل سلطان الإسلام "هورقداق" لاستدعائه. وتحت وطأة السكر تفوه بعدة كلمات مثيرة للفتنة؛ فأوصلوا تلك الحكاية إلى السمع الأشرف؛ غير أن غازان لم يلتفت إلى ذلك لفرط ثباته ووقاره [ص٣٠٣] وعندما وصل سوكا إلى الحضرة شمله غازان برعايته التامة وعينه على خراسان، وسيّر معه من أمراء التومان "بارولا" بن الخواجه بن ييسور نويان من قبيلة أولقونوت، وكذلك أرسلان أغول من أحفاد "جوجى قسار"، وأرسل فى الطليعة نوروز وهورقداق فى خدمة الأمير طايجو أغول، وعيّن للنيابة حاجى نارين أخا نوروز وساتلميش من أتباعه القدامى.

وفى يوم الجمعة ٢١ من صفر غادر نوروز وهورقداق المعسكر. وفى يوم الإثنين ٢٤ من صفر سارا عن طريق العراق. وفجأة وصل نبأ يفيد أن طرقاى گوركان أمير أويرات الذى كان فى ديار بكر، وتلك الناحية عزم على المسير إلى ديار الشام مع الأميرين بيسوتاى بن طاشمنكوقوشجى وكوكتاى بهادر مع أهلهم ومتاعهم وأتباعهم من كتائب الأويرات فركب الأمير مولاى لمنعهم، لكنهم هزموه ورحلوا. وفى آخر ربيع الأول، وصل خبر يفيد بأن "ايلدار" هرب مع ثلاثمائة فارس، فسار إليه شادى بن بوقور وآينه بك أخو أشك

توغلى مع ثلاثة آلاف رجل، وحاربوه وانتصروا عليه. وقد ظل مختفيًا مدة فى منطقة أرزن الروم. وفى النهاية اعتقلوه فى إحدى القرى، وقتله إقبال بن أورقوتو بن ايلكاى نويان. وكذلك فى يوم الخميس العشرين من رجب قتل بيسوتاى بن طاشمنكو قوشجى الذى كان قد آثار الفتن فى ديار بكر. وفى السادس من ربيع الآخر أعدم بولارغى قتاى شكورجى الذى كان متضامنًا فى آخر عهد أرغون مع الأمراء المثيرين للفتنة، وحتى يوم مقتله كان له دخل فى كل ما حدث من قلاقل. والسلام.

حكاية

شروع سوكا وبارولا فى المخالفة والتمرد ووضوح ذلك وتوجه الجيش للقضاء عليهما ومآل ذلك الحال

لما سار سوكا وبارولا من أران تشاوروا كثيرًا مع الجنود، فقالوا جميعًا: إنهم يرسلوننا إلى خراسان كى يتقاسموا نساءنا وأطفالنا ويوزعوهم على جنود خراسان. وعقب التشاور اتفقوا على أن يتخلصوا من نوروز أولاً. وبعد ذلك يداهموا المعسكرات، ثم يجلسوا سوكا على العرش. وقد جرى هذا التدبير فى موضع "كره رود" الذى يسمونه "تركان موران".

فلما علم نوروز بتلك المؤامرة داهم سوكا وقت الضحى، واقتتل الطرفان قتالاً شديدًا فقتل "بارولا" أولاً فى تلك المعركة وهرب سوكا، واتجه إلى خرقان[1] وساوه[2]، فتعقبه هورقداق مع كوكبة من الفرسان، وتم اعتقاله فى ناحية خرقان، ثم جاءوا به إلى موضع "سركوى رى". فقال هورقداق لساتى بن لاوداى الذى كان متآمرًا معهم: "اقتل أنت سوكا". فذهب إلى السرادق كى يقتله جريًا على العادة المتبعة فى قتل أبناء الملوك. ولكن سوكاى طعن ساتى بمدية فى بطنه، فأرداه قتيلاً. عندئذ دخل المدعو باتيمور من أتباع هورقوداق، فانتزع المدية من يده وأجهز عليه.

فى ذلك الوقت كان سلطان الإسلام قد اعتزم صيد نوع من الأسماك اسمه "آق باق" من موضع "أبى بكر آباد". وفى الثامن من ربيع الآخر، قدم "ساتلمش كلجى" من قبل نوروز وأبلغ غازان وهو فى موضع الصيد نبأ تمرد سوكا. وفى تلك اللحظة عاد

---

(١) خرقان: تقع على بعد أربعة فراسخ من بسطام فى الطريق الذاهب إلى استراباد. وكان لها شأن كبير فى المائتين السابعة والثامنة (الثالثة عشرة والرابعة عشرة) وهواؤها طيب وماؤها كثير. وفيها قبر الولى أبى الحسن الخرقانى (بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٠٦).

(٢) ساوه: مدينة حسنة بين الرى وهمذان، ويقربها مدينة يقال لها آوه وساوه سنية شافعية، والنسبة إليها ساوى وساوجى. أما آوه فأهلها شيعة إمامية، وبينهما نحو فرسخين. وكان بها دار كتب كبيرة. وقد نسب إليها طائفة من أهل العلم (معجم البلدان، ج٣، ص١٧٩)

سلطان الإسلام، ونزل على حافة سد "منكو تيمور". [ص٣٠٥] وكان فى حضرة غازان الأميران قتلغ شاه وساتلمش. وفى الصباح أصدر غازان قراراً يقضى باعتقال ايسن بن قونقورتاى وقورمشى أخى بارولا إذ كان لهما دخل فى المؤامرة التى دبرها سوكا. وبعد المحاكمة قتل ايسن تيمور و"جريك مغول" الذى كان أميرًا على معسكره وكذلك قورمشى.

وقد اتفق الأمراء قتلغ شاه وچوپان وساتلمش وسوتاى وإيلباسميش على تعبئة الجيوش. وفى أثناء ذلك وصل ياساميشى أمير مولاييد من خراسان، وأخبر أن "نوروز" قتل سوكا[1] وبارولا، وأن الأمير "نورين" اعتقل جيجاك ودولاداى فى خراسان، وأن الأمور تسير وفق المراد، وهزم أغلب طائفة الأمراء. أما الجماعة التى بقيت فقد نصبت أرسلان أغول رئيسًا لها، ثم قدموا إلى بيلسوار[2]، ومن هناك ساروا إلى جهة سارى المنصورية، وقرية بابى (ديه بابى)، وأقاموا بهما. وفى الحال كلف سلطان الإسلام الأمراء چوپان وسولاميش وقورمشى وطغريلجه وتايناق وايلباسميش بالسير بجنودهم للقضاء عليهم، فالتحموا فى منطقة بيلقان[3]، وخاضوا حرباً حامية. وكان مع أرسلان أغول من الأمراء تولك ابن عم أوجان الذى كان أمير السلاح، وآينه بك بن أشك توغلى من الجلاير وغزان بن طايجو بهادر وموسى ترخان وسركيس بن نارين أحمد. وكانت لهم الغلبة فى ذلك اليوم. وقد أصيب من جنودنا طغر يلجه بجرح بليغ؛ كاد يسقطه على الأرض، فرعاه قورمشى بن عليناق (ص٣٠٦) ثم سار هورقوداق وباريم مع ألفى جندى لمدد جيشنا، ووقف الجيشان كل فى مواجهة الآخر؛ غير أن جنود الأعداء استسلموا وأعلنوا خضوعهم دون قتال، وبذلك لحقت الهزيمة بأمرائهم.

بعد ذلك عاد هورقوداق، واعتقل سركيس، وأحضره معه.

---

(١) ذكر المؤرخ أن الذى قتل سوكا هو تيمور أحد أتباع هورقداق.

(٢) بيلسوار: تقع فى سهل موغان. يقال إنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى الأمير "بيله سوار" الذى ولاه بنو بويه عليها. ومعنى اسمه "الفارس الصنديد". (بلدان الخلافة الشرقية، ص٢١٠).

(٣) بيلقان: مدينة قرب الدربند الذى يقال له باب الأبواب. تعد فى أرمينية الكبرى قريبة من شروان. وقد عدها قوم من أعمال أران (معجم البلدان، ج١، ص٥٣٣).

كذلك قام الأمراء الآخرون بتعقب المنهزمين، واعتقلوا "تولك"، وأحضروه معهم، ثم أعدموه مع سركيس. وفى يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م اعتقلوا أرسلان أغول، وأحضروه معهم ثم أعدموه. وعقب ذلك تخلصوا أيضًا من غزان بن طايجور بهادر.

وفى تلك الأيام أعتقل صدر الدين الزنجانى، وطالبوه بالأموال التى كان قد سجلها عليه جمال الدين الدستجردانى[1]، ولكن حمته بولوغان خاتون، ونجا بشفاعتها. ثم انتقل إلى معسكر قويتول. وفى يوم الخميس السابع من جمادى الآخرة، عزم غازان على زيارة الشيخ إبراهيم الزاهد. وبعد يومين قدم إلى المعسكر، وأرسل الأمير "هورقوداق" ليكون أميرًا على إقليم فارس، وعهد إلى "ياساميشى" بتصريف الشئون وجمع الأموال.

وفى تلك السنة وقعت حرب بين توقتا ملك "أولوس" القبچاق ونوقاى بن تاتار، فقتل نوقاى، وتفرق أتباعه، فقدمت إلى حضرة سلطان الإسلام "چيچى خاتون" زوجة نوقاى و"تورى" ابنه الأصغر، وطلبا المساعدة والمدد قصاصًا لدم نوقاى، فصار سلطان الإسلام يطيب خاطرهما بلطفه، ويهدئ من روعهما. وفى ليلة الأربعاء السادس والعشرين من رجب زوّج سلطان الإسلام أخته "أولجاتيمور" [ص٣٠٧] من الأمير قتلغ شاه، وكانت قبل ذلك زوجة لتوكال.

ولما كان وجود "طغاجار" أساسًا للفتن والفساد، وكان سلطان الإسلام يرغب فى أن يقضى نهائيًا على مصادر الفتن، أرسل الأمير "خرمنجى" فى ذلك الشتاء إلى الروم كى يتفق مع بالتو وعرب وأمراء جيش الروم على الخلاص من طغاجار. وعليهم أن يبادروا أولاً بتسليمه اليرليغ (المرسوم) الذى يتضمن استمالته والتودد إليه، ثم ينتهزون الفرصة لقتله فى السّر حسب الأمر الصادر إليهم. ومع أن سلطان الإسلام لم يكن يميل إلى القضاء عليه؛ إلا أن مصلحة المُلك وإدارة شئونه حتمت عليه اتخاذ هذا القرار. وفى تلك القضية قال السلطان غازان للمقربين إليه: حدث فى قديم الأيام فى ولاية الخطا أن ملكين تحاربا فانهزم أحدهما، وتفرقت جنوده، وصار الجنود المنصورون يتعقبون المنهزمين عدة أيام، حتى أدرك أحد الأمراء ذلك الملك المنهزم. ولما كان هذا الملك فى غاية العجز والضعف أشفق عليه

---

(١) انظر التفصيلات فى كتاب الشرق الإسلامى ص٢٣٠ ٢٣١.

الأمير، وأراد أن يخلصه، فصحبه حتى وصل به إلى بئر فى تلك المنطقة، وقال له: انزل فى هذه البئر حتى لا يراك جنودنا. ولما وصلت طائفة الجند المنصورين لم يستطيعوا العثور عليه لأن المنطقة كانت رملية، وثارت الرياح فمحت آثار الأقدام. فقال لهم ذلك الأمير: "إن الطريق ليس واضحًا، ولا يعلم إلى أية ناحية ذهب الملك وقد يمضى فى طريق، ونحن نسلك مائة طريق. وإذن فكيف يمكن العثور عليه؟!... الأولى أن نعود. فرجعوا جميعًا. ثم خرج ذلك الملك من البئر، وعاد إلى مملكته، وجمع جيشًا بالتدريج والتأنى وعاد إلى شن الحرب مرة أخرى، وانتصر على ذلك الملك الذى كان قد تغلب عليه فى المرة السابقة وقتله واستولى على ملكه، وخص الأمير الذى كان سبب نجاته – بأنواع الرعاية والتكريم وصار مقربًا إليه للغاية، وفوض إليه الإمارة الكبرى والنيابة المطلقة.

وذات يوم قال أحد الأمراء للملك: إن هذا الشخص تنكر لحقوق مليكه، ولم يكن وفيًا له، وكان هو السبب فى هلاكه ووصولك إلى الحكم. فكيف يمكن تركه حيًا؟! . إنه عن قريب سوف يفكر فى الغدر بك.[ص٣٠٨] وكان الملك غاية فى الذكاء، فاستمع لذلك الكلام، وأشار بقتل منقذه؛ فصرخ ذلك الأمير قائلاً: إن لى عليك حقوق إنقاذك والمحافظة على حياتك. فبكى الملك، وقال: إن الحق معك، وأنا لا أرضى عن قتلك مطلقًا. ولكن لا مفر من رعاية مصلحة الملك والحكم. ومن اللازم أن تقتل. ثم قتله وهو يبكى.

وهكذا فإن شأن ضبط الأمور يجرى على هذا النمط. ورغم أن قتل شخص من الأشخاص أمر صعب علىَّ جدًا، فإنه إذا لم تراع السياسة والحزم فى المحافظة على القضايا الكلية والجزئية، فإنه لا يمكن تدبير الملك.

وجملة القول أن سلطان الإسلام ركب فى أول الربيع من "بيلسوار" قاصدًا دار الملك تبريز، ونزل باليمن والبركة فى سراى "شم تبريز". وفى السابع والعشرين من رجب قبض على آينه بك، وأحضر إلى تبريز. وفى يوم السبت التاسع والعشرين، قتل فى الميدان هناك. وفى يوم الأربعاء العاشر من شعبان وصل الأمير "إلادو" من خراسان، وعرض أحوال ذلك الإقليم كما هى ثم غادر سلطان الإسلام تبريز إلى ناحية "مرغزار صاين" الواقعة بين سراو وأردبيل. وفى يوم الأربعاء السابع عشر من شعبان عقدوا مجلس الشورى (القوريلتاى) فى تلك المنطقة، وانفض المجلس فى التاسع عشر. والسلام.

حكاية

أحوال نورين آقا وكراهية الأمير نوروز إياه وبدء اختلال وضع نوروز

كان نورين آقا من قبيلة قيات. وكان بالنسبة إلى غازان شخصًا موثوقًا به محترمًا لديه وموضع اعتماده المطلق، ومحرم أسراره. وكانت له سلطة كبيرة فى خراسان ومازندران. وكان "أويراتاى" أخو نوروز تابعًا له. واعتمادًا على عظمة محتد نورين، كان لا يعبأ كثيرًا بأويراتاى، فكان هذا يشكوه إلى أخيه نوروز؛ فيتولد بذلك الكدر والنفور. ثم إن "نوروز" عندما وصل إلى منطقة خراسان [ص٣٠٩] أرجع سبب تغلب المتمردين وسيطرتهم إلى تقصير نورين، وكان يغتابه بكلمات لاذعة مزعجة فى حضور أتباعه وغيابهم. وعندما وصل الاثنان إلى جرجان، كان كل منهما متأثرًا من صاحبه. ثم وصل الأمير النجل "طايجو" من طريق "تميشه"، فقال له نوروز مدفوعًا بدافع الغضب والتهور: "لقد أمرت أن أسائل نورين: كيف ترك المتمردين يدخلون هذه البلاد دون اكتراث؟! والآن أسأل هذا السؤال بحضور الأمير طايجو. فتضايق منه الجميع، واستنكروا منه هذا الكلام.

وكان أول خلل تطرق إلى وضع نوروز بسبب ذلك العناد واللجاج ثم قدم من هناك إلى خبوشان، واستعرض الجنود. بعد ذلك قدم رسول من الطليعة ينبئ أن المتمردين قد شوهدوا فى مرج رادكان (مرغزار رادگان)، فسار إليهم نوروز للقضاء عليهم، ولكن عندما تفحص الأمر اتضح أن الخبر كان كذبًا. ثم تشاور مع الأمراء فى مشهد طوس قائلاً: "سوف أتحرك إلى مدينة هراة بأربعة آلاف فارس حتى أقف بنفسى على أحوال العصاة. ثم سار على هذا العزم فى السابع عشر من رجب، وأرسل غازان الأمير النجل طايجو والأمير نورين إلى رادكان.

وفى يوم الخامس والعشرين من رجب عاد نوروز ونزل فى معسكر طايجو، وقال دون أن يعمل عملاً أو يبذل جهدًا: سمعت أن زوجتى مريضة، وسوف أذهب إلى حضرة سلطان الإسلام، فاهتموا أنتم بشئون الجيش وإعداده؛ وذلك الحين وصولى. ثم سار على الفور قاصدًا آذربيجان، وأهمل شئون خراسان وجيشها. كذلك سار عقب نوروز المذنبون الذين كان السلطان غازان قد أرسلهم معه، ليكونوا فى مقدمة الجيش وقت الحرب.

وعندما عاد نوروز، صار جنود خراسان يذيعون إشاعات كل يوم، فتطرقوا إلى هذا السبب إلى حد أنهم رحلوا جميعًا. وكان المدعو "سُوّم" أمير هزاره[1] هو أول من هرب مع أربعمائة من رجاله، وعاد إلى حدود أردبيل[2] حيث موطنه الأصلي. فلما سمع نوروز في شروياز خبر فرار "سوم" ورجاله، ركب إلى سراة دون أن يخبر سلطان الإسلام بذلك وهاجم ديارهم، وأنزل بهم الأضرار وعرضهم للمشقات. [ص ٣١٠] فتأثر سلطان الإسلام بسبب رجوع نوروز، وأرسل إليه رسولاً يقول له: "عد إلى قواعدك". فرد قائلاً: إن زوجتي الأميرة "طوغان" مريضة، فكيف يمكن أن أعود دون أن أراها؟!... فكان هذا الامتناع أيضًا سببًا في تغيّر غازان عليه.

وفي يوم الحادي والعشرين من شعبان سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م قدم نوروز إلى حضرة سلطان الإسلام، فاختص بالإعزاز والاحترام. ثم جاء سلطان الإسلام إلى "أوجان". وفي يوم الاثنين ٢٩ من شعبان تزوج من "آشيل خاتون".

وعندما أحس قتلغ شاه نويان والأمراء الآخرون تغير نظرة السلطان إلى نوروز، وتأثره منه، عرضوا عليه قائلين: ليس من المصلحة إرساله إلى خراسان. ومن الواجب التحرى عن أحواله؛ إذ إنه من تصرفاته يمكن مشاهدة أمارات الفتنة والفساد. غير أن سعة صدر سلطان الإسلام، كانت مثل البحر المحيط لا نهاية له، وحلمه ووقاره أزيد مما يدركه الوصف فقال: مع أن كلامكم صحيح؛ غير أني لا أستسيغ نقص العهد والحنث في اليمين.

وفي يوم الأربعاء غرة رمضان عاد نوروز إلى خراسان بناء على أمر غازان، وكان يصاحبه نظام الدين يحيى باعتباره نائبًا له. فلما وصل إلى خراسان، كان أبناء "نوقاي يارغوچي" يقصدون قتله في السر قصاصًا لدم أبيهم، فكان نوروز خائفًا منهم. وخلال هذه الأحداث توفيت "طوغان" زوجة نوروز، وأخذ حاله في التدهور، ولكنه كان يتجلد ويجد ويجتهد. وفي الثامن من رمضان سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م نزل غازان خان على ضفاف

---

(١) المقصود قائد كتيبة عددها ألف جندي.

(٢) أردبيل: من أشهر مدن آذربيجان. وهي مدينة كبيرة جدًا. رآها ياقوت في سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م فوجدها تقع في فضاء فسيح، وبها عدة أنهار. ولكن من الغريب حقًا أنها لا تنبت صنفًا من الفواكه. فتحها المغول عنوة، وخربوها خرابًا تامًا؛ غير أنها سرعان ما عادت إلى الازدهار في عهدهم. ينسب إليها كثير من أهل العلم في كل فن (معجم البلدان، ج١ ، ص١٤٥ ١٤٦).

"ناوور دولا" طريق تبريز، حيث شيّد الحديقة والجوسق المبارك. وفى تلك الأيام قدم سلطان "ماردين" وأهدى غازان مالاً وفيرًا من النقود والجواهر، ثم عاد مشمولاً بالرعاية والتكريم التام، وبمزيد من الابتهاج. وفى الثالث عشر من شوال قتلوا "حسام الدين لر" فى "هشترود". وفى السادس والعشرين كان الاحتفال بعرس "دوندى" والدة ألافرنك. وفى الثامن من ذى القعدة قتلوا بايغوت بن شيرامون بن جورماغون فى "سه گنبدان". [ص٣١١].

بعد ذلك قدم سلطان الإسلام إلى مراغة حيث تفقد المرصد[١]. وقد أقام الحكام هناك الولائم والاحتفالات. وفى ذلك اليوم عرضوا على غازان الرسالة التى كتبها ايلدار بن قونقورتاى إلى بالتو يحرضه على التمرد والعصيان، فرحل غازان على الفور عائدًا إلى المعسكرات. ثم قبض على ايلدار وقتل بعد ثبوت التهمة عليه.

---

(١) أقام هذا المرصد العالم الرياضى الفلكى خواجه نصير الدين الطوسى المسمى محمد بن محمد بن الحسن بأمر هولاكو خان فى مدينة مراغه، وأعده بأدق الأجهزة المعروفة فى زمانه، وألحق به مكتبة كبيرة تحوى ما يزيد على أربعمائة ألف مجلد. وكان هناك علماء فى الفلك من الصين يقدمون العون والنصح. إلى جانب المهمة الأساسية التى كان يؤديها هذا المرصد، كان عبارة عن دار للفقهاء والفلاسفة والأطباء(انظر جامع التواريخ، المجلد الثانى- الجزء الأول: تاريخ هولاكو، الترجمة العربية، ص٣٠٣ ٣٠٤ وما بعدها، فوات الوفيات تأليف ابن شاكر الكتبى ج٢ ص٣٠٧ وما بعدها، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥١م؛ السلوك للمقريزى، ج١ ق٢ ص ٤٢١؛ تنسوخ نامۀ ايلخانى، تأليف خواجه نصير الدين طوسى، بامقدمه وتعليقات مدرس رضوى، ص نوزده بيست ويك (١٩ ٢١) من مقدمة المحقق، تهران ١٣٤٨هـ.ش؛ موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين، تأليف جوزيف نيندهام، ترجمة غريب جوده، ص١٢٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

حكاية

توجه الرايات السلطانية إلي بغداد، وقتل افراسياب لر وجمال الدين الدستجردانى ومولانا عز الدين مظفر الشيرازى وولادة الأمير النجل أولجاى

فى يوم الثلاثاء الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م تحركت الرايات السلطانية من مراغة قاصدة مشتى بغداد، ثم سارت صوب همذان. وفى الرابع والعشرين من الشهر المذكور، وصل نورين آقا من خراسان، فشمله سلطان الإسلام بعطفه ورعايته.

ولما كان بالتو بن تبشى يعمل فى ممالك الروم منذ عهد آبا قاخان سيطر هناك سيطرة تامة؛ خصوصًا بعد أن توفى سماغار نويان، وكان ابنه "عرب" لا يزال طفلاً. لهذه الأسباب زاد استبداد بالتو، واشتد نفوذه. وكلما استدعاه سلطان الإسلام، كان ينتحل الأعذار. وبعد قتل طغاجار جاوز نفوذه وغطرسته الحد، ولصق به اسم المتمرد.

وفى شهور سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م، أبلغوا غازان - فى الوقت المناسب، فتوجه الأمير قتلغ شاه إلى الروم بموجب الفرمان مع ثلاثين ألف جندى للقضاء على فتنة بالتو الذى اختبأ فى كمين خلف أحد الجبال [ص٣١٢]، فتعقبه الأمير قتلغ شاه مع سولاميش وعرب وبورلتاى أغول وأبيشقا الذى كان فى المقدمة. فلما وصل إلى ذلك الجبل، خرج بالتو من الكمين. وقد جرح أناس من الطرفين. وعلى الأثر وصل الأمير قتلغ شاه إلى صحراء "ماليه"، وهزم بالتو بهجمة واحدة. ثم أرسل الأمير قتلغ شاه "سولاميش" فى إثره وعاد إلى مشتى أران.

فى ذلك الوقت كانت الرايات السلطانية تقصد بغداد. وعندما عادت إلى "مرج زك" (مرغزار زك) من منطقة همذان، قلد السلطان جمال الدين الدستجردانى الوزارة بدلاً من شرف الدين السمنانى، وكان ذلك فى الثامن من ذى القعدة سنة خمس وتسعين وستمائة. وقد أقام غازان هناك شهرًا، وتشرف بلقاء حضرته ملوك "العراق العجمى"[1]، وأنجزوا

---

(١) المقصود بالعراق العجمى (إقليم الجبال) المنطقة التى تكون حدودها على النحو التالى: حدها الشرقى مفازة خراسان وفارس وأصبهان وشرقى خوزستان، وحدها الغربى آذربيجان، والشمالى بلاد الديلم وقزوين والرى، وحدها =

المهمات، ثم استأذنوا في الانصراف. وكان "هورقداق" قد عاد بعد أن فرغ من جباية أموال فارس. وكان الأتابك "أفراسياب لر" قد هم بالرجوع بعد أن وجد الرعاية والتكريم من السلطان. غير أن "هوراقداق" أعاده من الطريق، واصطحبه معه. فلما وصل إلى الحضرة، استفسر منه غازان عن الأوضاع في فارس. فقال: إن العبد يعرض أولا أحوال هذا "التازيك" إذ أنه عند ذهابي إلى فارس مررت ببلاد "أفراسياب لر"؛ فلم يجئ لاستقبالي فثار أتباعه في وجهه، وقالوا: لقد استولينا على هذا الملك بحد السيف، فآلت موارده إلينا وأصبحت حقا لنا. وأنا لن أتحدث عن إثارة الفتن الأخرى وقتل بايدو شحنة أصفهان والزحف بالجيش إلى أصفهان وفيروزان، وما صحب ذلك من اعتقالات، وأمثال تلك التصرفات. فغضب سلطان الإسلام على أثر سماعه تلك المخالفات، وأمر بقتل أفراسياب[1].

وعندما بلغ غازان وأتباعه منطقة قرية سبندان "ديه سبندان" حرض الشيخ محمود وصدر الدين الزنجاني جماعة على التمرد والعصيان [ص٣١٣]، وذلك بوشاية جمال الدين الدستجرداني، فحقق معه في الثامن والعشرين من ذي الحجة سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م وقتل. ومن هناك سيّر السلطان الأمير "خربنده" ابن سلطان العالم إلى خراسان ليكون نائبًا عنه. وفي تلك الأيام وشى عز الدين المظفر الذي كان حفيد عميد فارس - بحاكم ذلك الإقليم الشيخ جمال إبراهيم السواملي، وكان صدر الدين الزنجاني متعاونًا معه. ولما لم يستطع إثبات تهمة الخيانة على الحاكم، قتل الواشي عز الدين.

=الجنوبي العراق وبعض خوزستان (انظر الدكتور نافع توفيق العبود: الدولة الخوارزمية: نشأتها علاقاتها مع الدول الإسلامية نظمها العسكرية والإدارية ٤٩٠ ٦٢٨ هـ / ١٠٩٧ ١٢٣١م، ص٣٢، حاشية ٥٧، بغداد ١٩٧٨م).

(١) يذكر شرف خان البدليسي أنه لما تولى غازان خان أمر المغول، وبسط سلطانه على البلاد، بادر أفراسياب إلى تقديم الطاعة له، وإلى التشرف بالحضرة السلطانية، فتعطف عليه السلطان وأبقاه في منصبه في حكومة لرستان. وفي سنة (٦٩٥هـ / ١٢٩٥م) التي كان غازان قد توجه فيها نحو بغداد كان الأتابك أفراسياب قد تشرف مرة أخرى عند حدود همذان بالعتبات السامية، ونال لديها الحظوة والقبول. ولكنه حين رجوعه إلى بلاده التقى به في الطريق الأمير "هورقوداق" الذي كان عائدا حينئذ من فارس قاصدا الحضرة الملكية، فقبض هذا عليه، وأعاده بالقوة والغصب إلى الحضرة ورفع إلى غازان خان تفاصيل ما صدر من أفراسياب من الأعمال الجائرة والتصرفات السيئة، وبالغ في ذلك مبالغة كبيرة حتى حمله على صدور الأمر بقتله (انظر كتاب شرفنامه، ج١، ص٣١ ٣٢، ترجمة إلى العربية محمد علي عوني، وراجعه وقدم له يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٨م).

رسالة على لسان نوروز إلى حاجى نارين بخصوص هذا الموضوع، وذهب إليه، وتناول كأسا على سبيل الاحترام، ثم وضع الرسالة فى متاعه دون أن يتنبه، ثم انصرف. بعد ذلك أرسل الشيخ محمود أخاه سليمان إلى الحضرة لإطلاع غازان على ما حدث. وكان سلطان الإسلام قد عاد من موضع الميدان على حدود كرمانشاهان، وجد فى السير يوما واحدا حتى بلغ (شهر آبان) التى تبعد ثلاثين فرسخا.

وفى يوم الأحد الحادى والعشرين من جمادى الأولى، وصل الشيخ محمود وقطب الدين أخو صدر الدين الزنجانى، ومعهما قيصر إلى "شهر آبان" وعرضا على غازان موقف قيصر فقال له سلطان الإسلام: "قل الصدق". عندئذ عرض قيصر الموضوع بطريقة لم يثبت فيها أى ذنب على الأمير نوروز. ثم طلبوا عيبته، وأخرجوا منها الرسائل والثياب، **[ص٣١٧]** وشهدوا جميعا بأنها كتبت بخط حاجى رمضان كاتب الأمير نوروز. عندئذ أمر السلطان بقتل قيصر ذلك الغلام ضربا بالهراوات، وتعهد الشيخ زاده بأن يعثر على الغلامين الآخرين.

ثم ذهب بالفعل إلى بغداد لهذا الغرض، ولكن لم يتيسر له العثور عليهما. ولما لم يستطع القيام بما تعهد به قضوا عليه أيضا. وكانت نيران الغضب تضطرم فى صدر السلطان غازان، وتحرق الأخضر واليابس، فقال: حيث إنه قد وقع الاطلاع على أسرار نوروز ينبغى اتخاذ شروط الحزم والاحتياط قبل ظهور آثار الغدر والمكر.

وعلى أثر ذلك صدرت الأوامر بأن يقوم الأمير نورين وباينجار باعتقال جميع آل نوروز من أبناء وأنصار وأتباع وقتلهم جميعا. وعلى أثر ذلك رحلت الرايات السلطانية من هناك إلى الهارونية. وكان حاجى قد عزم على السير، فأدركه باينجار واعتقله، وسيق أتباعه إلى جهة أخرى. وكانوا قد قتلوا قبل ذلك ساتلميش نائب نوروز وابنه قتلغتيمور واوردو بوقا ابن نوروز، وسيق حاجى نارين إلى مرج خانقين، فحقق معه الأمير نورين. ولما ثبتت إدانته بإخراج رسالة صدر الدين من أمتعته، جردوه من ملابسه، وطافوا به حول البيوت، ثم قتلوه ونهبوا دياره وأمواله. وفى تلك الظروف فر ابنه تغاى الذى كان فى الثانية عشرة من عمره، ولجأ إلى دار الأمير الجليل الذى كان أميرا لمعسكر الخاتون المعظمة بولوغان الخراسانية، فحافظوا على الصبى هناك حتى سكن غضب السلطان، ثم عرضوا عليه حاله

ونجا من الهلاك. وهو الآن ملازم لخاله الأمير حسين، وسلموا خاصته وأتباعه لبولوغان خاتون الخراسانية [ص٣١٨]. كذلك قتلوا كمال الصغير (كمال كوچك) الذى كان أيضا نائبا له. وقتل أيضا لكزى فى السابع من جمادى الآخرة فى ميدان "مايدشت"، وعفوا عن كُشلك ابن أخى نوروز، وأخيه يول قتلغ. وبسبب ذلك الفتح سموا الميدان الكبير "قتلغ ميدان". كذلك أرسلت الأوامر إلى كل البلاد بقتل جميع أقارب نوروز وأتباعه، وقضوا أيضا على شيدون وايل بوقا ابنى هندوقور على حدود قصر شيرين.

وفى يوم الثلاثاء العشرين من رجب، وصل إلى الحضرة الأمير النجل خربنده من خراسان. وفى الخامس من شعبان، وصل الأمير قتلغ شاه إلى أسد آباد همذان قادما من ناحية موغان. وبعد ذلك قدم من ناحية الرى الأمير چوپان وبولادقيا. ثم صدر الأمر بأن يسير بولادقيا إلى خراسان لاعتقال نوروز، ويلحق بهورقوداق والأمير سوتاى.

وبعد يومين سير أيضا الأمير قتلغ شاه. وفى إثره أرسل قتلغيا كذلك. وفى أوائل شعبان اعتقل فى بلاد الروم سولاميش وعرب بالو بن تنجى بسبب تمردهما، وأحضروهما إلى تبريز. ثم تحرك سلطان الإسلام من أسد آباد قاصدا مصيف آلاتاغ، وسير من حدود "كره رود" خربنده ابن ملك العالم للمحافظة على بلاد خراسان. وعندما وصل غازان إلى "نوشهر" جاءت الرسل بالبشارة من قبل قتلغ شاه، وهم يقولون: إن "نوروز" اشتبك فى القتال وانهزم وأحضر بولجه أخا طوغان جوق فى الرضاعة.

ومؤدى هذه القصة أنه عندما وصل الأمير قتلغ شاه إلى دامغان وجد أن هورقداق وسوتاى كانا قد قتلا شحن نوروز الذين كانوا فى الرى ورامين وخوار وسمنان ودامغان وبسطام [ص٣١٩].

ولما بلغ قواد غازان اسفراين، سار معهم أبناء "بوقا تيمور آلغو" للأخذ بقصاص دم أبيهم من نوروز. وفى تلك الأيام أعلن المدعو دانشمند قائد إحدى فرق نوروز المكونة من ألف جندى، أعلن خضوعه ودخوله فى الطاعة؛ فسيره قتلغ شاه فى الطليعة. ثم ذهب اويراتاى قزان إلى نيسابور، وأخطر "نوروز" بوصول جيش غازان، فرحل من هناك. وفى إحدى محطات البريد، واجه جيش دانشمند بهادر، فتحارب الفريقان. ورغم أن جيش دانشمند كان قليل العدد، انهزم نوروز وهرب مع نفر قليل. وفى الصباح وقعت أمتعته

وخزائنه غنيمة فى يد خصومه. ثم تعقبه بسرعة فائقة هورقوداق وأبناء بوقاى يارغوجى مع عشرة آلاف جندى. وفى الليل وصل نوروز إلى ولاية جام حيث توجد قطعان خيوله ونزل بينها، وأمر الخدم بإعداد كمين خلف الجدران. وفى منتصف الليل وصل جنود غازان وأرادوا أن يسوقوا الخيول، ففتح نوروز وخدمه الكمين، وأحضروا أوتار القسى، وأطلقوا السهام، فقتل خلق، وصار الباقون مشردين. وبهذا انهزم نوروز، وخرج جيش هذا الطرف (أى جيش غازان) فائزا منتصرا. وكان نوروز يسير على غير هدى، وهو منهزم؛ حتى إذا وصل إلى باب هراة دعاه حاكمها فخر الدين بن شمس الدين كرت إلى داخل المدينة ففكر فى ذلك الأمر. ولكن أمراءه بابكر وساربان وسدوم قالوا: أيها الأمير! إن قلوبنا لا تطمئن إلى كلام هذا الرجل. والمصلحة تقضى أن نمر بسلام من وراء هذا الجدار، ولا نعتمد على وعده. فقال نوروز: لقد فاتنى أن أؤدى صلاة الفرائض ثلاثة أيام، وأنا أريد قضاءها. فمضى الأمراء ونجوا بأنفسهم. ودخل نوروز مدينة هراة مع أربعمائة فارس وصعد القلعة. **[ص٣٢٠]** أما الأمير قتلغ شاه الذى كان يتعقبه، فإنه عندما وصل إلى مشهد طوس، زار القبر، وصلى ركعتين صلاة الحاجة، ثم سجد وتضرع إلى الله قائلا: "يا إلهى! إنى لا أدرى أمصيب أنا أم مخطئ فى هذا الأمر؟.. فكلا الخصمين مسلم والسلطان مسلم. وأنت يا رب عالم الأسرار. فإذا كنت تعرف أن "نوروز" مذنب، وعلى باطل، وخالف غازان وعصاه، فاجعله على يدى أسيرا مخذولا".

ثم سار من هناك حتى إذا بلغ هراة، حاصر الجنود المدينة، وشرع الجانبان فى القتال. وكان الأميران نورغاى وجمجاى يحاربان بشدة. وكان الطقس حارا جدا، فقالت جماعة من جند قتلغ شاه: إن المصلحة تقضى بأن نعود لأن سور هراة حصين جدا، ولن يكون من السهل القضاء على الخصم نوروز فتكدر الأمير قتلغ شاه إلى أقصى حد، وقال: لقد صار الخصم ضعيفا ذليلا، وبقى خلف الجدار بلا أعوان وانصار، فكيف نعود، وما العذر الذى نقدمه إلى الحضرة؟! لا بد أن نصمم على الاستمرار فى هذا الأمر، ونسعى فى سبيل هذا الهدف حتى يتحقق الفتح المبين بفضل التأييد الربانى. ثم كلف شيخ الإسلام "جام" فجأة – الذى كان فى صحبة الأمير – بأن يكتب رسالة إلى صهرة الملك فخر الدين، يقول فيها على لسان قتلغ شاه: ينبغى أن تتدبر هذا الأمر جيدا وإلا فإن مدينة هراة، وكل بلاد

خراسان سوف تروح ضحية لهذه القضية. وقد ذيل قتلغ شاه هذه الرسالة بتوقيعه. ثم أرسلت إلى المدينة على يد أحد الجواسيس. فلما قرأها الملك حملها إلى نوروز، فقال هذا للمقربين إليه: إنه يتضح من هذه القضية أن قلب الملك معى فى غاية الصدق والإخلاص. عندئذ قال حاجى رمضان لنوروز فى السر: إن المصلحة تقتضى **[ص٣٢١]** أن نعتقل الملك فخر الدين ونقيده حتى نهاية المعركة؛ فإذا كان النصر لنا، فإننا نكرمه ونرعاه ونطلق سراحه، وإلا فسيعرف الجميع غدره وخيانته. وبهذا نكون قد راعينا شروط اليقظة والاحتياط. ولكن "نوروز" لم يقبل هذا الكلام. وكان هناك رجل سجزى قد استرق السمع، فمضى على الفور، وأبلغ الملك كل ما سمع، فخاف الملك، وتشاور مع عظماء المدينة وأعيانها، وقال: إن جنود غازان سوف يستولون على هذه المدينة ويأسرون نساءنا وأبناءنا، وتسقط أسرتنا العريقة منذ القدم. ثم إن "نوروز" سبق أن أقسم لغازان بالأيمان المغلظة أنه لن يخالفه أبدا. وقد خالفه. وإذن فمصلحتنا فى أن نسبقه ونعتقله بالمكر والحيلة ونعلن الخضوع والطاعة. وعلينا أن نأخذ عهدا بالأمان من الأمير قتلغ، ونسلمه له. فقال أهالى المدينة: إن رأى الملك هو الأعلى، فهو يبرم كل ما يعرفه صوابا.

بعد ذلك ذهب الملك إلى نوروز بعد إجراء هذه المقدمة، وقال له: إن جنودنا الهرويين والغوريين يتراخون فى القتال. فالرأى أن ترسل رجلين من رجالك على رأس كل عشرة من جنودنا كى يحرضوهم على القتال، ولا يسمحوا لهم بالتراخى. وبناء على نصيحة الملك وزع نوروز جميع جنوده على تلك الجماعة، فتشتتوا وتفرقوا، وبقى هو وحده فى القلعة. ثم أوعز الملك إلى جنوده بأن يعتقلوا جميع أتباع نوروز، ويقيدوهم. ثم صعد القلعة هو نفسه مع عدة رجال من الغوريين الشجعان، واعتقل نوروز، وأحكم وثاقه، وقال له: إن الفرمان يقضى بتسليمك للأمير قتلغ شاه.

ومن عجائب الأمور أن الملك فخر الدين كان فى عهد أبيه شمس الدين كرت عاقا إلى أقصى حد، وعنيدا متمردا ومشاغبا. ولهذا قيده أبوه الملك شمس الدين، وسجنه فى قلعة "خيسار". وبعد أن وصل نوروز إلى هناك، التمس إلى أبيه أن يطلق سراحه، فقال شمس الدين: أنا أعرفه جيدا، ،أعرف كيف أن له نفسا مجردة من الوفاء. ومن حيث إنه لم يكن وفيا لأبيه، فلن يكون وفيا لك أنت أيضا. ورغم هذا صار نوروز يبالغ ويلح فى الشفاعة

له. وأخيرا قال الملك: إنى أطلق سراحه بشرط أن تعطينى تعهدا ينص على أن كل عمل يصدر عنه من الآن فصاعدا، يكون الأمير مسئولا عنه؛ فأعطاه نوروز تعهدا بذلك. وعلى هذا فك الملك شمس الدين قيوده وأطلق سراحه.

وعندما كان الملك فخر الدين يقوم باعتقال نوروز، قال له: إنى لم أسئ إليك حتى تنكث العهد وتسفك دمى. وإذا كان لا مفر من الغدر، فأعطنى جوادى الكميت وسيفى حتى أركب الجواد بدون سرج وأخوض المعركة وسط هذا الجيش، فأقتل فى الحرب كى أكون غازيا وشهيدا فى آن واحد. فرد عليه الملك قائلا: منذ الآن سوف ترى الحصان والسيف تحت أفخاذ الآخرين. وفى قبضة أيديهم. وبمجرد أن اعتقل نوروز، قطع فخر الدين رأس حاجى رمضان، وأرسله على يد رسول إلى الأمير قتلغ شاه، يبلغه نبأ اعتقال نوروز وإخوته وأتباعه. ثم طلب منه عهدا بالأمان حتى يكون ذلك شفيعا له، وحتى لا يؤاخذه غازان باسم الهرويين، وأن يقسم على ذلك بالأيمان المغلظة. ثم ألقى الرسول رأس حاجى أمام قتلغ شاه، وقال له: إن الملك يقدم الخضوع والطاعة، ويقول: لقد تهيأ نصر كبير بسعادة الأمير وإقباله، وأسر نوروز وأتباعه وكبلوا جميعا بالأصفاد.

ولما رأى الأمير رأس حاجى رمضان، عرف أن كلام فخر الدين صدق، قال: بناء على التماس الهرويين، كتب علاء الدين نصر الخطائى كتاب الأمان المؤكد، وذكر فى مقدمته أيمانا مغلظة. ثم أرسل الأمير قتلغ شاه إلى المدينة الأمير پولا دقيا وخواجه علاء الدين وشيخ الإسلام "جام" حامل هذا المكتوب بعنوان الرسالة، فتلقى الملك مقدمهم بالترحيب والتكريم، وأعادهم معززين قائلا لهم: سوف أرسل نوروز ليلا مقيدا إلى حضرة الأمير.

بعد ذلك عاد الرسل على هذا النحو، وأطلعوا الأمير على ما حدث. وفى الليل أرسل الملك "نوروز" مقيدا، وفى حراسة طائفة من الضباط الغوريين؛ فسر قتلغ شاه بذلك الفتح سرورا بالغا. ثم سأل نوروز: لم فعلت هذا؟ فرد عليه بقوله: إن غازان يستطيع محاكمتى لا أنت. وكلما سألوه بعد هذا، لم يجب عن أسئلتهم، وسبب ذلك أنه لم يرتكب ذنبا قط، وأنه لا إثم عليه. ثم أمر قتلغ شاه بإنزاله، وشقوه نصفين، وأرسل رأسه إلى الحضرة. ومن هناك أرسل إلى بغداد، وظل فى باب النوبى عدة سنوات معلقا على رأس عمود من الخشب. كذلك قتل هناك أخواه أرغون حاجى وبولدوق. وكان ذلك فى الثالث والعشرين من شوال سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م. والسلام.

حكاية
ارتفاع شأن صدر الدين الزنجانى، وازدهار عمله بسبب قتل الأمير نوروز، ووصول الرايات السلطانية من ألاتاغ إلي تبريز ووضع أساس القبة العالية فى شم تبريز

بعد قتل نوروز رحل الأمير قتلغ شاه من ظاهر هراة، ونزل فى مرج شوران (مرغزار شوران). كذلك قضى على قواد نوروز: بوراجر واليجاق وتوكال قرا وطائفة أخرى. [ص٣٢٤]. أما قراسون فقد لاذ بالفرار، وكان فى خدمة الأمير قتلغ شاه. كذلك رحل سلطان الإسلام من ألاتاغ. وفى يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذى القعدة وصل إلى تبريز. وفى اليوم التالى قتل بالتو وابنه فى ميدان تبريز.

وعلى إثر قتل نوروز، ارتفع شأن صدر الدين، وشمله السلطان برعايته، ومنحه الختم الأحمر (آلتمغا). وفى غرة ذى الحجة قدم سلطان الإسلام من شم إلى تبريز، وذهب إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة، وتصدق على الفقراء والمساكين بأموال طائلة. وكذلك فعل فى الجمعة التالية. وفى يوم السبت السادس عشر من ذى الحجة سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م وضع أساس قبة عالية وسط حديقة العادلية بموضع "شم". وقد شغفف شغفا كبيرا بهذا الأمر. وكان يتردد دائما على هذا المكان ليتفقد أعمال البنائين والعمال. ولما رفعوا بناء سرداب القبة على وجه الأرض، سأله المهندسون عن عدد ما ينبغى أن يفتحوا من منافذ للإنارة. فسألهم: لماذا؟ فأجابوا: كى يكون السرداب منيرا. فأجاب هو نفسه على هذا السؤال: ينبغى إيصال النور من هنا إلى هناك، وإلا فلا فائدة للمرء من ضوء الشمس غير الثابت. وفى يوم الاثنين الثامن عشر من ذى الحجة وصل قتلغ شاه نويان من خراسان. وفى منتصف المحرم سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وضع غازان العمامة على رأسه هو وكافة الأمراء. وفى اليوم التالى أقاموا الولائم والحفلات. وبعد أداء الصلاة فى يوم الجمعة العشرين من المحرم سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م غادر غازان تبريز قاصدا مشتى أران. وفى ذلك الوقت كانت

تذاع أنباء عن وقوع اضطرابات فى جورجيا[1]، فأرسل الأمير قتلغ شاه وهو فى الطريق إلى هناك كى يتفحص شئون هذه الولاية، فقام بمهمته، وعاد سريعا مصطحبا معه أخا الملك داود "وختانگ" فوجدا الرعاية والتكريم.

بعد ذلك تحركت الرايات السلطانية إلى ناحية باكو **[ص٣٢٩]** وغادرت هذا الموضع بعد عدة أيام. وفى يوم الجمعة التاسع من ربيع الآخر سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م توفى الأمير النجل "ختاى أغول" فى "دالان ناوور". وفى هذا البلد أيضا ولد الأمير النجل "آلجو" فى التاسع من جمادى الأولى سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، وصار الجميع منهمكين فى إقامة الولائم والاحتفالات والأخذ بأسباب اللهو والمتعة. والسلام.

---

(١) تسمى أيضا گرجستان. يسكنها جيل من الناس يعرفون باسم الكُرج (الجرج)، وهم نصارى. فتحها تيمور فى ختام المائة الثامنة (الرابعة عشرة) وتفليس قصبة جورجيا، وتقع فى أعالى نهر الكر، وأرضها خصبة كثيرة الخيرات. (انظر معجم البلدان، ج٤، ص٤٤٦؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص٢١٦).

حكاية

اختلال أحوال صدر الدين الزنجاني وإعدامه

في يوم الجمعة الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م جثا على ركبتيه السيد قطب الدين الشيرازي[1] ومعين الدين الخراساني، وعرضا على غازان موضوع خيانة صدر الدين الزنجاني وتلاعبه في أموال البلاد.

وفي أغلب الأوقات كان بين مؤلف هذا الكتاب رشيد الطبيب وبين صدر الدين صداقة ومودة. وقد حاولت طائفة من أصحاب الديوان تكدير صفو العلاقات بين الصديقين وصاروا ينقلون الكلام من كل نوع للإيقاع بيننا. ولكنني لم أكن ألتفت إلى مثل هذه المحاولات. ولما يئسوا مني، مضوا إلى صدر الدين، وألبوه على بتخليطهم وتمويههم وتلفيقهم؛ غير أنني لم أكن أعبأ كثيرا بمثل هذه الأمور. وفي يوم الأحد منتصف جمادى الآخرة، ركع صدر الدين على ركبته في حضرة السلطان، وحاول إهانتي بطريق الغمز واللمز فشغلت بالرد عليه. ولكن نهره السلطان وقال له: إنه لم يتناولك بسوء مطلقا.

---

(١) هو العلامة قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الكازروني الشيرازي. ولد سنة ٦٣٤هـ. وكان أبوه طبيبا. درس مقدمات علم الطب على يد والده وعمه. كذلك برع في الحكمة والهيئة، واستكمل دراساته ومعارفه بعد أن اتصل بالخواجه نصير الدين الطوسي وشارك في الأعمال العلمية التي يقوم بها في مرصد مراغه. وكان يتمتع بذكاء نادر وعقلية مستنيرة. بعد ذلك رحل إلى بلاد الروم، وشغل منصب قاضي سيواس وملطية. ثم سافر إلى الشام والتقى بالصوفي الكبير جلال الدين الرومي، وتزيى بزي أهل التصوف ثم عاد إلى تبريز، وكان معززا مكرما لدى السلطان أولجايتو. وفي مدينة تبريز كانت وفاته في سنة ٧١٠هـ.

يعد العلامة قطب الدين الشيرازي أحد العلماء الراسخين في العلم. وقد عرف عنه أنه رجل مرح، يتمتع بلطف وظرف، ويجيد لعب الشطرنج والعزف على الرباب. وهناك حكايات تروى عن روحه المرحة ومطيباته العديدة. له مؤلفات عديدة باللغتين العربية والفارسية منها شرح كتاب القانون في الطب لابن سينا وشرح حكمة الإشراق لشهاب الدين السهروردي المقتول، وشرح مفاتيح العلوم للسكاكي، وكتاب درة التاج لدرة الدباج. وهو بالفارسية، ويتناول علوما مختلفة. (انظر عباس اقبال: تاريخ مفصل إيران از استيلاى مغول تا اعلان مشروطيت جلد أول از حملهٔ چنگيز تاتشكيل دولت تيمورى، ص٣١٢، ٥٠٦ ٥٠٧، طهران ١٣١٢هـ.ش؛ مجموعهٔ مقالات عباس اقبال آشتيانى شامل يكصدويك مقالهٔ با مقدمه وتصحيح آقاى دكتر محمد دبير سياقى بعنوان علامهٔ قطب الدين شيرازى ومطايبات أو، ص ٢٩٠ ٢٩٦، تهران ١٣٥٠ هـ.ش؛ الشرق الإسلامي، ص ٣٥٥).

وعندئذ شرعت فى الكلام؛ غير أن السلطان قال لى: لا تلوث لسانك بالرد عليه، وحافظ على سيرتك ومسلكك. ولما اتضحت براءتى، استاء صدر الدين من تلك الجماعة استياء شديدا؛ لأنها هى التى قامت بالسعاية والدس لإفساد العلاقات بيننا.

وفى يوم الأحد سلخ جمادى الآخرة، قبض على طايجو آغول وأصحابه **[ص٣٢٦]** وذلك بسبب إثارتهم الفتنة. كما قبض على الشيخ الذى يرافقه، والذى وعده بتقليده الحكم. وفجأة أبلغ السلطان تلك القضية. وفى الثانى من شهر رجب قتل طايجو اغول مع أربعة من أتباعه على ضفة النهر الذى كانوا قد شقوه فى منطقة "دالان ناوور". وقد عبر السلطان النهر، ونزل فى المعسكرات فى موضع "جوى نو" وعندما كان السلطان فى "دالان ناوور"، وكان الأمير قتلغ شاه قد عاد من جورجيا (گرجستان) أخذ السلطان يعاتب صدر الدين بخصوص الأموال التى تجبى من هناك، فخافه صدر الدين، وعرض قائلا: إن أتباع قتلغ شاه خربوا ولاية جورجيا. ولهذا السبب صار السلطان يعاتب الأمير فى صحوه وسكره. فما كان من الأمير إلا أن سأل صدر الدين قائلا: ألا تعلم من شكانى إلى حضرة غازان حتى صار يعاتبنى؟!

فأجاب صدر الدين: إنه رشيد الدين.

وفى يوم "نوروز"[1]، خرج الأمير قتلغ شاه من لدن حضرة غازان، وتصادف أن قابلنى، فقال لى: لقد كنا سويا فى حاشية واحدة ولم يحدث بيننا شىء قط يعكر صفو علاقاتنا ويسبب الأذى. وإذن فكيف أسأت إلى فى حضرة السلطان؟!.. فرددت عليه قائلا: الحقيقة أنه لم يلحقنى ضرر منك مطلقا؛ بحيث أسىء إليك!.. ينبغى أن تصرح لى باسم الشخص الذى قال لك هذا الكلام، وإلا فسوف أعرض الموضوع على حضرة السلطان. فلما لم يذكر اسم هذا الشخص، عرضت هذا الكلام على غازان خان فى موضع الصيد. فاستدعى السلطان الأمير قتلغ شاه، وقال له: تلبية لرغبتى الشديدة، أصدقنى القول: من قال لك هذا الكلام؟! أجاب صدر الدين: فتضايق سلطان الإسلام ضيقا شديدا، وقال: مهما حاولت أن يترك هذا الرجل الخداع والتمويه وإثارة الفتن، كان ذلك دون جدوى؛ لأن طبيعته تجرى على هذا النمط. **[ص٣٢٧]**.

---

(1) للوقوف على تفصيلات عن النوروز انظر كتاب النوروز وأثره فى الأدب العربى، تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، بيروت ١٩٧٢م.

وفى يوم الأربعاء السابع عشر من رجب صدر الأمر باعتقال صدر الدين، وأخيه قطب الدين أيضا. وفى يوم الجمعة التاسع عشر من رجب شرعوا فى محاكمة صدر الديـن، فكـان يرد على المحققين بإجابات جريئة ودون مبالاة، ولم يكن يكترث بالقضاة. ولو أنه أعطى فرصة الكلام لخلص نفسه من تلك الورطة الهائلة، غير أن السلطان أمر بأن ينهى قتلغ شاه حياة صدر الدين.

وفى يوم الأحد الحادى والعشرين من رجب سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وفى وقت الضحى وفى موضع "جوى جاندار" أمسك الأمير سوتاى بإحدى يدى صدر الدين، وأمسك البهلوان ملك غورى بيده الأخرى. ثم قده الأمير قتلغ شاه نصفين[1].

تعالى الله، فإن صدر الدين قد بذل من السعى والاجتهاد الشىء الكثير؛ بحيث إنه فى كل وقت، كان يهدف إلى ازدهار شأنه. وإن كل الفتن والقلاقل التى أثارها، كانت فى سبيل تحقيق هذا الغرض. ولكن كانت عاقبة أمره، أن عندما وصل إلى غايته، لم يتمتع بما حصل عليه، ولم ينل بغيته.

بعد ذلك تحركت الرايات السلطانية من هناك إلى "بيلسوار" وواصل غازان خان ومن معه الرحلة تلو الرحلة حتى يوم السبت الثانى عشر من شعبان عندما وصلوا إلىدار الملك تبريز. وفى يوم الإثنين الحادى والعشرين من شعبان قتل القاضى قطب الدين وابن عمه قوام الملك على باب بوابة "ورجونة" بتبريز. أما القاضى زين الدين الذى كان من أقاربهما، فقد هرب ليلا من سجن تبريز وسار ناحية گيلان، وعاد بعد سنتين أو ثلاث سنوات ثم هرب ثانية. وأخيرا اعتقل وقتل.

---

(١) يقول عنه ابن الفوطى فى أحداث سنة ٦٩٧هـ: فيها أمر السلطان غازان بقتل صدر الدين أحمد بن عبد الرزاق الخالدى صاحب ديوان الممالك لما ظهر من سوء حركاته، وكان غير محمود السيرة ظالما، أظهر الجاو، وقسر الناس على المعاملة به، فأضربهم، وبطلت معايشهم وتعطلت أمورهم إلى أن لطف الله تعالى، وألهم السلطان (گيخاتو) إبطاله ثم ضاعف الخراج كما فعل جمال الدين الدستجردانى، وبالغ فى المصادرات والتثقيلات. فلما قتل أمر بقتل أخيه قطب الدين فقتل، وطلب أخوه زين الدين الذى كان قاضى القضاة ببغداد، فهرب، ولحق بصاحب جيلان فسأل من السلطان العفو عنه، فأجاب سؤاله فسأل أن يعاد إلى القضاء بالعراق، فأخذ وحبس بتبريز فهرب من الحبس، فأدرك وأعيد إليه وقتل. (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، تحقيق الأستاذ مصطفى جواد، ص ٤٩٥ ٤٩٦، بغداد ١٣٥١هـ).

وفى يوم الأحد العاشر من شوال سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م أثار عوام تبريز الشغب، وخربوا باقى الكنائس؛ فغضب عليهم سلطان الإسلام، وعوقب بعض هؤلاء المشاغبين من مثيرى الفتنة. وفى يوم الإثنين التاسع من ذى القعدة توفى ساربان بن سونجاق نويان فى تبريز. وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة توفى "بورلتاى أغول" من ذرية جوجى قسار. والسلام.

حكاية

توجه الرايات السلطانية من دار الملك تبريز إلى مشتى بغـــداد، وتفويض منصب الـــوزارة إلى الخواجه سعد الدين، ووصول خبر تمرد سولاميش، وزحف الجيش للقضاء عليه

فى يوم الخميس الثالث من ذى الحجة سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م سار سلطان الإسلام من دار الملك تبريز جنوب أوجان[1]، قاصدا مشتى بغداد وفوض منصب الوزارة إلى الصاحب الأعظم الخواجه سعد الدين الذى كان قد أكد سوابق حقوق التأييد بلواحق أنواع الوفاء وقام بشروط ومراسم الملازمة، والمرافقة فى السراء والضراء، وفى الحل والترحال. ثم أرسل السلطان الأمير "نورين" من دربند إلى أران للمحافظة على الأمن. وفى يوم الجمعة الثانى من المحرم سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م نزل فى مرج زك (مرغزار زك) على حدود همذان.

وفى شهر المحرم أيضا توفى ايسن بوقا گوركان بن نوقاى يارغوچى. ثم رحل السلطان فى الثامن من المحرم من براهان. وفى منطقة بروجرد أعدم أبو بكر داد قابادى الذى كان واليا على همذان بعد ثبوت إدانته.

بعد ذلك سار إلى ناحية جبل الأكراد. وفى يوم السبت الثانى والعشرين من صفر، نزل فى مرج جوقين (مرغزار جوقين) من أعمال واسط. ومن هناك مر ببطائح شيب، ودخل واسط. وفى تلك الأيام كانت تصل تباعا أنباء تمرد سولاميش فى ولاية الروم.

وتتلخص تلك الحكاية فى أنه بعد قتل بالتو، عهد سلطان الإسلام بإمارة الروم إلى الأمراء باينجار وبوجقور ودقوزتيمور. وكان سولاميش نفسه أمير أمراء جيش الروم

---

(١) أوجان او أجان:مدينة تقع على بعد عشرة فراسخ من تبريز فى طريق ميانه. وقد وصف ياقوت أجان فقال عنها إنها مدينة عليها سور وبها سوق. إلا أن الخراب لحق بها. ولكن بعد عصر ياقوت أعاد غازان بناءها وأقام فيها زمنا، وأطلق عليها اسما جديدا هو" شهرإسلام" أى مدينة الإسلام. وكانت نواحيها وافرة الخيرات، يكثر فيها القطن والقمح والفواكه. (معجم البلدان، ج١، ص١٠٠؛ نزهة القلوب، ص٩١؛ بارتولد: تذكرة جغرافياى تاريخى ايران، ترجمة حمزه سردادور، ص٢٧٣ طهران ١٣٠٨هـ.ش؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص١٩٨).

[ص٣٢٩]. ولما عزل السلطان مسعود بتهمة انتمائه لبالتو عهدوا بالسلطنة إلى ابن أخيه علاء الدين كيقباد بن فرامرز فذهب مع الأمراء المذكورين إلى الروم. وفى ذلك الشتاء كان البرد شديدا جدا فى تلك المناطق، وتساقطت ثلوج كثيرة سدت الطرق، فانقطعت الأخبار. وقد شاعت أنباء تفيد بأن أحوال المعسكر قد ساءت واضطربت.

وقد اغتنم سولاميش هذه الفرصة، فاتفق مع إقبال وطاشتمور وطائفة أخرى، وفجأة ألقى القبض على باينجار وبوجقور وقتلهما، وشرع سولاميش فى العصيان والمخالفة. ثم استدعى الجنود من أطراف الشام ونواحيها، وأدخل فى طاعته الجنود الذين كانوا يقيمون فى ولاية دانشمند، واستقروا فى صحراء "قازاداه". ثم جمع عددا كبيرا لا يحصى من الصعاليك والرعاع. وكان يغدق على الجنود أموال الولايات وأملاكها؛ حتى اجتمع حوله ما يقرب من خمسين ألف فارس، وكذلك قبل السوريون أن يمدوه بعشرين ألف جندى وأطلق اسم الأمراء على طائفة منهم، وأعطاهم الأعلام والطبول. وقد اشتدت جرأته لأن الطريق كان مسدودا، ولا يصل الرسل والسعاة من هذه الناحية.

فلما وصلت تلك الأنباء إلى السمع المبارك لسلطان الإسلام غازان، أمر بأن يسير الأمير قتلغ شاه على رأس جيش فى يوم الأحد الثانى عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م عن طريق ديار بكر قاصدا بلاد الروم للقضاء على سولاميش، وأسرع الأمير چوپان بهادر، فسار فى المقدمة، وفى إثره الأمير قتلغ شاه. أما الأمير سوتاى فقد سار على رأس جيش آخر. وفى فصل الربيع تقابل الجيشان فى صحراء آقشهر التابعة لأرزنجان. وقد دارت الحرب فى الرابع والعشرين من رجب سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م. وبعد أن انهزم سولاميش، توجه إلى ديار الشام، فقبض عليه الأمراء وأحضروه **[ص٣٣٠]**.

بعد ذلك رحل سلطان الإسلام من جوقين قاصدا بغداد. وفى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شهر جمادى الأولى توجه من مدينة نيل (شهرنيل) إلى مشهد أمير المؤمنين على (رضى الله عنه) فزاره، وشمل بعطفه ورعايته المقيمين والمجاورين للمشهد المقدس وخصهم بالإنعامات والصدقات.

وفى يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى، قدم جمع من أمراء الشام ومصر وهم سيف الدين قپچاق وسيف الدين بيكتيمور والبكى وعزار الذين كانوا قد انقلبوا على

حاكم مصر لاچين بسبب تألمهم منه. وكان معهم ثلاثمائة فارس. وفى رأس العين سمعوا خبر وفاة لاچين، فندموا. ولكن لم تكن هناك حيلة أخرى. وقد تحدثوا إلى غازان خان بأنواع من الكلام الغث والسمين. وفى الثالث من جمادى الآخرة، نزل سلطان الإسلام فى بغداد. وفى يوم الخميس الخامس عشر من الشهر المذكور، ركب السلطان من بغداد واتجه إلى الميدان. ومن جملة المصريين الذين دخلوا فى الطاعة "بوزلار" الذى فر مع طائفة أخرى فتعقبهم الجيش المصرى، وقتل أغلب السوريين، وأسر سبعة أشخاص، وفر بوزلار وحده ونجا.

وفى أوائل شعبان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م هرب فوج من القراوناس، ومقدمهم المدعو بوقا، وهؤلاء كانوا يقيمون فى ضواحى طارم، وساروا عن طريق العراق، واجتازوا حدود يزد وكرمان. وفى الطريق صاروا يغيرون وينهبون، ثم انضموا إلى النكودريين[1] فى "بينى كاو". **[ص٣٣١]** وفى يوم السبت الرابع عشر من شعبان وصل بالبشارة من الروم يغلاقو سكورجى معلنا أن الأمير چوپان وباشغرد قد هزما سولاميش، ولكنه هرب مع نفر قليل. غير أن جميع الجنود الذين كانوا تحت إمرته دخلوا فى الطاعة، وقتل آلغو أخو ايلچيداى قوشچى الذى كان قد ذهب معه. كذلك اعتقل إقبال بن أورقتو بن ايلكاى نويان وطاشتيمور الخطائى، وجاءوا بهما.

بعد ذلك نزل سلطان الإسلام فى قوچين الكبرى (قوچين بزرگ) من منطقة سغورلوق ووصل "نورين آقا" إلى "قربن شيره" عائدا من أران. وفى الخامس والعشرين من شعبان نزلت الرايات السلطانية فى أوجان. كذلك وصل الأمير النجل خربنده من منطقة خراسان فاستبشر الأخوان بلقاء الواحد منهما الآخر وصارا أكثر تعاونا وتآزرا. ثم شرع السلطان

---

(١) عرف النكودريون بهذا الاسم نسبة إلى زعيمهم "نكودر" وهو من سلالة چنگيز خان. وقد التحق أول الأمر بخدمة هولاكو خان، ثم ثار عليه، وهاجر مع قبيلته وأتباعه إلى أراضى أفغانستان الحالية. وأعقاب هؤلاء النكودريين هم الذين كونوا قبيلة "هزاره" هناك، وكانوا دائمى الإغارة على خراسان وسجستان وكرمان وفارس. وعلى أيديهم دمرت فارس عام ٦٧٧هـ بعد أن نجت من غارات المغول عند فتحهم إيران. هذا، وقد ظل النكودريون يغيرون على حدود إيران ويحطمون ويدمرون. كذلك أغاروا على يزد فى عهد مبارز الدين محمد المظفرى، وظل يحاربهم إلى أن استأصل شأفتهم. (انظر بارتولد: تذكرۀ جغرافياى تاريخى إيران، ترجمة حمزه سردادور "طالب زاده" ص١٣٤، چاپ أول، طهران ١٣٠٨هـ.ش؛ شرف خان البدليسى: شرفنامه ج٢، ص٢٧).

وأعوانه فى عقد مجلس الشورى (القوريلتاى)، وأقاموا الولائم والحفلات. ولما فرغوا من المشاورات والمداولات فى مجلس الشورى، قتلوا "إقبال" فى الثامن من شعبان. وفى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من رمضان قتل أمراء الروم: كرزه وجركس وايسن الذين كانوا متحدين مع سولاميش. وفى يوم الخميس السادس عشر من شوال سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م تزوج سلطان الإسلام من كرامون خاتون ابنة قتلغتيمور بن آباتاى نويان، ودفع مهرا لها ستين تومانا عن المقدم والمؤخر، وأقام حفل الزفاف، وأنزلها فى المعسكر الأعظم فى مكان "دوقوز خاتون". وفى أوائل ذى الحجة أمر بأن يعود الأمير النجل "خربنده" إلى خراسان وأن يحفظ ذلك الإقليم من الاضطرابات.

وفى يوم الجمعة الرابع عشر من ذى الحجة نزلت الرايات السلطانية **[ص٣٣٢]** فى العاصمة تبريز. وأخيرا قبض على "سولاميش"، وأحضر من الروم. وفى يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من ذى الحجة، قتل فى ميدان تبريز بصورة بشعة ثم أحرقت جثته، وذروا رمادها فى الهواء. وعلى أثر ذلك شعر سلطان الإسلام بتعب بسبب رمد أصابه، فصار الناس يحرقون الحرمل (نوع من البخور) لدفع إصابة العين عنه. وكانوا يدعون الله، ملتمسين له الشفاء. والسلام.

حكاية

توجه سلطان الإسلام إلي ناحية الشام ومصر ومحاربته المصريين وهزيمتهم وفتح ولاية الشام

فى تلك الأيام التى قدم فيها سلطان الإسلام باليمن والإقبال إلى تبريز، كان الرسل يصلون متتابعين من ناحية الروم وديار بكر ويبلغون أن السوريين زحفوا إلى حدود تلك الولاية يهاجمون ويقطعون الطريق ويحرقون الغلات ويشقون على المسلمين. وقد حاصروا ماردين، وأسروا الكثيرين من المسلمين. وفى شهر رمضان هتكوا أعراض بنات المسلمين وشرب بعضهم الخمر كذلك. ولكن سلمت قلعة ماردين وحدها من شرهم، إلا أنهم أغاروا على بقية المدينة والولاية. ثم مضوا من هناك إلى دنيسر[1]، وارتكبوا هذه المنكرات وأرادوا تكرارها فى "رأس العين"[2] أيضا. ولكن الناس هناك كانوا جنودا شجعان التحموا بالمعتدين فى معركة فى الأزقة الضيقة بالمدينة، فعجزوا عن التغلب عليهم؛ غير أنهم نهبوا كل ما وجدوه خارج المدينة من الدواب وغيرها. وفى حلب صاروا يبيعون – على سبيل الشكر والامتنان أسرى المسلمين بأغلى الأثمان.

فلما بلغت هذه الأخبار السمع المبارك لسلطان الإسلام، تميز غيظا لشدة غيرته على الدين وحمية الإسلام [ص٣٣٣]، ورأى لزاما عليه المبادرة بالقضاء على شر أولئك الطغاة. وبعد أن استفتى أئمة الدين وعلماء الإسلام، أفتوه جميعا أن دفع شرهم عن ممالك المسلمين

---

(١) دنيسر: بلدة عظيمة مشهورة من نواحى الجزيرة قرب ماردين، بينهما فرسخان. ولها اسم آخر هو "قوج حصار". رآها ياقوت وهو صبى وقد صارت قرية، ثم رآها بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة، وقد صارت مصرا لا نظير لها كبرا وكثرة أهل وعظم أسواق. ليس بها نهر جار إنما يشرب الأهالى من آبار عذبة طيبة، وهواؤها صحيح. (معجم البلدان، ج٢، ص٤٧٨).

(٢) رأس العين هى من الجزيرة على مسيرة يومين من حران، وتشتهر بكثرة عيونها التى تبلغ ٣٦٠ عينا تصب فى نهر الخابور، وتجمع هذه العيون فتسقى بساتينها وتجعلها كأنها بستان واحد. وتتمتع رأس العين بطقس جميل جدا، ويكثر بها القطن والقمح والكروم. (تقويم البلدان، ص٢٧٩؛ نزهة القلوب، ص١٢٢ بلدان الخلافة الشرقية، ص١٢٥).

الذين هم فى ذمة همة السلطنة؛ فأمر بحشد الجيوش وسير حسب ما تقتضيه المصلحة – الأمراء من اليمين واليسار.

وفى يوم الجمعة التاسع عشر من المحرم سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م تحركت الرايات من دار الملك تبريز نحو الشام. وفى اليوم التالى رحل من ظاهر مدينة مراغة، واستدعى "نورين آقا" من دهخوارگان كى يسير إلى أران، وعبر نهر الزاب فى العاشر من صفر، وعسكر فى مقابل قلعة كشاف. وفى يوم الثلاثاء الرابع عشر من صفر تحرك بالطالع المبارك لبرج الحوت، وودع الخواتين اللائى كن قد سرن من الموصل لتوديعه، ثم عدن من حيث أتين. وفى يوم السبت الخامس والعشرين من صفر، وصل إلى حدود نصيبين[١]، واستعرض الجيش، وفى يوم الإثنين السابع والعشرين من صفر سير قتلغ شاه نويان فى المقدمة على رأس جيش. وفى يوم الثلاثاء الثانى عشر من ربيع الأول، عبر باليمن والبركة نهر الفرات فى محاذاة قلعة جعبر وصفين، ووصلت أنباء حسنة تفيد أن خلافا قد وقع بين الأعداء[٢].

وفى يوم الأحد السابع والعشرين من ربيع الأول، وصلت الرايات السلطانية إلى مدينة حلب، ثم رحلت من هناك. وفى الطريق صادف جنود غازان المروج والحقول، فابتهجوا برؤيتها قائلين: سوف نطعم الغلات. عندئذ لوى السلطان العنان، وخرج من جانب الزرع وصرح قائلا: إن كل مخلوق يمد يده إلى هذه الغلال أو الغلال الأخرى [ص٣٣٤] التى سوف نصل إليها، ويتناولها أو يطعمها غيره، سوف يقتل على الفور؛ لأنه ليس مستساغا أن نطعم الدواب غذاء الإنسان.

وفى يوم الثلاثاء التاسع عشر من ربيع الأول نزلوا بمنطقة "سرمين"[٣]، وفر مغولتاى أجاجى مع أتباع قپچاق. وفى يوم الإثنين الخامس والعشرين من ربيع الأول اجتاز مدينة حماة ونزل بجوار مدينة سلمية. وهناك ظهر يزك[٤] الأعداء.

---

(١) نصيبين: من أعظم مدن الجزيرة شأنا. وهى مخصوصة بالورد الأبيض ولا توجد فيها ورود حمراء. وتقع شمالى سنجار. وجبل نصيبين هو الجودى. وهو الذى يقال إن سفينة نوح استقرت عليه. وتتميز نصيبين بكثرة غلاتها من الحبوب والقمح والشعير. (تقويم البلدان، ص٢٨٢؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص١٢٤).

(٢) المقصود المؤامرة الخطيرة التى دبرها زعماء قبيلة الأويراتية (العويراتية) بالتعاون مع الأمراء الناقمين؛ وذلك بقصد اغتيال السلطان وإعادة صاحبهم كتبغا إلى عرش مصر. وبالرغم من أن هذه المؤامرة قد أحبطت، كانت سببا فى تأخر زحف الجيش المصرى، وإضعاف الروح المعنوية للجنود. (المقريزى: السلوك، ج١ ق٣، ص ٨٨٣ – ٨٨٤).

(٣) سرمين: تقع جنوبى حلب. وهى على منتصف الطريق بين المعرة وحلب. وتتميز سرمين بأنها ذات أشجار كثيرة من زيتون وغيره. وليس لها ماء إلا ما يقع من الأمطار فى الصهاريج. (تقويم البلدان، ص ٢٦٤ ٢٦٥).

(٤) اليزك: رئيس العسس، ومن يراقب من مضى فيتبعه.(أبو المحاسن: ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٧،ص١٧٣).

وعندما رأى سلطان الإسلام جنوده كأنهم فى غفلة، ذاهلين عن التأهب للحرب، سار باليمن والإقبال مع طائفة من الأبطال الشجعان كي يتخذ الحيطة فى تحديد مكان المعركة وليطلع على أحوال الأعداء. ثم أمر بأن ينادى فى المعسكر أن الأعداء قد وصلوا. عندئذ استعد جنود المغول لخوض المعركة، وشغل الجميع بإعداد أسلحتهم، وصاروا متأهبين للقتال. بعد ذلك عاد الأمير چوپان وقال: ليس هناك أثر لجيش الأعداء. وكان الغرض من إذاعة هذا النبأ على حد قول السلطان: أن ننبه إلى أننا قد اقتربنا من الأعداء، فعليكم أن تكونوا يقظين متنبهين، وأن تقفوا مستعدين متحفزين. وكان غازان قد احتاط للأمر وعرف أن المصريين قد نزلوا فى نفس الموضع الذى كان قد احتشد فيه الجنود فى عهد "منكوتيمور"، وأنهم قد احتلوا المكان الأفضل وحتى يكون المكان الردىء لجند هذا الطرف (أى جند غازان)، ففكر فى إفساد خططهم، ورأى من المصلحة عدم مواجهتهم فمال بميسرته التى تقابل ميمنة الأعداء.

وفى يوم الأربعاء السابع من ربيع الأول، نزل غازان على ضفاف نهر صغير على بعد ثلاثة فراسخ من مدينة حمص وأمر جنوده بأن يأخذوا كفايتهم من الماء لمدة ثلاثة أيام، وأن يسلكوا طريق الصحراء، ويتعقبوا الأعداء حتى يجبروهم بالضرورة إلى التوجه إلى تلك الناحية، فتبطل بذلك خطتهم التى وضعوها. وقد شغل الناس بأخذ حاجتهم من الماء، وظن المصريون أن جنود المغول قد اتجهوا إلى اليسار لتوقعهم الهزيمة. وكان من المقرر أن يحاربوا فى يوم الخميس. ولإيهام الأعداء بالهزيمة، ركبوا دفعة واحدة فى يوم الأربعاء **[ص٣٣٥]** وتقابلوا وجها لوجه.

ولما علم سلطان الإسلام غازان خان بوصول الأعداء، صلى ركعتين بنية صادقة مع جميع الجنود، ثم ركب، وجاء فى مواجهة الأعداء مع من كان حاضرا معه من الجنود. وكان الأمير "مولاى" على رأس الميمنة، ويليه الأمير زاده ساتلميش، وبعده الأمير قتلغ شاه ومن بعدهم "يمن" و"مرتد"، كل مع فرقته المكونة من عشرة آلاف جندى (تومان). أما سلطان الإسلام فقد وقف فى القلب كأنه جبل شامخ. وكان فى مقدمة القلب الأمراء: چوپان و"سلطان چوپان" على اليمين، وسلطان على اليسار. وكان على ميمنة القلب طغريلجه بن آجو سكورجى، وخلف القلب وزيرا السلطان من ذوى المرتبة السامية. وبعد

المعروف للجميع أن حكم هؤلاء القوم آل إليهم اتفاقا وليس استحقاقا، فكلهم كانوا عبيدا لأسرة جد سلطان الإسلام المشهور. ثم قال لهم سلطان الإسلام [ص٣٣٧]: ليس هناك خير من وجودكم أحياء، ولكن يوجد في الموتى من أسلافكم كثير من الخير والبركة. وإني لأخطركم بأنني سوف أصفح عنكم أنتم الجهال إكراما لهؤلاء الموتى. فاستبشر بذلك أهالي دمشق إلى أقصى حد، وقويت عزائمهم، ودعوا للدولة كثيرا.

وفي الثاني من ربيع الآخر ذهب إلى ميدان الحصا للتفرج. وعندما وجد زرعا ناضرا للغاية، رأى من الواجب صيانته والمحافظ عليه. ثم عين جماعة من الحراس على بوابة "باب توما" حتى لا يدعوا الجنود يشقون على سكان المدينة، وأمر بإغلاق البوابات السبع الأخرى. وبألا يتجول الجنود في البساتين، ولا يخربوها. ثم ولى "قبچاق" إمارة دمشق؛ إذ إنه كان من قبل أميرا هناك، وبذلك دخل في الطاعة. وعين قتلغيا شحنة على المدينة، وقرر أن يعهد بالتصرف في الأموال والمحافظة عليها إلى فخر الدين أمين الشيرجي وسيد زين الدين كما كان الوضع سابقا، وكلفهما بالتصرف حسب القواعد المعهودة والمعتادة. وإذا عرض لهما أمر هام، فإن عليهما أن يعرضاه على وزيري الحضرة. وهناك طائفة من ملازمي السلطان الذين كانوا هناك مثل كتاب الخزانة والجيش وغيرهم، وهؤلاء جميعا شملهم برعايته، وقرر أن يستمروا في أداء أعمالهم.

بعد ذلك عرض الأمراء رأيهم على غازان قائلين: "حيث إن أهل القلعة لا يدخلون في طاعتنا، لا يمكن أن يخلص لنا سكان المدينة. وإذن فالمصلحة تقضي بأن نغير على المدينة. ولقد اتفق جميع الأمراء على هذا الرأى. ولهذا استولى القلق والرعب على أهل المدينة إلى أقصى حد. ولكن سلطان الإسلام رق لحالهم، ولم يقبل هذا الرأى، وأصدر فرمانا يقضي بألا يشق أى مخلوق على أهل المدينة، ولا يتعرض لهم بسوء، وأن يمنع منعا باتا كل واحد من الأمراء والجنود يريد أن يدخل المدينة، ما لم يكن لديه تصريح خاص من الديوان.

وفي يوم الثلاثاء الثامن عشر من الشهر تنفيذا للأمر الذى كان قد صدر بخصوص السماح بارتياد الحدائق، وقطع الأخشاب الملائمة للمنجنيق [ص٣٣٨] بقصد الاستيلاء على القلعة، ألقى جمع من سياس الخيول والأرمن والكرج والأتباع بأنفسهم في ساحة الصالحية وقاموا بالقتل والنهب والأسر؛ فغضب سلطان الإسلام من ذلك التصرف. وعلى

الفور أمر أرغى بن قونجى بن كيتوبوقا بالذهاب إلى هناك وحماية الناس، وقتل الأشخاص الذين شنوا الغارات، واغتصبوا أموال الناس. فلما وصل هذا القائد تفرقت جموع الجند الذين كانوا قد عاثوا فسادا. وأخذ جنود أرغى يبحثون عن ديار الكرج والأرمن واستعادوا منهم الأسرى، وأطلقوا سراحهم.

وفى يوم السبت التاسع والعشرين من ربيع الآخر عاد مولاى الذى كان قد تعقب المنهزمين حتى غزة. وحيث أن الجو كان قد مال إلى الحرارة، لم يهتم السلطان غازان بأهل القلعة الذين كانوا قد خرجوا على طاعة مصر.

وفى يوم السبت الثامن عشر من جمادى الأولى عاد من دمشق، وترك الأمير قتلغ شاه والأمير چوپان للمحافظة على استتباب الأمن هناك على أن يعودا إذا ما حل الربيع. ثم كلف الأمير مولاى بأن يقيم هناك على رأس جيش كبير، وعين ناصر الدين يحيى ليكون فى خدمة قپچاق وأسند عملا مناسبا لكل من بيكتيمور وايلبكى اللذين كانا قد قدما إلى الحضرة. ولكنهما وكذلك قپچاق نسوا حق نعمة سلطان الإسلام ورعايته لهم. وكانوا يشيعون الإشاعات المختلفة مما كان سببا فى عودة الأمير مولاى والجماعة.

وصفوة القول أن سلطان الإسلام عبر نهر الفرات فى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الأولى فى محاذاة قلعة جعبر على جسر كان قد اقترح إقامته، وهو مصنوع من حزم القصب، ومربوط بحبال من ألياف الأشجار. وفى ذلك اليوم أيضا لحق بمضارب الخيام ووصل "سلطان بيساول" الذى كان قد سار إلى غزة. وعلى حدود سنجار لحق السلطان بالخواتين. كذلك وصل رسل كرمان، وعرضوا على غازان خان نبأ تمرد محمود شاه وأشياعه، وقتل علامة العالم مولانا فخر الدين **[ص٣٣٩]** قاضى هراة وأولاده بسبب الفتن التى أثاروها.

وفى يوم الثلاثاء الخامس عشر من جمادى الآخرة، وصل السلطان إلى الموصل. وفى يوم الأحد الخامس من رجب، قدم قتلغ شاه نويان من الشام، وأخبر غازان بمخالفة قپچاق وأتباعه. وفى غرة شعبان عبر سلطان الإسلام نهر دجلة. وفى السابع عشر من شعبان وصل الأمير مولاى من دمشق. وفى التاسع عشر من شعبان سعد بشرف لقاء الحضرة – فى منطقة دربند زنكى الأمير نورين وجيجاك وطوغان الذين كانوا قد عادوا من أران، وفى

يوم السبت الخامس عشر من رمضان، نزلت الرايات السلطانية فى مراغة وذهب فى اليوم التالى لمشاهدة المرصد، ورأى كل أعماله وأجهزته، وتفحصها بأكملها بتأن تام، واستفسر عن كيفية استعمال كل منها. ورغم وجود معضلات دقيقة تتعلق بها، فهم أكثرها. ثم أمر بأن يقام مرصد آخر بجوار القبة العالية ومواضع أبواب البر فى "شم"، على أن يختص بعدة أعمال شرحها كلها بوضوح، لدرجة أن الحاضرين من الحكماء قد أعجبوا لحسن استنباطه إذ إنهم لم يقيموا مثل هذا العمل فى أى عهد من العهود. وقد بين الحكماء لغازان خان أن إقامة هذا المرصد أمر متعذر للغاية؛ فعلمهم وأرشدهم، وشرعوا فى إقامة هذا المرصد على سبيل التجربة والاختبار، وأتموه حسب تعليمات السلطان. وهم وجميع المهندسين المهرة مجمعون على أن أحدا لم يقم مثل هذا المرصد، ولم يعرف له نظيرا. ثم رحل غازان من هناك، وقدم إلى أوجان.

وفى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شوال، شرعوا فى عقد مجلس الشورى (القوريلتاى). وبعد أن انفض المجلس توفى الأمير النجل آلجو فى يوم السبت الثالث من ذى الحجة سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م فى أوجان، وحمل جثمانه إلى القبة العالية بتبريز. وفى السادس من ذى الحجة استأذن الأمير النجل خربنده فى العودة إلى خراسان. أما غازان خان نفسه فقد عزم على الرحيل باليمن والإقبال إلى دار الملك تبريز وكان يذهب كل يوم للإشراف على تشييد القبة العالية. والسلام.

حكاية
توجه سلطان الإسلام إلي الشام ومصر
للمرة الثانية

لما دخل فصل الخريف عقد غازان خان عزمه على السير مرة ثانية إلى ديار الشام. وفى يوم الإثنين غرة المحرم سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م سير الأمير قتلغ شاه فى المقدمة على رأس جيش كبير.

وفى الخامس عشر من الشهر المذكور غادرت الرايات السلطانية تبريز، وهى على هذا العزم. وفى الثالث من صفر أعاد نورين آقا من "جغاتو" كى يمضى إلى أران. وفى الرابع من ربيع الأول وصل باليمن والإقبال إلى مدينة الموصل، وأمضى يومين أو ثلاثة فى الأنس والسرور. ثم سار إلى منطقة "أبو ميرى" بناء على اختيار الجند وسير الأميرين چوپان ومولاى فى المقدمة.

وفى ذلك الوقت توفيت طغانشاه خاتون بنت مباركشاه فى منطقة سنجار. وفى السادس من ربيع الآخر عادت الخواتين اللائى قدمن من رأس العين لتوديع غازان. وفى الثانى عشر من ربيع الآخر وصل "شينقا" من قبل الجيش، وأخبر قائلا إن يزكنا (رئيس عسسنا) داهم بعدة فرسان، "كوشلوك" طليعة جيش الأعداء، وقتل منهم أميرا.

وفى السابع من صفر عبر سلطان الإسلام الفرات بمحاذاة جعبر وصفين. وفى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من صفر نزل فى أعلى "حبول" على مقربة من حلب. ثم وصل "قبرتو بهادر"، ومعه العديد من السوريين الذين كان قد أسرهم. وفى السابع والعشرين شاعت الأراجيف عن وصول الأعداء، فهب الجيش كله دفعة واحدة. ولكن اتضح بعد التدقيق أن هذه الأخبار ملفقة فتخلوا عن حالة التأهب القصوى. وفى الخامس من جمادى الأولى اجتازوا حلب، ونزلوا فى رباط "وصيحى" على ضفاف نهر "قويق" الذى هو عبارة عن وادى نهر مدينة حلب. وفى السابع من الشهر حلوا بمحاذاة قنسرين.

ولما لم تكن هناك أخبار عن الأعداء، ولم يخرج سلطان مصر خوفا ورعبا، رأف سلطان الإسلام ببلاد المسلمين، ولم يتقدم أبعد من ذلك، وأمر بأن يرابط قتلغ شاه مع جيشه فى

"سرمين". وكان المطر غزيرا في ذلك الشتاء. [ص٣٤١] وقد اتفق أن نزل في موضع رديء الأمير سوتاي مع بعض من جنود الأمير "شباوجي" الذين قدموا من الروم. وفجأة هطل مطر غزير[1]، واشتد البرد، وظهر وحل كثير؛ بحيث إنه لم يستطع الأميران أن يتصل أحدهما بالآخر وهلك كثير من دوابهما بسبب الوحل والبرد. ولهذا أرسل السلطان غازان الأمير مولاي مع تومان من الجنود (عشرة آلاف جندي) حتى ينقلوا المحاصرين بدوابهم. وعندما وصلوا إلى هناك، استطاعوا أن ينقذوا أنفسهم بألف حيلة (بصعوبة بالغة).

وفي الثامن والعشرين من جمادى الأولى عاد السلطان، واجتاز الجسر الذي كان قد أقيم بمحاذاة مدينة الرقة، وزار قبر عمار بن ياسر وشهداء صفين (رضي الله عنهم). وفي يوم السبت الخامس عشر من جمادى الآخرة لحق بالخواتين والجنود في موضع "چهار طاق" أدنى سنجار. وفي سلخ ربيع الآخر توفي الأمير ساتلميش بن بورالغي من أقارب "التاجو آقا" على حدود كشاف، فحزن السلطان حزنا شديدا لنبأ وفاته. وفي يوم الخميس الحادي عشر من رجب وصل من الشام "سلطان يساول". وفي منتصف رجب عاد أيضا الأمير قتلغ شاه، وأمضى مع مرافقيه عدة أيام في تلك المنطقة في الأنس والمتعة والصيد.

وذات يوم كان سلطان الإسلام يعدو وراء أحد الغزلان ورماه بسهم. وبدا كأن السهم لم يصبه. ولكن سقط الغزال فجأة فاحتاط أتباع السلطان للأمر غير أنه اتضح أن الغزال أصيب من ذلك السهم بتسعة جروح. وقد شاهد هذا المنظر عامة الخلق، وتبين لهم كيف حدثت تلك الجروح التسعة؛ وذلك أن سهمًا يسميه المغول "تونه" نصله له ثلاث ريشات حادة إلى أقصى حد قد أصاب الغزال عند وثوبه في الهواء، فتقاربت يداه ورجلاه، فأصاب السهم قوائمه الأربعة وجرحها، ومرق منها، فأصاب صدره وبطنه، وتحت أذنه كذلك. وقد أحدثت كل ريشة من النصل جرحًا طويلاً. وعندئذ وصل تأثير السهم إلى عنقه وحلقه [ص٣٤٢]، فجرحه جرحين آخرين؛ بحيث إنه قد ظهرت فيه بالتحديد على هذه الصورة تسعة جروح.

---

(١) انظر تفصيلات عن هذا الحدث في كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج٩ ص ٣٣٤ ٣٣٥.

بهذه الرواية تكون قد محيت محوًا تامًا حكاية "بهرام گور"[1] الذى رمى بمهارته غزالاً فربط ظلفه بأذنه، تلك الحكاية التى أعجب بها الناس كثيرًا. وعلى مدى ألف وخمسمائة عام ظلوا ينقشونها على الجدران، ويصورونها فى الكتب. ولقد شاهد هذا الحادث ما يزيد على ألفى شخص.

وفى يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شعبان، وصل رسل توقتاى ملك الوس جوجى وتشرفوا بلقاء الحضرة ثم عادوا سريعًا. وفى يوم الأربعاء سلخ شعبان عبر غازان خان نهر دجلة، وأمر وهو فى الطريق باعتقال الأكراد الذين كانوا يرتكبون كل أنواع الجرائم ويعيثون فى الأرض فسادًا، وقُتِل منهم الكثيرون. وفى الرابع والعشرين من رمضان نزل غازان خان فى أوجان. والسلام.

---

(١) تكتبه المصادر العربية، "بهرام جور" والمقصود به بهرام الخامس بن يزدجرد الأول المعروف بيزدجرد الأثيم أحد ملوك الساسانيين. تولى بهرام عرش إيران بمساعدة النعمان بن المنذر ملك الحيرة. حكم من سنة ٤٢٠ ٤٣٨م. كان بهرام مثلاً أعلى للشجاعة والفروسية. ونظرًا لولعه بصيد حمار الوحش (گور) أطلق عليه "بهرام گور". كان ينظم الشعر بالفارسية والعربية. أحبه الإيرانيون لميله إلى الغزو والفتح والانتصار على الأعداء، وللتخفيف عن الرعية؛ إذ أباح لهم أن يأخذوا بنصيبهم من اللهو والمتعة إلى أقصى حد. وقد اشتهرت سيرته بولعه بالصيد وعشقه النساء.

حكاية

تكريم الخواجه سعد الدين صاحب الديوان وقتل حساده

بعد أن عاد سلطان الإسلام باليمن والبركة والإقبال من رحلته بالشام، نزل بمدينة الإسلام "أوجان". وفى السابع والعشرين من ذى القعدة سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م كرّم الخواجه "سعد الدين"[١]، وشمله برعايته إلى أقصى حد، ومنحه "الختم الأحمر" "آلتمغا"[٢] وفوض إليه شئون صاحب الديوان. وفى غرة ذى الحجة كان زفاف قتلغ شاه نويان على "ايل قتلغ" ابنة گيخاتو.

وفى ذلك المصيف كان جماعة من المقربين وأصحاب الديوان مثل صاين القاضى والشيخ محمود والسيد قطب الدين اينجو الشيرازى وغيرهم من الأتباع قد عقدوا جلسة للمشاورة بقصد إقصاء السادة من كبار موظفى الدولة.

[ص٣٤٣] وفى المجلس الذى كان "يحتسى فيه السلطان الشراب"، صار يذكر الأمراء. وكان السيد قطب الدين الشيرازى حاضراً، فقال: "إن باسميش كان رجلاً حسن السيرة فقال السلطان: أنت تتحدث عن حسن سيرته لأنك ذهبت معه إلى شيراز، وكان أداة لكسبك، وجلب المنفعة لك، وحصلتما على أموال طائلة من هناك. ثم أضاف السلطان قائلاً: إنك وأمثالك تسعون دائمًا إلى الفتنة والشر. فرد قطب الدين تحت وطأة السكر: إن السلطان يظهر الكرامات كأنه كان معنا أثناء المشاورة. فأدرك السلطان بحدسه وفراسته ما دار بين المتآمرين. وفى تلك الليلة أيضًا أمر باعتقال الشيخ محمود. وفى الصباح قبض على

---

(١) انظر تفصيلات عن هذا الوزير فى كتاب مؤرخ المغول الكبير، تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، القاهرة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م.

(٢) كلمة مغولية مركبة من آل بمعنى أحمر تمغا بمعنى ختم، أى الختم الأحمر. وأحيانًا يكتب هذا اللفظ "تمغاى آل". وكان هذا الختم أول الأمر مربع الشكل، وتختم به المنشورات والفرمانات والأحكام، وذلك بالمداد الأحمر. وبناء على طلب نوروز أصدر السلطان غازان أمره بأن يغير هذا الختم، فيصير مستديراً بدلاً من أن يكون مربعًا وذلك بقصد التيمن والتبرك والتفاؤل (انظر الجوينى: تاريخ جهانگشاى، ج١ ص يط من المقدمة؛ مؤرخ المغول ص٧٧).

صاين القاضى والسيد قطب الدين ومعين الدين الخراسانى وأمين الدين الإيداجى وسعد الدين حبش، وشرع المحققون فى استجوابهم. وبعد سبعة أيام أطلقوا سراح أمين الدين. وبعد عشرة أيام أطلقوا أيضًا سراح سعد الدين حبش لأن كلا الاثنين لم يرتكب ذنبًا. وفى يوم الاثنين الثانى والعشرين من ذى الحجة قتل صاين القاضى والسيد قطب الدين ومعين الدين فى موضع "دول". وفى يوم الأربعاء منتصف المحرم سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م أطلق سراح الشيخ محمود بشفاعة بلوغان خاتون.

كان سلطان الإسلام غازان رحيم القلب إلى أقصى حد، ولا يجيز إيذاء أى مخلوق لدرجة أنه إذا سقطت ذبابة فى الطعام فإنه كان يخرجها بيده المباركة بحيث لا ينكسر جناحها ويدعها تستعيد قوتها، ثم يطيرها. مع هذا كان يصرح بقوله: "إن قتل بعوضة بريئة أشق علّى من قتل إنسان مذنب؛ لأن ترك الإنسان المثير للفتنة حيًّا يؤدى إلى خلل كبير لا سيما فى شئون المملكة والسلطنة".

[ص٣٤٤]

حكاية
توجه سلطان الإسلام غازان خان إلى ألاتاغ ثم تحركه من هناك عن طريق نخجوان إلى مشتى أران، ووصول الرسل الذين كانوا قد ذهبوا إلى مصر

في يوم الأربعاء منتصف المحرم سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م توجهت الرايات السلطانية إلى ألاتاغ. وفى الحادى والعشرين من الشهر المذكور سار قتلغ شاه نويان على رأس جيش قاصدًا ديار بكر عن طريق مراغه. وفى يوم الخميس الثانى من صفر، نزل سلطان الإسلام فى قصر آلاتاغ. وفى يوم الأحد الثانى من ربيع الأول تحرك من ألاتاغ قاصدًا أران عن طريق نخجوان. ثم صدر الأمر بعودة الأمير قتلغ شاه إلى ديار بكر. وفى يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الآخر وصل كمال الدين الموصلى وعلى خواجه اللذان كانا قد سارا برسالة إلى مصر. ولأن الجيوش عسكرت فى منطقة قراباغ، لم يمكث سلطان الإسلام هناك طويلاً، وسار للصيد فى جبال شروان ولكزستان حيث مارس الصيد عدة أيام. ومن هناك توجه إلى ناحية گاوبارى لصيد الإوز. كما اشتغل هناك مدة بصيد الطيور والأسماك.

ثم نزل بموضع "خليزى" التى سماها السلطان "قوش قيون"، وهى التى تقع على شاطئ البحر، وتمتد إلى حدود برمكى، وتمر بها كافة أنواع الكركى والطيور المائية التى تعود من المشتى إلى المصيف. ولما حلت الألوية السلطانية بتلك المنطقة على مقربة من "دربند"، انهزم ملك الألوس، كما انهزم [ص٣٤٥] أمراؤه الذين كانوا على مقربة من هذه الناحية ظانين أن الألوية الغازية متوجهة إليهم، وأن الجنود عبروا الأنهار. وبعد مدة عرفوا أن الأمر على خلاف ظنهم، فعاد التجار إلى التنقل مرة أخرى. وقد دخل فى الطاعة جميع أمراء لكزستان الذين كانوا قد أعلنوا العصيان والتمرد منذ مدة طويلة، واختبأوا فى الجبال المنيعة فتوجهوا إلى الحضرة عن إخلاص ورضا وتمسكوا بالعروة الوثقى طائعين منقادين. وقد أعتقل جماعة اللصوص والرعاع الذين كانوا قد قدموا من ولاية آذربيجان واعتصموا بالجبال. وكانوا يمارسون أعمال اللصوصية وقطع الطرق فقتلوا جميعًا. ثم عاد غازان خان

من تلك الجهات، ونزل فى المعسكرات فى بيلسوار و"همه شهره". بعد ذلك خرج معتزمًا الصيد فى المناطق الواقعة على طريق تالشان واسپهيد. ثم أمر بإقامة جدارين من الخشب والحسك وسط تلك الجبال، وذلك فى مدة ما يقرب من يوم واحد؛ بحيث كانت الفتحة الخارجية الواقعة بين الجدارين بقدر مسيرة يوم واحد تقريبًا. وكانت تضيق شيئًا فشيئًا على شكل مخروطى حتى تصير الفاصلة بينهما خمسين ذراعًا. وفى قاعها أقاموا – من الخشب – ما يشبه الحظيرة. وبعد ذلك أعد الجنود خندقًا دائريًا، وأخذ الصيادون يسوقون الصيد[1] بين الجدارين، حتى جمعوا الحيوانات كلها فى تلك الحظيرة. وكان من بينها البقرة الجبلية وحمار الوحشى والغزال وابن آوى والثعلب والذئب والدب وغير ذلك من أنواع وأصناف الوحوش والسباع.

ولما كانت هذه الحيوانات محصورة بين الجدارين وليس لها مخرج كان لا مفر لها من الدخول فى الحظيرة. وكان سلطان الإسلام يجلس مع بولوغان خاتون فى عريشة صنعت من الخشب، وأقيمت وسط تلك الساحة، فكانا يشاهدان تلك الحيوانات. وقد اصطادا بعضها، وأطلقا بعضها الآخر. ثم رحلا من هناك، وكانا يتجولان ويتنقلان من مكان إلى آخر إلى أن وصلا إلى دار الملك تبريز. فصار أهل ولاية آذربيجان من رجال ونساء وكبار وصغار يبسطون أيديهم بالدعاء عن طواعيه وإخلاص. كما لهجت ألسنتهم بالثناء على حضرة السلطان. ثم خرج جميع أهل تبريز مع علماء الإسلام بنظام وترتيب تام، وقاموا بمراسم الاستقبال، فأظهر لهم سلطان الإسلام كل عطف ورحمة، وأعفاهم من التكاليف والمؤن غير الملائمة. والسلام.

---

(١) جريًا على عادة آبائه وأجداده الذين كانوا يهتمون بالصيد اهتمامًا كبيرًا، ويجدون فيه رياضتهم المحببة ويتخذونه وسيلة للإعداد والتدريب إذا ما جد الجد، ودعوا إلى حمل السلاح وخوض غمار المعارك فهم فى حلبات الصيد يتدربون على ما سيفعلونه وقت الحرب (انظر الجوينى: تاريخ جهانگشاى، ج١ ص١٩ ٢٠ د. السباعى محمد السباعى: عطا ملك الجوينى وكتابه جهان گشا ص٢٣١ – ٢٣٣، القاهرة ١٤١٢هـ/١٩٩١م المغول فى التاريخ، ص٣٤٢ ٣٤٤).

حكاية

الاحتفال العام الذى أقيم بأمر سلطان الإسلام فى المعسكر الذهبى بموضع حديقة أوجان وختم القرآن هناك، وبذل العطايا والصدقات

كان سلطان الإسلام قد أمر الصناع البارعين والمهندسين المهرة بإقامة سرادق منسوج بخيوط ذهبية، وعرش مطلى بماء الذهب. وكان هذا السرادق مزودًا بالآلات والأدوات المناسبة. وقد ظلت مجموعة كبيرة من الصناع، تعمل مدة ثلاث سنوات فى إعداد ذلك السرادق. وما أن حل غازان بدار الملك تبريز فى هذا الوقت حتى كان السرادق قد تم.

وفى أواخر ذى القعدة سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م سار غازان خان من تبريز إلى أوجان. وهناك كانوا قد أقاموا سورًا حول مرج ناضر بهيج للغاية، أعد لنزوله المبارك حيث تجرى الأنهار والينابيع. وقد أقيمت الأحواض والبحيرات العظيمة، فاتخذتها أنواع الطيور مأوى لها، وقسم ذلك المربع المتساوى الأضلاع إلى أقسام متساوية، وعلى جانبى كل ممر منها غرست أشجار الصفصاف والحور ليمر الناس من تلك الممرات، ولا يسير أى مخلوق وسط المرج. وقد عيّن طريق لكل طائفة لتعرف من أين تدخل، ومن أين تخرج. ثم أمر بإنشاء الجواسق والأبراج والحمامات والعمارات العالية، [ص٣٤٧] وبأن يقام كذلك السرداق المطرز بخيوط ذهبية وسط تلك الحديقة، وكذلك المخيم السلطانى والمظلات الخاصة به. وقد احتشد جميع العمال والمهندسين، واستطاعوا إقامة المخيم فى مدة شهر. وكان غاية فى الفخامة. ثم وضعوا العرش المرصع بالجواهر واليواقيت.

وتعظيمًا للإسلام بادر غازان خان قبل إقامة الحفل بدعوة السادات والأئمة والمشايخ والقضاة والصالحين. وبالتبعية دعا أهل الأمم من الطوائف الأخرى. ثم توجه إلى الجميع، وخاطبهم بلسان فصيح وبيان عذب، وساق على لسانه حديثًا دقيقًا فى باب الحكمة والمعرفة. وكان ينصح طبقات الناس ويعظهم، وصار يشكر النعم والآلاء الإلهية. وخلال حديثه قال: إننى أنا العبد الضعيف أعترف وأقر بالعجز والقصور وكثرة الذنوب وبأنى لست جديرًا بهذا العطاء، ولا لائقًا لهذه الموهبة؛ غير أن فيض الرحمة والرأفة الإلهية

وآثار لطف وكرم البارئ عز وعلا عظيمة فى حق عباده إلى أقصى حد. ولا شك أن نعمه من الكثرة بحيث لا يستطيع ابن آدم، ولا جميع الخلائق أن يوفوها حقها من الشكر ولست غافلاً عن أن شكرها واجب ولازم بمائة ألف لسان؛ إذ إن الله – فضلاً وإحسانًا منه قد أدخل جميع خلائق إيران الذين هم ودائع الحضرة الإلهية فى دائرة طاعتى. ولست أخدع بغرور الملك السريع الزوال، والذى انتزع من عدة آلاف من الأشخاص. ومن بين أصناف النعم التى منَّ الله بها علّى أنه منحنى ما لم يمنحه الملوك الآخرين. وقد حقق لى آمال أسلافى. وإن أفضلها أن عباده قد أمنوا بطشى **[ص٣٤٨]**، وهم راضون بحكمى وراغبون فيه.

وبناء على هذه المعانى والمقدمات لم أشأ أن أدخل هذا السرادق والمخيم بالجاه والجبروت. وينبغى فى هذا الزمان أن نؤدى شكر هذه النعمة العظمى نحن وأنتم أى الحاكم والمحكومون؛ وذلك يكون بالتضامن، ودون نفاق ورياء، ونطلب من الله غفران ذنوبنا مخلصين متضرعين.

والآن نبدأ حفلنا بتلاوة القرآن الكريم، ونؤدى الطاعة والعبادة، ثم نشتغل باللهو والطرب.

هكذا نطق غازان بهذه الكلمات المهذبة، وذكر اسم الله تعالى والرسول صلى الله عليه وسلم بالتعظيم. ثم وضع قدمه المبارك فى السرادق وأسند ظهره إلى مسند التوفيق والنجاح. ثم أمر بإحضار ما لا يعد ولا يحصى من قطع الذهب والثياب، وتصدق بها كلها بعد إطعام الناس بأصناف الأطعمة المختلفة شكرًا لله؛ بحيث نالت كافة الطوائف نصيبها منها. بعد ذلك اشتغلت كل طائفة على طريقتها مدة ثلاثة أيام بلياليها بختم القرآن، وأداء فروض العبادة.

وفى يوم الاحتفال وضع غازان على رأسه تاجًا مرصعًا بالجواهر لم ير أحد مثله، وتمنطق بمنطقة مناسبة له، ولبس الثياب المزركشة الثمينة للغاية، وأمر أيضًا بتزيين الخواتين وجميع الأمراء الأنجال والأمراء والمقربين بكل أنواع الزينة. وكان الجميع يمتطون الجياد التى لا نظير لها، وصاروا يتجولون.

وبعد انتهاء الحفل انصرف إلى ضبط شئون المملكة، وتدبير مصالح السلطنة والترفيه عن الرعايا، ورعاية كافية البرايا. وكان قد تشاور مع أمراء الدولة وأعيان الحضرة، فاستقر

الرأى على أن يقيم الأمير خربنده فى مازندران وما جاورها خلال الشتاء، ويمضى الصيف فى نواحى طوس وأبيورد ومرو وسرخس ومنطقة بادغيس. وأما الأمير نورين فيَشْتُو فى أران مع جنوده المعينين، وذلك طبقًا للقرار السابق على أن يظل مقيمًا هناك.[ص٣٤٩] أما الأمير قتلغشاه، فيتوجه إلى ناحية جورجيا، ويسيّر بعضًا من جنود الكرج إلى ناحية ديار بكر، وينضمون إلى كتيبة الأمير مولاى المكونة من عشرة آلاف جندى ليكونوا على أهبة الاستعداد للسفر إلى الشام. وأما كتيبة هولاجو فترحل إلى فارس وكرمان؛ حتى إذا دعت الحاجة فإن عليهم أن ينضموا إلى الأمير ساداق وسلطان كرمان.

وهكذا نُظمت الأمور وفق هذا الترتيب، ونفذ الجميع ما أشار به السلطان. والسلام.

حكاية
توجه الرايات السلطانية من مدينة الإسلام أوجان إلى بغداد، والأحداث التى حدثت فى الطريق ثم الوصول إلى واسط والحلة وعقد النية على السير إلى الشام

فى غرة المحرم سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م توجه سلطان الإسلام من مدينة الإسلام "أوجان" إلى ناحية همذان عاقدًا العزم على السفر إلى الشام. وفى تلك الأيام تقرر أن يسير الأمير "نورين" إلى أران لقضاء الشتاء والمحافظة على تلك الجهات.

وقبل أن يستأذن من الحضرة توجه نحو "هشترود". وقد لبس السواد أبناء شرف الدين عبد الرحمن الذى كان حاكمًا على تبريز مدة من الزمان ثم سار بعد ذلك ليكون مستوفيًا على ممالك الروم، ولجأ هؤلاء الأبناء إلى عدالة حضرة السلطنة قائلين: إن نظام الدين يحيى ابن خواجه وجيه قد أمر بقتل والدهم. وعندما بلغت الرايات السلطانية هشترود نال الأمير نورين الإعزاز والتكريم. ثم عاد متوجهًا إلى أران (ص٣٥٠). وفى يوم عاشوراء قتلوا نظام الدين يحيى ابن خواجه وجيه ودولتشاه بن أبى بكر داد قابادى بناحية يوز آغاج وهشترود. كما قتلوا فى اليوم التالى عربشاه حفيد السلطان "حجاج كرمان". ومن هناك دخل السلطان همذان، ونزل فى الخانقاه المبارك الذى أنشأه فى قرية بوزينجرد، وأوقف عليه أوقافًا كثيرة. وكان بناء فخمًا وعاليًا إلى أقصى حد. ثم سار من هناك إلى "جغان ناوور فراهان" حيث أقام عدة أيام. ثم سلك طريق نهاوند قاصدًا جمچال.

وفى ناحية بيستون دخل فى طاعة غازان ثلاثة من أمراء الشام كان مقدمهم على شير فأكرمهم سلطان الإسلام، وأنعم عليهم. ووقت فتنة نوروز، واعتقال إخوته وأتباعه فى ناحية كرمانشاهان كان السلطان يقيم مع جماعة من المقربين إليه فى العراء فى الصحراء دون خيمة تؤويهم. وقد ناموا وسط جبل كان قد نبتت أمامه شجرة وارفة الظلال. ولأن لكزى لم يكن قد قبض عليه، ولم يكن مصير نوروز قد علم، كان الخاطر المبارك لغازان مشتتا بعض الشىء. وبخصوص ذلك الأمر، صار يفكر فى ذلك الموضع، فظهر من عالم

الغيب فتح وفرج. وعندما وصل إلى هناك وكانت الآمال قد تحققت تذكر ذلك الموضع وتلك الشجرة؛ فذهب قاصدًا زيارة تلك الناحية، وبصحبته جميع الخواتين والأمراء، فبكى وتذكر تلك العزيمة والضراعة والدعوات [ص٣٥١] التى توجه بها فى ذلك الوقت فأدى واجبات الشكر على ما ناله من ظفر ونصر، وصلى ركعتين صلاة الحاجة، ثم سجد. وبخشوع تام، طلب من حضرة الحق تعالى النصر فى جميع الأحوال، ثم رفع رأسه. وأخذ ينصح الجمع قائلاً: استعينوا بالحق جل وعلا فى السراء والضراء، ولا تيأسوا من رحمته بأى حال ولا تفخروا ولا تغتروا بأى شىء. وتيقنوا أنه لن يغيب الله عنكم طرفة عين، ولا تنخدعوا بقوتكم وقدرتكم، واخشوا البطش الإلهى. ثم التمس غازان حاجاته من الحق تعالى، ونوى نوايا طيبة من كل نوع؛ خصوصًا فيما يتعلق بتحقيق العدل والإنصاف على نطاق واسع. بعد ذلك ربط جميع الحاضرين علامات على تلك الشجرة، وأصبحت مزارًا لهم.

بعد ذلك عزف المطربون بعض العزف، ورقص الأمراء. وكان الأمير پولاد چينگسانگ حاضرًا، فقال: إن "قوبله قاآن" عم جد سلطان الإسلام، كان فى عهده ملكًا على عدة أقوام. وكان بطلاً فى غاية الشجاعة حتى كانوا يضربون به المثل فى البطولة، ونظموا فيه شعرًا كثيرًا. وكان صوته جهوريًا مرعبًا؛ بحيث إنه كان يصل إلى السامع على بعد سبعة تلال. وتصادف أنه سار ذات يوم لمحاربة المركيت[1]. وفى الطريق وصل إلى إحدى الأشجار؛ فنزل عندها، وناجى الله الأزلى، وطلب منه النصر، ونذر قائلا: إننى إذا انتصرت على العدو، فسوف أجعل هذه الشجرة مزارًا، وأزينها بالأقمشة الملونة الجميلة، فنصره الحق تعالى على عدوه. ولما عاد بعد الفتح، وتقدم إلى تلك الشجرة، وفّى بنذره وزينها، وشكر الخالق عز وعلا ثم أخذ فى الرقص مع جنوده تحت تلك الشجرة، ودقوا الأرض

---

(١) قوم مركيت يطلق عليهم اسم "مكريت"، وهم يسكنون المنطقة الواقعة شمال بلاد الكرايت على مجرى نهر سلنجا وجنوب بحيرة بايكال. وكان لهم جيش قوى ذو بأس شديد فى الحروب، ويعدون أصلاً من جنس المغول، ولكنهم قاموا بعدة حروب ضد چنگيز خان واونك خان. وقد عرف عن هؤلاء القوم ميلهم إلى الشغب وإثارة الفتن. ولهذا شن عليهم چنگيز خان حربًا شعواء مستعملاً أقسى ما عرف عن المغول من قسوة وشدة. (انظر رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، جلد أول از آغاز پيدايش قبايل مغول تاپايان دورۀ تيمور قاآن، ص ٧١ ‒ ٧٣، بكوشش دكتر بهمن كريمى، تهران ١٣٣٨هـ.ش).

بأرجلهم دقًا عنيفًا إلى حد أن هبط ما حولها بقدر ذراع، وأحدث حفرة عميقة. فأعجب سلطان الإسلام بذلك الكلام إلى أقصى حد، وقال: لو لم يكن لأجدادنا هذه النية والإخلاص، لما صيرهم الله سادة ملوك العالم، ولما بلغت أسرتهم هذه المنازل الرفيعة والدرجات العالية. [ص٣٥٢] ثم مكث ساعة في حالة من الفرح والسرور مصغيًا إلى المطربين.

بعد ذلك سار السلطان غازان عقب الجيوش، وفجأة وصل الرسل من قبل الأمير قتلغ شاه، ومعهم أمراء الشام الذين كانوا قد فروا من هناك، ودخلوا في الطاعة، وعلى رأسهم "علاء الدين"، فشملهم السلطان بعطفه وطيب خاطرهم بالوعود الطيبة. وعند تلك الحدود أيضًا وفد رسل فاسيليوس ملك القسطنطينية يحملون التحف والهدايا، وأبلغوا غازان أن فاسيليوس يريد أن يكون في ظل حماية سلطان الإسلام، وأن يرسل إليه ابنته لتكون محظية له، فشملهم السلطان بعطفه. ومن هناك رحل إلى "بندينجين". وبعد إقامة ثلاثة أيام، أرسل الخواتين والأسر إلى بغداد. وفي يوم الأربعاء الرابع عشر من ربيع الآخر، ركب من بندينجين قاصدًا الصيد في جوقين. كذلك شغل بالصيد عدة أيام في نواحي شيب وواسط ومشهد سيدي أبي الوفاء رحمه الله. ثم ذهب لزيارة المشهد، وخص المجاورين بالصدقات والإنعامات، وأمر بإقامة عمارات على شاطئ النهر الذي كانوا قد أجروه من نهر الفرات إلى تلك الصحراء القاحلة، ولذلك السبب صار ذلك المشهد كأنه مدينة. وبعد ذلك قدم غازان من هناك إلى الحلة، ونزل في المعسكرات. وفي الحلة وصل إلى الحضرة القاضي نصير الدين التبريزي والقاضي كمال الدين الموصلي اللذان كانا قد أرسلهما غازان من أران برسالة إلى مصر[1]، ثم عادا من هناك، ومعهما رسل مصر، فقدموا الرد على الرسائل وكان يجانبه الصواب. كذلك قدم رسل توقتا البالغ عددهم ثلاثمائة فارس.

وفي يوم الأحد غرة جمادى الآخرة الذي كان على رأس السنة التركية أقيمت الولائم والاحتفالات. وفي ذلك اليوم تشرف بلقاء غازان رسل مصر وكذلك توقتا، فخصه برعايته الفائقة. ثم أرسل المصريين [ص٣٥٣] إلى تبريز، وأغلق عليهم أبواب المدينة حتى لا يغادروها.

---

(١) انظر نص الرسالة في كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج٩ ص ٣٣٦ ٣٣٧.

وفى يوم الإثنين التاسع من جمادى الآخرة اجتاز غازان خان جسر الحلة قاصداً ديار الشام. وفى يوم الإثنين السادس عشر من الشهر المذكور زار مشهد أمير المؤمنين الحسين (رضى الله عنه)، وعلّق عليه الستائر الفاخرة التى كان قد أمر بإعدادها للمقام هناك، ومنح المجاورين والحاضرين صدقات لا حصر لها. ومن حاصلات النهر الغازانى الذى كان قد حُفر فى تلك المنطقة، والذى كانت مياهه تجرى إلى "مشهد" عيّن ثلاثة آلاف منّ من الخبز، تقدم يوميًا للسادات المقيمين هناك. وفى ذلك اليوم وصل "أرمنى بلا" من خراسان وأبلغ أن ثلاثة أو أربعة آلاف من المتمردين قد اقتربوا، فداهمهم الجنود المنصورون وأنهكوهم وأفنوهم عن آخرهم؛ فسر السلطان غاية السرور، وزاد حبه وشفقته نحو أخيه[1].

وفى يوم الجمعة الرابع من رجب سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م وصل رسول أبلغ السلطان أن الأمير "نورين آقا" قد توفى فى مشتى أران فى أوائل جمادى الآخرة؛ فحزن سلطان الإسلام بسبب تلك الواقعة. بعد ذلك شرع يجتاز الفرات من شاطئ إلى آخر. فلما بلغ "حديثة"[2] أمر أغلب الخواتين وكل أفراد الأسر بعبور نهر الفرات والذهاب إلى ناحية سنجار، والإقامة هناك. ثم توجه بنفسه على رأس جيشه إلى عانة[3]. وكان برفقته بعض الخواتين الأخريات بقصد توديعه. وفى يوم السبت الثانى عشر من رجب نزل بمدينة عانة. وفى الحقيقة أنه لا يوجد مكان فى العالم أكثر رونقًا وجمالاً من هذا المكان؛ إذ إن المدينة تقع على جزيرة وسط الفرات، وقد أحاطت بها الحدائق والبساتين الزاخرة بالأشجار والرياحين؛ وذلك بعرض فرسخ، بحيث إن ضوء الشمس لا يقع من جوانبها على الأرض. وهناك أنشأوا الجواسق والأبنية العالية المنحوتة من الرخام. وقد شيدوا بناءها من أعماق الأرض، وفتحوا فى جوانبها النوافذ التى تطل على الفرات، والحدائق الشبيهة بالجنات.

---

(١) المقصود أخوه اولجايتو، وكان قد عيّن من قبله حاكمًا على خراسان.

(٢) الحديثة موضعان: أحدهما هذه الحديثة التى هى من بلاد الجزيرة، وتقع على الفرات تحت عانة، وفوق الأنبار. والثانية حديثة الموصل. والحديثة بلد على بعد فراسخ من الأنبار فى وسط الفرات، والماء محيط بها، ويقال لها حديثة النورة (تقويم البلدان، ص٢٨٧).

(٣) عانة: بلدة صغيرة على جزيرة فى وسط الفرات. وهى على مقربة من الحديثة. وتشتهر بخمرها الذى يتردد صداه فى الأشعار (تقويم البلدان، ص٢٨٧).

[ص٣٥٤] وهكذا فإن بهجة تلك البساتين ونضرتها ومزارع النخيل لمما يفوق حد الوصف. وعلى هذا النمط الذى ذكر، تمتد عمارات توابع الفرات إلى مسافة تسعين فرسخًا ابتداءً من "سكر فلوجه" الواقعة على حدود الأنبار حتى نهاية سروج[١] وحران[٢]. وهذه العمارات يتصل بعضها ببعض على امتداد هذا الطول المذكور، وبعرض فرسخ أو أكثر على شاطئ الفرات؛ بحيث لا تنحسر قطعًا ظلال الأشجار عن أية بقعة. وتظل السدود مغلقة على الدوام، ودواليب السواقى تدور بالمياه على الجانبين ليلاً ونهارًا، والجواسق والأبنية العالية متلاصقة.

وصفوة القول فإن بلوغان خاتون ودعت زوجها غازان خان، ثم عبرت النهر وتوجهت إلى سنجار. أما الرايات السلطانية فقد قصدت مع الجيش المظفر إلى رحبة الشام. وقبل وصول الرايات السلطانية إليها أشيع أن العدو قد ظهر فى أطراف الشام.

ورغم أن الإشاعة كانت كاذبة فإن السلطان أمر باستعراض الجند، وتفقد أحوالهم لتعبئة الجيش وإعداد الأسلحة والدروع.

وفى اليوم الثامن والعشرين من رجب ساروا حتى ظاهر الرحبة. وكان الأهالى هناك قد هيأوا العجلات الحربية، واتخذوا للاستعدادات الأخرى. ولكن غازان لم يعبأ بذلك، وغادر معسكره ليلاً، وصار على مقربة من القلعة. وكان الأمير علم الدين الغنمى وأهل الرحبة قد تحصنوا بالقلعة؛ فأمر سلطان الإسلام فى آخر رجب بأن يذهب الأمراء الكبار وكذلك أصحاب الديوان إلى مكان قريب من القلعة. وهؤلاء هم: سوتاى وسلطان ومؤلف هذا الكتاب: رشيد الدين الطبيب[٣] والخواجه سعد الدين صاحب الديوان ليدعوا الأهالى إلى

---

(١) سروج: مدينة بنواحى حرّان من بلاد الجزيرة، وبينها وبين حرّان مسيرة يوم. وهى كثيرة المياه والبساتين. وبها الرمان المفضل والكمثرى والخوخ والسفرجل. وهى أيضًا على مسافة يوم من البيرة فى جهة الشرق والشمال عنها (تقويم البلدان، ص٢٧٧).

(٢) حَرّان: مدينة مشهورة تعد من ديار مضر. بها تل عليه مصلى للصابئين يعظمونه، وينسب إلى إبراهيم. وهى قليلة الماء والشجر. والجبل منها فى سمت الجنوب والشرق على فرسخين. وتربتها حمراء. وشرب أهلها من قناة تجرى من عيون خارج المدينة ومن الآبار (تقويم البلدان، ص٢٧٧).

(٣) يصر هنا رشيد الدين على تلقيب نفسه بلقب رشيد الطبيب مع أنه كان وزيرًا لغازان خان منذ سنة ٦٩٧هـ يشارك زميله سعد الدين محمد الساوجى فى منصب الوزارة. وليس من الميسور أن نكشف عن العلل والأسباب =

الخضوع والدخول فى الطاعة، فقدموا حسب الأوامر إلى أسفل القلعة [ص٣٥٥] وأشاروا بكتابة منشور بعبارات عربية جاء فيه: "إن سبب مجيئنا هو تصرفات المصريين غير الصائبة التى درجوا عليها منذ مدة. وقد أرسلنا الرسل مرارًا يحملون إليهم المواعظ والنصائح؛ فلم ينتصحوا، وردوا علينا بردود تدل على عدم اكتراث، فحملتُ ذلك على سبيل جهالتهم، وعدم ممارستهم الأمور العظيمة. وحيث إن هذه الأساليب قد جاوزت حدها، زحف جيشنا المظفر بقصد الانتقام. وكان لا مفر من عبور هذه الديار؛ وإلا فليس لنا غرض فى إلحاق الضرر بكم أنتم أيها السوريون فعليكم أيضًا أن تتدبروا هذا الأمر، وأن ترعوا مصالحكم وتحقنوا دماءكم، وتحفظوا أموالكم، وتتقدموا إلينا طائعين منقادين. وحيث إنكم تدركون أن الحق فى جانبنا، كان عليكم ألا تعاندوا، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة".

وهكذا حُرر المنشور بهذه الصورة، وختم بالختم، ثم أرسل إلى داخل القلعة، فأعادوا حامله قائلين: حيث إن عبارات المنشور فى غاية الفصاحة والبلاغة، نطلب مهلة هذه الليلة كى نسبر غور معانيه، ونقدم الرد غدًا نهارًا. وفى اليوم التالى الخميس غرة شعبان، أوفدوا جمال الدين الإسكندرى والشيخ شرف الدين من مريدى سيدى أحمد الكبير يحملان الرد على ذلك المنشور ومضمونه: "إننا مطيعون ومنقادون لأمر سلطان الإسلام"؛ فشملهما غازان خان بعطفه وأعادهما. وفى اليوم التالى نزل حسام الدين لاجين نائب علم الدين الغنمى الذى كان قائد القلعة وأظهر الخضوع والطاعة؛ فوجد العطف والرعاية ثم عاد. وفى اليوم التالى نزل هو وسيف الدين قليج، الابن الأكبر للغنمى[1] والقاضى نجم الدين وطائفة من أعيان الرحبة، وقدموا فروض إتمام الطاعة وتشرفوا بلقاء الحضرة. وقد حررت لهم عهود أمان محكمة باللغة العربية بخصوص اختصاصات الغنمى وأعماله، وما يتعلق بأبنائه ونوابه، وكذلك القاضى وجمهور [ص٣٥٦] أصحاب الأعمال هناك، وتأمين أهل المدينة والقلعة والولاية. وقد زخرت هذه الكتب والعهود بالأختام المباركة، وسلمت لهم.

= التى جعلت رشيد الدين يكتفى بالانتساب إلى مهنته الأولى دون أن يكشف عن شخصيته كوزير مسئول يشترك مع سعد الدين فى إدارة شئون الدولة. (انظر مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذانى، ص ١٢٥ - ١٢٦).

(١) انظر زبدة الفكرة، ج٩ ص٣٥٢.

وفى يوم الثلاثاء السادس من شعبان غادر غازان خان قلعة الرحبة، وجاءت البشرى من ناحية خراسان تنبئ أن جيش قايدو قد انهزم وهلك، وجرح "دوا". وفى هذا الوقت كان الأمير قتلغ شاه وچوپان ومولاى قد عبروا مع جنودهم نهر الفرات إلى الرقة. ثم وصلوا إلى حلب. أما سلطان الإسلام فقد نزل بأعلى "دير بسير" على ضفاف نهر الفرات، وأقام هناك ثلاثة أيام ثم سيّر جميع الأمراء مع جنودهم كى يلحقوا بالأمير قتلغ شاه والآخرين. ولما حل الربيع، وزادت المياه وصار الجو حارًا، عبر غازان الفرات قاصدًا سنجار والموصل فى اليوم الثالث عشر من شعبان. ثم عبر نهر الخابور فى مدينة ماكسين، وشمل برعايته رسولى خراسان: سايغان وقونچى آقتاجى، ثم أذن لهما بالعودة. وكان يسير فى تلك البرية المليئة بأزهار اللعل والأقحوان، وهو يتنزه ويصطاد.

وفى يوم الأحد الخامس والعشرين من شعبان لحق بالخواتين اللائى كن قد أتين لاستقباله فى موضع "چهار طاق" مما يلى سنجار، وأقام يومين أو ثلاثة. وفى غرة رمضان نزل فى المعسكرات فى موضع تلعفر، وفوض السلطان نجم الدين ماردين حكم ديار بكر كلها وديار ربيعة، ولقبه بلقب الملك المنصور. ثم عبر نهر دجلة، ونزل بصحراء كشاف. ولما كانت شكوى أهل الموصل قد بلغت الفلك السابع بسبب ظلم فخر الدين النصرانى، صدر الأمر بأن يقضى عليه السلطان نجم الدين عند مسيره إلى الموصل، فخدعه هذا السلطان متظاهرًا بأنه سوف يجعله نائبًا هناك، ثم قضى عليه بعد عدة أيام.

حكاية

التحام قتلغشاه نويان بجيش مصر ثم رجوعه من هناك، وعودة الرايات السلطانية إلى أوجان

ظل سلطان الإسلام فى كشاف يترقب وصول الأمراء والجنود الذين كانوا بالشام. وهؤلاء عندما بلغوا حمص، شرعوا فى النهب والقتل العام. فلما اقتربوا من دمشق، وسمعوا أن العدو قد اقترب فى صباح السبت غرة رمضان، ركبوا دفعة واحدة، وتقدموا إلى ما يقرب من خمسة فراسخ، واجتازوا المياه والأوحال الكثيرة؛ فأدركوا العدو فى موضع "مرج الصفر"[1]، وتحاربوا. وكان ذلك فى اليوم التالى من رمضان؛ فهزمت ميسرةُ جيشنا ميمنتَهم، وقتل منهم ثلاثة عشر أميرًا من أمرائهم الكبار، من جملتهم حسام الدين "أستاذ الدار". كما قتل جمع غفير. أما الباقون فقد صاروا منهوكين مجروحين، وتقهقروا منهزمين فتعقبهم جمع من أبطالنا، وطاردوهم عدة فراسخ.

أما قتلغ شاه نويان فقد انحرف من القلب إلى الميسرة بقصد المدد. عندئذ بقيت الميمنة منعزلة وحيدة، فهزمتها ميسرة المصريين، وتقهقر الجنود لأنهم كانوا قليلين. وعندما عاد الأمير قتلغ شاه إلى الميسرة كان الجنود قد فرغوا من الحرب. فلما دخل الليل، اعتلى الأمير ربوة، ووقف عليها، فاتجه جنودنا نحوه. وقد بات الجميع تلك الليلة حتى الصباح على ظهور جيادهم، واشتد الظمأ بالناس والدواب. وقد طوق المصريون تلك الربوة. فلما حل الصباح قاتلهم جند الأمير بولادقيا وأتباع تكاتيمور ابن الأمير انجيل، وأتباع ناصر الدين يحيى وكانوا يقفون فى مواجهتهم. كذلك قال الأمير قتلغ شاه لتيتاق وترسا: أنتما لم تقاتلا

(١) انظر المزيد من التفصيلات عن هذه الواقعة الحاسمة التى تم فيها النصر المبين للمصريين والسوريين فى المصادر والمراجع الآتية: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، ج٩ ص٣٥٥ وما بعدها؛ أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر، ح٩ تحقيق هانس روبرت رويمر، ص٨٢ وما بعدها؛ رحلة ابن بطوطة، ص٥٣٩، دار صادر، بيروت ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م؛ المقريزى: السلوك، ج١ ق٣، ص ٩٣٧؛ الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين، ص ٢٩٦ وما بعدها).

بالأمس، فاذهبا اليوم لنجدة زملائكما. فتقدم الاثنان نحوهم متماسكين متضامنين واشتركا فى الحرب، فتخلى السوريون والمصريون عن المنطقة المحيطة بالربوة وتوجهوا إلى جنود المغول دفعة واحدة. ولما كان هؤلاء قد اختل نظامهم منذ اليوم السابق، وانفصل الآلاف منهم عن بعضهم، وتشتتت أفواجهم، ولم يتيسر ضبطهم وتنظيمهم، وقفوا عاجزين حتى صلاة الظهر، ثم عادوا بعد ذلك. وفى الطريق كان الماء والوحل كثيرَيْن إلى أقصى حد فبقى كثير من الخيول فى الوحل وتفرق الجند، واختفى تايتاق وترسا.

وفى التاسع عشر من رمضان، مثل أمام حضرة سلطان الإسلام الأمير قتلغ شاه وتكاتيمور فى صحراء كشاف. وفى اليوم التالى تحركت الرايات السلطانية، ونزلت فى الحديقة بظاهر أربيل، ثم ارتحلت من هناك، وخرجت إلى طريق دربند زنگى. وبعد ذلك غادرت المنطقة الجبلية للأكراد. وقد احتفل الحاضرون بعيد الفطر فى ضواحى دربند زنگى. وفى يوم السبت السابع عشر من شوال كان الأمير چوپان قد توقف بسبب الجنود الذين ظلوا مترجلين بدون جياد، فتعهدهم بالرعاية، وواساهم، وكان يسير بهم على مهل من طريق بغداد حتى وصل إلى الحضرة حيث حظى بالرعاية التامة. ولما بلغوا موضع "پل سرخ" فى منطقة مراغه، سيّر السلطان الخواتين والأسر إلى أوجان عن طريق "سه گنبد" و"يوز آغاج"، وذهب هو نفسه بمفرده إلى جبل سهند حيث مارس الصيد أسبوعًا. وفى يوم الخميس العاشر من ذى القعدة سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م نزل بمدينة الإسلام أوجان.

حكاية
محاكمة الأمراء والجنود الذين كانوا قد عادوا من الشام، ثم عَقْد مجلس الشورى بموضع أوجان، وتشرف الأمراء بلقاء غازان

بعد أن وصلت الرايات السلطانية إلى مدينة الإسلام أوجان شرعوا فى التحقيق مع الأمراء والجنود، وكان ذلك فى اليوم الثانى لوصولهم الموافق الثانى عشر من ذى القعدة. ومع أن المحققين كانوا يسألون المتهمين أسئلة دقيقة، فإن سلطان الإسلام كان يستدرك عليهم عدة ملاحظات تتسم بالفطنة، وذلك عندما كان يعرض عليه سجل الاتهام؛ فكان المحققون يستجوبون المتهمين مرة أخرى مراعين تلك الملاحظات الدقيقة.

وعاقبة الأمر فإن التحقيقات قد انتهت فى غرة ذى الحجة وأعدم آغوتاى ترخان بن چيبك ترخان، وطوغان تيمور من قبيلة منكقوت، وطبقت قواعد "الياسا الكبرى"[1] فى كل الشئون الحربية. وفى يوم الخميس الثانى من ذى الحجة شرعوا فى الاحتفال بعقد القوريلتاى وتشرف الأمراء بلقاء الحضرة.

(1) المقصود الياسا التى وضعها چنگيز خان، وذلك مقصور على النواحى الحربية لأن غازان خان بعد أن اعتنق الإسلام، وأعلن الإسلام دينًا رسميًا، وضع نظمًا وقواعد جديدة وفقًا لأحكام الشريعة الإسلامية، وذلك بدلاً من أحكام الياسا الجائرة.

حكاية

إصابة سلطان الإسلام بالرمد، ووصول الأمراء من خراسان ثم توجه الرايات السلطانية إلى بغداد، والنزول فى هولان موران

فى يوم الخميس الخامس والعشرين من المحرم سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وصلت الرايات السلطانية إلى دار الملك تبريز، ونزلت فى القلعة. ثم أشار السلطان بإعداد الجيش والسلاح. ولكن أصابه الرمد بعد عدة أيام؛ فاشتغل الأطباء والحكماء بمعالجته ومداواته. ولقد طالت مدة المرض، فضاق وقت العزم على الرحيل إلى المشتى. **[ص٣٦٠]**.

وفى يوم الإثنين الرابع من صفر وصلت من خراسان الخاتون المعظمة "ايلتوزميش" مع الأميرين بسطام وأبى يزيد، فابتهج سلطان الإسلام، وسر كثيرًا بوصولهم، ورشح ابنته أولجاى خاتون للزواج من الأمير بسطام، وكان يجلسهما دائمًا إلى جواره ويرعاهما ويتودد إليهما.

وفى أواخر أيام مقامه فى تبريز فى يوم الأحد السابع من ربيع الأول، كوى موضعين فى جسده المبارك، عملاً برأى أطباء الخطا. وفى يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول عزم على مغادرة مدينة تبريز. ولما كانوا قد أحضروا الفيلة إلى الحضرة من الهند، أمر بأن يضعوا عرشًا على ظهر الفيل حسب القاعدة المتبعة، وامتطاه أول خروجه من المدينة، وساقه حتى الميدان. ومن الضحى إلى العصر صار مشتغلاً بمشاهدة الفيلة وقيادتها. وكان أهالى المدينة رجالهم ونساؤهم محتشدين لمشاهدة هذا المنظر، وهم يدعون مخلصين للسلطان. وكان قد نزل فى تلك الليلة فى حديقة تبريز. ثم غادر المدينة فى اليوم التالى عن طريق أوجان. ولما كانت بطنه قد تضررت بسبب الكى، واعتراه الضعف، لم يستطع أن يتماسك على صهوة جواده؛ فكان يجلس فى المحفة أكثر الوقت. ولهذا كانوا يقطعون مرحلة قصيرة فى كل يوم. وفى آخر ربيع الأول عاد الأمير قتلغ شاه من "يوز آغاج" كى يذهب إلى مشتى أران، ويحافظ على تلك الجهات. وفى يوم الاثنين الرابع عشر من ربيع الآخر وصل السلطان إلى حدود سراى جومه گورکان. وكان الجليد قد نزل بغزارة فى سغورلوق

ومنطقة همذان، واشتد البرد إلى أقصى حد. ولم يكن طريق بغداد يسمح بالعبور. ولهذا السبب عدل السلطان عن الذهاب إلى بغداد، ونزل على ضفاف "هولان موران" لأنه يعد أيضًا من جملة المشاتي. والحقيقة أنه موضع جيدًا جدًا لتمضية الشتاء. وكان السكان هناك يجلبون نعمًا كثيرة من مختلف الأرجاء. ثم إن الحطب موجود بكثرة لا حد لها. أما الناس فقد اعتكفوا جميعًا فى بيوتهم، وتفرغوا للقيام بمهام الأمور، وتصريف المصالح.

وقد اتفق أن سلطان الإسلام أراد أن يطعم عشرة مساكين ويكسوهم ككفارة صغيرة. وكان يرغب فى أن يمنحهم تلك الصدقات بيده المباركة؛ فأمر بإحضار عشرة من المساكين وتنفيذًا لأمر غازان أحضر إليه مهتر نجيب الدين فراش – الذى كان من جملة خواصه والمقربين إليه عشرة مساكين، وقدم لهم الطعام بحضور السلطان. ثم أمر بإحضار عشرة أثواب من الخزانة، وأمعن فيها النظر. ثم أعطى ثمانية أشخاص كل واحد منهم ثوبًا وسلم مهتر نجيب الدين الثوبين الباقيين قائلاً له: اخرج وأحضر مسكينين آخرين كى أعطيهما الثوبين الباقيين؛ لأن هذين الاثنين مسيحيان. فقال لهما نجيب الدين: ألم تقولا إنكما مسلمان؟! فأجابا: بلى. لقد قلنا لك هذا بسبب الطمع. ولكن الآن لا يمكن الكذب على سلطان الإسلام؛ إذ إن رأيه المبارك صائب؛ فنحن الاثنان نعتنق الدين المسيحى.

ولا شك أن هذه النكتة دليل واضح على أن غازان كان وليًا من أولياء الحق – عز وعلا رحمه الله رحمة واسعة. والسلام.

حكاية
اعتكاف سلطان الإسلام فى مشتى هولان موران
والكشف عن تآمر ألافرنك وتمرده
والقضاء على جماعة المتآمرين

كان سلطان الإسلام ينوى الاعتكاف فى ذلك المشتى عدة أيام تبلغ الأربعين (چهله) فأمر بإقامة منزل خارج السرادق، وأقام فيه وحده، ولم يسمح لأى مخلوق بأن يدخل عليه سوى أمير الدار (خواجه سرايى) والحارس الخاص (كزيكتانى). وكان يقنع كل يوم بقليل من الطعام.

وفى أثناء ذلك حدثت حالة عجيبة مؤداها أن جمعًا من المشايخ المنافقين فى مقدمتهم "پير يعقوب الباغبانى"، كانوا قد دعوا إلى مدينة تبريز الأمير النجل "ألافرانك" لتوليته الحكم، وذلك بدافع حبهم الجاه والمال، وأرادوا أن يظهروا الكرامات التى ليست فيهم. وخلال تلك الأيام، أرسلوا إلى المعسكر مريدًا اسمه محمود [ص٣٦٢] كى تتحد معه طائفة من المقربين فأفشى ذلك الرجل السر جهلاً منه، وقال: إن شخصًا طوله أربعون ذراعًا وعرضه خمسة أذرع يجىء من جبال "مرند وأيقان" إلى الشيخ يعقوب ليرشده، ويكشف له الأسرار. والآن قد منح الأمير النجل "ألافرنك" السلطنة؛ إذ إنها تئول إليه طوعًا أو كرهًا. وقد وهبه الزهاد هذه المنحة.

فلما بلغ هذا الكلام مسامع الخواجه سعد الدين صاحب الديوان، اعتقل ذلك الشخص وكبله بالأصفاد، وعرض ما حدث على حضرة سلطان الإسلام، فأرسل جابى الأختاچى إلى تبريز لإحضار المفسدين مثيرى الفتنة، فعاد بعد عشرة أيام ومعه كل من پير يعقوب وناصر الدين ايلچى قاآن والشيخ حبيب الذى كان خليفة رشيد البلغارى والسيد كمال الدين. وكان الشيخ رشيد شيخا لصدر الدين الزنجانى، والسيد كمال الدين من ملازميه أيضًا. والعجيب فى الأمر أن سلطان الإسلام عندما رآهم، قال: "إن نفسى تحدثنى أن هؤلاء المتآمرين من أتباع صدر الدين الزنجانى". فلما تحروا الحقيقة، اتضح أن الأمر كان على هذا المنوال. عندئذ قال السلطان: يبدو أن الميت ما زال يثير الفتن. وعلى أثر ذلك صار يتفحص

الأمر بنفسه، وذلك بحضور الأمراء والمقربين إليه. وكانت تلك الطائفة من الجهال يرددون هذا النوع من الكلام العبث. ولما تفحصوا الأمر جيدًا تبين أن معتقدات هؤلاء الأشخاص هى نفس عقائد مزدك وأنهم يقصدون نشر ذلك المذهب بين الناس. فلما ثبتت إدانتهم قال يعقوب: "سوف يحفظنا شيوخنا". فرد عليه سلطان الإسلام قائلاً: "إن شيوخى هم الله والمصطفى والمرتضى. فلننظر من الأقوى؟ أنت أم هم؟! ثم أمر بأن يلقوا به من أعلى الجبل هناك. كذلك قُتِل أصحابه. أما الأمير ألافرنك فقد عفا عنه السلطان. فما كان منه إلا أن صرح بالحقيقة قائلاً: "ما دام السلطان قد شملنى بعطفه ورعايته، فإنى سوف أفصح عن حقيقة ما حدث لقد صحبونى مرتين أو ثلاث مرات إلى الشيخ يعقوب فى تبريز؛ بحجة أننا سوف نذهب لممارسة الصيد **[ص٣٦٣]**. وكان هو ومريدوه يتحدثون عن حالة السماع وغيرها من هذا القبيل من الكرامات، وصاروا يغروننى بالملك. ولكننى بسبب الخوف لم أستطع أن أبوح بذلك، وكنت أخفى هذا السر. كذلك استجوبوا يتميش نائب تايتاق وقتلوه لأنه أقر أيضًا بذنبه. أما آقبوقا بن تايتاق فقد كان له دخل فى هذه المؤامرة، وكان من أخلاط ذلك المعجون خصوصًا وأن ألافرنك قال عنه: إن كل ذلك داخل فى جريمته. ولكن حيث إنه كان شابًا وحدثًا، وأبلى والده بلاء حسنًا فى حرب الشام، ووقع أسيرًا فى يد الأعداء عفا عنه سلطان الإسلام، واكتفى بأن زج به فى السجن. والسلام.

حكاية
الاحتفال بعيد ميلاد الأمير أبى يزيد فى معسكر ايلتوزميش خاتون، وخروج السلطان من الاعتكاف الأربعينى

فى يوم الأحد غرة جمادى الآخرة أقيم احتفال فى معسكر اولتوزميش بمناسبة عيد ميلاد الأمير أبى يزيد جريًا على المعتاد. وقد حضر الحفل سلطان الإسلام وجميع الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء وقدموا مراسم التهنئة والابتهاج، وبالغوا فى الطرب والمتعة. وقد اختص سلطان الإسلام الأمراء والخواتين وأتباعهم بأنواع العطف والرعاية والتكريم.

وبعد ذلك خرج سلطان الإسلام من خلوته، واعتنى بتدبير المملكة، وضبط مصالح السلطنة. وكان مزاجه قد صح، وصار يمضى أوقاته سعيدًا مسرورًا. وكان جمهور أركان الدولة مستبشرين فرحين لكشف مكر وخداع الشيخ وأتباعه.

حكاية
تكريم سلطان الإسلام الخواجه سعد الدين
صاحب الديوان لما أبداه من إخلاص
فى قضية ألافرنك

نظرًا لأن الخواجه سعد الدين صاحب الديوان ألقى القبض فى الحال على رسول پير يعقوب الذى كان قد قدم إلى المعسكر لجذب القلوب إليه، وأرسل إلى كل شخص الرسائل التى تمنيهم بالوعود الحسنة عرض صاحب الديوان على الفور تلك النية المبيتة على حضرة السلطان، فشمله بعطفه، ووثق به إلى أقصى حد، وأيقن أن الاعتماد المطلق عليه فى جميع الشئون إنما كان فى موضعه، وأن صدقه وإخلاصه للحضرة وتفانيه فى الولاء لها وتنقله لأداء واجبه نحوها، إنما هى خدمات على درجة يستحق من أجلها أن يشمله السلطان برعايته كل يوم مائة مرة، ويكون ذلك لائقًا له وجديرًا به، ومن قبيل وضع الشىء فى موضعه. ولهذا أراد السلطان أن يكرم وزيره بطريقة تزيد فى مرتبته ومنزلته وحتى تبلغ حشمته وعظمته درجة أكبر.

ولما كان زمام الأمور حلها وعقدها، وعنان قبض مصالح السلطنة وبسطها قد وضعا فى كف يدٍ ذات كفاءة، وبكيفية لا يتصور المزيد عليها قط، أكرمه السلطان بطريقة لا نظير لها؛ إذ فوض إليه إمرة ألف جندى مغولى، ومنحه الطوق والطبل، وأمر جميع الأمراء بتقديم التهنئة له.

والحقيقة أن تلك الذات الملائكية الصفات، والتى هى مجمع للفضائل النفسانية، ومنبع للكمالات الإنسانية سببُ راحة الناس رفيعهم ووضيعهم وخواصهم وعوامهم، ولازمة لزينة الملك والدولة والإيمان والإسلام. ليمتعه الحق تعالى بالجاه العريض والحشمة المستفيضة. والسلام.

حكاية

وفاة كرمون خاتون، ونقل جثمانها إلى تبريز وذكر بعض الكلمات الحكيمة التى تفوه بها سلطان الإسلام فى أحوال الخلق

فى وقت السحر من يوم الثلاثاء الثانى عشر من جمادى الآخرة سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م توفيت فجأة "كرمون خاتون" ابنة قتلغتيمور بن أباتاى نويان التى كانت زوجة سلطان الإسلام. وكانت وفاتها فى مشتى منطقة "سراى جومه"، ثم نقل جثمانها بمراسيم مهيبة للغاية. ولما كانت فى ريعان الشباب، ولم تتمتع بالدنيا طويلاً، كان وقع موتها شديدًا إلى أقصى حد على سلطان الإسلام، فتألم كثيرًا لحدوث تلك الواقعة. وبعد وفاتها حضر السلطان إلى مخيمها، وبكى كثيرًا، وأمر بأن يعد لها كل ما يجب من الترتيبات والمراسم. وبعد أن تم نقل نعشها، كانت عينه المباركة تدمع كلما تذكرها.

وذات يوم كان جمهور أركان الدولة حاضرين، فسألهم: أى أمر لا يوجد ما هو أشق منه وأصعب؟! فأجاب الأمراء هو أن يقع الإنسان أسيرًا فى يد عدوه، ويصبح ذليلاً لخصمه. وقالت طائفة: إنه الفقر. وقالت مجموعة: إنه الموت. عندئذ قال لهم السلطان: إن أصعب أمر هو أن يولد الإنسان ويجيء إلى الدنيا؛ ذلك أن جملة العناء والبلاء والتعب والشقاء تكمن فى الحياة. ولو لم يكن الوجود ما وجدت أية مشقة.

وليس لإنسان راحة فى الدنيا مطلقًا إلا بالموت. والدليل على ذلك أنه إذا سار شخصان؛ أحدهما يجرى والآخر يمشى الهوينى؛ فأيهما يكون أكثر راحة؟!أجابوا: الذى يمشى الهوينى. عندئذ سألهم: إذا سار أحدهما الهوينى، وجلس الآخر. فأيهما يكون أكثر راحة؟! أجابوا: ذلك الذى يكون جالسًا. فسألهم: إذا جلس أحدهما، ونام الأخر؛ فأيهما يكون أكثر راحة؟! فأجابوا: النائم. فقال لهم: إذن على هذا القياس، وطبقًا للقاعدة الصحيحة [ص٣٦٦] يكون الميت أكثر راحة من النائم، إذ أن فلاح النفوس، والفائدة التامة إنما يكونان فى الخلاص من ضيق الحياة. وليس هناك قيد ولا سجن ولا جحيم ولا عذاب أشد من الجهل وحب الدنيا؛ ذلك أن الدنيا جحيم عباد الله، والآخرة جنتهم.

ومصداق هذا حديث النبى المصطفى عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"(1). وبالقطع فإن الجاهل لا يرغب فى التخلص من سجن الحياة. ومن شدة جهلة يحسب أن الميت يموت بالروح، وأن الحى يحيى بالبدن، وهو لا يدرى أن الحال على خلاف ذلك، إذ إنه يفخر ويتباهى بأنواع الجهل والحماقة، وهو لا يعلم أن الموت حالة مستحبة، وأنه محض العدل. ولو لم يمت الآباء، فكيف كانت تئول إلى الأبناء المناصب والأموال والجاه والأبهة والملك؟! ولو أن موت الآباء صعب ومؤلم، إلا أنه مستحب بسبب دور آخر. وليس هناك فائدة فى طول العمر إلا لشخص ينشد الكمال، وتقبل روحه الارتفاع والارتقاء يومًا بعد يوم.

إذن فالأولى أن يرضى البشر بقسمة الحق، لأنهم إذا عاشوا أكثر من ثمانين عامًا، فإن أعضاءهم تعجز عن العمل، وتختل حواسهم وتتعطل، ويصبحون فى نظر الناس أذلاء محتقرين، وينفر منهم الأقارب والأباعد. وحيث إن الكمال هو ثمرة العمر، فإنه بعد الحصول عليه، يمكن أن يئول إلى نقصان مهمًا يكن العمر. وإذن فليس هناك فائدة من طول العمر وعلى هذا المنوال تفوه غازان خان بكلام دقيق كله محض حكمه.

وفى أواخر شعبان ستة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م رحل من مقر "هولان موران" الذى سماه "اولجايتو" (بوينوق)، وترك الخواتين وأفراد الأسرة فى منطقة قلعة "جوق" التى تبعد مرحلة واحدة عن "سراى جومه"، وتوجه فريق من جنده مع أركان الدولة وأعيان الحضرة إلى ناحية "مراق". أما السلطان غازان فقد قضى بضعة أيام فى الجبال الواقعة على حدود خرقان ومزدقان. ثم نزل بمدينة ساوه. وهناك أقام الصاحب الخواجه سعد الدين حفلاً عامًا **[ص٣٦٧]** دعا إليه سلطان الإسلام وجميع الخواتين والأمراء والأنجال والأمراء، ورحب بهم. وقد وجد من حضرة السلطنة ضروب الإعزاز والتكريم. كذلك فعل الصدر المعظم الخواجه شهاب الدين مباركشاه الذى كان منشئ الممالك، ومن جملة أركان الدولة القاهرة. ولما كان منزله القديم فى ساوه، وكان والده الخواجه شرف الدين سعدان يمثل

---

(1) حديث حسن صحيح ورد فى سنن الترمذى، ج٣ ص ٣٨٤ ٣٨٥ القاهرة بدون تاريخ؛ انظر أيضًا كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، أشرف على طبعه وتصحيحه أحمد القلاش، ج١ ص ٤٩٤ ٤٩٥، حلب بدون تاريخ.

بقية أكابر إيران، وكان لا يزال مقيمًا وحاكمًا هناك أقام هو الآخر حفلاً عامًا، وقدم هدايا مناسبة لحضرة السلطنة، وعموم الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء، وأرسل الهدايا كذلك إلى جمهور الأصحاب. كذلك منح بقية الخدم والحشم كثيرًا من الثياب والدنانير والدراهم.

وبعد ثلاثة أيام سارت الرايات السلطانية، صوب الرى. وكانت صحة غازان المباركة قد تحسنت خلال هذه المدة التى غادر فيها مقره الشتوى؛ بحيث إنه كان يمتطى جواده ويقطع المسافات النائية والطويلة. وكان يتناول كل أنواع الأطعمة. غير أنه بمجرد أن غادر ساوه أصيب بنكسة فى الطريق واعتراه المرض مرة أخرى، وصار ينفر من الطعام. ورغم هذا كان يظهر التجلد على سبيل الإصرار والتحدى. وهكذا ظل يركب جريًا على العادة ويخرج. ثم أقام فى منطقة الرى. ولكن عندما اشتد عليه المرض فى منطقة "خيل بزرگ" من أعمال الرى، أرسل رسولاً إلى أسرته، واستدعى زوجته المعظمة "بولوغان خاتون" على عجل وبسرعة فائقة. وعندما وصلت كان السلطان قد غادر "خيل بزرگ"، وظل هو ومرافقوه يسيرون سيرًا قليلاً كل يوم حتى وصلوا إلى ناحية قزوين. وفى أواخر شهر رمضان عندما وصلت الخاتون، أقام الجميع هناك. ولما دخلت على زوجها السلطان غازان تصادف أن وجدته على تلك الحال، فبكت وبكى الحاضرون، وسكبوا من أعينهم الدموع الحارة.

بعد ذلك استدعى السلطان غازان جميع الأمراء والخواص والمقربين وأركان الدولة وأعيان الحضرة، ونصح كلا منهم نصيحة لائقة ومناسبة لحاله. [ص٣٦٨] ثم جدد البيعة بولاية العهد لأخيه الجليل خلد سلطانه وكان قد أمر بذلك قبل خمس سنوات، وكرره وأكده مرات ومرات فى مجالس مختلفة. وبعد ذلك كتب وصية فى غاية اللطف والتهذيب وحث الأقران بإلحاح على مراعاتها والمحافظة على ما جاء بها من مسائل دقيقة.

ولما فرغ من وصيته، كان يؤثر الخلوة فى أكثر الأوقات. ورغم أن وطأة المرض قد اشتدت عليه تمامًا، كان يبدو متماسكًا، وكأنه فى تمام قوته. كذلك كان دائمًا مرهف الحواس فصيح اللسان.

ولكن لما كانت أيام عمره قد آذنت بالانتهاء بموجب قوله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾(١) انتقلت روحه الطاهرة من دار الغرور إلى دار السرور

(١) وردت هذه الآية فى سورة الأعراف، آية ٣٤. ووردت أيضًا فى سورة النحل، آية ٦١.

وقت غروب شمس يوم الأحد الحادى عشر من شوال سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، فحلت بالعالم الطامة الكبرى بسبب تلك الواقعة العظمى، ولبست الأفلاك لباس الحداد الزرقاء، وبكت بمائة ألف عين، وجرت أنهار الدم من أعين سكان الربع المسكون على مثال النيل وجيحون. وبعد إقامة مراسم الغسل والتكفين حملوا جثمانه الشريف على مراكب خاصة وتبعه الأمراء والخواتين، وكان الرجال والنساء يخرجون من المدن والقرى حاسرى الرؤوس، حفاة الأقدام. وقد لبسوا الثياب البالية. وكانوا يهيلون التراب على رءوسهم وهم يبكون وينوحون.

(شعر فارسى فى الأصل ترجمته:)

علـى نعـش ذلك الملك العـادل التقـى

انـتـحـب الـــزمــان، وبـكـت الأرض

وكان كل شخص يقول: وا أسفاه وا أسفاه

لقد غابت شمس الدنيا وراء السحاب.

وفى كل المدن ببلاد إيران، ألبسوا المآذن ملابس الحداد، واندفعوا إلى الشوارع والميادين كبيرهم وصغيرهم، رجالهم ونساؤهم بثياب ممزقة وبالية، وأقاموا مآتم التعزية سبعة أيام. ولما أوصلوا جثمانه الشريف على بعد مرحلة واحدة من دار الملك **[ص٣٦٩]** تبريز، خرج أهل المدينة برمتهم: رجالهم ونساؤهم كبيرهم وصغيرهم. ولعجزهم وفقرهم لبسوا ملابس الحداد الزرقاء.

(بيت من الشعر الفارسى فى الأصل ترجمته:)

هـــام الجميـع على وجوههـم فى الصحـراء

ضاربين صدورهم بالأحجار بسبب جزعهم وقلقهم

وكان الجنود والحشم والرعية والخدم يطوفون حول الجثمان الشريف باكين منتحبين إلى أن أوصلوه إلى موضع ثم حيث القبة التى أنشأها وأحدثها، ودفنوه هناك. ﴿كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾[1].

(١) الآية بأكملها: ﴿ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾. (سورة القصص، آية٨٨).

أغرق الحق تعالى ذلك السلطان السعيد فى بحر رحمته الذى لا ساحل له، وجعل سلطان سلاطين الإسلام السلطان أولجايتو وارث أعماره، وأبلغه منتهى آماله. إنه وليّ الإجابة. وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم.



القسم الثالث
من تاريخ سلطان الإسلام غازان خان
خلد سلطانه ودام عدله

فى أخلاقه الكريمة وسيره الحميدة، وآثار عدله وإحسانه وخيراته ومبراته، وفنون آدابه وجميل عاداته، وكلماته التى تفوه بها فى كل مناسبة على وجه التحقيق، وعلى سبيل التدقيق، وحِكَمه المحكمة وأوامره المبرمة المشتملة على رعاية مصالح كافة الخلائق، والتى قام بتنفيذها فى كل شأن من الشئون، وكذلك نوادر الحكايات والأحوال مما لم يدخل فى القسمين السابقين. وهما موضوعان:

بُوِّب أحدهما، ويتضمن أربعين حكاية، والآخر ما يسجله القلم متفرقًا حسب القضايا والحوادث المختلفة.

وبموجب هذا الفهرست نذكر بالتفصيل ما هو مبوب، وهو عبارة عن أربعين حكاية فى غاية الجودة، وبيانها كالآتى:

الأولى فى فنون كمالات وعلوم سلطان الإسلام خلد ملكه ومعرفته الصناعات والحرف المختلفة.

[ص٣٧٠]الثانية فى عصمة وطهارة سلطان الإسلام خلد سلطانه من الخصال المرذولة.

الثالثة فى فصاحته وبلاغته وحسن سؤاله وجوابه، واتباعه هذا السلوك مع البعيد والقريب والترك والتازيك.

الرابعة فى صبره وثباته وصدق عهده وميثاقه.

الخامسة فى أنه فى أكثر الأوقات كان يتحرى صدق كل كلام يجرى على لسانه المبارك.

السادسة فى بذله وعطائه ولطفه وسخائه على وجه مستحسن.

السابعة فى إبطال عبادة الأصنام، وتخريب معابد الوثنيين تخريبًا تامًا.

الثامنة   في حبة لأسرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وإعزازه للسادات العظام.
التاسعة   في سخائه، وإعداد الجند لخوض المعارك وجلده في الحروب.
العاشرة   في إسدائه النصح إلى القضاة والمشايخ والزهاد وأهل العلم والتقوى.
الحادية عشرة   في منعه طائفة الجنود وغيرهم من التفوه بكلمات الكفر.
الثانية عشرة   في ميله إلى العمران، وحث الناس على ذلك.
الثالثة عشرة   في أبواب البر بتبريز وهمذان، والنذور التي نذرها في الولايات.
الرابعة عشرة   في القضاء على التزوير والدعاوى الباطلة وخيانة الخونة.
(ص٣٧١) الخامسة عشرة: في إبطال تحرير المستندات غير القانونية، وكذلك الحجج القديمة.
السادسة عشرة   في إبطال الحكر والقضاء على أنواع الكسب غير المشروع.
السابعة عشرة   في المحافظة على الرعايا ورعايتهم، ورفع الظلم والمشقة عنهم.
الثامنة عشرة – في إبطال السخرة، ومنع الرسل الزائدين عن الحاجة في البلاد.
التاسعة عشرة   في القضاء على اللصوص وقطاع الطرق، وحماية الطرق في البلاد من شرهم.
العشرون   في تخليص عيار الذهب والفضة على وجه لم يوجد من قبل على الإطلاق وليس من الممكن أن يكون أفضل منه.
الحادية والعشرون   في إصلاح أوزان الذهب والموازين والمقاييس والمكاييل والقفيز والتغار.
الثانية والعشرون   في تنظيم شئون المراسيم والپايزات التي تمنح للناس.
الثالث والعشرون   في استرداد المراسيم والپايزات المكررة التي كانت في أيدي الناس.
الرابعة والعشرون   في منح الإقطاعات لجند المغول في كل ولاية.
الخامسة والعشرون   في تقرير كيفية إعداد جيش على حدة للخاصة السلطانية.
السادسة والعشرون   في منع التعامل بالربا والمعاملات بالأرباح الفاحشة.
السابعة والعشرون   في منع الزواج بالمهر الغالي غلاء فاحشًا، وتحديده بتسعة عشر دينارًا ونصف.

[ص٣٧٢] الثامنة والعشرون في تشييد الحمامات والمساجد فى القرى والمواضع فى كل البلاد.

التاسعة والعشرون في منع الناس من احتساء الخمر والمسكرات المنكرة الأخرى.

الثلاثون في إعداد أصناف الطعام الخاص والشراب للمخيم المعظم.

الحادية والثلاثون في إعداد أصناف الطعام للخواتين ومخيماتهن.

الثانية والثلاثون في ضبط شئون المصانع، وإعداد مهماتها ورعاية مصالحها.

الثالثة والثلاثون في تدبير شئون المؤسسات ودور السلاح.

الرابعة والثلاثون – فى تنظيم شئون الدواب الخاقانية.

الخامسة والثلاثون في ترتيب شئون حاملى القصور ومتعهدى الفهود.

السادسة والثلاثون في ترتيب شئون العاملين فى كل البلاد.

السابعة والثلاثون في ترتيب الشئون المتعلقة بتعمير الأراضى البور.

الثامنة والثلاثون في تشييد بيوت خاصة بالرسل فى البلاد، وإصدار الأوامر إلى الشحن بمنع الرسل من النزول فى ديار الناس.

التاسعة والثلاثون في منع المكارين والجمّالين وسعاة البريد من إيذاء الناس.

الأربعون في منع إكراه الجوارى على الإقامة فى دور البغاء.

الحكاية الأولى

فى فنون كمالات سلطان الإسلام خلد ملكه وعلومه ومعرفته الصناعات والحرف المختلفة ووقوفه على أسرار تلك الصناعات

لا يخفى على العالمين أن سلطان الإسلام خلد ملكه عندما كان فى سن الطفولة كان جده آباقاخان يربيه عنده ويرعاه ويحافظ عليه. وقد صيّر الكهنة الوثنيين ملازمين له ومعلمين. وعلى هذا النحو رسخت الوثنية فى ذهنه؛ خصوصًا أن هذا المذهب كان عقيدة لآبائه. وكانوا يسيرون وفق تعاليمه.

ومنذ بداية الإسلام، كانت عبادة الأصنام قد زالت نهائيًا من كل الديار؛ إلا أنها عادت إلى الظهور فى عهد المغول وقوى حال طائفة البوذيين، فاستدعوا أصناف الكهنة الوثنيين من بلاد الهند وكشمير والخطا والأويغور وصاروا معززين مكرمين، وأقاموا فى كل موضع معابد للأصنام وصرفوا الأموال الطائلة. وقد ارتفع شأن مذهبهم حتى وصل إلى العيّوق(١). وكان سلطان الإسلام يلازم دائمًا الكهنة فى معابد الأصنام، ويتابع تلك الطريقة، ويومًا بعد يوم كان يزداد ميله إليها فيستحكم اعتقاده فيها.

وبعد أن توفى آباقاخان، أرسله أبوه أرغون خان إلى خراسان للحكم وإمارة الجيش فأقام هناك معابد فخمة للأصنام فى مدينة خبوشان. وفى تلك المعابد كان يمضى أكثر أوقاته فى التحدث مع الكهنة وتناول الطعام والشراب. وهكذا صار له اعتقاد راسخ فى تلك الطريقة الوثنية كما كان حرصه على عبادة الأصنام يفوق حد الوصف. وقد استمر الحال على هذا الوضع، حتى ذلك الوقت الذى استولى فيه بايدو على الملك، وبادر غازان بالعمل على انتزاعه منه.

---

(١) نجم أحمر مضيء فى طرف المجرة الأيمن، يتلو الثريا لا يتقدمها، ويطلع قبل الجوزاء. (المعجم الوسيط، الجزء الثانى ص٦٣٧).

[ص۳۷٤] ولما كان الحق تعالى قد قدر لغازان أن يتولى الملك والسلطنة، وأن يظهر بمدد التأييد والتوفيق الرباني آثار العدل والإنصاف في العالم، وأن يعيد الصلاح إلى الأعمال التي أصابها الخلل، وأن يعمر البلاد التي آل إليها الخراب، وأن يجعل على يده تقوية الدين الإسلامي، وتسيير أمور الشريعة والأحكام الخاصة بها. بعد أن كان هو نفسه وكذلك أهل العالم غافلين عن كل ذلك. وفجأة في الوقت المعلوم، وبفيض اللطف الإلهي حل نور الهداية بصدره الطاهر؛ فوضع قدمه المباركة في ساحة الإسلام، وتشبث بالحبل المتين للإيمان، فأمر بإبطال شعار الأديان الباطلة.

وكان ظن أكثر الناس أن سبب إسلامه يرجع إلى ترغيب بعض الأمراء والمشايخ وحثهم له على ذلك. ولكن بعد التفحص، علم أن ذلك الظن خطأ؛ لأنه أثناء الخلوة بي أنا العبد الضعيف مؤلف هذا الكتاب قرر أن هناك عدة ذنوب، لا يعفو الله عنها أكبرها أن يسجد شخص لصنم؛ إذ إنه من المؤكد والمقطوع به أن الله لن يغفر ذلك الذنب، وأن المساكين من الناس المبتلين بالجهل هم الذين يسجدون للأصنام، وأنا أيضًا كنت مثلهم. ولكن الحق تعالى وهبني النور والعلم، فنجوت وتطهرت من ذلك الإثم بهداية حضرة الحق تعالى.

وتوضيح هذا الكلام أنه ليس هناك شيء قط يحمل الإنسان إلى الجحيم سوى الجهل؛ بل إن الجهل نفسه هو جحيم لا يمكن الخروج منه. فكيف يستسيغ العقل السجود أمام جماد؟! . إن هذا الإقدام دليل على الجهل المحض. وأمر آخر هو أن أصل الفكرة في عبادة الأصنام أن يكون الإنسان شخصًا كاملاً قضى نحبه. ونحن نعد صورته، ونضعها للذكرى ثم نطلب المدد من همة ذلك العظيم ونلتجئ إلى الصورة ونعبدها ونسجد لها. ونحن في هذا غافلون عن أن هذا الشخص أثناء حياته التي هي خلاصة الإنسان كان متحدًا مع بدنه الأصلي، ولم يطلب مطلقًا، ولم يجز [ص۳۷٥] أن يسجد له أحد حتى يبدو في نفسه تكبر وعجب.

وحيث إن عبادته والسجود له هما لاستمداد الهمة منه والالتجاء إليه، كيف ترضى نفسه عن هذه الجماعة التي تسجد لشيء يشبهه؟! وإذا طمع الساجدون فيما له في نفسه من همة عالية، وإذا تصورنا أن أثرًا لتلك الهمة لا يزال موجودًا فإنه من المؤكد أن تكون همة رديئة وتعسة، وليست همة عالية مبتهجة. وأمر آخر هو أن الإنسان ينبغي أن يعرف

الحقيقة، وأن يدرك أنه ليس للجسد أية أهمية، فينسى أيضًا حبه له، ويعلم أن ما يفارق البدن إنما هو خلاصته، وأن يفكر في ماهية ما يفارقه ويتساءل: أى شيء هو؟.. وأين يذهب؟! . وكيف يكون باقيًا وثابتًا حتى يتصور ذلك الشيء، وذلك الموضع وتلك الحالات. ثم يتتبع ذلك إلى أن يدركه. وإذا ما اعتقد في الصورة التى صنعت على هيئة البدن، وسجد أمامها، فإنه يعجز عن إدراك هذه الفكرة، وهذا الطلب الذى هو خلاصة الجنة بعينها. وعكس ذلك هو محض جهنم والدرك الأسفل منها.

ولو يفكر المرء في أن الصنم يصلح لصنع عتبة يطؤها الناس بأقدامهم في ذهابهم وإيابهم؛ حتى تظن تلك النفس أن ذلك شبه بدنها، فيكون الإنسان راضيا عنهما؛ إذ إنه يتصور قائلا لنفسه: إننى ما دمت حيا في الدنيا صرت كاملا بالتواضع. وبعد الممات يكون أيضا لشبه البدن نفس الحالة. وأمر آخر هو أنه يفكر في أن النفس التى لها ذلك الكمال، قد صار بدنها ترابا شبيها ببدنه، وجديرا أيضا بأن يكون عتبة تطؤها الأقدام. ونحن الذين نعتقد الكمال نتساءل: أية قيمة تكون لبدننا؟!

وبناء على هذا تنقطع علاقة الناس بالبدن انقطاعا تاما، فيتجهون **[ص٣٧٦]** إلى التفكير في الآخرة، ومنازل الأطهار وأحوال الأرواح المقدسة. وعليهم أن يلاحظوا دائما تلك الحالات حتى ينالوا شيئا مما هو حق، وأن تكون لهم فائدة من مجيئهم إلى الدنيا ويبلغوا الكمال؛ إذ إن الغرض من وجود الخلق هو أن يتوجهوا من عالم الظلام إلى عالم النور.

ولما شرح السلطان هذه الحقائق وفق هذا الترتيب بعبارات جيدة ومعان دقيقة، ظهر بوضوح تام نور باطنه وصدقه وصفائه. وبعد ذلك صار يسوق دائما حكايات من هذا القبيل، ويذكر كلاما عميقا في باب العرفان والتحقيق مما لم يسمع مثله قط من حكيم وعارف.

ولما تربع على عرش السلطنة عامين أو ثلاثة، كان يزيد يوما بعد يوم في تقوية دين الإسلام، وراح في صدق وإخلاص يهتم اهتماما تاما بشئون هذا الدين.

وقد ثبت وتحقق لجميع الناس أن سبب إسلامه لم يكن بتأثير بعض الأمراء والمشايخ، بل كان بهدى من الله، إذ إنه من المجرب أن المسلمين إذا أجبروا أقل الناس شأنا على أن يكون ملكا أو حاكما عليهم، فإنه حسب ميله هو نفسه يدين بعقيدتهم. فإذا وجد الفرصة سانحة

فى تلك الولاية أو فى ولاية أخرى فإنه يرجع إلى عقيدته الأولى. وإذن فأية حاجة تضطر مثل هذا السلطان الرفيع القدر، الباطش القوى إلى الالتفات إلى كلام شخص من الأشخاص فى مثل هذا الأمر الخطير، فيتحول عن مذهبه أو يختار دينًا آخر مكرهًا؛ لا سيما وأن آباءه قد استولوا على كل ممالك العالم فى زمن كفرهم؟!

وبناء على هذه المقدمات علم أن أجره يكون فى هذا الأمر مثل أجر إبراهيم الخليل صلوات الله عليه؛ فقد أدرك منذ البداية - بفضل نور الهداية الربانية - ضلال عبادة الأوثان، فحطم صنمه، وعرف الله بإيمانه الوجدانى. كذلك كان إسلام السلطان على هذا المنوال. ورغم عظمة الملك وجبروته، فإنه عندما تحول عن عبادة الأصنام، واعتنق دين الإسلام، حطم كل الأصنام التى كانت فى بلاد إيران، وخرب تخريبا تاما كل بيوت الأوثان وجملة المعابد غير الشرعية [ص٣٧٧]، وأدخل فى الإسلام جميع عابدى الأصنام والكفار الذين كانوا يزيدون على عدد الرمال، بحيث إنه لم يضطر إلى قتل أى مخلوق. ولا بد أن هذا يكون له زيادة فى الأجر.

هذه المعانى التى سبق ذكرها إنما هى دلائل واضحة على كمال علمه ومعرفته وحكمته. وهناك دليل آخر هو أن الشباب عندما يشغلون بالطرب واللهو واحتساء الشراب، يخضعون لأهوائهم ويستغرقون فى الكلام العبث وأنواع اللهو. أما سلطان الإسلام فإنه عندما كان يصير مبتهجا قليلا، يستغرق فى تفحص أحاديث أهل الحكمة وتحقيق الحكايات والمباحث الدقيقة العميقة مما لا يدركه فهم كل حكيم وعالم. وكان يحب صحبة جماعة الحكماء والعقلاء الممتازين. وإذا رأى من يتصف بالحكمة، وله عقل وتمييز وأدب ولكن لا قدرة له على احتمال هذا العبء، فإن السلطان لا يعجب به. وكل من يتصل به يعرف قدره فى الحال. ولا يوجد مجال لأى محتال ومزور لأن يتحدث فى حضرته بكلام فيه خداع ورياء. وإذا تكلم فلن يستطيع القول أكثر من مرة، لأنه يعرفه. ومن ثم فإنه لا يسمح له بمعاودة الكرة. وإذا قابل حكيما ثرثارا أبله، فإنه يسبر غوره فى الحال. ونحن هنا نورد حكاية لتوضيح هذا المعنى.

كان هناك شخص فى خراسان، قدم من تركستان اسمه "هبة الله"[1]، وكان حسن الخلق، لطيف المحضر، قد أخذ من كل علم نصيبا وكان يعرف اللغتين السريانية والتركية

---

(١) انظر تفصيلات عن هذا الرجل فى كتاب رجال حبيب السير، گرد آورده‌ٔ عبد الحسين نوائى، ص ٢٣ ٢٤ طهران، تيرماه ١٣٢٤هـ.ش).

ويحفظ أمثالاً كثيرة. وكان يقول كلامًا حسنًا على طريقة المشايخ. وكان السلطان والأمراء يثقون بكلامه. وقد ظل مدة يلازم حضرة السلطان خلد ملكه ولما تربع على سرير الملك باليمن والبركة، أرسل إليه رسولاً يستدعيه، وأعزه وقربه إليه، ومنحه الذهب وأغدق عليه الخلع، وقرر له المرتبات الكافية، وعهد به إلىّ أنا العبد المطيع للدولة، وقال لى: عامله معاملة حسنة، فنفذت ما أشار به السلطان. وكان دائمًا يجيء إلى الحضرة. [ص٣٧٨].

فكان الحديث يتناول كلامًا عميقًا يتعلق بموضوعات الحكمة والعرفان. ومع أنه كان رجلاً مطلعًا، إلا أنه كان هناك تفاوت كبير بين كلامه وكلام سلطان الإسلام – خلد ملكه – وكنت أتعجب وأقول فى نفسى: إذا كان السلطان لا يعلم الفرق بين علمه وعلم هذا الرجل فإن هذا أمر مستبعد. وإذا كان يعلم، فلماذا كمال الاعتقاد فى "هبة الله" هذا؟! .. ولما كان الطعن أيضًا فى حق هذا الرجل أمرًا غير مناسب، وكان السؤال عن هذا الموضوع متعذرًا أيضًا بقيت متحيرًا فى هذا الأمر إلى أن تفوه السلطان ذات يوم بكلام عميق قال فيه: إنه حديث لا يحق لكل شخص أن يخوض فيه؛ فأكثر الناس يعرفون قشوره وظاهره ولا ينفذون إلى معانيه؛ إذ أنه ليس فى وسع كل شخص أن يدخل خزائن الملوك التى هى مفتوحة للخاصة وحدهم. أما الآخرون فيظلون فى الخارج مثل الشيخ هبة الله الذى سبيله هو أن يبقى خارج الخزانة، ويدرك فقط ما يكون ظاهرًا؛ إذ إنه لا يعرف طريق الدخول إلى الخزانة والإحاطة بتفاصيل ما تحتويه. عندئذ تقدمت قائلا: طالما أردت أن أسأل مولاى عن هذا الموضوع؛ لكن الفرصة لم تكن مواتية. والآن قد تحققت أن السلطان يعرف قدر الجميع، لكنه يعزهم كلهم. فقال السلطان: إننى لا أعجب من أنه أو غيره لا يعرف هذه الأسرار؛ غير أننى أسر كثيرا بكل ما يعرفونه، وأريد أن أتذكر كل ما حبانى به الله حين أحاورهم؛ فحجر المسن مع كونه أكثر ليونه ونعومة من السيف إلا أنه يشحذه. وسبب ذلك أن جوهر الفولاذ يزداد بالحجر؛ إذ إن الحدة موجودة فى جوهره ولكنها تزداد بلين حجر المسن.

وفى المحافل والمجامع التى حضرها مختلف أصناف الناس، تعجب الجميع من الأسئلة التى وجهها إلى العلماء والحكماء. ومع أنه كان يتكلم باصطلاحات المغول، وكل شخص لا يدركها بسرعة، لكن لأنه كان يعيد ويكرر ويشرح كان يتبينه البعض، ولا يفهمه أغلبهم. وهكذا كانت طرق حكمته ومعرفته الله على هذا الوجه الذى قررناه. [ص٣٧٩].

وأما عن أحوال المذاهب المختلفة ومعتقدات كل طائفة فإنه كان يعرفها واحدة واحدة على انفراد؛ بحيث إنه عندما يتباحث مع أئمة تلك المذاهب، لا يعرفون الإجابة عن واحد من عشرة أسئلة يوجهها إليهم.

وأما عن اللغات المختلفة، فقد كانت المغولية لغته الأم. كما كان يعرف طرفًا من العربية والفارسية والهندية والكشميرية والتبتية والخطائية والفرنجية وسائر اللغات.

وأما عن السلاطين والملوك المتقدمين والمتأخرين، فقد كان يعلم بالتفصيل آدابهم وعاداتهم ونظمهم، ويقف كذلك على عادات كل منهم فى الحفلات والحروب والأفراح والأتراح والطعام واللباس والمركوب وغير ذلك من الحالات والأشياء. كيف كانت وعلى أى نحو صارت فى هذا الزمان؟! .. ويشرحها لكل طائفة منهم، فيتملكهم الإعجاب.

وأما عن معرفة تواريخ المغول وحكاياتهم التى كانت ذات أهمية قصوى بالنسبة إليهم وكذلك أسماء الآباء والأجداد والأقارب نساءً ورجالاً، وكذلك أمراء المغول قديمًا وحديثًا ممن كانوا فى البلاد أو لا يزالون فيها؛ فقد كان يعرف بالتفصيل شعب نسل كل منهم باستثناء پولاد آقا؛ إذ إنه لا يوجد من أقوام المغول شخص آخر مثله يحيط بهذا التاريخ والجميع يتعلمون منه. وإن تاريخ المغول هذا الذى كتبته، استفدت أكثره من حضرته وبذلك أصبح ميسرًا. ويوجد كثير من أسرار المغول وحكاياتهم يعرفها هو نفسه، ولم تسجل فى هذا التاريخ.

كذلك يعرف السلطان غازان أغلب تواريخ ملوك العجم والأتراك والهند وكشمير والخطا والأقوام الأخرى على اختلاف طبقاتهم ويقول ذلك أمام كل قوم، فيصيرون متحيرين.

وأما شجاعته ووقوفه على نظم الحرب والإعداد لها، فإن ذلك يبلغ غاية الكمال. وسوف نفرد فصلاً على حدة فى هذا الموضوع.

وأما عن الحرف المختلفة، فإنه لا توجد حرفة قط لم يمارسها بيده، وذلك من قبيل الصياغة والحدادة والنجارة والنقش وصب المعادن والخراطة والصناعات الأخرى؛ وذلك على نحو أفضل **[ص٣٨٠]** مما يصنعه جميع الأساتذة المهرة، ولأنه يمارس صنعها بنفسه كان يرشدهم. وكل أستاذ مهندس يريد أن يصنع آلة منقطعة النظير لا يعرفها المهندسون الآخرون، كان يرشده ويعلمه حتى يتعلم.

وأما صنعة الكيمياء التى هى أعقد الصناعات فقد أولع بها، ووقف على طريقتها فى مدة وجيزة. ولما كان يعرف حق المعرفة أن هذا العمل لا يستطيع كل شخص أن يحققه

على الوجه الأكمل، استدعى تلك الطائفة التى تدعى معرفة هذه الصنعة، ولم يفسح لهم المجال كى ينفقوا عليها شيئا على النحو الذى كان مألوفا، وهو أن تصرف لهم أموال كثيرة على تلك الحرفة، وذلك بناء على كلامهم. لكنه أمرهم بصناعة عدة صناعات يعرفونها ويجيدونها وما يلزمها من الآلات والأدوات، وذلك مثل صنعة الميناء وحل الطلق وصهر البلور وعمل الزنجفر، وصهر المواد الصلبة بواسطة تسخينها وتكثيف البخار المنبعث منها وصنع شيء يشبه الذهب والفضة، بالإضافة إلى صناعات أخرى صنعوها أمامه حتى اطلع عليها وعرفها، وقال: إننى لا أريد أن أتعلمها كى أصنع ذهبا وفضة؛ إذ إننى أعلم أن ذلك أمر متعذر لكننى أريد أن أحيط أيضا علما بالصناعات الدقيقة الظريفة وأصنعها كذلك لأن ذلك كمال فى العلم الذى لا يقف عند حد. ولكن ينبغى التقدم والترقى من عمل إلى آخر.

أما علم الطب وطرقه المتبعة عند التازيك والخطا والمغول والهند وكشمير فقد اطلع على كليات كل منها، وعلم وجهة نظر كل طائفة. كما عرف كل الأدوية، ووقف على أكثر خواصها. والأطباء فى هذه البلاد يعرفونها على الأكثر فى دكاكين العطارين. أما هو فقد اكتشف فى الصحراء الأعشاب الطبية عند كل طائفة ووقف عليها. كذلك يعرف **[ص٣٨١]** ما يسمى الآن "پنج دارو" (الأدوية الخمسة)، وذلك من ورقها. وإذا ما تعاطاها، ظهر أنها هى بعينها. وهناك كثير من الأدوية، كانت تنسب إلى بلاد التركستان والخطا والهند، وكان التجار يجلبونها للمتاجرة فيها وبيعها فى هذا البلد بثمن باهظ فاكتشف السلطان غازان وجودها فى هذه البلاد. وبالتجربة وقف بنفسه على خصائصها.

وكان هناك فى الولايات بعض علماء العقاقير المشهورة من الترك والتازيك، فاستدعاهم السلطان، وكان يصطحبهم معه فى أوقات الصيد وغيره فى الجبال والصحارى، وكان يستفسر منهم عن كل ما يريد معرفته حتى وقف على تلك الطريقة؛ بحيث إنه فى هذا الزمان لم يكن هناك بين جميع علماء العقاقير والأطباء شخص مثله يعرف هذه الأوصاف. كذلك أحاط علما بكل ما كان من الأدوية المفردة المعروفة عند أهلها بالترياقية وهى مجربة وعددها أربعة وعشرون دواء مفردا، كان كل منها ترياقا مطلقا. ثم أضاف إليها الترياق الفاروقى، وجرب ذلك الترياق، فظهر نفعه للغاية، وصار اسمه "الترياق الغازانى".

وأما عن علم المعادن، فنظرا لكثرة تفحصه وتباحثه مع علماء ذلك العلم، صار يعرف ما يحويه كل موضع من الجبال والصحارى التى يراها، ثم يحدد المعدن الذى يوجد فى ذلك الوضع. وعندما يتحرى المتخصصون حقيقة ذلك، يكون هو الذى ذكره. كما أنه يعرف طريقة استخراج كل نوع من المعادن وصهرها بواسطة الآلات والأدوات. وقد صنعها كلها وجربها.

وأما التعاويذ، فإنه يعرف منها ما يقرأ لكل آفة.

وأما معرفة خواص أشكال الآدميين والدواب، وما تدل عليه فإنه يقف بالتفصيل على كل ما يتصل بها على نحو ما ذكر فى الكتب.

وأما علم النجوم والهيئة فقد ذهب عدة مرات إلى مرصد مراغة؛ واستفسر باستفاضة عما يشتمل عليه من آلات وعن كيفية تشغيلها. ولهذا استفاد وتعلم، واطلع على تفاصيل تلك الآلات والأجهزة؛ بحيث إنه مال إلى تشييد عمارة لمرصد جديد [ص٣٨٢] حسب ما تراءى له هو نفسه، فأقيم هذا المرصد. كما بنى قبة من تصميمه بقصد تعيين دوران الشمس، وناقش المنجمين فى ذلك، فأجمع هؤلاء قائلين: "علىالرغم من أننا لم نر قط مثل هذه الآلة، فإن ذلك أمر معقول. وفى المرصد المجاور لأبواب البر فى تبريز أقيم بناء على شكل قبة تحوى تلك المعدات على النحو المشاهد.

بهذا كله يكون السلطان قد حصل نصيبا من كل علم يتصور، ولم يمنع الحق تعالى عنه أى كمال، وزينه بالأخلاق الحميدة كما سوف نذكر فى الفصول الأخرى القادمة. ولهذا السبب لم يتطرق إليه العجب بنفسه مطلقا. وهو يصرح بأن خلاصة العلوم علم الإلهيات.

أما الإحاطة بالعلوم والصناعات الأخرى فهى التى يمكن أن يطلق عليه اسم الكمال لأن من لا يعرفونها، يكون ذلك نقصانا فيهم. وقياسا على هذا ينبغى أن يعرف الشخص من كل شىء شيئا حتى لا يكون ناقصا. وإلا فماذا كنت أتحمل هذه المشقات؟!.. " وإلى الآن ما زال غازان خان يشغل نفسه دائما بالتعليم والتعلم.

وهكذا ذكرنا شطرا مما يتعلق بعلوم وآداب سلطان الإسلام غازان خان – خلد ملكه – وأهل هذا العهد واقفون على تلك الحقائق وهم شهود على أن الحال يجرى على هذا المنوال؛ وذلك حتى لا يطعن القراء فى كلامى فيما بعد قائلين: "لقد حدثت مبالغة فيما كتبت".

اللهم امنح غازان فضيلة جديدة كل يوم.

الحكاية الثانية

فى عفة سلطان الإسلام وعصمته

يقرر الذين كانوا قبل هذا مقربين إلى الحضرة أن سلطان الإسلام -- خلد ملكه --لم يقدم على حرام قط. وإذا ما اتفق له النظر إلى أحد، فإنه لم يكن يجيز مطلقا أن يرتكب إثما.

وفى الوقت الذى ظل فيه زمنا طويلا بعيدا عن داره، يقود الجيش ويقوم بالفتوحات [ص٣٨٣] كان القواد كلما حصلوا على البنات الحسناوات نتيجة الغارات، يختارون أكثرهن جمالا ويأتون بهن إلى الحضرة. ومع أن من عادات المغول أن يحتفظن بمثل أولئك الإماء السريات حتى يتفاءلوا بهن، ويكون طريقهم فى الغزو مزدهرا وميسرا، فإن سلطان الإسلام لم يكن يميل إليهن مطلقا، ويقول فى هذا الصدد: كيف ألوث جسدى بهن وكيف أتعرف عليهن فجأة؟ .. وعلى هذا لم يكترث بهن ولم يقبلهن.

بعد ذلك خلال هذه الفترات، وحسب ما اتضح لم تصدر من حضرته محاولة مطلقا هيأت له طريق الزنا واللواط والفسق، ولم ينظر إلى نساء الناس بالخيانة والإثم. وفى كل مرة أثناء فتح الشام، كانت فى دمشق بنات المغول وغيرهن، فلم يلتفت إليهن على الرغم من ابتعاده مدة طويلة عن دياره ونسائه. وقد استطاع أن يحافظ على نفسه ويصابر. كذلك لم تجز نفسه الشريفة مطلقا لشخص آخر أن يجد مجالا لارتكاب اللواط والفسق والفجور. وكان دائما يبالغ فى منع هذه النقائص بإصدار الفرمانات. وقد عاقب وفق قواعد الشرع والياساق عدة أشخاص معينين بسبب ارتكابهم تلك الآثام.

والخلاصة أن طهارة نفس السلطان غازان الشريفة مثل الذهب الإبريز.

فليحفظ الحق تعالى، وليحرس تلك الذات الشريفة من نكبات الزمن، وأن يوجه عين الكمال إلى ساحته المباركة بحق النبى وآله.

الحكاية الثالثة

فى فصاحة سلطان الإسلام وبلاغته وحسن سؤاله وإجابته فى أحاديثه مع البعيد والقريب والترك والتازيك

قبل هذا العهد، كان الأمراء والوزراء يصرفون أكثر المهمات ومصالح الدولة. كما كانوا هم أنفسهم يدبرون شئون الملك. وكان السلطان فارغ البال من تلك الأمور. وكان يمضى أكثر أوقاته منهمكا فى الصيد واللهو. وعلى هذا يمكن إدراك [ص٣٨٤] كيف يكون تدبير الأمراء والوزراء المختلفى الأقوال والأهواء؟!

وفى كل وقت كان يفد رسول من قبل الملوك البعيدين والقريبين، يتفاوض الأمراء معه ويردون عليه. أما سلطان الإسلام غازان خان فقد أصلح كل شئون الملك التى كان الأمراء والوزراء قد ألحقوا بها الضرر مدة سنوات وعرضوا قواعدها للخلل، وذلك بأفكاره الصائبة، وآرائه الثاقبة. وقد أصر على تنفيذ أوامره، ولم يدع سبيلا لأى أمير أو وزير كى يعترض أو يتحدث عن شأن من الشئون، ولم يقم وزنا أو اعتبارا لأى واحد يعرض فكرا أو رأيا، بل يظل الجميع منتظرين ومترقبين إشاراته لتنفيذ ما يأمر به إلى حد أنه لم يترك مجالا لمخلوق قط كى يسأله حتى عن يوم الرحيل. وقد اتخذ بقوة عزيمته طريقة تجعل الجميع من شيب وشبان وعقلاء وجهلاء يراعون رأيه وتدبيره وإشارته.

وفى الحقيقة لم يشق ذلك على أى شخص منهم، لأنهم جميعا شاهدوا أن نفسه هى الأكمل، ورأيه هو الأصوب من كل الوجوه. وكذلك حركاته وسكناته مرتبة إلى أقصى حد؛ فلا جرم أن رأوا أنفسهم لا شيء بالقياس إلى كفاءته.

ورغم حداثة سن السلطان، فإنه يذكر عدة أمثال منتخبة وتواريخ وحكايات لطيفة تجعل المستمعين يقفون حيارى متعجبين. وكلما وصل إليه رسول من إحدى الجهات، كان يجيبه إجابة صائبة دون الرجوع إلى أركان الدولة وأهل الفكر والمشورة. ومن المسلم به أن الملوك العظام يرسلون إلى الملوك الآخرين رسلا فى غاية الذكاء والدهاء بالإضافة إلى أنهم علماء

وفصحاء ومحنكون. وإن طائفة الرسل الذين وفدوا حتى الآن، وكذلك الحكماء والأطباء المشهورون الذين قدموا من الأطراف إلى بلاط غازان قد تعجبوا جميعا من فصاحته وبلاغته وحسن محاورته ومحادثته وكمال أخلاقه. [ص٣٨٥] وكان يتحدث معهم عن أكثر الحكايات والحوادث التى تتعلق ببلادهم، ويشرح بالتفصيل معتقدات كل طائفة تفد إليه. وعن طريق الحكاية يبين رسوم وعادات كل ملك وكل قوم من المتقدمين والمتأخرين؛ فلا غرو أن ذاع صيته وشاع فى كل بلاد الصين والهند الصينية والهند وتركستان وكشمير ودشت القپچاق والأوروس والفرنج ومصر والشام؛ بحيث إن الجميع حسبوا له حسابا تاما فيما يتعلق بهيبته وسياسته وكفايته وكياسته؛ وذلك فى كل الأبواب والأحوال، فشغلوا بمدحه والثناء عليه.

أدام الله تعالى سلطان الإسلام هذا، صفوة خلق الله وأعقل وأكمل أبناء الزمان، وأبقاه حتى الأبد على رأس العالمين بحق حقه. والسلام.

الحكاية الرابعة

فى صبر سلطان الإسلام وثباته
وصدق عهده وميثاقه

نبين الآن عدة ظواهر من الصبر والتحمل والثبات وصدق القول والمحافظة على العهد والميثاق. تلك الصفات التى هى مركزة فى ذات السلطان غازان؛ لأن شرح ذلك كله يؤدى إلى الإطناب فلقد غدر به نوروز مع أنه عبد من عبيد الحضرة، قصد المخيمات واندرج فجأة فى زمرة الأتباع كما هو مذكور فى التاريخ، ولكنه عمد إلى الخيانة عدة مرات. وكان هو السبب فى خراب خراسان، واضطراب الجنود وتشتتهم هناك. ثم انضم إلى جيش "قايدو" واشتغل بتخريب الملك مدة طويلة. ولما شعر بعجزه، أرسل إلى الحضرة يطلب الأمان والميثاق. ثم جاء طائعا مختارا. ورغم كل تلك المساوئ التى لا يستطيع شخص تحملها عفا عنه السلطان وتجاوز عن سيئاته، وفوضه حكم كل البلاد.

ولكن لما كانت لنوروز نفس عجيبة [ص٣٨٦] وبدت على ناصيته علامات الغدر وكان يقول أيضا كلاما غير لائق. ولما كان الأمر كذلك، قال الأمراء مرارا للسلطان: لقد ارتكب نوروز كثيرا من الأعمال المستهجنة، وصدرت عنه أنواع الجرائم، فينبغى القضاء عليه. لكن سلطان الإسلام خلد ملكه لم يرض بذلك وقال: الحق معكم لكننى لا أستطيع أن أنكث عهدى وميثاقى. ومهما كانت تصدر عنه حركات وأفعال سيئة كان السلطان يتحمل ويصبر إلى أن ذهب إلى خراسان وشرع فى إثارة الفتنة وإعلان العصيان وأراد أن يستولى على تلك النواحى بالإضافة إلى شيراز وكرمان. وكانت البلاد على وشك أن تخرب على يديه مرة أخرى. وهكذا كانت تلك التصرفات ظاهرة وواضحة؛ فأشار السلطان بتدارك الموقف. وهنا قال الأمراء: لقد قلنا مرارا إنه يضمر هذه النوايا فى قلبه. فقال غازان: إننى أيضا كنت أعلم ذلك ولكنى أردت أن يكون هو البادئ بالعدوان لا أنا.

كذلك كانت هناك طائفة أخرى من كبار الشخصيات، قتل السلطان بعضهم، وليس هناك داع لذكر أسمائهم بالتفصيل، ولا يكون ذلك مناسبا. وأثناء محاكمتهم قال السلطان

للأمراء: إننى مطلع على قبح سيرتهم وسريرتهم منذ خمس سنوات، وأعلم عنهم كل شىء ولكننى صبرت عليهم. ولقد قال بعضهم مرات عديدة كلاما غير لائق يتسبب فى خراب البلاد. ولو كنت ألتفت وأستمع إلى أنواع الحيل التى يذكرونها، لترتب على ما يقولون تلك الفتن التى لا تنتهى، ولا أريد أن أذكر بعضها، ومنذ فترة وجيزة ذكرتها لهم فى الخلوة. ولقد عرفت لأول وهلة أن أقوالهم التى ذكروها إنما هى محض احتيال وخداع، فاستنكرتها. ولكنهم رغم ذلك لم يستحوا، وظلوا يعيدونها مدة خمس سنوات ويعرضونها بصور مختلفة. والعجيب أنهم كانوا يرون أننى لا أصدقها [ص٣٨٧] ولا أعمل بها. ومع ذلك صاروا يكررونها. وقد أراد هؤلاء الجهال الحمقى أن يستجهلونى ويوقعونى فى حبائلهم. ولما تجاوز الأمر الحد، وظهرت نواياهم، اعترفوا هم أنفسهم. وعندئذ أعلنت ذلك على الملأ فثبت للناس من صورة الأحوال والقضايا أن ما حدث كان على النحو الذى ذكرت. ومنذ مدة كانوا يتفوهون بذلك الكلام ويقولون جميعا متعجبين: كيف استطاع السلطان الصبر على هذه المخالفات؟! . ولقد زاد عجبهم لأنهم ذكروها بنصها، ولكنهم تأكدوا من أن أى مخلوق وشى بالناس فى حضرة السلطان وعمد إلى التزوير والتلبيس، عرفه السلطان فى الحال، واستاء منه، ولكنه بصبره لم يتعجل فى إظهار غضبه، ولم يفطن ذلك الرجل إلى أن السلطان يعلم ذلك ويصبر عليه، ولكنه كان يصر على خطئه، فكانت عاقبته الإعدام.

ولقد كانت تلك الجماعة كثيرين من بينهم قاضى سمنان الذى كان يدعى "القاضى صاين"، وكان أكثر خلق الله شرا. وفى الحقيقة كان أكثر شرا من إبليس. ومن هؤلاء أيضا الصاحب الأصفهانى وعدة أشخاص آخرين ممن لا يستحقون الذكر. ولقد فطن السلطان إلى أفعالهم جميعا. وبعد أن صبر عليهم مدة، أمر بقتل بعضهم بناء على أقوال شهود النفى والإثبات، وطرد بعضهم من خدمته.

وعلى العكس فإن الأشخاص الذين عرفوا طبيعته، وكفوا عن الهذيان وإثارة الفتن وقالوا دائما الكلام المعقول المفيد المعبر عن حقيقة شعورهم، هؤلاء الأشخاص قدرهم حق قدرهم بميزان عقله الكامل، وأثنى عليهم ووثق بهم. ولما كان ضميره المنير مطلعا على أحوالهم،

لم يستمع إلى أقوال الآخرين إذا راحوا يطعنون فى حقهم، ويتهمونهم على سبيل الحسد والعداء. وكان يتأنى، ويطلق يد هؤلاء المخلصين فى الأمور التى كانوا مكلفين بأدائها وذلك حتى تسير تلك الشئون بجودة وإحكام، ولا يتطرق إليها أى خلل. وكان يكرر قوله: ليس هناك فى العالم شىء قط أشرف ولا أنفس من إنسان ثقة مستقيم [ص٣٨٨].

فلا غرو أن يكون الصادقون الثقاة معززين محترمين. ولكن السلطان كان يقضى على كل مفسد وسارق وسيىء العمل. وإذا حلف المطلعون على بواطن الأمور بالأيمان المغلظة أن سلطان الإسلام خلد ملكه لم يقتل أحدا مطلقا إلا ذلك الشخص السيىء الخلق ويلزم القضاء عليه، وأن وجود هؤلاء الأشرار هو عين الضرر للعالمين - كانت أيمانهم صحيحة لا تستلزم الكفارة. ومن المتيقن أنه إذا تقرب إليه مفسد آخر فإنه يأمر بقتله أيضا لأن طبيعة نفسه الشريفة بخصوص المفسدين لها خاصية الزمرد والأفعى. أما من بقى من المفسدين فإنهم تلك الزمرة التى لم يرها ولم يعرفها؛ وإلا فإن نفسه الشريفة كانت كالجوهرى الذى يميز البلور من اليواقيت، فيعرف هؤلاء الأشخاص فى الحال. ومع هذا فإنه لا يتعجل فى أى أمر إلا فى عمل الخير أو ما يوشك على النسيان، ولقد نصح الأمراء والقضاة والوزراء كرات ومرات قائلا: لا تقبلوا على الفور كلام طائفة تشكو حاكما أو موظفا؛ إذ من الممكن أنهم من قبل لم يكونوا قد سددوا ما عليهم من ضرائب، وحملوا مسئوليتهم على غيرهم، فاضطرهم ذلك الحاكم إلى تسديد الضريبة. ومثل هؤلاء الناس لا بد أن يشكوا. وإذا صدقت أقوالهم أيضا، فإن جماعة أخرى يأتون متذرعين بنفس الأسباب. ومن الممكن أن تكون هذه الجماعة من الراغبين فى تولى المناصب ويريدون أن ينتزعوا من المشكو منه وظيفته، كى تفوض إليهم ويمكن أن تجىء جماعة ممن كانوا أعداءه سابقا، أو أنهم تربطهم صداقة بأحد الأشخاص، فيشنعوا على الحاكم. فاحتاطوا لكل هذه الأمور وتحروا أحوال كافة الرعايا ممن يسددون الضرائب، وتأكدوا من أن حاكمهم ظالم أو لا وأنهم يريدونه أو لا؟ حتى تتبين حقيقة أمره [ص٣٨٩]؛ إذ إنه من الممكن أن يكون كلام الكثرة من الناس خاليا من الغرض والهوى. وأن كلام أصحاب الغرض والقلة من الناس ليس له أهمية تذكر، وأن الأشخاص الذين ترضى عنهم الرعية، وتميل طبيعتهم إلى العدل قليلا ما يعثر عليهم. وإن الحاكم الذى يؤخذ عليه عيب أو عيبان، وله فضائل أخرى

كثيرة، لا سيما قلة الطمع وحسن السياسة والصدق والاستقامة مثله لا يمكن عزله من عمله.

وعلى هذا النهج الذى استقر فى خاطر السلطان المبارك، صار يحتاط دائما، ويرشد الأمراء والوزراء أيضا، ولا تفوته – فى أية قضية – قيد شعرة من الكياسة وبعد النظر.

فليمتع الله تعالى سلطان الإسلام هذا بسنوات عديدة من العمر والسلطنة بحق النبى وآله.

الحكاية الخامسة

فى أن كل كلمة تجرى على اللسان المبارك لسلطان الإسلام تكون مطابقة للواقع فى أكثر الأوقات

يقرر المقربون الذين كانوا ملازمين للحضرة منذ عهد طفولة سلطان الإسلام – خلد ملكه – أنه فى كل وقت تحدث فيه عن قضية أو قص حكاية، جاء حديثه مطابقا للواقع. وقد ثبت خلال هذه الأعوام أنه كلما تفوه بكلام على سبيل الجد أو الهزل يتحقق. كأن يقول مثلا: لقد اتفق هذه السنة للشخص الفلانى ما اتفق له فى الأمر الفلانى، أو أن رسولا يصل من أحد الأماكن بهذا الشكل والمنظر، أو أن أسيرا يحضرونه بهذه الهيئة، أو أنه سوف يصل خبر سار. ومع أن مثل هذه الأمور لم تكن بعيدة عن أغلب الملوك ذوى الشأن العظيم الذين وهب لهم الحق تعالى هذا الملك وهذه السعادة، ولكنهم حتى الآن لم يحكوا عن أى ملك ما يحكونه عن سلطان الإسلام، كما أنهم لم يشاهدوا مثل أفعاله التى أثرت عنه.

ولما كان كذلك شديد الولع بكل العلوم، أحاط بعلم الرمل وقراءة الكف وأسنان الخيل وغير ذلك من الدلائل التى يختبرون بها السيىء والحسن على نحو ما جاء فى الكتب. كما أنه تتبع كل أنواع التنخيم التى اصطلح عليها كل قوم، [ص٣٩٠] وكل ولاية، ودرسها جيدا. وكان يصدر أيضا أحكاما بشأنها.

أما النجوم من سيارة وثوابت، والتى هى مشهورة لدى المنجمين، فإنه يعرف أغلبها وهو مطلع على طلوعها وغروبها وخواص كل منها؛ بحيث إنه يثير العجب لدى مستمعيه. كذلك يعرف بدقة خواص الأشكال لكل الحيوانات المستأنسة والوحشية وذلك على تباين أصنافها واختلاف أنواعها، كما أنه يعرف عادة وحركة وسكون وموطن كل منها فى الصيف والشتاء. وكل هذا لا يتأتى إلا بقوة الفراسة. والله أعلم.

الحكاية السادسة

فى بذل سلطان الإسلام وعطائه وجوده وسخائه على الوجه المستحسن القائم على أساس المعرفة

عندما تربع سلطان الإسلام خلد ملكه على سرير السلطنة كانت خزائن آبائه وأجداده خالية من الأموال، والولايات خربة مختلة إلى أقصى حد، وأموال الديوان عرضة للنهب والتلف، وتحصيل الضرائب أمر متعذر. وبسبب سوء تدبير الوزراء والحكام السابقين طمع عمال الولايات فى الأموال؛ فكان يلزم من مرور فترة من الزمن كى يمكن ضبط مصالح البلاد، وضمان وصول المال إلى الخزانة بعد ذلك.

هذا الخلل يتضح فيما يلى:

أولا: الخزائن التى كان هولاكو خان قد أحضرها من بغداد وبلاد الملاحدة والشام والولايات الأخرى، وأودعها قلعتى تله[1] وشاها[2] هذه الخزائن كان الخزنة ينهبونها بالتدريج، وكانوا يبيعون للتجار بالشات[3] الذهب الأحمر والمرصعات. ولما كان كل منهم مطلعا على ما يعلمه الآخر، لم يكن أى منهم يبوح بشىء عنها. وقد اتفق أن تهدم برج من الأبراج المطلة على البحر فبحجة أن البالشات والمرصعات قد سقطت فى البحر، اختلس الخزنة مبالغ أخرى.

---

(١) يكتبها أبو الفداء "تلا"؛ ويذكر أن بحيرة "تلا" هى بحيرة أرمية. والبحيرة المذكورة بين مراغة وبين سلماس غربى مراغة وشرقى سلماس. وفى وسطها جزيرة فيها قلعة تسمى قلعة تلا على جبل منقطع فى هذه الجزيرة. وكان "هلاوون" (هولاكو) قد جعل أمواله فيها لحصانتها. (تقويم البلدان، ص٤٢، تصحيح وطبع رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس ١٨٤٠ مسيحى).

(٢) شاها: قلعة جددها هولاكو، ووضع فيها أمواله مما نهبه من بغداد وأقاليم الخلافة. ثم صارت هذه القلعة مدفنا له. وكانت تعرف بالفارسية گور قلعة، أى "قلعة القبر". (بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية، ص١٩٥، بغداد ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م).

(٣) بالشات جمع بالش. والبالش عبارة عن خمسمائة مثقال من الذهب أو الفضة (انظر كتاب تاريخ جهانگشاى، جلد اول، تحقيق محمد بن عبد الوهاب القزوينى، ص١٧٧، حاشية ٢، ليدن ١٣٢٩هـ/١٩١١م).

ثانيا: السلطان أحمد "تكودار" كان يريد أن يجذب إليه الجند، ويستخلص الملك لنفسه ويحارب أرغون؛ فأعطى الجند جملة ما تبقى. ولم يكن قد بقى هناك شيء أكثر من هذا. وقيل إن ما بقى فى الخزانة لم يكن يبلغ مائة وخمسين تومانا.(ص٣٩١).

ثالثا: ما جمعه أرغون فى "سوغورلوق" من كل نوع وأودعه الخزانة، سرق بعض منه وأتلف بعضه الآخر. وبعد ذلك فإن ما كان أرغون قد حصله فى عهد توليه الحكم وزع وأتلف أيضا. وعندما فكر الأمراء والمقربون فى الغدر به ومخالفته ومحاولة قتله، قسم بعض الأمراء والمقربين محتويات تلك الخزانة فيما بينهم وقال بعضهم: إننا سوف نوزعها على الجند، ولكنهم بددوها. ولم ينل گيخاتو نفسه شيئا منها. وإذا كانت هناك بقية قد توافرت من خزانة أرغون، فإنه قد منحها الناس.

لهذه الأسباب لم يكن قد بقى هناك شيء قط من تلك الأموال السالفة عند جلوس غازان المبارك. ثم إن الجنود الذين كانوا معه عندما قدموا من خراسان، انتهز الأعداء الفرصة، وجاءوا إلى هذا الإقليم ونهبوا ديار الجند وقطعانهم. وكلما حاول سلطان الإسلام خلد ملكه أن يمنح جنوده شيئا، لم يجد فى الخزانة مالا قط. كما أن أموال الولايات لم تكن تصل إلى الخزانة العامة.

ولقد ظل نوروز مدة يدير شئون الملك والمال. وبسبب سلوكه طريقته السابقة، لم يتوافر شيء. وبعد ذلك أخذ شرف الدين السمنانى وصدر الدين يدبران الشئون، فلم يحدث أيضا شيء يذكر. ثم إن القوات الاحتياطية كانت فى حاجة إلى المال. وإذا وفد رسول من الولايات البعيدة والقريبة، وأرادوا منحه خلعة أو عطاء، لم يكن يوجد فى الخزانة ما يليق بمنزلته. كذلك لم يكن الناس يصدقون أن الخزانة خالية إلى هذا الحد فكانوا ينسبون التهاون والإهمال إلى سلطان الإسلام إلى حد أنه كانت تصل الشكاوى من كل شخص بخصوص هذا الموضوع.

وعندما بلغ ذلك سمعه الأشرف كرر قوله على رأس جمع من الأمراء والمقربين: إنكم تظنون عندما يصل عدد الإبل والبغال المحملة بالصناديق، أنها تحمل أموالا إلى الخزانة؛ ولكن الحقيقة هى أنى أحب الصناعة، وأشتغل دائما بقطع أنواع الأخشاب وتصنيعها؛ فكل ما يحمل إلى هنا ليس أكثر من أخشاب، وأصناف الأدوات والآلات الخاصة بكل صنعة.

[ص٣٩٢] بالإضافة إلى بعض قطع من الأسلحة. وهذا لا يخفى عليكم. والخزنة مطلعون على تلك الحقيقة، فكيف أهب الشيء الذى لا وجود له؟! إنه لم تظهر لى خزانة ورثتها عن الآباء، ولم يحضروا لى مالا من الولايات. وعلى هذا جئت على رأس بلد خرب. فعليكم أنتم أن تجمعوا أموال الولايات وأحضروها لى. وعندئذ إذا لم أعطها إياكم، فسوف يكون التقصير من جانبى. ومن هذا الكلام الصريح ثبت للجميع أن الحق بجانب السلطان.

وبعد عامين عندما فرغ من ترتيب شئون المملكة وتدبيرها وأحكم شئون الأطراف والثغور، وقضى على الخوارج والأشخاص الذين كانوا قد دأبوا على إثارة الفتن والعصيان أو أنه عنفهم وزجرهم اشتغل بتدبير شئون الولايات وترتيب الأمور المتعلقة بضبط الأموال وتحصيل الضرائب. وكان يجلس بنفسه كل يوم من الصباح الباكر حتى المساء يصحح بقلمه المبارك المسودات الجديرة بالتسجيل. كذلك أوجد نسقا لأمور البلاد، ووضع لها قانونا، وبين على أى نظام يسير كل عمل.

أما الولايات التى يقطعونها فقد قرر أن تعطى أناسا أقوياء ولا تسترد منهم مدة ثلاث سنوات، وألا يلتفتوا إلى أى شخص وضيع خسيس. وبين سبل تحصيل الأموال، وكيف يكون ذلك. وعين أيضا الأموال التى يجب تحصيلها من كل البلاد. كما عين وجوه الصرف فى كل باب على الوجه الذى سوف يجىء شرحه فى الفصول التالية.

بذلك انتظمت أمور الولايات، وأخذت الأموال تصل إلى الخزانة يوما بعد يوم، وصار الدخل يزداد سنة بعد أخرى. وأما نسيج المصانع الذى لم يكن يسد نفقاته قبل ذلك، ولم يكن الثوب يساوى دانقين من السعر المقرر، فقد وصل الإنتاج كله إلى حد الكمال. ولما حصل السلطان على المال، شغل بالعطاء، وقال للأمراء وأركان الدولة فى هذا الصدد: ليس فى العالم أمر أصعب من بذل المال. وإن جنگيز خان كان يصرح: "ليس هناك عمل أسوأ من إعطاء المال، وأيضا من عدم الإعطاء. ومن المؤكد أن من لا يعطى يكون بخيلا. **[ص٣٩٣]** وأى شيء يكون أسوأ من البخل؟! وأما فى حالة الإعطاء فإنهم إن منحوا أحدا قليلا، وآخر كثيرا، أو أنهم أعطوا أحدا ومنعوا آخر، أو أن الشخص الذى ينبغى أن يسرعوا فى إعطائه أبطأوا فى تنفيذ ذلك، فهذا التصرف يكون على الناس أقسى من الموت ويصيرهم أعداء، وقليل من يستطيع مراعاة هذه الدقائق، ويتاح له هذا التفكير. ولا يتيسر فهم هذا المعنى لكل شخص. والآن يجب علينا أن نراعى هذه القاعدة بقدر المستطاع.

واتفق أن وصلت عدة خزائن أول الأمر. وكان كل منها يحتوى على مائتى تومان أو ثلاثمائة، حولها إلى الأمراء والنواب، وقال: إنى لا أتمسك بما أتوا به، ولن أودعه الخزانة وأشار بأن يضعوا على حدة ما حصلوه من الولايات حتى يقوم الأمراء بتوزيعه. وبعد ذلك بين لهم أى قوم يعطون، وما المبلغ الذى يعطى لكل طائفة. وكان الأمراء يعطون أيضا طبقا لهذه القاعدة.

بعد ذلك فى هذه السنوات الأخيرة صرح قائلا ذات مرة: لقد وزع جماعة من الأمراء الأموال، وإننى أرغب من كل قلبى أن أمنح شيئا بنفسى. وعند انعقاد مجلس الشورى (القوريلتاى) فى أوجان أمر بإقامة مخيم ملكى كبير حيث جمع الخزائن التى أحضروها من أطراف البلاد، وجلس بنفسه مع بعض الأمراء المشهورين، فأعطى مبلغا كبيرا من كانوا أرفع درجة، وهؤلاء الذين أدوا خدمات جليلة. وكذلك من مهدوا الطرق المستحسنة خصص لهم منحا أزيد. وقد عبر عن تلك الزيادة بقوله: على هذا النحو أعطى هذه الجماعة أكثر من غيرهم. والمقصود من هذا أن يجد الآخرون أيضا فى تمهيد الطرق، وتأدية الخدمات الجليلة ويسعون سعيا حثيثا ويجتهدون اجتهادا تاما. وهكذا كان يتكلم على هذا النحو، وهو يمنحهم العطاء.

وبعد ذلك كان يقدم طائفة الآباء الذين لهم أبناء ثم يعطى قواد الميمنة والميسرة على حسب القاعدة المعهودة. كذلك أمر بوضع أنواع الثياب مرتبة صنفا صنفا وبابا بابا. ثم وزن كل أكياس الذهب الإبريز والفضة كلا على حدة، وكتب عليها مقدار ما تحويه واسم الطائفة التى تستحقها، وذلك على حسب استعدادها وأحقيتها. وكان ينادى واحدا فواحدا، **[ص٣٩٤]** ويأمر بتسليم كل منهم نصيبه بحضوره. وظل على هذا النحو يمنح الأموال مدة عشرة أيام أو خمسة عشر يوما؛ فمنح مبلغ ثلاثمائة تومان نقدا ذهبيا وعشرين ألف ثوب وخمسين حزاما مرصعا وثلاثمائة حزام ذهبي ومائة بالش من الذهب الأحمر. وبعد ذلك ظل دائما وعلى التوالى يمنح العطايا من الخزانة من النقود الذهبية، ولم يحول على الولاية مطلقا حوالة يدفع بموجبها لأحد باسم العطاء دانق من الذهب أو قطعة من الثياب. وكل ما طلبه الأمراء والوزراء لم يكن حوالات، وإنما أعطاهم المبالغ نقدا.

على هذا النحو ظل السلطان يعطى، لكنه كان يراعى قدر الشخص ومنصبه وظروف العطاء؛ بحيث لا يعطى القليل من كان أهلا للكثير، ولا يعطى الكثير من ينبغى أن يعطى القليل. ولم تفرغ خزائنه مطلقا من الذهب والثياب. ومهما أعطى الكثير منحه الحق تعالى بركة بسبب عدله وحسن تدبيره. ولم تخل خزائنه قط من الثياب والذهب، ولا يكاد يمضى يوم إلا ويصرف من خزائنه عشرة آلاف وعشرين ألف دينار من الذهب ومائة ومائتين وثلاثمائة ثوب من الثياب الجاهزة. وهكذا يكون السخاء والبذل والعطاء.

بعد ذلك قال بحضور الأمراء وعظماء الدولة: إن أفضل الأعمال التى يؤديها الإنسان هى أن يتخلق بأخلاق الله، لا سيما الملوك. وإن الجود والسخاء هما من صفات الله. لكن جوده وسخاءه لا ينقصان. ولا ينفدان مهما أعطى الكثير، وآثر بهما المستحقين. وإن ما يفعله الإنسان بالنسبة إلى الله تعالى لا يكون إلا كقطرة بالنسبة إلى البحر. لكن التخلق بخلق الله بقدر المستطاع أمر واجب. أما الملوك وجميع الناس، فيجب عليهم أن ينفقوا أموالهم على هذا النحو؛ بحيث يكونون دائما قادرين على ذلك حتى يمكنهم الإنفاق دائما؛ فإنهم إن أنفقوا مالهم فى بضعة أيام دون ضبط أو روية، ثم يكونون بعد ذلك عاجزين عن الإعطاء ولا يستفيدون من مالهم. فما الفائدة التى تعود على الشخص إذا لم يستطع الإنفاق بعد ذلك؛ والأمر الذى لا شك فيه أن من يمنحون أشخاصا معدودين كل ما عندهم ويحرمون الآخرين حرمانا تاما، يكونون مخطئين أيضا، ولا يكون تصرفهم هذا مرضيا لله ولا متفقا مع صفته. [ص٣٩٥].

والملك ينبغى أن يكون مثل الشمس، تصل أشعتها إلى جميع الأشخاص. والإنفاق حق عام للخلائق أجمعين، وخصوصا أولئك المستحقين والمحتاجين، والذين يعملون أعمالا مجيدة. ومن بين هؤلاء أيضا الجنود. فكيف يجوز أن يمنح الملك كل ما عنده عدة أشخاص، ثم يجلس بعد ذلك خالى الوفاض ولا يعطى شخصا آخر شيئا، لأنه عاجز عن العطاء. وإذن فما الذى يعود على الناس من ذلك الشخص؟ وأية لذة وهيبة يمكن أن يستمتع بهما ملك فى تلك الحالة؟!

إن سخاء الملوك وجودهم يجب أن يكونا مثل ماء البئر والعين لا ينضب معينهما مهما أخذ الناس منهما. وهذا الأمر لا يتيسر إلا بتدبير الملك وإقامة العمران وتوخى العدل

وحسن السياسة. ولا بد أيضا من مراعاة الاعتدال فى كل عمل؛ بحيث إن ذلك القدر الذى يعطونه يصل عوضه تباعا وإلا:

بيت من الشعر الفارسى ترجمته:

إنك إذا أخذت من الجبل، ولم تضع شيئا مكان ما أخذت

فإن العاقبة أن يزول الجبل من موضعه نهائيا

وإذا كان لنا ولكم ميل إلى المال والسخاء والعطاء، فإنه ينبغى أن نعدل ونصدق؛ لأن خاصية العدل هى التى تجعلنا نعرف من أين هذا المال. وعندئذ تمتلئ الخزانة. ومهما منحت وأعطيت فإن الخزانة لا ينضب معينها. ومن الأفضل أن نكون قادرين على هذا دائما. وإلا فكيف يصلح ملك يكون قادرا يوما وعاجزا يوما، وثريا وقتا وفقيرا وقتا آخر؟! إن هذا الأمر لا يليق بالملوك. ولو يكون هناك ملك بهذه الصفة فإنه يضطر إلى أن يعيش دائما فى غم وحزن، ويحرم الخلق مواهبه، ويصيرون فى غنى سلطانه.

فينبغى أن نراعى هذه القاعدة، وأن نعمل على أن نعطى كل ما يجىء إلينا من مال، لا أن ندعه يتراكم بعضه فوق بعض، ولا أن نصير أيضا دفعه واحدة خالى الوفاض مفلسين. **[ص٣٩٦]** والمال القليل يجب أن يكون دائما مستمرا؛ لأن خاصية المال هى أنه إذا كان قليلا؛ فإنه سرعان ما ينمو ويأخذ فى الزيادة مثل الصياد إذا لم يكن لديه طائر يضعه على شبكته كى تنجذب إليه الطيور التى من جنسه؛ فإنه لا يستطيع أن يصطاد طائرا قط. أما إذا كان هناك طائر واحد هو كل ثروته، فإنه بواسطته يصطاد عدة آلاف من الطيور فى سنة واحدة.

فأثنى الأمراء وأركان الدولة على كلام سلطان الإسلام ودعوا له، وصاروا جميعا مبتهجين. ومنذ ذلك التاريخ حتى الآن، ويسير السلطان الأمور دائما على هذا النمط.

ولا بد أن الناس يحملون هذا الكلام على سبيل المبالغة ويقولون من الذى رأى الملوك السابقين، ومن وقف على أوضاع خزائنهم حتى يستطيع القيام بهذه المقارنة؟! لكن الشاهد الصادق على هذه الأمور هى سجلات الدخل والخرج لخزائن السابقين، وكلها محفوظة فى دار المحفوظات، ولا يزال قسم منها موجودا حتى الآن. فأى شهادة فى هذه الدنيا تكون أكثر عدلا وصدقا من السجلات والدفاتر التى لم ترها عين، ولم تخطر على بال أحد؟ ولكن عند مطالعتها يتضح صدق هذا المقال أو كذبه.

فليبق الحق تعالى هذا العدل والعطاء والإنعام والإحسان أبد الدهر بمنه وجوده. والسلام.

الحكاية السابعة

فى إبطال الديانة الوثنية، وتخريب معابد الوثنيين وتحطيم كل الأصنام

حينما دخل فى الإسلام سلطان الإسلام غازان خان - خلد سلطانه بالتوفيق والهداية الإلهية كما سبق ذكره أمر بتحطيم كل الأصنام وتخريب كافة معابدها وهدم بيوت النار [ص٣٩٧] والمعابد الأخرى التى لا يجوز وجودها شرعا فى بلاد المسلمين. كذلك أدخلوا أكثر جماعة الكهنة عباد الأصنام فى الإسلام. ولكن لما لم يهب لهم الله تعالى إيمانا قويما، كانوا يتظاهرون مضطرين بالإسلام. هذا على حين أنه تبدو على سيماهم آثار الكفر والضلال. وبعد مدة أدرك سلطان الإسلام خلد ملكه نفاقهم، فقال لهم: كل من يريد منكم أن يرحل إلى بلاد الهند وكشمير والتبت وموطنه الأصلى فليرحل. أما الذين يبقون هنا فعليهم ألا ينافقوا ويظلوا ثابتين على ما فى قلوبهم وضمائرهم، وألا يلوثوا الدين الإسلامى الحنيف بنفاقهم. لكن إذا علمت أنهم يقيمون معابد النار أو بيوت الأصنام فسوف أجعلهم دون محاباة طعمة للسيف. ومع هذا فقد استمر بعضهم فى النفاق واشتغل بعضهم بأفكارهم المستهجنة. كذلك صرح سلطان الإسلام قائلا: إن أبى كان وثنيا، ومات على هذه العقيدة. وقد أقام لنفسه بيتا للأصنام ومعبدا، وأوقف عليهما وقفا باسم تلك الجماعة من عباد الأصنام. وقد خربت ذلك المعبد. فاذهبوا إلى هناك وأقيموا وعيشوا على الصدقات. وقد انتهز الأمراء والخواتين تلك الفرصة، وقالوا: إن أباك قد أقام معبدا ونقش صورته على جدرانه. وحيث إن المعبد صار الآن خرابا، يسقط الثلج والمطر على صور أبيك، وقد كان وثنيا. فإذا عمروا هذا المكان، فإن ذلك يكون مؤديا لاستقرار روح أبيك وحسن سمعته. لكن غازان لم يستحسن هذا الرأى، ولم يعره اهتماما. فأضافوا قائلين: ليجعلوه على هيئة قصر. فلم يرقه ذلك أيضا، وقال: إذا كان فى نيتى تشييد قصر حيث تحفظ صورة أبى؛ فإنه لا يجوز إقامته هناك، لأن هذا المكان كان معبدا وموضعا للوثنيين. وإذا كان من اللازم تشييد هذا القصر، فليشيد فى مكان آخر. وكانت هناك حكايات وقضايا كثيرة من هذا النوع يطول شرحها.

وصفوة القول أنه قال للكهنة [ص٣٩٨] إننى أعلم أنكم لستم على علم. ولكن يجب على الملوك أن يراعوا كافة أصناف الخلق من رعاياهم. ولهذا السبب عليهم أن يحافظوا على الجميع ويرعوهم ويعنوا بهم؛ حتى البهائم التى لا إدراك لها ولا عقل؛ فإن الملوك وأهل الإسلام وكافة الناس يعطفون عليها ويهتمون بها، ويوفرون لها احتياجاتها. وأنتم أيضا تسيرون فى نفس هذا الطريق، وتتمتعون بهذه المزايا. ولكن ينبغى ألا يبدو منكم أدنى أثر حتى ولو بقيد شعرة للوثنية والتعصب والمراءاة. وإلا فسوف أجعلكم طعمة للسيف.

وفى وقتنا هذا فإن الطائفة القليلة منهم التى بقيت فى إيران لا يجدون فرصة مواتية لإظهار عقيدتهم أو مذهبهم، وذلك مثل أقوام المجوس والملاحدة الذين يستوطنون هذه البلاد منذ زمن قديم. لكنهم يخفون معتقداتهم.

أدام الحق تعالى سلطان الإسلام هذا، وأبقاه بمنه ولطفه وكرمه.

الحكاية الثامنة

فى محبة سلطان الإسلام لآل الرسول عليه السلام

رأى سلطان الإسلام خلد ملكه فى المنام مرتين جمال سيد الكائنات عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات. وقد أيده الرسول عليه الصلاة والسلام، وقوى عزيمته بالوعود الطيبة، ودارت بينهما محاورات طويلة. وكان أمير المؤمنين على والحسن والحسين رضى الله عنهم بصحبة النبى صلوات الله عليه، فعرفهم به قائلا: يجب أن تكونوا [ص٣٩٩] إخوة. ثم أمر سلطان الإسلام بمعانقتهم؛ فقبل الجانبان هذه الأخوة. ومنذ ذلك الوقت تيسرت لسلطان الإسلام انتصارات وفتوحات؛ كان أعظمها هذه الخيرات كلها، وضبط الأمور وترتيبها، وتوخى العدل وحسن السياسة تلك المبادئ التى أذاعها فى العالم؛ فتهيأ له التوفيق فى الحصول على السمعة الطيبة، وحصل لنفسه ذخيرة من دعوات الخلق العديدة له بالخير. فأية سعادة يمكن أن تكون أعظم من هذه؟!

ومنذ ذلك التاريخ ازداد حبه لأهل بيت النبوة رضى الله عنهم، وصار يمد الحجاج دائما بإعاناته، ويزور قبور أسرة الرسول، وينذر النذور ويرسلها إلى مستحقيها، ويعز السادات ويأمر لهم بالصدقات والإدرارات.

ولما كان يقيم فى كل موضع الخوانق والمدارس والمساجد وأبواب البر الأخرى ويخصص لها الأوقاف، ويقرر الوظائف والمرتبات لكل طائفة، قال: كيف يكون للفقهاء والمتصوفة والطوائف الأخرى أوقاف خاصة بهم، ولا يكون ذلك أيضا للسادات؟! إنه لواجب أن يكون ذلك للعلويين كذلك. وأمر بإقامة دور السيادة فى تبريز، وفى أمهات المدن الأخرى فى كل البلاد الهامة مثل أصفهان وشيراز وبغداد وأمثالها كى ينزل فيها السادات. كما عين لهم مرتبات ينفقونها فى أداء مصالحهم على النحو الذى رآه محققا لهذا الغرض، وحسب ما نصت عليه حجج الأوقاف؛ وذلك حتى يكون لهؤلاء أيضا نصيب من خيراته. وكان دائما يصرح بقوله: لست منكرا أى شخص، وإنى لمعترف بعظمة الصحابة. ولكن بعد أن رأيت الرسول عليه الصلاة والسلام [ص٤٠٠] وقد آخى بينى وبين أبنائه، ومنحنى صداقتهم. لا بد أن أزيد فى حبى لأهل البيت، وإلا فمعاذ الله أن أنكر الصحابة. كذلك أمر بحفر نهر لإيصال الماء إلى مشهد الحسين عليه السلام، كما يجيء شرح ذلك. وكان دائما يأمر بمدح أسرة الرسول صلى الله عليه وسلم دون تعصب لأنه بحمد الله ومنه حكيم وكامل.

فليبق الحق تعالى هذا السلطان العادل الكامل بين العالمين سنوات لا نهاية لها.

الحكاية التاسعة

فى شجاعة سلطان الإسلام، وإعداد الجند للحرب وجلده فى خوض المعارك

كان سلطان الإسلام خلد ملكه يعيش منذ عهد الطفولة فى ثغر خراسان الذى كان يعد أخطر الثغور وأعظمها شأنا. ومن قديم العهد حتى الآن كانت الجيوش الأجنبية تزحف إلى تلك المنطقة. فكان لا بد من اتخاذ الحيطة والحذر، فلا تكاد تمر سنة دون أن يسير غازان بقواته الاحتياطية. ولهذا حارب الأعداء كرات ومرات واشتبك معهم فى حروب طاحنة، وتحمل كثيرا من المتاعب والمشقات ووقف وقوفا تاما على دقائق تلك الأمور، ومهر فى معالجتها إلى أقصى حد، وقوى قلبه إلى حد أنه لم يشعر بخوف من الأحداث الخطيرة، ولم يتطرق التردد إلى خاطره المبارك. ورغم أنه يعلم أن الموقف صعب والعدو قوى كان يظهر المصابرة والتجلد، ولا يدع أثرا يبدو عليه من التفكير فى هذه الأمور، وكان يصرح بقوله: لم يتأت من الخوف أية فائدة بل تكون نتيجته العجز عن التدبير، فيقوى حال الخصم.

شاهد الملازمون للحضرة هذه المواقف عدة مرات فى خراسان. وإن شرح ذلك يطول. أما ما اتفق وقوعه فى هذه الديار، فواحدة من ذلك هى قضيته مع بايدو، فقد أسرع كالبرق الخاطف من خراسان، [ص٤٠١] وداهم بايدو وأتباعه وصابر مع نفر قليل من جنده. بعد ذلك رأى من المصلحة أن يتقابل مع خصمه فى الخلوة، ومعه نفر من أتباعه. وأثناء اللقاء ضربه بايدو على سبيل المداعبة ضربة قوية على ظهره؛ بحيث إنه تألم، ولكن بايدو عرف أن غازان لا يعبأ به، وبقى الخوف مسيطرا عليه.

بعد ذلك عبأ غازان جنده، واستغل الفرصة، فداهم بايدو ومعه نفر ضئيل من جنده وأسره دون أن يلحق أى ضرر أو مشقة بالبلاد والجيش. وفى ذلك الوقت اعتقل الأمراء الذين كانوا يثيرون الفتن فى عهد أبيه وعمه. ورغم أنه كان لهم حماة أقوياء، إلا أنه اتبع الرأى الصائب مدفوعا بقوة عزيمته، ولم يأبه بشفاعة أى أحد منهم، بل قضى عليهم جميعا. ثم نظم شئون الملك.

وموقف آخر وهو موقفه فى قضية "سوكاى" الذى ثار عليه. وكذلك فى عودة "أرسلان" بجيش مجهز وهجومه عليه. وكان السلطان يسمع ذلك الخبر تباعا. وقد تبين له أنه إذا ما وصل العدو فإنه لن يستطيع مقاومته لعدم وجود الجند. ومع هذا لم يكن منفعلا على الإطلاق، واستمر يزاول أعماله جريا على عادته كل يوم. ولما اقترب "أرسلان" أرسل إليه الجنود الذين كانوا حاضرين وكأنهم فى رحلة للصيد، ولم يتحرك هو بنفسه، ولم يطلع أيضا كل شخص على ذلك الأمر، وظل كالعادة يمرح ويلعب، ويروى مختلف الحكايات، ويدعو الأطباء والمنجمين ويقول لهم: أريد أن أتناول مسهلا، فهيئوا لى هذا النوع من الأدوية، واختاروا لى يوما مناسبا لتناوله. ولم يبد اهتماما بأمر ذلك المتمرد؛ غير أن خاطره كان قلقا بصورة لا يمكن وصفها. ولكن بسبب ما أبداه من تجلد ومصابرة لم يطرأ خلل قط؛ إذ لم يصل نبأ ينبئ عن خطورة الموقف، وبقى الناس هادئين. **[ص٤٠٢]** ولو ظهر على السلطان أقل تغير، حتى ولو بقيد شعرة، لاضطربت كل الأمور؛ وخصوصا وإن الأمر كان فى بدايته. ولم يكن الملك والجند قد استقروا. أما الجنود فكانوا قد شاهدوا الاضطرابات السابقة، واعتادوا عليها. وكانوا حريصين ومولعين بشن الغارات. فمثل هذه الأمور كانت تبدو لهم لعبة من اللعب. ومع كل هذا صح ذلك الأمر، وزال الخطر بتأييد الخالق عز وعلا وبيمن مصابرة وتجلد سلطان الإسلام خلد ملكه لم تصبه عين السوء بأى وجه.

موقف آخر فى قضية الحرب ضد مصر والشام؛ فقد ظن الناس أن السلطان سوف يقف فى ركن من الأركان؛ بحيث لا يعرفه أحد لكنه على خلاف ذلك اقتحم الميدان بجرأة نادرة، ونظم كل جنوده ووقف فى مقدمتهم، وصار يحمل على أعدائه تباعا كالأسد المحصور. ولو لم يمسكوا بعنان فرسه، لما كان يتوقف عن القتال. ورغم أن القريبين منه كانوا يمنعونه، اخترق صفوف الأعداء عدة مرات وتجول بينهم، وصار يطاردهم، وقتل بعضا منهم، ثم عاد. وفجأة انهزم الجند أيضا الذين كانوا على مقربة منه. ولم يعلم بعض من فى الأطراف شيئا عن الاشتباكات، ولم يصل بعضهم إلى ميدان القتال وبقيت ميسرة سلطان الإسلام وميمنته خاليتين. أما هو فقد ثبت مع نفر قليل صمدوا فى مواجهة الخصم. ونظرا لأن الهزيمة الأولى قد لحقت بقلب الجيش، ابتعد الجند عن الميدان ووقفوا عاجزين لا يتحركون على الإطلاق، ظانين أنه أثناء حملة العدو لن يصل مدد قط. هذا فى حين أن العدو كان يواصل هجماته الشديدة دون انقطاع. لكن السلطان ثابر على القتال فى

شجاعة كأنه أسد هصور أمام ذلك الحشد الكبير، وذلك من وقت الظهيرة حتى صلاة العصر يصد هجمات العدو بمفرده ويقاوم بحسن التدبير ولطائف الحيل مثل هذا الحشد الكبير. فأى محارب شجاع له مثل هذه القوة والقدرة؟!

وعاقبة الأمر أن جنود الميسرة الذين كانوا يقفون بعيدا منتهزين الفرصة ومستعدين للتقهقر، عندما شاهدوا ذلك الموقف البطولى، توجهوا إلى الأعداء، [ص٤٠٣] وتبعهم بعض الجنود من الميمنة. فعجز الأعداء عن مقاومتهم ومحاربة سلطان الإسلام -خلد ملكه- واضطروا إلى الفرار منهزمين.

وهكذا فإن مثل هذه الحكايات كثير. وقد اقتصرنا على ذكر هذا القدر من المواقف كشاهد على صدق ما نقول. وكان دائما يقدم النصح والإرشاد للجنود المظفرين، فيقول لهم: "إن الموت لا بد أن يدرك كل من حل أجله حيثما يكون؛ سواء أكان فى المنزل أم فى الطريق أم فى الحرب أم فى الصيد. فما الداعى إذن إلى الخوف من العدو الذى يقف فى مواجهتنا؟! وحيث إن الموت حتمى لا مفر منه، فالأولى أن يرى الإنسان دمه؛ لأن الدم المختفى فى البدن يتعفن، ولا يؤدى إلا إلى العفونة. وكما تكون حمرة الوجه زينة النساء يكون الدم زينة الرجال، وتبقى السمعة الطيبة فى الدنيا لمثل هؤلاء الأشخاص، ويدخلون الجنة فى الآخرة. وكل من يموت فى المنزل، تمل زوجته وأولاده طول مرضه ورعايته ويصير محتقرا ومبغوضا لدى الأعزاء الآخرين. أما إذا مات فى الحرب، فإنه يكون بعيدا عن هذه الأمور، ويبكى عليه الأحباب بحرقة وتفجع، ويعز سلطان العصر أعقابه ويواسيهم ويربى أولاده ويرعاهم، فيزداد بذلك إصلاح شأنهم.

وقال لهم أيضا: عندما يعزم الجيش على شن هجوم على الأعداء ينبغى أن يحرص على إخفاء الخبر عنهم، حتى لا يتسرب إليهم، وأن يعد الخيول، ويواصل سيره ليلا ونهارا بحيث يصل فجأة كى يشتبك بالعدو، ويحسم أمره معه. وإذا كان على الجنود أن يشنوا حملة كل سنة، فإنه ينبغى عليهم أن يحرصوا على السير فى أوقات مختلفة، وإلا فإنهم لو حددوا موعدا معينا، فإن العدو يتخذ حذره ويتدارك أمره. وكذلك ينبغى بذل الجهود فى أن يسلكوا طريقا مغايرا فى كل مرة، حتى لا يحيط العدو علما به. ولكن ينبغى أن يكون الأدلاء والمرشدون من الثقات. وإذا سار جيش كبير، فإنه كلما أشاعوا عنه أخبارا أكثر، فإن ذلك

يكون أفضل. وينبغى أن يبطئ الجنود فى الحرب؛ لأن الجيش الكبير لا يستطيع الزحف بسرعة. ومن المسلم به أن العدو إذا علم بتحركاتنا، فإنه يشغل بتدبير جيشه وإعداده منتظرا المواجهة. ولا يجوز الاعتماد على كثرة الجنود أو قلتهم حتى يسرعوا؛ لأن النصر لا يمكن التنبؤ به. أما إذا تأنوا فى السير، وأذاعوا الأخبار المروعة؛ فإن الأعداء يفزعون منها، ويقع الاضطراب بينهم، ويدب الخلاف فى صفوفهم [ص٤٠٤] أو يداهمهم عدو من ناحية أخرى، أو تسرى بينهم إشاعة مغرضة، أو أنهم يعجزون عن مواصلة القتال لنفاد العلف والمئونة. وعند التصميم على مثل هذه العزيمة ينبغى أن يحتاط الجنود قبل إذاعة الأخبار وذلك بتوفير الماء والعلف ونتاج الصيد، وأن يتوقفوا فى مثل هذه الأماكن التى تتوافر فيها هذه الأمور، وألا يؤكل العلف الذى أعد ليوم الحاجة فى المواضع الجدباء. وينبغى إرسال الجواسيس بصفة مستمرة للاطلاع على أحوال العدو. وبعد الاطلاع توضع كل الأفكار والخطط والأعمال على أساس سليم؛ لأن التصرف الذى لا يقوم على أساس من الاطلاع والمعرفة يكون كالملاكمة فى الظلام.

ثم توجه إلى جنوده قائلا: بعد الاحتياط التام ينبغى أن يكون إما الدخول فى المعركة أو الانصراف عنها، وذلك يكون مرتبطا باختياركم لا باختيار العدو؛ لأنكم إذا كنتم مجبرين وتعجلتم الأمر دون توقف أو روية، فإن العدو يصل فجأة ويباغتكم فيسوء موقفكم. وعندئذ يتحتم عليكم خوض المعركة والقتال مضطرين. أما العدو فيكون فى موقف أفضل.

وصفوة القول أن العامل الأساسى هو تنظيم الجيش، وعدم السماح لأى جندى بالتحرك من مكانه دون إذن؛ لأنه قد ثبت بالتجربة أن العدو ينتهز الفرصة، ويأخذ زمام المبادرة فيتغلب عليكم. والشرط المهم هو ألا يدع القائد أحدا بصورة قاطعة يسير حسب هواه إلى القرى والمواضع العامرة، ويسلب منها شيئا؛ لأن الجنود إذا تعودوا على ذلك؛ فإنه لا يمكن منع أفراد الجيوش الجرارة من تلك المحاولة، ويتعذر التنظيم والتنسيق. ولهذا السبب يشغل الجنود وقت الحرب بجمع الأسلاب والغنائم فى وقت غير مناسب ولا يمكن منعهم. وكل السيئات التى أصابت الجيوش، إنما كان أكثرها راجعا إلى الاستيلاء على الغنائم عندما تنتهى المعركة. وإذن فعلى القائد أن يعرف جيدا أين تذهب الأسلاب والغنائم. ولا ينبغى التراجع عن توقيع العقوبة ولا التردد عن القتل والسفك؛ لأن القواد إذا امتنعوا عن قتل

شخصين أو ثلاثة، فسوف يهلك عشرة آلاف وعشرون ألف رجل فى مقابل هذه القلة ويتبع ذلك ضياع الملك أيضا.

وفى حالة مغادرة الجنود قواعدهم، ينبغى أن يتوجهوا دائما بنية طيبة، وأن يشتغلوا بذكر الله تعالى، وأن يطهروا أنفسهم، فلا يرتكبوا أفعالا سيئة، وأن يكونوا محبين لموطنيهم ووطنهم، وألا يظلموا أحدا حتى يثق الناس بهم، ويبذلوا هممهم الطيبة فى سبيلهم ويدعوا لهم بتضرع فيستجاب لهم؛ إذ إنه ليس للجند ذخيرة [ص٤٠٥] قط أفضل من دعاء الخير والهمة الطيبة. وينبغى ألا يبالغوا فى القول، وألا يدعوا سبيلا إلى الكبر والزهو بأنفسهم وألا يحتقروا العدو، ولكن لا يخشوه أيضا، وأن يعدوا أنفسهم ضعفاء، وأن يعظموا الله تعالى ويخشوه حتى يصح تفكيرهم وتنتظم أمورهم، ويتأكدوا من أن كل من يقول كلاما فيه كبرياء واستعلاء، ويفكر على هذا الأساس، فإن الحق تعالى يعلو عليه بكبريائه؛ لأن العظمة خليقة بالله وحده، وهو يريد أن يتساوى مع الله. وكل من يتساوى مع الله، يخذله الله ويمد الآخرين بعونه، ويهينه هو. وهذا أمر يسير على قدرة الله تعالى، فيقهره بصورة لا تخطر على بال أى بطل عادل كفء.

وعلى هذا المنوال كان السلطان ينصح دائما جماعة الأمراء والجنود، وظل ينصحهم، بل إنه تحدث إليهم بكلام كثير أدق من هذا لم يبق فى الذاكرة، ولربما يؤدى ذلك أيضا إلى التطويل لو رحنا نشرح ما قاله. وحيث إن المقصود هو إيراد شواهد وأمثلة، يكون هذا القدر كافيا. وإن الزوائد والإضافات معلومة ومحققة لدى الجميع.

أدام الحق تعالى أبد الدهر هذا الحارس للدنيا وسيد العالمين وراعى الرعايا والجند.

الحكاية العاشرة

فى نصح سلطان الإسلام القضاة والمشايخ والزهاد وأهل العلم والتقوى

فى كل وقت كانت تصل الطوائف المذكورة إلى الحضرة، كان السلطان يسدى إليهم مختلف النصائح. لكنه عندما حضر العظماء وكبار الشخصيات، مجلس الشورى (القوريلتاى)، ومثلوا بين يديه، قال لهم: أنتم ارتديتم لباس الرياء، وهذه مسألة خطيرة لأنكم بهذا التظاهر قد لا تخادعون الخلق، وإنما تخادعون الله، ويمكن أن يسلم الخلق بادعائكم وريائكم عدة أيام [ص٤٠٦]؛ لأنهم لا يكونون مطلعين على حقيقة ما تضمرون. لكن الله تعالى مطلع على ضمائركم، ولا يؤثر فيه التزوير والتلبيس، ويغضب عليكم، ويجازيكم أيضا فى الدنيا. وأما فى الآخرة فإنه من المقرر والمؤكد أن كل من يرتدى لباس الرياء أو التلبيس يكشف الله عيوبه بين الخلق، وتسوء سمعته ويصير خجلا من الناس، ويبدو بينهم حقيرا وممتهنا، ويكون دائما أضحوكة الخواص والعوام.

أما أولئك الذين لا يرتدون لباس الرياء، ويسلكون سلوكا أمينا وصادقا، ولا يميزون أنفسهم عن الآخرين، وليس لديهم تفكير فى السيطرة والرئاسة، ولا يدعون الزهد والتواضع؛ فإنه ليس لأحد اعتراض عليهم، ولا يتوقع أحد منهم حياة لا تتناسب مع ظاهرهم.

وأما قولنا: إنكم ارتديتم زى العدالة، فإن معنى ذلك أنكم مثل غيركم من البشر، ولكن بواسطة هذا الزى اكتسبتم اسما عظيما. وتحت هذا الاسم هناك عدة معان خاصة لا توجد فى الآخرين، وأنتم أنفسكم قبلتم هذا الاسم والمعنى، وتعهدتم وتكفلتم بأداء الحقوق وتقولون: نحن كذا كذا، وسوف نفعل كذا كذا. والآن فكروا جيدا فيما أقول: إذا كنتم تستطيعون عدم الخروج من عهدة هذا العهد والميثاق والعدالة التى تلازم هذا اللباس، وأن تكونوا عند كلمتكم، فإن هذا يكون حسنا جدا وممدوحا، وتسمو منزلتكم، وتكونون أفضل من الآخرين عند الخالق والخلائق. وإلا فسوف تؤدى النتيجة إلى الخجل من الله والخلق، وبمحض اختياركم أو رغم أنفكم تكونون قد جلبتم على أنفسكم تلك المتاعب

والمشقات. وتأكدوا من أن الحق تعالى قد وهب لى الملك بسبب ذلك، وفوض إلى رئاسة الخلق، كى أدبر أمورهم، وأقيم بينهم العدل والمساواة. وقد أوجب على أن أقول الحق وأعمل به، وأن أجازى المجرمين جزاء وفاقا. **[ص٣٠٧]** وقد اقتضى حكم الله منذ الأزل أن يكون عقاب الخاصة أزيد وأعنف. ولهذا السبب لا تؤاخذ البهائم على جرائمها.

وبناء على هذا يجب على الملوك أن يبادروا بمعاقبة العظماء وكبار القوم، وأن يجعلوا هذه القاعدة دستورا لهم ينظمون به شئون الملك. ولهذا فأنا أيضا سوف أسرع إلى معاقبتكم على ما ارتكبتموه من جرائم دون أن تأخذنى شفقة بكم، ولا تظنوا أننى سوف أنظر إلى لباسكم، بل إلى أفعالكم. وإذن فعليكم باتباع سلوك وسنة الرسول عليه وعلى آله السلام فى كافة أعمالكم، ومراعاة ما هو واجب عليكم، وأن ترشدوا الآخرين إلى سواء السبيل واحذروا الفساد والفضول، ولا تجيزوا على سبيل التأويل ما لا يكون فى أصل الشرع وتعاملوا بالصدق والصفاء، وابذلوا الهمة وأحسنوا الظن؛ حتى يبقىٰ ببركة ذلك العالم كله ونحن أيضا آمنين مطمئنين، ولا يتعصب الواحد منكم ضد الآخر، ولا تتعصبوا أنتم أيضا ضد الأقوام الأخرى؛ ذلك التعصب الذى لم يأمر به الله ورسوله؛ لأن التعصب فى هذه الحالة يكون طلبا لحسن السمعة والشفقة وخدمة الناس بأكثر مما يطلبه الله والرسول فلا يكون من ورائه إلا سوء السمعة وضعف الهمة. وأنا لو كنت أعمل شيئا خلاف الشرع والعقل، فإن عليكم أن تنبهونى، وتعرفونى الحقيقة؛ لأن كلامكم عندما يؤثر فى، يصير مقبولا ومسموعا؛ إذ إنكم عندئذ تقرنون القول بالعمل؛ ولأنكم فى ذلك الوقت تقولون كلاما صادرا عن الصدق والصفاء وقوة النفس. ولا بد أن يؤثر فى هذا القول. وإن اتباع الحق بناء على كلامكم يجلب لى ولكم الثواب والثناء. وبذلك ينعم الخلق جميعا بالراحة والهدوء. وإذا لم يكن الأمر على هذا النحو فلن يؤثر فى كلامكم وعندئذ تشتعل نيران غضبى عليكم. ولهذا السبب يصيبنا الضرر أنا وأنتم وكافة الخلق.

ولقد أردت أن أذكر حكايات أخرى ونكتا دقيقة، وهى كثيرة ومتعددة فى هذا الموضوع. ولكنى أكتفى الآن بذكر هذا المقدار على سبيل الإجمال. فإذا وقعت منكم موقع الاستحسان وقبلتموها فإنها تفيدنى وتفيدكم. **[ص٤٠٨]**، ويكون لكلامى وقع حسن فى نفوسكم، وتتوطد محبتى فى قلوبكم. وإلا فسوف يثقل كلامى عليكم، وتستقر عداوتى

فى أفئدتكم، فيطلع فؤادى على ما يجول بخاطركم، وتكونون مبغوضين عندى. ومن هذا يظهر الخلل فى الدين والدنيا. ونحن نقتصر اليوم على ذكر هذا المقدار. ولو حالفنا التوفيق فسوف نذكر حكايات معنوية دقيقة.

على هذا النحو نصح السلطان جماعة كبار الشخصيات ومشاهير القضاة والثقات والمشايخ والعلماء الذين مثلوا أمام الحضرة، فتعجبوا جميعا، وصاروا متحيرين، ورفعوا أكفهم بالدعاء للحضرة والثناء عليها. وفى أوقات أخرى ألقى أمثال هذه النصائح فى المجالس المختلفة، وقال كلاما مفيدا يطول شرحه وتعداده.

فليبسط الله تعالى ظل دولة سلطان الإسلام هذا، وليدم عدله، وليبقه أبد الدهر على رأس طبقات أصناف العالمين. إنه سميع مجيب.

الحكاية الحادية عشرة

فى منع سلطان الإسلام الجنود وغيرهم من التفوه بكلمات الكفر

لما سمع سلطان الإسلام خلد ملكه أن بعض الجنود وغيرهم كانوا يتباهون عندما يسيرون إلى ميادين القتال، ويتيسر لهم الفتح والنصر، فيقولون: نحن فعلنا هذا وفعلنا ذلك. وقد تيسر تدبير المهام العظيمة بواسطة فلان، وأن الشخص الفلانى أبدى ضروبا من الشجاعة والبطولة، وأن العدو هزم بسعى فلان. وعلى هذا النحو يرجعون الأمور إلى كفاءتهم وشجاعتهم وبطولتهم. كما كانوا يتحدثون بكلام خطير، ويظهرون العجب والخيلاء. وكانوا أحيانا يعودون على العكس من ذلك خاسرين غير موفقين، فيقولون: كان ذلك قضاء الله؛ وإلا فقد سعينا [ص٤٠٩] وبذلنا الجهود الجبارة. وكثيرا ما كان يدور هذا الكلام على ألسنة الخلق. وعلى هذا النمط كان يتحدث أيضا المغول والتازيك فى كل الشئون الجزئية؛ فوصلت هذه الحكايات مرات إلى السمع الأشرف، فلم يستسغها وراح بدافع غيرته على الدين يقول: إن هذا الكلام كفر محض، وإن أكثر أعمالنا، وما يتعلق بشئون الجند وكافة الناس إنما تصاب بالخلل نتيجة شؤم مثل هذا الكلام، فيجب أن يدرك الجميع أن كل خير يصل إلينا وإلى الجند والخلائق الآخرين إنما هو مرتبط برحمة الحق تعالى وشفقته، وأن كل سوء وإخفاق إنما هو نتيجة ذنوبهم وسيئاتهم. وإذن فلا ينبغى أن يتكلموا بأى وجه من الوجوه بكلام يتعلق بالعجب والكبر. وللحيلولة دون الوقوع فى هذا الخطأ أمر بأن يكتب فى هذا الشأن مرسوم بليغ أرسله إلى كل البلاد حيث جماهير المغول والتازيك، نص فيه على أن كل شخص يعتقد – منذ الآن إلى ما بعد – فى الكلام السابق ويتفوه به، يكون مذنبا. وفى الآخرة يكون مثواه النار. وينبغى أن يثق أن الحسنة من فضل الله، وأن السيئة إنما هى نتيجة أفعاله المستهجنة[1].

---

(١) مصداقا لقوله تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا﴾. (سورة النساء آية ٧٩).

ويجب على أصحاب البيوت أن يطعموا مما عندهم - كل شخص يقصد ديارهم ويعدوا له هذا الطعام سواء قل أو كثر، وأن يسلكوا معه طريق المروءة، وأن يعاشروا الناس جميعا بالتواضع.

وبمقتضى هذا المرسوم الذى أصدرناه، كان على الذين يقصدون بيوت الناس ألا يتخذوا هذا الأمر ذريعة لمطالبتهم بما يشاءون؛ إذ إن ذلك متروك لمروءة أصحاب البيوت. وإذن فليس لهم أن يطالبوا أو يظنوا أن أحدا مكلف بتقديم شيء لهم، بل إن ذلك الأمر يتعلق بما يتصفون به من مروءة. وقد أرسل المرسوم بهذا المعنى، وأمر بأن ينادوا به فى كل البلاد.

وهكذا فى عهد سلطان الإسلام المبارك، عمت بركاته كافة الشئون. وبعون الله تعالى تكون فى ازدياد بمنه وكرمه.

الحكاية الثانية عشرة

فى حب سلطان الإسلام للعمران وحثه الناس على ذلك

قبل هذا كان سلاطين المغول، وبعض آباء وأجداد سلطان الإسلام خلد سلطانه شغوفين بالعمران. وقد شرعوا فى ذلك. ولكن قل منهم من أتم شيئا يذكر كما هو مشاهد. وحيثما أقاموا بنيانا أنفقوا عليه أموالا طائلة. وكانوا يرسلون من الولايات ما يجبى من الضرائب الاستثنائية، وكذلك كان أكثر هذه العمارات معرضا للتلف. وكان الأشخاص الذين يشرفون على هذه الأعمال يخشون أن تدور عليهم دائرة السوء، فتضيع الأموال دون أن يتيسر إضافة المزيد من المبانى، وما شيدوه بالفعل لم يكن متقنا، وخرب فى مدة قصيرة.

لكن سلطان الإسلام أقر نظاما بشأن البناء والعمران لم يكن من الممكن أن يوجد أحسن منه. وحيثما يوجد سيد يوثق به أو معاون يتصف بالشرف اختاره وعينه للإشراف على كل عمارة، وحول إليه الأموال المطلوبة. كما نصب السادة المشهورين والكتاب المخلصين والمهندسين المعماريين، فاستخدموا جميع الآلات بأسعار معقولة وأجور مناسبة، وذلك فى نظير استعمال القدر المطلوب منها؛ بحيث أنهم إذا قصروا فى التنفيذ فإن النقصان والضرر يعودان عليهم. وكان المشرفون يحصون الآلات والمواد المستخدمة فى البناء. وبناء على هذا يحاسبون كل متعهد كلف بهذا العمل وهكذا سارت العملية بمنتهى الدقة؛ بحيث إنهم لو أرادوا حتى بعد مائة سنة أخرى [ص٤١١] أن يراجعوا المبالغ والنفقات والاعتمادات المالية على حسابات الكتاب والآلات التى استخدمت لاتضح على الفور الحق من الباطل وقطعا لن تكون هناك زيادة أو نقصان فى تلك الحسابات. ولن يوجد مجال لأى نمام للطعن فى أعمال هؤلاء السادة والمهندسين. ولتنفيذ كل مشروع نصب مشرفين أمناء حتى لا يجيزوا استخدام آلات غير صالحة، أو ينقص العمال شيئا من الجص والأسمنت ويخلطوهما بالرماد. وهذا التدقيق والاحتياط إنما يكون فى دائرة اختصاصهم وضمن عهدتهم. وهناك مسألة أخرى هى أن كل المعدات من الخشب والحديد، سلمت للمقاول بثمن محدد. كما قررت جملة أنواعها والمطلوب استعماله منها.

وهكذا راح السلطان يأمر بتشييد العمارات فى كل مدينة وولاية وصار يشق الأنهار والقنوات، ويجريها بالمياه. ومن جملتها وأعظمها نهر يتمثل فيه الخير التام والنفع العام. وهو نهر كبير للغاية، أجراه السلطان فى ولاية الحلة وأطلق عليه اسم "النهر الغازانى الأعلى" وأوصل ذلك النهر إلى المشهد المقدس لأمير المؤمنين الحسين (رضى الله عنه)، وأجرى عذب الفرات إلى كل صحارى سهل كربلاء التى كانت قاحلة، ولم يكن فى المشهد ماء عذب للشرب. ونتيجة لهذا صارت كل المناطق حول المشهد مزروعة فى هذا الزمان. كما أنهم أنشأوا الحدائق والبساتين وتستطيع السفن القادمة من بغداد والمدن الآخرى الواقعة على ضفاف الفرات ودجلة الإبحار إلى المشهد، ويبلغ محصولها ما يقرب من مائة ألف "تغار"[1]. وهناك تنمو الحبوب وأنواع الخضر أحسن مما تنمو فى أى مكان من أعمال بغداد. ونتيجة لهذه الإصلاحات صار السادات المقيمون فى المشهد مرفهى الحال جدا. ولما كان هؤلاء أناسا فقراء، وعددهم كبيرا، وهم فى أمس الحاجة إلى المعونة، أمر بأن تكون لهم إدرارات تصرف سنويا.

وفى منطقة مشهد سيدى أبى الوفاء رحمة الله عليه **[ص٤١٢]** كانت هناك أيضا صحراء قاحلة، ولا يوجد فى المشهد ماء عذب للشرب، فتصادف أن سلطان الإسلام خلد ملكه ذهب فى إحدى السفن قاصدا الصيد فى تلك الصحراء، فلم يجد مرافقوه ماء للدواب، فهزلت جدا، كما ضعفت حمر الوحش والغزلان بسبب عدم وجود الماء والعلف فأمر بأن يشقوا نهرا من الفرات يجرى إلى هناك كى يتوافر الماء، ويكثر الزرع فى ذلك المشهد أيضا، وتستريح الحيوانات الصحراوية كذلك. وبالإضافة إلى هذا لا يعترى الدواب التعب والمشقة لعدم وجود الماء إذا ساروا بها فى تلك الصحراء، ويتوافر العلف من الشعير والتبن. وفى مدة وجيزة شق السلطان نهرا كبيرا يجرى إلى هناك أطلق عليه اسم "النهر الغازانى الأسفل". وبعد ذلك أجرى من الجانب الغربى نهرا آخر على حدود تلك الصحراء، سماه أيضا "النهر الغازانى"، وأوقف من الماء والأرض عدة أفدنة على ذلك

---

(١) وحدة من وحدات الوزن يستعمل أكثر للغلال ويساوى مائة من تبريزى (٢٩٥ كيلو جرام). وتأتى هذه الكلمة أيضا بمعنى الضرائب العينية التى تحصل من الرعايا، وتنفق على العلف الخاص بالجيش "آذوقة" (انظر تحرير تاريخ وصاف به قلم عبد المحمد آيتى، ص٣٧٨، تهران ١٣٤٦ هـ.ش).

المشهد، واشترى ما تبقى من كل المواضع التى عمرها، واستغلها لنفسه. ثم أوقفها كلها على أبواب البر التى بناها فى تبريز. والآن فى هذا الزمن أنشئت فى مشهد سيدى أبى الوفاء الحدائق والبساتين، وظهر الماء العذب وأنواع الخضراوات التى لم تتوافر مطلقا للسكان من قبل. ولما كان هذا المشهد يقع بعيدا عن العمران، ويتعرض المجاورون له لأذى المغيرين من الأعراب أمر بإقامة سور حوله على نمط ما يبنى حول مدينة من المدن. وهناك شيدوا حماما وعمارات جديدة. وعما قريب تتحول هذه المنطقة إلى مدينة أيضا.

كذلك أقام السلطان ويقيم العمارات فى أكثر الولايات، ويجرى فيها الأنهار والقنوات. وإذا شرعنا فى تفصيل ذلك، فسوف يؤدى هذا إلى التطويل. وإن ما أمر به بموجب أحكام الفرمانات، وشروط الأوقاف، وبمشاركة وكلاء الديوان من استصلاح الأملاك الأميرية وتشييد الأبنية ليس له حد.

وفى عهده المبارك، ونتيجة لعدله الشامل، سارعت الآلاف المؤلفة من الناس إلى مشاركته، وشغلوا بتشييد المبانى، حتى أن ما أقاموه هم أنفسهم يزيد مائة مرة على ما أقامه السلطان بنفسه. وكل بستان أو دار، كان ثمنه قبل هذا مائة دينار، أصبح فى الوقت الحالى يساوى ألف دينار. وهذا على حين أنهم قبل هذا **[ص٤١٣]** كانوا يعمدون إلى التخريب أكثر مما يعملون فى التعمير. وفى الحقيقة إن العمارات التى تنشأ الآن فى البلاد، لم ينشئ مثلها ملك قط بعد عهد الأكاسرة. ومن العجيب أنه إذا كان الناس فى عهد الأكاسرة قد شغلوا أيضا بالتعمير بهذا القدر فإن البلاد كانت عامرة تماما فى ذلك الوقت. ومع هذا عمرت خلال سنوات عديدة. وحيث إنه أيضا فى ذلك الوقت، لم يكن موجودا مثل هذا الخراب الموجود حاليا، فأى عمارات إذن كانوا مشغولين بتشييدها فى تلك الأيام؟!

أما مدينة تبريز التى هى الآن عاصمة البلاد، فقد كان لها سور صغير اندرس أيضا وتوجد خارج المدينة منازل وعمارت كثيرة، فقال السلطان: كيف يجوز أن مدينة يسكنها الآلاف العديدة من الناس، وهى فى الوقت نفسه دار الملك، ولا يبنى لها سور؟! وعلى الفور أشار باتخاذ الإجراءات حتى يمكن تحديد المكان والكيفية التى يبنى بها السور.

ولما كانت الحدائق والبساتين تتصل بالمدينة، كان من الضرورى أن يقع بناء السور بين أملاك الناس المعمورة. وهنا عرض مستشارو السلطان قائلين: حيث إن السكان فى تبريز من الغرباء والمقيمين الذين لا حصر لهم، وأكثرهم من الأثرياء، يقسم السور إلى أقسام حتى

وظيفة	مرتبات
مرتب المشرف الذى يقوم بمهمات دار السيادة، والذى يؤدى الخدمة للسادات بمقتضى شرط الواقف.	الخدم والطهاة والعمال الآخرين الذين يقيمون هناك.

(٦) المرصد

إضافات	معاشات
الفرش والتخطيط، وثمن الشمع المذاب والبذور والعطر.	المرتزقة من مدرسى العلوم الدينية والمعيدين والمتعلمين والخزنة والمناولين وسائر العمال.

إصلاح
وترميم الآلات وأدوات الساعات والمرصد، وتلك التى تصلح للاستعمال.

[ص٤١٩]

(٧) دار الشفاء

إضافات	مصالح
الفرش والتخطيط، وثمن الشمع المذاب والبذور والعطر والآلات الخزفية.	الأدوية والأشربة والمعاجين والمراهم والكحل والحساء الخفيف وثياب النوم وملابس المرضى.

مرتبات	تجهيز
المرتزقة من الأطباء والكحالين والجراحين والخزنة والخدم وسائر العمال.	الأموات الذين يتوفون هناك.

(٨) دار الكتب

إضافات	مصالح
الفرش والتخطيط، وثمن الشمع المذاب.	إصلاح الكتب وترميمها، وسداد ثمن الكتب الضرورية.

(٩) دار القضاء

إضافات	مصالح
الفرش والتخطيط، وثمن الشمع المذاب والبذور.	نفقات إعداد القوانين ونسخها وتجديدها.

(١٠) بيت المتولى

مرتب مخصص لأحد البوابين حسب ما هو مقرر.

[ص٤٢٠]

(١١) دورة المياه

مصالح	جراية
الشمع المذاب والبذور والعطر والأباريق والجرار والأباريق والدنان والأكواز.	مخصصة لفراش واحد قائم بالخدمة.

(١٢) حمام السبيل

مصالح	جرايات
المآزر والدلاء والعطر والمصابيح والمساحات والمجارف والحطب ووقود موقد الحمام.	العمال من الحمامى والدلاك وحارس الملابس والوقاد.

حرف

(١٣) ما يذكر من ملحقات وتوابع أبواب البر

مصالح

الطعام الخارجي في جوسق العادلية الذي يقدم إلى أمراء المغول والتازيك والأشخاص الذين يجيئون إلى هناك إذ إنهم عند زيارتهم يقصدون ذلك الجوسق، ويأكلون هذا الطعام.

ما يحتاج إليه الطعام الذى يصرف كل يوم، وإضافة الفرش والتخطيط وأدوات المطبخ ولوازم دار الشراب وثمن الشمع المذاب.

مصالح

الوليمة التي يقيمها الواقف شكر الله سعيه كل سنة في اليوم الذي يحدده بشرط أن يجتمع المجاورون في البقاع المذكورة والأئمة والأعيان والمستحقون في تبريز وغيرهم ممن يجيئون إلى هنا ويختمون القرآن ويتناولون الطعام ويعطون الصدقات المخصصة لذلك اليوم.

[ص٤٢١] جرايات

العمال من الطهاة والمتعهدين بشراء ما يحتاج إليه، والسقاة والخزنة وبقية فئات العمال هناك.

مصالح

الحلوى التي تقدم في ليالي الجمعة برسم أهل المسجد والخانقاه والمدارس وملاجئ الأيتام، بالإضافة إلى ما تعين صرفه على حدة في القبة العالية بمقتضى التفصيلات المنصوص عليها في السجل.

ما يحتاج إليه صدقة

الطعام المذكور الذى يصرف في هذا اليوم.

(١٤) نفقات العيدين
والأيام والليالى المباركة من عاشوراء وليلة القدر وغيرها
مدرسة

الأيتام البالغ عددهم دائما مائة يتيم يدرس لهم القرآن

هدية	وجوه الإنفاق
مائة مصحف جديد تشترى كل سنة.	السنوية، وتقديم العيدية لمائة طفل يكونون قد حفظوا القرآن الكريم، ويعملون بالسنة، ثم يحضرون بدلا منهم أشخاصا آخرين.

إضافات	مرتبات
الفرش وإعداد المكتب، وما تدعو الحاجة إليه.	لخمسة معلمين وخمسة رقباء يلازمون الأطفال، وخمس من النسوة يقمن على رعايتهم.

[ص٤٢٢]

(١٥) للمستحقين

شراء ألفين من فراء الكتف المصنوع من فرو الخروف وذلك كل سنة، وتقديمها إلى المستحقين.

(١٦) الإشراف على تربية

الأطفال اللقطاء الذين يلقى بهم فى الطريق، فهؤلاء يؤخذون وتدفع أجور المرضعات وما يحتجن إليه حتى يبلغ هؤلاء الأطفال سن الرشد.

(١٧) تجهيز

ودفن الغرباء الذين يموتون فى تبريز، ولم يكونوا يملكون تركة تفى بدفنهم.

(١٨) الحبوب

التى تلتقطها أنواع الطيور فى أشهر الشتاء الستة عندما تشتد البرودة وينزل الثلج، فينثر القمح والجاورس (الدخن) مناصفة على الأسطح ولا يصطاد أحد هذه الطيور. وكل من يقصدها بسوء، تحل عليه لعنة الحق تعالى وسخطه. وعلى المتولى وسكان تلك البقاع أن يمنعوا المعتدين ويردعوهم، وإلا يكونوا آثمين.

(١٩) للأرامل

الفقيرات اللائى يصرف لهن القطن كل سنة، ليكون رأس مال لهن؛ على أن تمنح كل واحدة من الأرامل البالغ عددهن خمسمائة أرملة، أربعة أمنان من القطن المحلوج.

(٢٠) عوض

الأوانى الفخارية والكيزان التى يكسرها الغلمان والجوارى والأطفال فينصب متول أمين فى مدينة تبريز، حتى إذا ما أرادت تلك الفئة نقل الماء، وانكسرت أوانيهم، ويخشون عقاب ساداتهم؛ فإن ذلك المتولى يعوضهم عنها بعد أن يتحرى الحقيقة.

[ص٤٢٣]

(٢١) بخصوص

تنظيف الطرق من الأحجار، وإقامة القناطر على النهيرات ابتداء من مدينة تبريز إلى مسافة ثمانية فراسخ من المناطق والجوانب المحيطة بها وذلك على النحو المفصل فى السجل.

(٢٢) مرتبات

النواب وعمال ديوان أوقاف البر المذكورة والمسماة "الأوقاف الخاصة" وذلك بموجب شرط الواقف خارج أعمال الولايات والمواضع.

(٢٣) نفقات

عمارة القبة العالية وأبواب البر بأضلاعها الاثنتى عشرة، وكذلك جوسق العادلية الذى أنشأه أرغون خان بموجب شروط الواقف المنصوص عليها فى الوقفية المباركة.

أملاك الأوقاف، والتى أسبل زرعها من الضياع، والعقار والأراضى المستغلة المتعلقة بأبواب البر المذكورة فى كل ولايات الممالك، حيثما وجد شىء منها بمقتضى شرط الواقف.

وحيث إن الهمة المباركة قد اقتضت أن يستفيد أكثر أصناف الخلق من هذه الخيرات ومن أبواب البر كذلك حسب الشروط المعينة أوقف غازان على هذا كله ما كان يمتلكه شرعا؛ فهو حقه المطلق وملكه المطلق بطريقة لا يمكن أن تتيح مجالا لأى طاعن للاعتراض عليها. وقد قطع بصحتها جميع المفتين وثقات العلماء الكبار وقضاة الإسلام. ثم أمر بكتابة سبع نسخ من تلك الوقفية، وتسجيلها كلها؛ بحيث تكون واحدة منها فى يد المتولى والثانية فى الكعبة والثالثة [ص٤٢٤] فى دار القضاء بدار الملك تبريز والرابعة فى دار القضاء بمدينة السلام بغداد. أما الخامسة والسادسة والسابعة فتحفظ فى السجلات. وبعد كل مدة يجدد الشهادة عليها قضاة بغداد وتبريز. وعلى كل قاض يتقلد منصب القضاء أن يبادر بتسجيلها فور جلوسه على مسند القضاء. ثم أمر بأن يسكن ويتوطن أبواب البر المذكورة الجماعة الذين هم أفضل وأكمل أهل العصر، وأن يظلوا ملازمين لها.

كذلك شيد السلطان "خانقاه" كبيرة فى ولاية همذان على حدود سفيدكوه فى قرية بوزينجرد، وأوقف عليها أوقافا كثيرة؛ بحيث إنه صار المغادرون تلك الخانقاه أو القادمون إليها فى راحة تامة بسبب تمتعهم بتلك الخيرات كما يشاهد الجميع.

مأثرة أخرى للسلطان هى أنه فى كل ولاية حل بها، وراوده أمل، وعن له مراد، ومسته حاجة مستترة، لجأ فى الحال إلى حضرة الحق، وأفضى إليه بسره، والتزم نذرا، وأدى صدقة. وعندما هزم جيش مصر، وجلس على عرش السلطنة فى دمشق، وفى بعدة نذور كان قد نذرها إبان زحفه على تلك البلاد، بعضها فى هذه الممالك، وبعضها فى تلك الممالك (أى ممالك إيران). وأحد هذه النذور كان لقبر سيف الله خالد بن الوليد - رضى الله عنه - حيث دارت المعركة فى تلك المنطقة وكان هذا النذر عبارة عن قناديل ذهبية ومعدات ومفروشات سلمها أيضا إلى المشرفين على المقبرة. كذلك نذر نذرا آخر وذلك بأن وقف عدة قرى من أعمال دمشق على بيت المقدس ومشهد إبراهيم الخليل صلوات الله عليه.

وقد لاحظ أن ملوك مصر والشام كانوا ينفقون ريع أوقاف الحرمين وسبيل الحجاج فى أغراض تتعلق بتصريف مصالح الجيش والديوان وكانوا يجيزون صرفها بفتاوى تأويلية، ولم يكن ذلك بجائز فى الحقيقة. ولهذا نذر أيضا أن تصرف أموال هذه الأوقاف فى الأغراض التى خصصت لها، وقال فى هذا الشأن: حيث إن الحق تعالى وهب لى هذا الملك، ينبغى أن يصرف ريع كل تلك الأوقاف والأراضى التى أسبل زرعها فى وجهها الصحيح، وألا يصرف قطعا فى الإنفاق على الجيش والديوان. ثم صرح قائلا: إن هذه المملكة تحت تصرفنا الآن. وعندما نعود [ص٤٢٥] سوف نترك جيشا مجهزا تماما للمحافظة عليها. وإن نية الخير التى كنت قد أقدمت عليها، يجب أن تخرج إلى حيز التنفيذ.

ثم أصدر فرمانا فيما يتعلق بأبواب البر هذه. وقد نذر فى هذه البلاد أن يصرف مبلغ عشرين تومانا من الأموال من ريع أملاكه الخاصة، وذلك على سبيل الإدرار والوقف والصدقة والإنعام على جماعة من الأمراء والرعاع والشرفاء والأثرياء والفقراء والجند الذين يجتمعون كل عام فى مجلس الشورى (القوريلتاى).

وبعد عودته وفى بذلك النذر، وخلع على كل طائفة وجماعة – على قدر مراتبهم – خلعا كانت عبارة عن أحزمة مرصعة وغير مرصعة وملابس متنوعة. ونذر أيضا عشرين تومانا ذهبيا على سبيل الإدرارات والصدقات. ولا تزال هذه الصدقات تصرف حتى الآن وتنفذ فى كل ولاية سنة بعد أخرى. وفضلا عن ذلك أمر بأن يستقطع من كل الأموال التى يؤتى بها إلى الخزانة دينار واحد من كل عشرة دنانير، وثوب من كل عشرة أثواب وعشر من كل صنف من الأصناف الأخرى. ثم تودع هذه الأموال لدى المشرفين على القصر الذى يعين لهذه المهمة، وليكون خازنا لتلك الأموال، ويتولى توصيلها دائما إلى الفقراء والمستحقين. أما الشخص غير المستحق، فلا يعطيه شيئا منها، وتعاد إلى الخزانة الأصلية. وأمر أيضا بأن ترسل فى كل عام الستائر والشمعدانات والقناديل إلى الأضرحة المباركة. وكان السلطان يسر دائما إلى الحق تعالى بحاجته، وهو متأكد – دون أدنى شك – من أن حاجاته مقضية لدى الحضرة الإلهية بفضل الخيرات والصدقات والنذور. ولا يضيع أجر ذلك أبدا. ولا شك أن أى مخلوق لم ير فى أى عصر، ومن أى سلطان مثل هذه الخيرات الكثيرة والمبرات والإنعامات والإدرارات والصدقات الجارية.

فليمنح الحق جل وعلا هذا السلطان العادل الكريم مزيدا من التوفيق على هذه الخيرات وليوصل بركاتها ومثوباتها إلى أيامه المباركة.

الحكاية الرابعة عشرة

فى القضاء على الوثائق المزورة والدعاوى الباطلة ودفع[1] خيانة من لا أمانة لهم وغير المتدينين

إن سلطان الإسلام خلد سلطانه لكمال عدله، أزال أنواع الوثائق المزورة والادعاءات الباطلة، ومنع طائفة القضاة والخطباء الذين لم يكونوا على علم تام بالعلوم الشرعية من تحرير القبالات والوثائق، وكلف جميع القضاة بأن يحرروا القبالات بطريقة واحدة؛ بحيث تراعى جملة الدقائق الشرعية، حتى تغلق أبواب المنازعات بين الناس. وحيث إن شرح تلك الأمور مدون بوضوح تام ضمن الأحكام والقواعد نكتب نصوص تلك المراسيم كى نعلم المقصود منها، ولا نكرر الكلام عنها.

تلك الأحكام والقوانين نفصلها فيما يأتى:

مرسوم بخصوص تفويض القضاة النظر فى شئون القضاء.

مرسوم بخصوص عدم إعادة النظر فى القضايا التى مضى عليها ثلاثون عاما.

مرسوم بخصوص إثبات ملكية البائع قبل البيع.

مرسوم بخصوص تأكيد الأحكام السابقة وتمهيد الشروط اللاحقة.

مرسوم بخصوص قانون الوثائق الذى اتفق عليه جميع أئمة العصر.

ومضمون كل مرسوم من المراسيم المذكورة، يكون على هذا النمط الذى نكتبه فيما يلى:

---

(١) دفع الشيء: نحاه وأزاله بقوة. يقول الله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾. (انظر المعجم الوسيط، ج١، ص٢٨٩).

مضمون المرسوم بشأن تفويض القضاة

بسم الله الرحمن الرحيم

[ص٤٢٧] **مرسوم السلطان محمود غازان**

ألا فليعلم الحكام والملوك والأشخاص الذين كانوا حكاما فى الولايات الفلانية قبلنا، أننا قد عينا فلانا قاضيا لتلك الولاية وتوابعها، حتى تعرض عليه كل قضية أو أمر أو مهمة ليحكم ويقطع فيها برأى، ويحافظ جيدا على أموال اليتامى والغائبين. ومحظور على أى مخلوق كائنا من كان أن يتدخل فى عمله. والشخص الذى يزج به فى السجن الشرعى لا يطلق سراحه أى مخلوق، ولا تخالفه الجماعة التى يعهد إليها بالقيام بالمهمات والشئون الشرعية.

ولما كان حكم المرسوم الأعظم لجنكيز خان يقضى بأن القضاة والعلماء والعلويين لا يدفعون الرسوم والضرائب، أمرنا بأن يعفى هؤلاء بناء على هذا من دفع الضرائب، وألا يأخذ الحكام منهم خيولا أو دواب البريد، ولا ينزلوا فى منازلهم، ولا يسمحوا للرسل بدخولها، وأن يدفعوا لهم مستحقاتهم دون تقصير. وسنة بسنة. وكذلك معاشاتهم طبقا لما ورد فى التوصيات والسجلات. وقد أمرنا شحنة الولاية بأن يجازى كل من يتفوه بكلام عنيف أو يجيب إجابة غير لائقة أمام القاضى، أو يحاول أن ينتقص من حرمته.

مسألة أخرى هى أنه لا ينبغى أن يطالب أى مخلوق القاضى بالحضور عنده. وإذا بت القاضى فى أمر من أمور الشريعة بناء على ما قدمه من دلائل ومستندات، فإن عليه ألا يتقاضى [ص٤٢٨] شيئا من أى مخلوق فى مقابل ذلك مهما كانت الأعذار والعلل. وإذا كتب وثائق جديدة، فإن عليه طبقا لحكم المرسوم الذى أصدرناه على حدة أن يحضر الوثائق القديمة إلى "طاس العدل"(١)، ويرميها فيه حتى يمحوها، وتزول كتابتها، ولا يستمع للدعاوى القديمة التى لم يبت فيها منذ ثلاثين سنة، ولا يهتم كذلك بالوثائق القديمة التى دونت قبل ثلاثين سنة، وذلك بمقتضى حكم المرسوم والشرط الذى نصصنا عليه على

(١) طاس العدل عبارة عن وعاء كبير مملوء بالماء تلقى فيه الوثائق الخطية كى تمحى وتتلف.

حدة فى هذا الباب. وعندما يحضرون إليه مثل هذه القبالات القديمة لا يعطيها الخصوم والمتنازعين، بل يغسلها فى طاس العدل.

مسألة أخرى هى ألا يستمع لقضية المزور المدلس. والشخص الذى يقدم على ذلك تحلق لحيته، ويحمل على ثور، ويطاف به فى المدينة، ويعزر تعزيرا[1] تاما. وبعد هذا لا يدون له محضر. وإذا دون لا يؤخذ به، ولا يلتفت إليه.

ومسألة أخرى وهى أنه إذا مثل خصمان أمام القاضى، وجاء كلاهما فى حماية أحد الأشخاص، أو أنهما أحضرا معهما إلى دار القضاء جماعة من ذوى النفوذ بقصد الوقوف إلى جانب الخصمين أو أحدهما، ومحاولة الضغط والتأثير على القاضى، فإنه فى هذه الحالة لا يستمع لقضيتهما، ما لم يغادر هؤلاء قاعة المحكمة. وقطعا لا ينظر القاضى فى القضايا الشرعية ما دام حماة الخصوم حاضرين.

مسألة أخرى بخصوص الدعوى بين اثنين من المغول أو بين مغولى ومسلم. وبخصوص القضايا التى يصعب القطع والفصل فيها قال السلطان: لقد أمرنا بأن يجتمع يومين فى كل شهرين الشحن والملوك والكتاب والقضاة والعلويون والعلماء فى المسجد الجامع بديوان المطالعة حيث يستمعون إلى الدعاوى ويتعمقون فى فحصها. ثم يفصلون فيها طبقا لأحكام الشريعة، ويكتبون محضرا، ويدونونه فى السجلات. ثم يوقعون بشهادتهم على صحة ما كتبوه؛ **[ص٤٢٩]** حتى لا يكون بعد ذلك مجال لطعن أى مخلوق، ولا يستطيع إبطال ما أبرم.

مسألة أخرى تتعلق بالعقار الذى يدور حوله كلام وادعاء وينشب شجار ونزاع، فإنه لا تتدخل بشأنه أمهات الأحفاد ولا الخواتين والأبناء والبنات والأصهار، وأمراء التومان والهزاره والصده والدهه (أى قواد الكتائب المكونة من عشرة آلاف وألف ومائة وعشرة)

---

(١) يقول الماوردى عن التعزير: "التعزير تأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود. وأما صفة الضرب فى التعزير فيجوز أن يكون بالعصا وبالسوط. ويجوز فى نكال التعزير أن يجرد من ثيابه إلا قدر ما يستر عورته ويشهر فى الناس وينادى عليه بذنبه إذا تكرر منه ولم يتب. ويجوز أن يحلق شعره ولا يجوز أن تحلق لحيته. واختلف فى جواز تسويد وجوههم فجوزه الأكثرون، ومنع منه الأقلون (الأحكام السلطانية ص ٢٣٦ ٢٣٩ بيروت ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م).

وكذلك المغول الكثيرون وكتاب الديوان الكبار والقضاة والعلويون والعلماء والشيوخ والرؤساء، فلا يشترون هذا العقار. وطبقا للمرسوم الذى أصدرناه يحتاط القاضى الفلانى احتياطا بليغا، فلا يحرر قبالة باسم هذه الجماعات المذكورة، وذلك فى حالة كل عقار أو معاملة تكون محل خلاف ونزاع. وإذا رأى شخصا آخر يحرر هذه القبالة، فإن عليه أن يمنعه.

مسألة أخرى بخصوص الصداق (المهر) الذى يؤخذ عند الزواج قال السلطان: "لقد قررنا قبل هذا أن يكون الصداق "تسعة عشر دينارا ونصف دينار"[1]، ولا يؤخذ أزيد من هذا الصداق.

مسألة أخرى تتعلق بالولاية التى تتبع القاضى فلان، وينظر فى قضاياها. تبحث هذه القضايا فما كان منها بعيدا عن المدينة فى هذه الولاية، ومن المناسب أن ينصب لها قاض للنظر فيها، يعين قاض ثقة لهذه المدينة، ويؤخذ منه الحكم على النحو المذكور. وعليه فى كل شهر أن يتخذ سبيل الاحتياط عند النظر فى شئون المتقاضين كى يحافظ على طريق الشريعة وتحرى الصدق، وذلك بموجب المرسوم الذى أصدرناه حتى لا يكون غافلا عن ذلك، وأن يأذن بتحرير القبالات، وينفذ حكم الشرع، وترسل إليه نسخة فى كل شهر. أما النواحى الداخلة فى نطاق القرى، ونصب لها قاض، فإنه ليس له حق النظر فى الدعاوى والقضايا، ولا يحكم فيها، ولا يدون سجلات العقارات. **[ص٤٣٠]** كذلك لا يحرر ورقة أخرى قط فيما عدا ما يتعلق بقراءة الخطبة، وصكوك القروض ووثيقة الصداق. وإذا تصادف أن وجدت قضية معقدة أو دعوى خطيرة، فعلى القاضى أن يأتى إلى المدينة ويعرضها على قاضيها كى يفصل فيها.

مسألة أخرى: ينبغى أن يعين رجل ثقة متدين ليحرر تاريخ الوثائق، ويكون له سجل وعليه أن يحتاط احتياطا تاما عندما يحاول شخص آخر أن يفعل ذلك. وهذا الشخص المخالف تحلق لحيته ثم يطاف به فى أنحاء المدينة. كذلك إذا عرف مسجل التواريخ شيئا عن هذه القضايا وفهمه، لكنه أخفى الحقيقة، فإنه يكون آثما، ويستحق الإعدام.

تحريرا فى التاريخ الفلانى. والسلام.

---

(١) اختلف أهل العلم فى المهر؛ فقال بعضهم: المهر على ما تراضوا عليه، وهو قول سفيان الثورى والشافعى وأحمد وإسحاق. وقال مالك ابن أنس: لا يكون المهر أقل من عشرة دراهم. (انظر سنن الترمذى، ج٢، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ص٣٩٠، المدينة المنورة، بدون تاريخ).

نص المرسوم المتعلق بعدم النظر فى القضايا التى مضى عليها ثلاثون عامًا

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى وميامن الملة المحمدية

فرمان السلطان محمود غازان

فليعلم قضاة البلاد أن كل همتنا مصروفة ومقصورة على أن نرفع عن الخلق الظلم والتعدى والادعاءات الباطلة والخلافات والمنازعات وأن يمضى العالم والعالمين وقتهم، وهم فارغو البال، فارغو الحال، وأن تصل آثار عدلنا إلى الخاص والعام والبعيد والقريب، وتصير عامة شاملة، وأن يقضى على مواد الخلاف والنزاع من بين جمهور الخلائق وأن توضع الحقوق فى موضعها، وتغلق نهائيًا أبواب التزوير والتمويه والاحتيال. ولهذا السبب أرسلنا مرارًا المراسيم إلى جمهور القضاة والعلماء الذين تقلدوا الأمور الشرعية، وتصدوا للأشغال الدينية حتى يفصلوا فى الدعاوى، ويقضوا على الخصومات بين كافة الخلق على نحو يكون متفقًا مع مقتضى قواعد الشريعة، وموجبًا لقوانين العدل. ويمكن أن يكون خاليًا من الشوائب والتزوير والمداهنة [ص٤٣١] والميل والهوى. ومن بين ما هو أهم وأجدر أن يمعنوا النظر فى المحاضر المزورة والصكوك والسجلات المموهة، ويتقصوا حقائق الأمور والأحوال ويصلوا إلى غورها.

وإذا ما بدت على تلك الحجج مظاهر قدم العهد، ولم يراع ذلك جيدًا القضاة والحكام السابقون فإن على القضاة الحاليين الحذر التام؛ بحيث لا يتهاونون دقيقة واحدة فى اتخاذ شروط الاحتياط. وكذلك فيما يتعلق بالحجج التى مضى عليها ثلاثون سنة ولم يبت فيها واعتبرها كل مزور ومغرض سندًا وحقًا مكتسبًا، وصار يتعب الناس، ويشق عليهم، ولم يستطع القضاة تدارك ذلك رغم الشروط المنصوص عليها. وكذلك قبل هذا فى عهد السلاطين السابقين ذكر فى كل الفرمانات والمراسيم، ألا يستمع إلى الدعاوى التى مر عليها

ثلاثون عامًا. ورغم هذا فإنه حتى الآن لم ينفذ هذا الشرط، ولم يصلوا إلى كنه الموضوع ولم يتداركوا ذلك تداركًا كليًّا. أما فى هذا العهد فقد تفحصنا هذا الأمر من قضاة الإسلام فعرضوا علينا بالحق والصدق حقيقة الأمر. وحيث إننا أردنا أن نحكم تلك الأمور بين المتخاصمين وبين القضاة من جهة أخرى، حتى لا يستطيع أحد قط أن يصر على الباطل ولا يستطيع أن يقنن الحجج القديمة الباطلة التى مضى عليها ثلاثون سنة. ولتلافى هذا أشرنا على قضاة الإسلام بأن ينظروا فى الوثيقة التى تناسب الشرع والصدق. وحتى لا يحيد شخص قط عن الحق، ولا يستطيع أيضًا جماعة الأقوياء المستبدين الإلحاح والتأثير عليهم؛ وذلك بأن يسألوا أسئلة مضللة وغير مشروعة، ولا يستطيعون أن يشقوا على القضاة والأئمة. ولقد كلفنا المرحوم السعيد القاضى فخر الدين الهراتى بأن يدون صورة الحجة وأن يكتب على ظهرها ذلك المرسوم؛ بحيث لا تطرأ زيادة أو نقصان على ما هو مقرر. ثم تحضر هذه النسخة إلى الخزانة لتكون نصب أعين المسئولين. والغرض من هذا الفرمان وتلك الوثيقة المسطر على ظهرها المرسوم أن تكون دليلاً للخاص والعام، فيخشى الجميع التحريف والتبديل، ولا يستطيع الأقوياء المستبدون الإلحاح على القضاة كى يتركوا الدعاوى الباطلة والمتنازع عليها، ولا يحوموا حول كل ما هو خارج عن هذا الحكم وتلك الحجة المنصوص عليها فى ظهر الوثيقة. وإذا خالف القضاة ذلك عزلوا من مناصب القضاء ويكونون آثمين إلى أن يعرفوا الحقيقة. وأنا لن أستمع إلى أى عذر منهم. وإذا ألح عليهم شخص قوى مستبد، وأصر على رأيه، ولم يراع [ص٤٣٢] القضاة هذه التعليمات المدونة على ظهر الحجة ولا يحكمون بموجبها، فعلى المسئولين أن يكتبوا أسماء هؤلاء المستبدين ويرسلوها إلينا كى نعتبر هؤلاء الأشخاص مذنبين ونعاقبهم ليكونوا عبرة للعالمين.

كتب فى الثالث من رجب الأصم فى سنة تسع وتسعين وستمائة (٦٩٩هـ – ١٢٩٩م) فى موضع "كشّاف".

نص الوثيقة التى كتبت على ظهر المرسوم المذكور

لما كانت الهمة العالية والرأى السديد لملك العالم والعالمين وملك ملوك الإسلام والمسلمين، المخصوص بعناية الرحمن، غازان خان لا زالت دولته الحالية متمتعة بالدوام آخذة فى الزيادة، غير بالغة النهاية. ومنذ بدء ظهور دولته، وهمته مقصورة ومصروفة إلى أعمال الخير والبر، وعنان عنايته وعاطفته موقوفة ومعطوفة نحو إصلاح حال الرعية؛ بحيث إنه فى عهد دولته وزمان حكمه وسيطرته، يمضى العالم والعالمين أيامهم، وهم فارغو البال مرفهو الحال. وإن آثار كمال عدله ومخايل وفور عاطفته ومرحمته لتشمل الخواص والعوام والبعيد والقريب والترك والتازيك. كذلك تنحسم بل تزول مواد الخلاف والنزاع من بين جمهور الخلق فى كل المعاملات، وتستقر الحقوق فى مواضعها، وتسد أبواب التزوير والمكر والاحتيال سدًا نهائيًا.

ولهذا السبب توجه السلطان بمخاطبة جمهور القضاة والعلماء الذين يتقلدون الأمور الشرعية، ويتصدون للأشغال الدينية، وذلك فى مضامين المراسم السلطانية ومدلولاتها والمختومة بالأختام المباركة لا زالت نافذة فى مشارق الأرض ومغاربها. فالسلطان فى حديثه إلى هؤلاء يحثهم على أن يفصلوا فى القضايا، وينهوا الخصومات بين عامة الخلق حسب ما تقتضيه قواعد الشريعة، وتوجبه قوانين العدل والإنصاف، حتى يمكن أن يكون حكمهم مقدسًا وبعيدًا عن شوائب التزوير والتمويه والميل والهوى والمداهنة. ومن جملة ذلك أيضًا عليهم أن يمعنوا النظر فى المحاضر المزورة والصكوك والسجلات المموهة، ويكشفوا عن حقيقتها ويصلوا إلى غور الأمور بقدر الاستطاعة والقدرة **[ص٤٣٣]**.

وإذا ما بدا على تلك الحجج مظهر قدم العهد، فإن على القضاة الحاليين - على سبيل حسن الظن بالقضاة والحكام السابقين - ألا يهملوا دقيقة قط من شروط الاحتياط ومراسمه، والتحقيق والتفتيش، فلا يعولوا على تلك الحجج؛ إذ إن كثيرًا ما يحدث أن يمتلك شخص عقارًا أنشأه أو أحدثه أو أنه آل إليه عن شخص آخر. وقد دونت وثائق وحجج شرعية تدل على ملكيته واستحقاقه. وبناء على حكم القضاة وحكم الشرع صار

العقار مؤكدًا ومسجلاً. وبعد مدة مديدة انتقل منه إلى غيره بناء على حكم شرعى، ثم انتقل من ذلك الشخص إلى آخر، وهلم جرا. هذا على حين أن تلك الحجج بقيت فى منزل المالك الأول. ثم مضت إلى أيدى عدد من الورثة. وبعد مدة طويلة وعهد متكامل ينتهز أحد الورثة هذه الفرصة، ويظهر تلك الحجج ويحتج بها قائلاً إنه فى التاريخ الفلانى، كان هذا العقار ملكًا لجدى، واليوم آل إلىّ بحكم الإرث. ثم تشهد جماعة بتأثير جماعة أخرى على صحة استحقاقه. وبذلك تطول بينهم المنازعات والمجادلات، الأمر الذى يترتب عليه أن بعض القضاة فى بعض الولايات ممن لم يكن لهم قدم راسخة ونصاب كامل من الدين والتقوى وعلم الفقه والفتوى لا يصلون إلى غور الأمور، ولا يميزون بين الحق والباطل. ويمكن أن يصدروا حكمًا يؤدى إلى ضياع حقوق المستحقين.

بناء على هذه المقدمات فإنه قبل هذا، حكم السلاطين السابقون – سقى الله ثراهم وجعل الجنة مثواهم متجنبين أمثال هذه الاحتمالات بحيث إنهم لا يسمعون ولا يعتمدون على القضايا التى مضت عليها مدة ثلاثين سنة، وهى التى يطلقون عليها "جيلاً واحدًا" ولا يصدرون حكمًا قبل اتخاذ الحيطة والتحرى. ومن بعد هؤلاء السلاطين صدر مرسوم الإيلخان الأعظم أرغون خان، يقضى بتنفيذ تلك الأحكام.

وحيث إنه كان يُرجع فى هذا الخصوص إلى أقوال الأئمة واجتهاد العلماء، علم أن جمعًا صغيرًا، وآخر كبيرًا من الأئمة والعلماء [ص٤٣٤] قد اتفقوا واتحدوا فى الرأى على أنه إذا كان هناك شخصان فى مكان واحد، وكان أحدهما متصرفًا فى عدة ضياع. وكان يوجد فى ذلك الموضع حاكم عادل وقاض نافذ الحكم، ولم يكن هناك مانع أو وازع آخر من إقامة الدعوى وإظهار الاستحقاق، ومضى على ذلك ثلاثون سنة كاملة، ولم يدع أحدهما على الذى كان متصرفًا وواضعًا يده على العقار، ولم يتمكن بعد ذلك من إقامة الدعوى فإن القاضى فى هذه الحالة لا يستمع لدعواه ولا يقبلها. وقد نص على هذا صراحة بقوله: "والآن أنا القاضى فلان، وحاكم الشرع ىى الولاية الفلانية قد حررت هذه الوثيقة، وتعهدت بأن أنفذ من بعد هذا التاريخ كل ما هو مسطور فى هذه الرقعة وألا أتجاوز ولا أحيد عن الاستماع إلى الدعاوى، والفصل فى المرافعات والبت فى الخصومات بما يقتضيه الشرع المحمدى، وأن أجد وأجتهد بقدر المستطاع والإمكان، وبذل أقصى

الغاية والنهاية في تحرير الدعاوى وتنقيحها، وتفتيش الحجج والوثائق الشرعية وتحقيقها ولا أسمع أى شكوى تعرض بعد مدة ثلاثين سنة بتلك الأوصاف التى سبق ذكرها، ولا أعيرها التفاتًا، ولا أهتم بها. وإذا ما خالفت شرطًا من هذه الشروط، فإننى أصير مستوجبًا الزجر والتأنيب، ومستحقًّا الضرب والعزل. وقد أشهدت على هذا جماعة من العدول والثقات، وذلك فى تاريخ كذا.

نص المرسوم بخصوص إثبات ملكية البائع قبل البيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى وميامن الملة المحمدية

فرمان السلطان محمود غازان

فليعلم الحكام والملوك والقضاة والكتاب والنواب والأئمة والأعيان والسراة والوكلاء وجمهور رعايا الولايات أنه بموجب نص قوله تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾ [1]، وقول المصطفى صلوات الرحمن عليه: "عدل ساعة خير من عبادة أربعين سنة"[2]، تكون كل همتنا وعزيمتنا [ص٤٣٥] ورأينا السلطانى مصروفًا إلى رفاهية عموم الخلق. وإن إرادتنا هى أن ينتشر فى العالم عدلنا وإنصافنا، وألا يستطيع أى قوى أن يظلم ضعيفًا ويضطهده، ولا يطل حق أى مستحق بطريق الاحتيال وأنواع التدليس والتمويه، وأن تزول أنواع المنازعات من بين الخلق.

---

(١) الآية بأكملها: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (سورة ص، آية ٢٦).

(٢) وردت صيغة هذا الحديث على هذا النحو: "عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة". رواه الديلمى عن أبى هريرة، وأسنده من طريق أبى نعيم بلفظ: "عدل حكم ساعة خير من عبادة سبعين سنة". (انظر كتاب كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للمفسر المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلونى الجراحى، ج٢، ص٥٨، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٣٥٢هـ).

ولما كنا نفكر في شئون الإدارة والإعداد والترتيب ووضع قاعدة لكل أمر، تبين لنا أن واحدًا من جملة معظمات الأمور وأنواع المنازعات والخصومات بين العالمين هو الادعاء الباطل بسبب القبالات القديمة والصكوك والأملاك الأصلية الخالصة المكررة التي تبقى في يد كل شخص. وتوضيح ذلك أن شخصًا يمتلك عقارًا. ولمصلحته أعد قبالته من نسختين أو أنه يمتلك أملاكًا كثيرة، هيأ لها وثيقة جامعة جعلها من نسختين؛ بحيث يمكن بعد ذلك أن تقسم التركة بين ورثة ذلك الشخص، ثم تنتقل تلك الأملاك إلى أناس آخرين مختلفين عن طريق البيع والانتقال. ثم يمر عليها زمن، وتبقى تلك المجموعة من القبالات والصكوك والأملاك الخالصة الأصلية أو بعض منها في يد البائع أو ورثته. ولكن بعد مدة لعدم أمانة هذا البائع راح يدعي أنه لا زال يمتلك هذه العقارات. ولا شك أنه فكر في هذا الأمر طويلاً، وعرف على أي نحو يقيم دعواه، وكيف يحرض الشهود على إثبات أحقيته. ولقد مهر في ذلك وأحكم خطته واختلق ألف شعوذة وحيلة. ومن المحتمل أن يكون قد غالط الشهود ومَوه عليهم الحقيقة، أو استشهد بجمع ممن لا أمانة لهم ولا دين. وإذا لم يقم البائع أيضًا بإقامة تلك الدعوى، فإن ورثته يجدون تلك الحجج في منزله، ولا يعرفون على وجه التحقيق أن أملاكه قد انتقلت إلى غيره، فيدعون ملكيتهم لها حسب ما ذكر. وحيث أن القبالات المسجلة محكوم بأنها للشخص الحي، وقد تعرض على القاضي مع الشهود، فتثبت صحتها عنده؛ لأنه يعرف أنها انتقلت إلى الغير بطريق شرعي. ومن المشهور أن القاضي يعجز بشهادة شاهدين. وإذا ما اعتمد عدد من القضاة المتقدمين الثقات المشهورين تلك الصكوك وسجلوها وكان الشهود العدول المشار إليهم أحياء وحاضرين، ولكنهم غافلون عن أنه قد حدث بيع بعد ذلك، وانتقل [ص٤٣٦] ذلك العقار وبقيت تلك الصكوك المكررة أو غير المكررة في يد البائع، ولم تسلم للمشتري، فيدلون بشهادتهم بالضرورة فيسجلها القاضي ويحكم بصحتها. ثم يذهب المدعي. واستنادًا إلى معاونة الأقوياء المستبدين، وبموجب القبالة التي حكم بصحتها حديثًا وتم تسجيلها يتصرف فيها، أو أنه يبيعها إلى هؤلاء الأقوياء فيتضرر المشتري بسبب ذلك. ونتيجة لهذه الأوضاع ينشب النزاع ويطول الخصام بين هؤلاء الأطراف.

وحيث إن صكوك الملكية تثبت بشهادة الشهود العدول، يكون تصرف المالك مراعى تمامًا فى الشرع، ونظرًا لأن الصكوك كثيرًا ما تتكرر وتبطل فى يد كل شخص، يصير الاعتماد عليها أمرًا مشكوكًا فيه ومبهمًا. ولما كان بعض ذوى النفوس يميلون إلى التزوير ويمارسونه فإن أفضل الوجوه أن يمثل أمام القاضى البائع منهم والمشترى وذلك عند بيع العقارات، وعليهما أن يحضرا الشهود العدول مع الصكوك التى تكون فى حوزتهما، فيثبت البائع ملكيته، ويشهد الشهود العدول الثابت صدقهم على أن ذلك العقار خاص بالبائع وتحت تصرفه، ويقولون: إننا لم نسمع ولم نعلم أن لأى شخص دعوى شرعية بالنسبة إلى ذلك العقار. ثم تغسل تلك الصكوك فى الماء. وإذا لم يكن لدى البائع والمشترى صكوك فإن على الشهود أن يشهدوا طبقًا لما هو مذكور، ويقرروا أن هذا العقار كان تحت تصرف البائع أو المشترى قديمًا أو حديثًا، ويقر البائع بأنه ليس لديه صكوك. وإذا ظهرت بعد ذلك تكون باطلة. ثم يسجل العقار له، وتكتب شهادة الشهود، ويسجلها القاضى ويحكم بصحتها. وبعد ذلك ينص على ثبوت الملكية أسفل حجة المبايعة. وإذا أقر أحد بحق فى النقل الشرعى، فإنهم يعترفون به أيضًا. وإذا ظهرت بعد ذلك بعض الصكوك لذلك العقار أو الملك الخالص أو المقسم بين البائع وأولاده أو أقاربه أو الآخرين، كل واحد منهم كائنًا من كان، [ص٤٣٧] فإن أى قاض من قضاة الإسلام لا يعيرها اهتمامًا. وعندما يراها فى يد أحد يأخذها منه بإلحاح وعنف ويمحوها. وإذا كان لأمثال هؤلاء سند قوى، أو كانوا فى حماية بعض الأشخاص، ولم يسمعوا كلام القضاة، فإن عليهم أن يبلغوا شحنة تلك المدينة كى يأخذها منهم بالعنف والزجر، ثم تغسل فى دار القضاء. وإذا قصروا فى ذلك فإنهم يكونون مدانين. وينبغى أن يقوم كتاب دار القضاء وحدهم لا غيرهم بكتابة الحجج والقبالات الخاصة ببيع العقارات. وعندما يجلس القاضى للحكم فى دار القضاء، فإنه من الضرورى أن يحضر طاسًا مملوءًا بالماء موضوعًا على كرسى، أسميناه "طاس العدل". ثم تطلب صكوك كل مبايعة ودعوى يتم البت فيها وتغسل بالماء. وإذا باع البائع جزءًا من أملاكه الخاصة الخالصة، وأبقى بعضها فى حيازته، فإن ذلك الجزء الذى قد تم بيعه، يكتب على ظهر الحجة بحضور القضاة والعدول، ويبين فيها أنه قد بيعت هذه المساحة من هذه العقارات المذكورة فى الحجة إلى الشخص الفلانى فى التاريخ الفلانى، حتى تكون تلك

الحجة ثابته فى يد المشترى. كذلك ينص فى حجة المشترى أن للبائع عدة أملاك، وأنه قد بيع بعض منها إلى هذا الشخص، ويظل يمتلك البعض الآخر. ولهذا السبب يبقى فى يد للبائع صك غير ممحو (غير مغسول).

مسألة أخرى: هى أنه إذا أدى شخص شهادة أو حرر كتابة تتعلق بمبايعة أو رهن. ثم أقام ذلك الشاهد فى وقت آخر دعوى على ذلك المشترى أو المرهون، فإنه لا يستمع له، وتحلق لحيته، ويركب حمارًا، ثم يطاف به فى أنحاء المدينة. وإذا باع شخص عقارًا لآخر كان قد رهنه قبل هذا، أو أنه أقر بحق شخص آخر فيه أو باعه فإن هذا التصرف يعتبر حالة من حالات التمويه، وإقرارًا بالغش، فلا يستمع له، وتحلق لحية الشخص المدعى كذبًا ويركب حمارًا ثم يطاف به فى أنحاء المدينة. وإذا باع شخص عقارًا أو رهنه ثم عاد ذلك الشخص نفسه مرة أخرى، وباعه لآخر أو رهنه فيكتشف هذا التزوير، ويتأكد من ذلك فإن أمثال هؤلاء الأشخاص يعدمون.

[ص٤٣٨] موضوع آخر هو أننا قررنا ألا يتوقع القضاة أن يأخذوا من أحد دانقًا واحدًا نظير قيامهم بالتسجيل والنظر فى الدعاوى حسب العادة المعهودة، وأن يقنعوا بالمرتب الذى قررناه لهم، وأن يأخذ الكاتب الذى يحرر الحجج درهمًا واحدًا عن كل حجة تبلغ قيمتها مائة دينار. أما ما يزيد على مائة دينار فإنه يتقاضى عنها مبلغًا يصل إلى دينار واحد، ولا يأخذ ما يزيد على ذلك أبدًا. ويتقاضى المدير الذى يقوم بمهمة الإشهاد نصف دينار عن كل حجة يتم تسجيل الشهادة عليها. ويكون هذا الرسم من النقد المتداول. ومهما تكررت الدعاوى، فإنه يقنع بهذا المبلغ. وكل محام[1] يأخذ شيئًا من كلا الطرفين يعزر أولا ثم تحلق لحيته، ويعزل من الوكالة.

مسألة أخرى بخصوص القضايا المحددة بفترة ثلاثين عامًا، أفردنا لها مرسومًا خاصًا، وبينا شروطها، فينبغى مباشرة العمل بموجبها. وكل قاض يحكم بخلاف المراسيم والأحكام التى أصدرناها يعاقب ويعزل. وأمرنا الحكام والملوك فى كل الممالك والمدن بأن يحضروا القضاة فى هذه المناطق، ويستردوا منهم الوثائق بموجب المرسوم الذى أرسلنا صورة منه، ثم يعيدونها.

---

(١) المقصود المحامى الذى تعينه المحكمة للدفاع عن المتهم.

والآن ينبغى استدعاء فلان وفلان من القضاة هناك وبمقتضى نص المرسوم المرسل تسترد منهما الوثائق، وترسل إلينا بصحبة هؤلاء الرسل.

كتب فى شهر كذا وسنة كذا.

نص المرسوم بخصوص تأكيد الأحكام السابقة وتمهيد الشروط اللاحقة

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى وميامن الملة المحمدية

فرمان السلطان محمود غازان [ص٤٣٩]

ليعلم قضاة البلاد أننا عندما أدركنا أن استقامة حال العالم والعالمين منوط بالتزام الأمور الشرعية، أرسلنا قبل هذا مرسومًا إلى كل الأطراف والجهات من البلاد ابتداء من نهر جيحون إلى حدود مصر بخصوص تدارك الخلل الذى يقع عند الفصل فى القضايا يحتم على القضاة التأنى والاحتياط التام فى تحقيق وتدقيق الأحكام الشرعية، وينبههم إلى ضرورة مراعاة اللوازم والشروط فيما يتعلق بفحص شئون المحاضر والحجج والوثائق والسجلات. وعند تنفيذ أحكام القضايا يحذرهم مما قد يشوبها من التزوير والتمويه والغش والتفويض وأنواع الحيل الأخرى، وأفهمهم وجوب عدم الالتفات إلى مجرد قدم الحجج أو إلى أحكام القضاة السابقين؛ إذ ربما لم تكن تخلو من تساهل أو تحيز، وألزمهم العمل – بقدر المستطاع بالتزام الضوابط والدقائق الضرورية لسلامة البدن والنجاة فى الآخرة وصيانة العرض. وقرر هذه القواعد فى كل البلاد على رءوس الأشهاد مرة كل شهر؛ حتى ترتسم وتتوطد بالتكرار فى الأذهان، وينزجر أصحاب الادعاءات الباطلة من تلقاء أنفسهم ويسلكون طريق السلامة، ولا يبقى أيضًا مطمع للأقوياء ذوى النفوذ فى أن يحملوا القضاة على إصدار حكم بعيد عن جادة الصواب؛ خصوصًا بعد أن أكدنا ذلك الحكم. وأمر السلطان كذلك بأن تؤخذ خطوط كافة القضاة، حتى لا ينظروا بعد هذا إلى رغبة أى مخلوق، ولا يراعوا جانبًا قط غير جانب الحق جل وعلا وأن يبذلوا أقصى الغاية فى تنقيح الدعاوى وفحص الحجج والوثائق حتى يكونوا بمنجاة من فتن التزوير والتلبيس، وألا يتعرضوا للنظر فى كل دعوى مر عليها ثلاثون عامًا رغم تمكن المدعى، وبشرط عدم

الموانع التى تعترضها. وإذا قدمت دعوى بعد انقضاء تلك المدة، فلا يستمع لها بتاتًا، ولا يحكم فيها؛ لأن فساد مثل هذا الادعاء ظاهر وواضح، وسماعها أمر مستهجن.

وقبل هذا واجه سلاطين السلاجقة هذا الأمر. وبعون اجتهاد أئمة الوقت منع سماع مثل هذه الدعاوى وبعد ذلك كتب الأئمة والقضاة وعلماء الإسلام رسائل مستقلة فى هذا الشأن [ص٤٤٠]، وأكدوا تلك الأحكام. كما أن نسخها منتشرة فى الأطراف. كذلك صدرت مراسيم آبائنا فى هذا الشأن، ويجرى العمل بها لغرضين:

الغرض الأول: تأكيد تلك الأحكام، حتى يتحقق الرفقاء من شدة عنايتنا واهتمامنا باستقامة أمور الدين، وتزول من النفوس نقيصة التساهل والتهاون فى شئون الشرع، وتحل محلها فضيلة الصلابة وثبات القدم.

وليعلم الجميع على وجه التحقيق أن كل من يحيد عن هذه التعليمات سوف يعامل بنفس المعاملة التى عومل بها قاضى أردبيل، فإنه لما لم يحترز فى تنفيذ القضايا المزورة المموهة، أجهزوا عليه بالسيف على أبشع صورة، وأشنع حالة.

الغرض الثانى: حيث إن خاطرنا منصرف ومهتم دائمًا باستقامة أمور العالم وانتظامها وموجه إلى تحصيل وتكميل أسباب ذلك أردنا أن نلحق بالأحكام السابقة عدة أمور ضرورية نبلغها قضاة البلاد ونحثهم على وجوب العمل بها، حتى يسيروا بمقتضاها، ولا يتجاوزوها.

فأولاً وقبل أى اعتبار آخر ينبغى تأكيد الاحتياط بخصوص الاستماع للشهادة[1] التى يتوقف عليها مدار أكثر القضايا؛ إذ تبين أن القضاة يبدون تساهلاً فى هذا الشأن، ولا يجتهدون فى تحرى الدقة فيصدرون حكمهم بناء على هذه الشهادة دون توقف، أو دون أن يتطرق اطمئنان إلى نفوسهم، أو يغلب الظن ويطغى الشك على صحة الشهادة وسلامتها ويتمسكون بذلك، ويقفون عاجزين أمام شاهدَين، ولا يخشون مغبة هذا الإهمال. وقد

---

(١) الشاهد يعاون القضاء على أداء رسالته الاجتماعية، فمن غير الممكن أن يفصل فى دعوى على الوجه السليم ما لم يدل الشاهد بشهادته؛ ويعنى ذلك أن الشاهد يحقق مصلحة اجتماعية ترجح على من تسند إليه الواقعة فى الشرف والاعتبار. (انظر الموجز فى قانون العقوبات: القسم الخاص تأليف الدكتور محمود نجيب حسنى، ص٥٧٢ القاهرة ١٩٩٣م).

يتفق أن تكون القضية فى ذاتها خطيرة. ولكن لأنهم لا يعرفون الحقيقة ولا يحتاطون يصدرون حكمهم على هذا النحو، فيقضون بذلك على طائفة من الناس الوجهاء الأثرياء. ونتيجة لهذا يشتد ساعد المدعين؛ ذلك أن ثبوت الحق شرعًا، ولو أنه متوقف على شاهدين[1] [ص٤٤١]، إلا أن الشهادة مقيدة بشرط توافر العدالة. والعدالة أمر عظيم لا يتوافر إلا فى أفراد البشر، وعلى سبيل الندرة؛ إذ إن هوى النفس يستولى على أكثر الخلق. وإذن على القاضى أن يفكر دائمًا فى أن شهادة زيد أو عمرو لا تخلو من هوى النفس، أو انحياز إلى إحدى الجهات أو مراعاة جانب شخص من الأشخاص، ولا يجوز أن ينخدع بمجرد أن الشاهد يبدو فى سمت وصفة الرجال الصالحين، ويزين ظاهره بزخرف القول. وينبغى أن يستعمل سلامة التفكير ولطائف الحيل وصفاء الذهن فى استنباط حقيقة الحال واستخلاص ما فى باطن القضية. وفى هذا الإطار ينبغى أن يوضح كيفية الحال وإزالة الإبهام والإشكال. ولما كانت حكمة البارى عز اسمه فى خلق الكون قد اقتضت أن الباطل مهما خفى أمره فى الباطن، فإن آثاره تبدو فى الظاهر من فحوى ألفاظ القائل كما قال أمير المؤمنين على (رضى الله عنه) "كل ما يكون مستترًا فى باطن الأحمق يتضح من فلتات لسانه". وإذن فكل من يتعرض للغوص فى أعماق شخص من الأشخاص بذهن سليم، يستطيع أن يستشف الحقيقة من كلامه.

وبناء على هذه المقدمات، أمرنا بأن يتبع القضاة سبيل الاحتياط فى استماع كل شهادة يخالج الخاطر ريب فى قبولها. وينبغى أن يسأل كل من الشاهدين على انفراد كى يتبين التناقض فى أقوالهما لأن التشبث بتحقيق الأمور متوقف على تناقض أقوال المتكلمين. وبناء على هذا يسأل كل شاهد عدة مرات فى المجالس المختلفة، وتكتشف الأحوال من زوائد الكلام، ثم توضع الأسس بغية الوصول إلى النكات التى تكون فى الأسئلة المفيدة مثل التعرض للأزمنة والأمكنة وكمية المقادير وكيفية أحوال القضية، ولطائف الأسئلة التى يكون فى تحقيقها والوصول إليها مدخل لتحقيق الهدف، وحتى يظهر من هذا الاجتهاد أحد الغرضين المطلوبين، إما الصحة التى يمكن إصدار الحكم بموجبها. ويمكن الاعتماد

(١) يقول الله تعالى: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ (سورة البقرة، آية ٢٨٢).

عليها. وإما الشبهة التى توجب التوقف عن إصدار الحكم، ويكون ذلك سببًا فى النجاة من ورطة [ص٤٤٢] الحكم بالباطل. ولما كان أكثر الخلل الذى يحدث فى القضايا يقع بسبب تزكية المزكين الذين هم أنفسهم يفتقدون التزكية ينبغى اتخاذ المزيد من الاحتياط فى هذا الأمر. كذلك يلزم الرجوع إلى الفصل الذى كتب خصيصًا لشئون التزكية.

مسألة أخرى تتعلق بضرورة التأنى والتروى فى إبرام الأمور بشأن إصدار الأحكام وختمها؛ إذ إنه تقع شبه كثيرة فى هذا القسم. وأكثر القضايا التى تنفذ فى دوائرها ومناطقها، يقوم أصحابها بإثباتها لدى قضاة الولايات الأخرى. ونظرًا لأنه فى تلك المناطق الغريبة، لا يقع اطلاع دقيق على أسباب تلك القضايا وظروفها، ويخفى على القضاة صحتها وسقمها، إذ يختمون الوثائق دون تحر، ويرسلونها إلى القضاة الآخرين ليفتحوها ويصدقوا عليها، ويحكموا بصحتها. وبذلك يروج الباطل فى صورة الحق. ولا شك أن طريق الخلاص من هذه الورطة هو أنه فى حالة عدم اطلاع القضاة على ماهية القضية، وضرورة رفعها فى موضع قريب، ولم يحيطوا بظروفها إحاطة تامة، لا يسجلونها ولا يختمونها. وعلى الذى يفتح وثيقة الحكم، ألا يسارع بفتحها، وإصدار الحكم بشأنها، ما لم يعرف ضرورة الحكم لدى ذلك القاضى الذى ختم الورقة بختمه.

موضوع آخر يتضمن الاحتياط فى الأمور التى تتعلق بتحرير الحجج والوثائق وأنواع الكتب وأصناف التصديق على الأحكام والسجلات لأن ما يحرر فى أكثر الأحوال لا يخلو من خلل. كما أن سريان ضرر عدم الاحتياط يؤدى إلى إثبات الأباطيل وإبطال الحقوق. وهذا الخلل إنما يرجع إلى جهل الكتبة بلوازم الكتابة وشروطها. أو إلى تحكم الميول الشخصية أو محاباة جانب وترجيحه على جانب آخر. ولما كان من الواجب تدارك مثل هذه الأمور تداركًا تامًا، أمرنا جمعًا من القضاة والأئمة والعلماء الذين كانوا متصفين بدقة النظر بأن يقوموا متضامنين بحصر [ص٤٤٣] أعداد أنواع المكتوبات التى تكتب على سبيل الإجمال فى المحكمة؛ فحرروا نسخة لكل نوع وجمعوا المطالب كلها فى مجلد واحد يكون كامل الشروط، جامع الدقائق بعيدًا عن مواقع الطعن، واحتمال المعارضة، موشحًا بتمهيد مناسب ينطوى على فوائد كثيرة. ثم اعتمد هذا المجلد كبار الشخصيات وأعيان العلماء بتوقيعاتهم، وشهدوا على صحة تلك المقاصد. وعندما تمّ هذا الغرض استنسخوا من

ذلك نسخًا كثيرة، وأرسلوها إلى أطراف البلاد، حتى إذا ما دعت الحاجة إلى تحرير أى نوع من الفتاوى والأحكام والوثائق، أقدموا على كتابتها على تلك الصورة، وذلك بعد صدور حكم الحاكم، وبناء على إشارته. ويجب على قضاة البلاد أن يمعنوا النظر فيها أولاً على سبيل الاحتياط. وعندما يرونها مطابقة للمقصود، وتستقيم مع جادة الشرع المطهر يعتمدونها ويصادقون عليها بتوقيعاتهم، ويلتزمون بتنفيذ شروطها؛ حتى لا يتجاوزوا – فى المستقبل ما نص عليه فى كل باب منها، ويكتبوها حرفًا حرفًا. وحيث إن هذا الأمر قد تأكد سابقًا، وهو أنه عندما ينص على أن حكم الحاكم قد صدر بتحرير هذه الأحكام، لا يقوم الكتبة بذلك بناء على التكليف الصادر إليهم، بل يشعرون أيضًا بأنهم فى مثل تلك الأمور إنما يحققون محض الرحمة.

مسألة أخرى: فكما هو معلوم أن تساهل بعض القضاة وتراخيهم وعدم نزاهتهم قد بلغ حدًا خطيرًا؛ بحيث إنهم راحوا يصدرون حكمين متناقضين فى قضية واحدة بين خصمين كلاهما مسجل، ولم يفكر هؤلاء القضاة فى قبح ما يقدمون عليه، ولم يحترزوا من اكتشاف أمرهم. ولتلافى ذلك أمرنا بألا يسيروا فى المستقبل على هذا المنوال، لأى سبب أو تصريح وأن يهتموا بتلافى ما حدث. وإذا ما وقع مثل هذا الأمر فى محضر أى قاض فإن عليه أن يحضر الحكمين، ويجدّ فى الاحتياط لتحرى الحقيقة فى كل ما يتعلق بالقضية. وإذا كان محتاجًا إلى معاونة الأئمة، فليعقد اجتماعًا لتوضيح الأمر وفق القانون الصحيح، وتمكين أى طرف يتضح ويلوح الحق إلى جانبه، ويغسل الحكم الآخر فى طاس العدل. وإذا لم يُفصل فى تلك القضية فى حينها، ولم يصدر قرار حاسم بشأنها تودع على سبيل الوديعة **[ص٤٤٤]** لدى أمين المحكمة، ولا تسلم بتاتًا للخصمين، بل توقف حتى يفصل فيها؛ إذ إن ترك أمثال هذه الوثائق بيد الخصوم، لا يترتب عليه شيء قط سوى الفساد والفتنة والاختلال. وليس هناك شك فى أن كل خصم أو ورثته سوف يظهرون تلك الوثيقة عندما يجدون مجالاً للشبهة والالتباس فى وقت من الأوقات، ويبادرون بإقامة الدعوى. وربما لا تتوافر لدى القاضى الجديد الدلائل والشواهد على تلك القضية، فيحكم بالباطل. أما إذا احتفظوا بالوثيقتين، وتحقق الخصمان من أنهما لن تعادا إليهما، فإنهما سوف يحضران بالضرورة للمقاضاة، ويفصل فى الدعوى على النحو المقرر على وجه التحقيق. وبهذا يستقر الحق فى نصابه.

مسألة أخرى: سبق أن حكم السلطان ملكشاه بناء على اتفاق أئمة العصر واجتهادهم واستصوابهم، ودوّن ذلك من أجل مصلحة الناس. وقد نص على أن كل من وقف وقفًا خفية، أو كتب إقرارًا بتمليك أحد سرًا، وأخفى ذلك. ثم باع هو نفسه أو ورثته ذلك العقار المنصوص عليه في الوقفية أو المذكور في الإقرار. وبعد مدة أظهر هو أو ورثته تلك الوقفية أو ذلك الإقرار مدعيًا أنه قد اشترى ذلك العقار، فإن على قضاة البلاد ألا يستمعوا لتلك الدعوى، ويبطلوا الوقفية والإقرار. كذلك يجب عليهم تأديب المدعى وتعزيره. وعليهم أن يقروا الملكية للمشترى.

وبعد أن اجتمع جماعة من مشاهير الأئمة فترة من الوقت فى قزوين سجلوا بالاجتهاد مسائل الإصلاح التى أعدوها، والمنوط بها صلاح الخلق فوجب على القضاة العمل بها. ومن جملتها أن كل عقار يكون شرعًا فى يد أحد الملاك لا يسترد منه، [ص٤٤٥] بسبب ظهور عقد مخالف له، بل يبقونه فى يده.

ونحن أيضًا قد أمرنا قضاة البلاد بأن يسيروا على هذا المنوال، وألا يتجاوزوا هذا الحكم الذى اتفقوا عليه، وطلبوا بواسطته إقرار الحق.

مسألة أخرى: تتلخص فى أننا سمعنا أن بعض قصار النظر الذين تئول إليهم الأوقاف بشرط الواقف، يبيعون حق توليتهم إلى شخص آخر، ويفوضونه بسبب خديعة بعض الطامعين، فينشأ عن ذلك إلحاق الخراب والضرر بالواقف واختلال حاله. ولتلافى ذلك أمرنا بأن من يكون قد فوض إليه وقف بشبهة تتخذ وسائل الاحتياط فى مثل هذه الحالات، وذلك بالرجوع إلى شرط الواقف. فإذا كان الوقف متضمنًا إذن التفويض، فلا يتعرض لمن فوض إليه هذا الوقف، وإلا فإن على المسئولين أن يبطلوا هذا التفويض وأن يغسلوا وثيقة التفويض فى طاس العدل. وبعد هذا لا يعطون أى مخلوق مجال التفويض الذى لا يتضمن شرط الواقف فيه جواز ذلك. وجميع الذين يخالفون هذا سواء أكانوا مفوضين أم قابلين للتفويض أم محررين يؤاخذون ويعزرون.

موضوع آخر نقول فيه: إنه لا يخفى على الجميع أن غايتنا من تنفيذ هذه الأوامر ليست إلا رعاية جانب الحق جل وعلا وتقوية الشرع الإسلامى لا زال معظمًا وانتشار

الحق والعدل وراحة الرعية. كما أن هدفنا من التنبيه هو أن يقتفى القضاة آثار الحق والعدل، كما أن هدفنا من التنبيه هو أن يقتفى القضاة آثار الحق والعدل، وغرضنا من تكرار التحذير والتخويف هو جبر لحال الإنسان وليس تحطيمه، ورفع قدر القضاة لا الحط من شأنهم، وتكريمهم لا إهانتهم. وإذن فالأولى أن يستمعوا لهذه التعليمات طائعين، وأن ينتفعوا بما جاء فيها، وأن يتأكدوا من أن كل من يعمل بها، ويرجح جانب الحق، ويصون منصب الشرع الشريف من شين التلبيس، ويتخذ الاحتياط التام فى الفصل فى القضايا سوف يكون مشمولاً بعطفنا إلى جانب الأجر الجزيل والذكر الجميل.

[ص٤٤٦] أما كل من لم يؤثر فيه العديد من البلاغات والبيانات والتأكيدات والتشديدات؛ فإننا لن نهتم بعد هذا بتجديد المرسوم بخصوص هذه الأمور. وسوف نتبع مع المخالفين طريقة "السيف أصدق أنباء من الكتب" لتصريف الأعمال حتى يعرف الجميع الحقيقة. وفى ذلك كفاية لمن يعتبر. فعلى الأمير الفلانى والحكام الذين يصل إليهم هذا المرسوم مع نسخة من الدستور أن يسلموهما للقضاة، ويأخذوا بهما إيصالاً. ثم ينسخون صوراً من كل منهما، ويسجلون عليها صحة المقارنة، ويرسلونها إلى الولاة والأكابر وقضاة الولايات. ثم تودع لديهم ليطلعوا عليها ويقيموا الحجة على المذنب، ويسيروا فى المستقبل على هذا المنوال. وهكذا يعملون حتى تتحقق هذه الأمور، وتتضح لدى الجميع.

الحكاية الخامسة عشرة

فى منع تحرير القبالات غير المشروعة وإبطال الحجج القديمة

قبل هذا فى عهد الخلفاء والسلاطين – أنار الله براهينهم – كان المسئولون يبذلون كل ما فى مقدورهم بخصوص ازدهار شئون القضاء وقوانين الشريعة ويحتاطون احتياطًا تامًا فى هذه الأمور، ويختارون الرجال المتدينين من العلماء والفضلاء من أهل الثقة الجديرين بتقلد منصب القضاء. وكان هؤلاء أيضًا بدورهم يحرصون على أن يجعلوا المتدينين الشرفاء من العلماء المشهورين يلازمون دار القضاء. فلا غرو أن كانت الأمور الشرعية والقضايا الدينية تبرم وفقًا لأوامر الله تعالى ورسوله عليه السلام. وبذلك استقرت حقوق الخلق فى مواضعها، وأغلقت تمامًا أبواب الظلم والحيف.

وعلى هذا لم يعد هناك مجال للأخساء والمارقين الطامعين والفضوليين المزورين كى يحوموا بأى وجه حول أمثال هذه الأعمال الخطيرة متذرعين بأنواع الحيل والتلبيس. وعلى هذا لم يكن لمثل هؤلاء الأشخاص قدرة على التردد على المجامع والمجالس، ولم يلتفت إليهم أى مخلوق.

ورغم ذلك الضبط والترتيب الذى كان متبعًا فى عهد السلطان السعيد ملكشاه – طاب ثراه فإنه لا يزال فى أيدى الناس كما هو الحال الآن ايضًا كثير من القبالات القديمة المكررة والخالصة الملكية فكانوا يحملونها إلى القضاة، ويلجأون إلى الحيل [ص٤٤٧] التى تلزم القضاة بضرورة الاستماع إليها والنظر فيها. وعن طريق تقديم بعض الهدايا[1] المتواضعة يستطيعون ترويج الباطل فى صورة الحق. ولما كانت المتاعب تحل بالناس لهذا السبب، ثم يتضح بعد ذلك أن تلك الدعاوى كانت باطلة، وأن الوثائق ومستندات الأملاك

---

(١) يقول الماوردى: "وليس لمن تقلد القضاء أن يقبل هدية من خصم ولا من أحد من أهل عمله، وإن لم يكن له خصم لأنه قد يستعديه فيما يليه". (الأحكام السلطانية، ص٧٥).

القديمة والخالصة الملكية قد انتقلت من قبل إلى الآخرين، بلغت تلك الدعاوى والشكاوى مرات ومرات مسمع السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك، فتأكدوا أن الذريعة التى يتمسك بها هؤلاء المزورون إنما هى القبالات القديمة المكررة والخالصة الملكية التى بقيت بعد أصحابها الأول فى يد المالك أو ورثته. وبتمادى الأيام، لم يقف على أحوالها أحد. وفجأة يبرز أحد أبناء المالك تلك القبالة، فيقيم الدعوى. ويمكن أن مشترى تلك الأملاك أو ورثته لم يروا تلك القبالات، أو تكون قد فقدت، أو أنها نهبت أثناء الغارات، أو أنها أيضًا تكون قد سرقت من آباء المشترى وسلمت للبائع. وهؤلاء لعلمهم أن القبالة المتنقلة الشرعية ليست فى أيديهم ومع هذا يقيمون الدعوى بقبالتهم القديمة، ويثبتون بها أحقيتهم زورًا. وهكذا فإن أمثال هذه الحالات كثيرة ومتعددة.

وقصارى القول فإن السلطان ملكشاه والوزير "نظام الملك"[(١)] عندما وقفا على تلك الأوضاع، كتبا منشورًا حسب ما يقتضيه الشرع. وقد صرح السلطان بأنه ليس لأحد أن يقيم الدعوى، ولا أن تُسمع دعواه استنادًا إلى القبالات القديمة التى مر عليها ثلاثون عامًا. ثم سلم ذلك المنشور إلى جميع مفتى خراسان والعراق وبغداد؛ فأفتوا فيه وفقًا لأحكام الشريعة. بعد ذلك أرسله إلى دار الخلافة لتوقيعه ولا زال ذلك المنشور موجودًا حتى الآن ونسخه منتشرة فى الأطراف. ولما كان القضاة وأصحاب دار القضاء على هذا النحو الذى ذكرناه فإن مثل هؤلاء القضاة المتدينين الثقات والسلطان والوزير تحيروا من أفعال هؤلاء الأشرار، فاضطروا إلى إصدار مثل هذا المرسوم.

---

(١) للحصول على تفصيلات عن الخواجه نظام الملك الطوسى وزير السلاجقة الكبير انظر: المؤرخ الإيرانى الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو فى كتابه دستور الوزراء تأليف وترجمة وتعليق الدكتور حربى أمين سليمان ص٢٤٥ ٢٦٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م؛ الوزارة فى عهد السلاجقة تأليف عباس إقبال وترجمة الدكتور أحمد كمال الدين حلمى، ص ٦٩ ٨٣، مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٨٠م؛ سياستنامه أو سير الملوك، تأليف نظام الملك الطوسى وترجمة الدكتور يوسف حسين بكار، مقالة الدكتور غلام حسين يوسفى بعنوان: تصدير: السياسى العجوز، ص١٣ ٤٢، الدوحة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م؛ مجلة الدراسات الأدبية فى الثقافتين العربية والفارسية: مقالة بعنوان المدرسة النظامية فى بغداد للأستاذ سعيد نفيسى، ص ٦٧ ٩٣، الجامعة اللبنانية: قسم اللغة الفارسية وآدابها، السنة التاسعة العددان ٢،١ الربيع والصيف ١٩٦٧م.

وقد اتفق أنه فى عهد المغول علم بالتدريج أن القضاة والعلماء يُعرفون بمجرد لبسهم العمامة والدرّاعة[1]. ولكن من المقطوع به [ص٤٤٨] أن المغول لم يكونوا يعرفون كيف يميزون هذه الطبقة من غيرهم. ولهذا السبب ارتدى الجهال والسفهاء الدراعة والعمامة بكل وقاحة وراحوا يلازمون المغول. وسرعان ما نالوا شهرة لديهم، وذلك بأنواع التملق والتزلف والرشوة. وقد تدخلوا فى شئون القضاء وتقلدوا المناصب الشرعية، وحصلوا على المرسوم فى هذا المجال.

ولما استمر الحال مدة على هذا النحو كف العلماء الكبار المتدينون ذوو الشرف أيديهم عن تلك الأشغال والأعمال؛ إذ كيف يوافق الرجال الكبار على أن يضعوا أنفسهم فى محيط هؤلاء الأشخاص غير أن الوزراء والحكام التازيك لم يكونوا يتخلون عن طائفة العلماء الكبار الشرفاء، والذين كانوا فى قمة الشهرة، فصاروا يثنون عليهم دائمًا، ويمنعون كل شخص مفسد يحاول أن ينال منهم. ولهذا السبب بقى بعض القضاة الكبار المشهورين فى مناصبهم. وكانت أحوال الكثيرين منهم على النحو الذى شرحناه.

ولما كان الجهال والسفهاء الذين يبدون فى صورة العلماء كثيرين فى البلاد وكانوا يرون أن أمثال هؤلاء يتقلدون مناصب كبيرة، طفقوا يعارض بعضهم بعضًا. وقد لفت نظر المغول كثرة نزاعهم ومجادلاتهم. كما اتضحت وقاحتهم للجميع؛ فظن المغول أن جميع العلماء على هذا النحو، وبذلك ضاعت حرمة وهيبة كبار الشخصيات بل زالت كرامة أمة الإسلام بسبب هؤلاء الجهال، وصار الجميع سيئى السمعة أذلاء محتقرين. وكان كل أمير وعظيم يحمى واحدًا من هؤلاء الأشرار. وفى كل فترة ينصب أحدهم قاضيًا، ويعزل آخر. وقد بلغ الأمر ببعضهم أنهم كانوا يتقلدون منصب الفقهاء بالضمان، ويجب على القاضى أن يحكم بشفاعة هذا الأمير أو ذاك، وبناء على إلحاحه، ولا يأخذ شيئًا من أحد.

ولما كان منصب القضاء يؤخذ بالضمان والمقاولة، فإننا يمكن أن نعرف كيف كانت الأمور تجرى على أى وجه. وقد وضح هذا فى عهد گيخاتو خان الذى كان وزيره صدر الدين، ولقب نفسه بصدرجهان (صدر العالم) هذا على حين أن أخاه نصب قاضيًا للقضاة

---

(١) الدراعة: ثوب من صوف. وجبة مشقوقة المقدّم. (انظر المعجم الوسيط، جـ١ ص٢٨٠).

ولقب بلقب "قطب جهان" (قطب العالم). وتقلد الشيخ محمود منصب شيخ المشايخ وأسند إليه النظر في بعض الشئون الدينية، فبلغت غاية الكمال. كذلك كانوا يعهدون بالأعمال الشرعية إلى أشخاص عن طريق المقاولة. ولهذه الأسباب أدى الأمر في السنوات الماضية إلى فتح طريق الدعاوى الباطلة [ص٤٤٩] وكل مخلوق امتلك أو حاز عقارًا، صار وبالاً عليه. وكان أسوأ وأخطرمن مائة عدو؛ لأن المفسدين المحتالين الجياع كانوا يستغلون دائمًا القبالات القديمة وشهود الزور، ويلجأون إلى أنواع الحيل والتلبيس التي لا نهاية لها ويشقون على جماعة الرؤساء ذوي المناصب والجاه ويفضحونهم.

ولما كان القضاء بالضمان والمقاولة صارت تلك الأمور ملائمة لطبع القضاة والمشرفين على دار القضاء، فكانوا يثيرون المدعين ويخدعونهم بالوعود، ويهملون القضايا، ويؤجلون الحكم فيها شهورًا بل سنوات. وخلال تلك الفترة، كانوا يجنون ثمرة هذا التسويف وينالون بغيتهم من الجانبين. وهكذا تستمر الدعاوى والمنازعات، ويظل كثير من الأملاك موضع خلاف ونزاع لعدة سنوات. وكانت دار القضاء تنفق كل سنة مبالغ أكثر من العوائد التي تحصلها. وكان كل شخص يراوده الأمل، ويقول في نفسه: إن دعواى لا تزال قائمة فعليّ أن أدفع مبلغًا آخر حتى أنال بعض حقوقي عن طريق الوساطة والرشوة. ومن بين هؤلاء المنتفعين كان المتسولون يحصلون على هبات الخدمة وينالون الشهرة المزيفة. وحيث إنهم كانوا يرون أمثالهم قد صاروا في مصاف العظماء عن طريق الدعاوى الباطلة، وأن كبار القوم يمنحونهم شيئًا لصيانة أعراضهم، ولا يذهبون إلى دار القضاء. وهناك أيضًا جماعة يذهبون إلى دار القضاء مضطرين، فيأخذون شيئًا. ولقد فكر هؤلاء في أنفسهم أيضًا قائلين: حيث إننا لا نستطيع أن نحصل درهمًا واحدًا في كل يوم مع ما نستعمله من حيل كثيرة ومشقات بالغة، ليس هناك أفضل من هذه المهنة وهذه الصنعة. وبناء على هذا سلك الجميع هذا المسلك، فاحتفظ بعضهم بقبالاتهم القديمة، وصار البعض الآخر يقف إلى جانب غيره يؤيده بالوقاحة والسفاهة، وآخرون يتفقون مع شخص يستطيع تقليد أنواع الخطوط المشابهة لخطوط الآخرين ويحررون القبالات المسجلة، ويعاون أحدهم الآخر في هذا السبيل. هذا على حين أن هناك طائفة أخرى راحت تقلد المنشورات الصادرة عن السلاطين السالفين، وكذلك القبالات القديمة المكتوبة بخطوط مجهولة، والتي مر عليها مائة وخمسون سنة. ولو لم يكن للقبالة شاهد عدل، فإن كل واحد [ص٤٥٠] من هذه

الجماعة، كان يذهب إلى المحكمة فى حماية رجل مغولى أو واحد من أصحاب النفوذ وينازع الناس. وإذا لم يصدر القضاة حكمهم فى مثل هذه القضايا، فإنهم يلزمون الصمت مراعاة لمصلحتهم الشخصية، ولا ينطقون بكلمة الحق، ويبلغونهم الحكم سرًا على لسان أعوان المجلس قائلين: إن هذه الجماعة باطشة أيديهم، ولا نستطيع أن نجيب إجابة صريحة. وهكذا كانوا يمضون يومهم بهذه الطريقة. وفى مقابل ذلك كانوا يأخذون شيئًا. وإذن فهذه القضية كانت مثل الطاحون كلما زاد دورانها تصير أحدَّ وأقوى. وقد وصل الأمر إلى حد أن ظهرت فى البلاد دعاوى كثيرة باطلة لا تعد ولا تحصى.

وعندما كان المدعى بالباطل يحتمى بأحد أصحاب الأيدى القوية فإن المدعى عليه المسكين والمالك الحقيقى للعقار يضطر إلى الاستعانة بحماية رجل آخر من ذوى السلطان خوفًا على ماله وعرضه، فيستتبع ذلك بالضرورة أن ينشب النزاع وتسود الخصومة بين الشخصين القويين. وهذه طبيعة الزمان منذ قديم الأيام أن يستعمل السيف من أجل المحافظة على المِلك. وقد بلغ الشؤم بهؤلاء القوم إلى حد أن أكثر ذوى النفوذ شرعوا هم الآخرون ينازع الواحد منهم الآخر، ونشبت بينهم الخصومات مما يؤدى إلى استعمال السيف. وكان أكثر تلك المنازعات يحدث بوجه خاص إذا ما باع المغتصب القرية – التى يعادل ثمنها عشرة آلاف دينار وهى ملك لصاحبها الحقيقى لأحد ذوى النفوذ بثلاثين أو مائة دينار ذهبى. وقد استقر فى ذهنه أن هذه القرية كانت ملكًا له. وهى الآن على حد قوله "فى حيازتى". كذلك راح بعض خطباء القرى وغيرهم يؤيدونه جهلا ومروقًا، ويقولون: "إن هذا البيع صحيح والقرية ملك خاص لك".

وحيث إن المغول على خلاف ما كانوا عليه فى العهود السابقة قد ظهرت فيهم رغبة اقتناء الأملاك، واشتد سعيهم فى هذا السبيل فأدى الأمر إلى أن برزت مشكلة الأملاك دفعة واحدة، وصارت فى مقدمة القضايا المقلقة، وأصبح جميع الناس غير آمنين على أعراضهم وأرواحهم، وعجز القضاة المتدينون من أفعال تلك الفئة من المفسدين المزورين ولم تكن لهم قدرة على تدارك تلك الأوضاع. فصاروا دائمًا يلتمسون الخلاص [ص٤٥١] من حضرة الحق تعالى.

فلما وصل العهد المبارك لسلطان الإسلام خلد سلطانه وشاهد ذلك الأسلوب المذموم، فكر فى تداركه، فأصدر فرمانًا، وكلف نقلة الأخبار الثقات بأن يذهبوا إلى كل

ولاية أينما يوجد أى مزور، يظهر فيها تزويره، ولا يدعون الآخرين يعملون على إخفاء هؤلاء المزورين أو حمايتهم، وطلب فى الحال استدعاء هؤلاء الذين افتضحت أمورهم فعاقبهم بعد ثبوت جرمهم.

وبهذه الطريقة اكتشف كثير من محاولات التزوير والقبالات الكاذبة التى كانوا قد حرروها، وأعدم هؤلاء المزورون طبقًا لعدل وإنصاف سلطان العالم غازان خان خلد سلطانه. وهذا هو مغزى الحكاية التى كتبتها عن السلطان ملكشاه، ومضمونها هو عدم الاستماع للدعاوى التى مر عليها ثلاثون عامًا.

وفى عهد هولاكو خان شرح له الوزراء التازيك هذا الوضع. وبناء على ذلك صدر مرسوم فى هذا الشأن. ولقد استمر العمل بهذا المرسوم فى عهود آباقاخان وأرغون خان وگيخاتو خان. ولكن لم يظهر أثر بخصوص تنفيذه، وذلك لسببين:

السبب الأول: أن هناك شروطًا كثيرة شرعية وعقلية وعرفية لها أهميتها فى هذا الشأن لم تذكر فى تلك الأحكام. وحيث إنهم بخصوص القبالات القديمة نصوا – بصورة مطلقة – على عدم سماع الدعاوى التى مر عليها ثلاثون سنة، فإن ذلك لم يكن أمرًا مشروعًا فبقى مهملاً.

السبب الثانى: هو أن أحكام المرسوم ينبغى أن ينفذها الحكام والأئمة ولما كان أغلبهم يريدون شراء أملاك كثيرة بأسعار زهيدة، لم يكن يتسنى لهم ذلك إلا بهذه الطريقة. وإذن فكيف كان يمكنهم تنفيذ نص ذلك المرسوم؟ لقد كان من الطبيعى أن يهملوا هذه الأحكام رغم أنهم أقروها.

وعندما أراد سلطان الإسلام خلد ملكه أن يوقع ذلك المرسوم أمر بتحرير صورة منه باتفاق ومشورة القضاة الكبار والعلماء الفطاحل ذوى الكفاءة. ولقد كتب نص ذلك المرسوم المرحوم مولانا فخر الدين قاضى هراة الذى كان من فحول العلماء والفضلاء المشهورين فى عصره، **[ص٤٥٢]** والذى كان يتحلى بفنون الكمالات، والمشار إليه بالبنان وقاضى قضاة عصره، ووحيد دهره فى الإنشاء. كتب هذا العالم صورة ذلك المرسوم؛ بحيث يكون مشتملاً على عدة قيود وشروط ينبغى مراعاتها فى هذا الباب. ولقد نفذ المرسوم على هذا النحو.

كذلك صدر الأمر بأن يتقلد منصب القضاء فى كافة البلاد من يتفق الوضيع والشريف على أحقيته واستعداده لمباشرة هذا العمل الخطير. كذلك قرر لهؤلاء القضاة مرتبات مجزية كى يقنعوا بها ولا يأخذوا شيئًا قط من أحد لأى سبب من الأسباب، وأصدر السلطان مرسومًا شمل كل باب من أنواع الاحتياطات ثم أرسل إلى الجهات المختصة مجموعة القوانين التى اتفق الأئمة على صحتها. وإن كل نصوص تلك المجموعة من القوانين بالإضافة إلى نص ذلك المرسوم كُتبت فى الفصل السابق، وليست هناك حاجة تدعو إلى تكرارها.

الحكاية السادسة عشرة
فى إبطال الحيازة والغصب وإزالة أنواع المصادرات

حكايات عن وقائع الأفعال وظلم حكام الولايات

نذكر هنا على سبيل الإجمال بعضًا من الحكايات والأحوال، ونبين كيف أن الجباة فى كل ولاية كانوا يحصلون أموال الديوان ومستحقاته وما أكثر أنواعها. كما نذكر طرفًا من سوء تدبير الوزراء، وفنون الظلم والجور التى كانوا يتخذونها وسيلة لتخريب البلاد، وإفقار الرعايا كى يتشتتوا ويتفرقوا، ولن نبالغ فى هذا الموضوع؛ لأن القراء يعرفون أن المظالم كانت تجرى أضعافًا مضاعفة عما كانت عليه من قبل. ولكن الناس فيما بعد سوف يتمتعون بالرفاهية والراحة بسبب عدل وإنصاف سلطان الإسلام خلد سلطانه وينسون أيضًا تلك المتاعب والمشقات. أما الأطفال والأشخاص الذين يأتون بعد هذا، ولم يكونوا قد رأوا ذلك الظلم والجور، فلا بد أنهم يتصورون أن تلك الأمور قد كتبت على سبيل المبالغة والتهويل. ولهذا السبب نوجز حديثنا عن هذا الموضوع فيما يلى:

[ص٤٥٣] لقد وقف سلطان العالم على أحوال العراق العجمى وآذربيجان والولايات التى كانت تجبى منها الضرائب، وتسدد حقوق الديوان. ونحن نبين هنا كيف كان الخلل قد تطرق قبل هذا إلى هذا النظام، وعلى أى نحو تداركه السلطان وأصلحه.

وتفصيل ذلك أنهم كانوا يُقَبِّطعون الحكام هذه الولايات، ويربطون على كل واحد منهم مبلغًا معينًا، يحصلونه منه. فكان الحاكم يستغل هذه الفرصة، ويحصل الضرائب من الرعية عشر مرات فى سنة واحدة. وفى بعض المواضع عشرين وثلاثين مرة. وقرار الحاكم فى هذا الشأن هو أن يحصى الضرائب التى دخلت فى حوزته. وعندما يجيء رسول إلى الولاية من أجل إنجاز مهمة كلف بها أو للمطالبة بمال أو الحصول على ما يلزم، كان يتخذ ذلك ذريعة، وينتهزها فرصة. وكلما كان الرسل يصلون بكثرة، وكانت نفقاتهم وطلباتهم لا حد لها، كان الحاكم يفرح بوصولهم، ويأخذ فى تقسيم الضرائب وتحصيلها وفق هواه فمرة باسم إنجازات المهمات، ومرة باسم العلف والمؤن وسداد النفقات، ومرة باسم

التعهدات وإجابة الملتمسات وكان ينفق بعضًا منها فى إنجاز المصالح، ويعطى الشحن والكتاب بعضًا آخر، ليصيروا أعوانًا وشهود زور له. ورغم المبالغ الكثيرة التى كانوا يأخذونها من الرعية، لا يرسلون قسطًا منها مطلقًا إلى الخزانة.

على هذا النحو صارت أموال الولايات تبدد، وتضيع باسم النفقات المقررة وبعض الحوالات. وفى خراسان كان قد بقى من تلك الحوالات شان أو عشر. وكان الرسل وأصحاب الحوالات يلجأون إلى الديوان، وفى أيديهم الحوالات، فيجيبهم المسئولون: "إن المال موجود فى الولايات، فكيف لا يسلم إلى أصحابه؟!" ثم يؤكدون ذلك بختم الحوالات مجددًا بالختم الأحمر (آلتمغا) كى تصرف لهم حقوقهم بسرعة، فيذهب هؤلاء إلى الحاكم مرة ثانية، ويترتب على ذلك تحمل نفقات أخرى، فيتخذ الحاكم من ذلك ذريعة، ويفرض على الرعية ضرائب جديدة. وكان الحاكم يقول للرعايا: "أنتم ترون أن رسلاً عديدين قدموا إلى هنا. وإذا لم تكن هناك نفقات ولوازم معدة لهم، فإنه لا يمكن إجابتهم إلى مطالبهم. ولم يكن أى مخلوق يجرؤ على أن يقول له: ينبغى أن تعطينا أموالهم **[ص٤٥٤]**. أو أن يقول: إنك قد أخذت أول العام ضرائب مضاعفة وبددتها، إذ وزعتَ أربعة أسداس منها فيما بينكم، وأبقيت سدسين لنفقات الرسل. وفى النهاية يعودون بخفى حنين. وهكذا ظلوا يترددون مرات عديدة إلى أن صارت تلك الحوالات فى أيديهم أورقًا بالية. وأخيرًا ينقطع الأمل فى صرف قيمتها، وتظل سنوات عديدة فى محافظهم وحقائبهم.

وجريًا على المعتاد لم يكن أى مخلوق يعرف على الإطلاق ما هى حقيقة المبالغ التى تدفعها كل ولاية، ولا الجهة التى يمكن تحرير الحوالات إليها حتى يحصل قيمتها. وكانوا يحررون الحوالات المتتابعة إلى الأطراف حسب الطلب.

ولما كان الوزراء والنواب يعلمون علم اليقين أن المبالغ لن تصل، ظلوا يماطلون ويسوفون، ويمنون الناس بقصد جذب قلوبهم قائلين: إننا نكتب هذه الحوالات مراعاة لخاطركم. وبهذه الألاعيب كانوا يصرفونهم راضين مسرورين. ولم يسفر هذا الوضع عن نتيجة سوى خراب الولاية. وخلال ذلك يجد النائب والوزير مبررًا لاستغلال الموقف فيعرضان على حضرة السلطان قائلين: إن الجباة كثيرون فى الولاية. ويجب أن يزودوا

الخزانة بقسط من الأموال. وفى الحال يستصدرون مرسومًا مضمونه أنه على كافة أرباب الحوالات ألا يدفعوا شيئًا إلا كذا وكذا من النفقات، وتلك المبالغ المعدودة التى تخصص لتقديم هبات وعطايا للوزير والنائب، وهدايا للحكام. وهذه ينبغى وصولها.

بعد ذلك كان الحاكم يكتب رسالة يقول فيها: حيث إننا منعنا الجباة من التصرف فى الأموال، ينبغى أن تصل النفقات الخاصة بسرعة من الولاية. وبهذه الحيلة كان يأخذ تلك الهدايا نقدًا. وكذلك كان الوزير يتواطأ مع حكام الولايات. وإذا لم ير الحاكم التأشيرة على الحوالة أو الرسالة، فإنه يمتنع عن دفع تلك الأموال. ومرة ثانية كان الرسل والجباة يعودون حيارى. ومرة ثالثة كان الوزير يمن عليهم وعلى الأمراء **[ص٤٥٥]**، ويكتب من جديد رسالة يبين خلال سطورها أن مصلحة الوزير قد أنجزت وأن غرضه قد تحقق.

وأما حكام الولايات فنتيجة لتواطئهم مع الوزير ومراعاة لخاطره تجرأوا واشتد بطشهم وتمادوا فى ممارسة أنواع الظلم والغلو فى الاعتداء. وكان يضيع هدرًا كل سنة جزءان أو ثلاثة من مجموع الضرائب ورسوم التمغا فى المدينة لسد نفقات الرسل والوفاء بالتزاماتهم. وكان الناس يتعجبون لهذا التصرف ويقولون: لماذا يمتنع الحاكم عن صرف رسوم الدمغة النقدية لمستحقيها، هذا على حين أنه ينفقها فى مثل هذا الهراء؟! ولكنهم فى غفلة عن هذا الأمر وهو أن الحاكم قد اختار تلك الطريقة بسبب سوء فعله، ولكى يستطيع بهذه الحجة أن يأخذ أضعاف تلك النفقات ويسلبها. وعند تصفية الحساب يوفد اثنين أو ثلاثة من المندوبين من أجل نفقات الرسل. وبهذه الحجة لا تصل حقوق الديوان. وفى الحقيقة لم يكن يصل على الإطلاق من تلك الولايات إلى الخزانة دانق ذهبى واحد. وكذلك الحال بالنسبة إلى النفقات المقررة التى أنفقت من أصل الحوالات، فإنهم لم يدفعوا منها دينارين من عشرة دنانير. ولم يكن أحد مطلقًا يرى التمغاجى[1] يباشر عمله؛ لأنه كان دائمًا هاربًا، أو أنه وقع أسيرًا فى أيدى الجباة يُضرب بالعصا. ولهذا كان بقدر ما يستطيع يرسل أشخاصًا فى الخفاء، يذهبون ليلاً إلى منازل الرعايا كالنقابين ليستوفوا رسوم الدمغة من الناس.

(١) الشخص المكلف بوضع الدمغة.

وبحكم الضرورة كان يرضى بأن يحصل منهم نصف الرسوم المقررة يقدمونه له خفية. ولهذا السبب كانت رسوم الدمغة تهبط وتتناقص، وما كان يحصل منها يصرف لسد نفقات العلف لدواب الرسل. هذا على حين أن خدمهم كانوا ملازمين لهم كظلهم ويحصلون منهم على نصيبهم. وحيث إن النقود لم تكن تصل إلى الجميع، كان هؤلاء الخدم يتشاجرون فيما بينهم؛ فمن كان أكثر قوة، فاز بالنصيب الأكبر. وأما أجور العمال والنفقات المقررة للولاية مما يمكن أن يتوقف عليه عمرانها، وبدونها لا تُسير شئون الملك، فإنه بسبب تآمر الحكام كان يزيد أغلبها على أصل المال المقرر، ورغم هذا لم يعطوا مخلوقًا قط دانقًا واحدًا.

وفى أول العام يحتجون بأنهم يبادرون بإعداد أموال الخزانة. ولكنهم بعد ذلك كانوا يقولون [ص٤٥٦] إننا سندفعها وقت الرخاء. ولما كان الرسل والمحصلون الكثيرون الذين لم تكن أمورهم قد أنجزت بعد، يحضرون دائمًا، كان الحاكم ينتحل الأعذار ويقول: إن أفواجًا عديدة من الرسل ملازمون لى، وينبغى إنجاز مهامهم قبل غيرهم. أما أرباب الأجور والرسوم والصدقات وغيرهم، فإنهم يقضون الوقت من أول السنة إلى آخرها فى المماطلة من جانب المسئولين والتسويف إلى اليوم والغد. وهكذا كان هؤلاء الضحايا يجلسون عرايا جياعًا. أما الأشخاص الأكثر نشاطًا فقد التجأوا إلى نواب الحاكم. وبمزيد من الإلحاح والتوسط يبيعون نصيبهم الواحد بنصف ثمنه. وفى المقابل يشترون البضائع بضعفى ثمنها بحيث إن حقوقهم فى النهاية تصل إليهم بمشقة بالغة. وبألف حيلة إلى ربع ما كانوا يستحقون. ومن أتيحت له هذه الفرصة، كان يعتبر نفسه عضوًا فعالاً وسعيدًا. أما الآخرون فيبقون محرومين حرمانًا تامًا يحسدون زملاءهم المحظوظين. وإذا استطاع أحد المحرومين أن يصل بمشقة بالغة إلى بلاط السلطان لعرض شكواه، فإنه كان يأخذ رسالة من الديوان الأعظم مضمونها كما يقول المسئولون: إننا قد قرنا صرف مستحقاته قبل الجميع، فلم لم تصل إليه؟! وهنا ينتحل الحاكم عذرًا قائلاً: إن على الولاية أموالاً متأخرة، ولهذا لم أصرف له حقوقه، وسوف أحرر له رسالة يتسلمها، فكان ذلك المسكين يأخذ الحوالة مضطرًا بالبقايا المتأخرة. ولما كان الحاكم قد استوفى الأموال الطائلة – التى سبق ذكرها –

بالزيادة، كيف تكون لديه بقايا؟ وتلك البقايا التى كانت متأخرة إنما هى من الضرائب الإضافية التى فرضوها على الرعايا. وهناك بعض الرعايا الذين لم تكن لهم طاقة على سداد الضرائب المتكررة، فيضطرون إلى ترك قراهم ومساكنهم ويهربون، أو إذا كان هناك أشخاص ذوو نفوذ أو حيثية، فإنهم يمانعون فى سداد المبالغ الإضافية، وهؤلاء كانوا يرضونهم بقولهم: لن نطالبكم بسداد هذا القسط الأخير، أو إننا سوف نخفض لكم نصف المطلوب. وكان المحصل والكاتب قد سجلا فى السجل مجموع الأقساط على الرغم من أن المقرر تحصيله لا يزيد على ضريبة واحدة. [ص٤٥٧] ونظرًا لأن آخرين قد سددوا وبعضًا لم يسددوا، أو دفعوا أقل من المطلوب، يتبقى شيء من القسط الأخير، سموه "البقايا". ولما كان المحصل والكاتب شريكين فى إضافة تلك الأقساط المكررة واختلاسها، كانا يسجلانها، ويشهدان على صحة ما كتباه شهادة غامضة.

وإذا ما سأل الحاكمَ نائب أو وزير قائلاً: هل هذا الباقى من أصل المال، أو أنه من الإضافات التى أضفتها؟ بيَّن حقيقة الأمر. ولكن حيث إن النواب والوزراء يعرفون هذه الحقيقة، وهى أنهم يتقاضون من الحكام تلك الإضافات كنوع من المجاملة، كانت تقصر ألسنتهم. وهكذا فإن هذه التصرفات التى شرحناها كان يقدم عليها كل واحد من الوزراء السابقين. لكن هذا الأسلوب كان حرفة "صدر الدين الجاوى"[1] وصنعته. فقد اكتسب مهارة فائقة فى ذلك التدليس بحيث إنه أوصل الفساد والجور إلى عنان السماء، وألحق الضرر البالغ بكل شئون المملكة والإدارة. وفى عهده لم يتطلع أى مخلوق أن يحصل على قيمة حوالة من الحوالات من إحدى الولايات، ولم ينل حقه أى مستحق لأجر أو رسوم ذلك أن كل الحوالات الصادرة عنه كانت محض تضليل وخداع. وكثير من الفقراء والمستحقين والشيوخ الذين كان يتاح لهم الوصول إليه، كان يحرر للواحد منهم حوالة

---

(١) صدر الدين "الجاوى" هو صدر الدين أحمد الخالدى الزنجانى وزير گيخاتوخان (٦٩٠ ٦٩٤هـ/١٢٩١ ١٢٩٤م) والذى أقنع السلطان باستعمال هذا النوع من العملة الورقية (چاو) بدلاً من التعامل بالذهب والفضة وذلك لتفريج الأزمة المالية التى حلت بالبلاد. ولكن ثبت فشل هذا النظام فشلاً ذريعًا فتقرر إلغاؤه والعودة إلى التعامل بالذهب والفضة. ولهذا لقب الوزير بلقب "چاوى" على سبيل السخرية والاستهزاء. (انظر كتاب الشرق الإسلامى ص٢١٠ وما بعدها).

بمبلغ خمسمائة دينار بناء على التماس أو غيره من وسائل التذلل والإلحاح. ولأن هذا الشخص الفقير لم يكن قد رأى مطلقًا مائة آقچه[1]، كان يسمى ذلك سخاء، ويفرح لذلك أشد الفرح. وعندما كان يذهب لطلب هذا المبلغ كان يفكر فى نفسه قائلاً: إن لى خمسمائة دينار، فلأقترض الآن مائة دينار أنفقها فى التنقل وإنجاز المصالح وما يلزم من نفقات الطريق. وبعد أداء قيمة القرض، يتبقى لى أربعمائة دينار. وعلى هذا الأمل، كان يتردد كثيرًا لتحصيل هذا المبلغ، وينسى أنه شبح لا طائل وراءه. وما كان يجنيه من وراء ذلك هو أنه كان يتعلم عمل السعاة والجباة والعيَّارين؛ غير أن كل هذه المحاولات لم تحقق له أية فائدة. وعاقبة الأمر أن المقترض كان يهرب من هذا البلد.

ولا شك أنه نتيجة لسوء التدبير والتدمير جلا أكثر الرعايا فى البلاد عن وطنهم، وأقاموا بيوتهم فى بلاد أخرى غريبة. وبهذا خلت المدن والقرى من السكان، وبقيت خاوية على عروشها. **[ص٤٥٨]** وإذا ذهب رسول لإحصاء الغائبين وجمعهم، فإنه كان ينزل بهم كثيرًا من المشقات ويأخذ عليهم تعهدًا بسداد أضعاف الضرائب المقررة عليهم. ورغم هذا لم يكن لهم ميل مطلقًا فى العودة إلى بلادهم، وكانوا نافرين منها أشد النفور. ورغم محاولات العديدين من الرسل الذين يذهبون فى أوقات مختلفة إلى الأطراف لجمع الغائبين لم يستطيعوا حمل واحد من الرعية على العودة إلى مقره. وأما أولئك الذين كانوا قد بقوا فى مدنهم، فقد سدوا أبواب منازلهم بالحجارة، وضيقوا مداخلها. وكانوا يروحون ويجيئون عن طريق أسطح منازلهم، ويهربون خوفًا من الجباة. وعندما يذهب هؤلاء الجباة إلى منازل الرعايا، يبحثون عن أحد الأشقياء المحتالين الذين لهم إحاطة تامة بعناوين المساكن. وبإرشاده كان مرافقو الجباة يسحبون الناس من الأزقة والسراديب والحدائق والأماكن الخربة. وإذا لم يستطيعوا إلقاء القبض على الرجال، فإنهم كانوا يعتقلون نساءهم ويسوقوهن كقطعان الغنم من محلة إلى أخرى، ويلقون بهن أمام الجباة. وكانوا يعلقونهن من أرجلهن، وكثيرًا ما شوهد الجابى يصعد سطح المنزل، حتى إذا ما وجد صاحبه جرى وراءه إلى أن يلقى القبض عليه. فكان الرجل يهرب على غير هدى بدافع العجز الشديد والبؤس الذى لا حد له

---

(١) عملة صغيرة.

ليلقى بنفسه من سطح المنزل إلى الأرض، فكان يدركه المحصل ويمسك بتلابيبه، وتأخذه الشفقة عليه والرأفة به؛ فيستعطفه ويستحلفه ألا يلقى بنفسه من فوق السطح حتى لا يهلك. ولكن حيث إن الزمام قد أفلت، والفرصة قد ضاعت، يكون قد سقط بالفعل وكسرت رجله.

من جملة هذه الولايات التى تعرضت لهذه المآسى ولاية يزد[1] التى آل أمرها إلى حد أنه إذا تجول شخص فى كل قراها، فإنه قطعًا لن يرى فيها مخلوقًا يتحدث إليه أو يسأله عن الأحوال. أما الأشخاص المعدودون الذين بقوا فيها، فقد عينوا لهم حارسًا؛ حتى إذا رأى أحدًا من بعيد، أخطر الباقين، فيختفون جميعًا فى القنوات وبين كثبان الرمال. **[ص٤٥٩]** وكل واحد من أكابر الملاك يمتلك أملاكًا فى يزد، إذا ما ذهب إلى هناك، وأراد أن يتفقدها، لا يرى أحدًا من فلاحيه، حتى يسأله عن أحوال بساتينه وأين توجد. وفى أكثر المدن خشية أن ينزل الرسل فى منازل السكان كان هؤلاء يعدون أنفاقًا تحت الأرض لها ممرات ضيقة ومتعرجة بحيث تجعل الرسل لا يميلون إليها ولا يرغبون فى ولوجها. وقد أقدم السكان على ذلك؛ لأن الرسل إذا نزلوا دارًا، كانوا فضلاً عن تمزيق السجاجيد وثياب النوم، وتحطيم أدوات المنزل، أو استعمالها استعمالاً سيئًا، يحملون منها كل ما أرادوا، أو يسرقها خدمهم. وإذا كان رب البيت قد جمع قليلاً من القوت والنفقات والأحطاب، فإنهم كانوا يستولون على هذه الأشياء، كما كانوا يستعملون الأبواب للوقود، فيحرقونها بدلاً من الحطب. وهكذا صاروا يخربون كل ما تقع عليه أيديهم.

---

(١) يبدى رشيد الدين اهتمامًا خاصًا بولاية يزد مما يدل على ارتباطه الشديد بهذا البلد؛ إذ تروى المصادر أنه كان يمتلك فى يزد أملاكًا وضياعًا وعقارات عديدة، وقف الكثير منها على أعمال الثقافة والبر والخير. كذلك استقدم عددًا من الفلاحين من أهالى يزد ممن لهم خبرة وتجربة فى أعمال الزراعة والفلاحة ليعملوا فى ضياعه وأراضيه الواسعة فى تبريز. وفى مقدمة هذا كله كانت تربطه صلة مصاهرة ونسب ببعض الشخصيات المرموقة فى هذه المدينة.

لكل هذه الاعتبارات كان رشيد الدين أقدر من غيره على الوقوف على حقيقة الأوضاع فى ولاية يزد. (انظر مجموعۀ خطابه هاى تحقيقى در بارۀ رشيد الدين فضل الله همذانى: مقاله الأستاذ ايرج افشار بعنوان: رشيد الدين فضل الله ويزد، ص٢٥ ٣٦، طهران ١٣٥٠ هـ.ش).

ومن جملة ما سمع أن أحد أئمة يزد، كان يمتلك منزلاً فى هذه المدينة. وفى شهور سنة خمس وتسعين وستمائة (٦٩٥هـ/١٢٩٥م) نزل فى هذا المنزل سلطانشاه بن نوروز على أنه رسول، وكانت معه والدته وأتباعه. وكان ذلك فى عهد عظمة أبيه نوروز. وقد أقاموا هناك أربعة أشهر. وبعد أن استولوا على الأمتعة الثمينة ولم يتركوا منها شيئًا يذكر، ورحلوا باليمن والبركة، حضر مثمنو العقارات فى المدينة، وسلكوا سبيل الاحتياط فى تحديد ثمن محتويات الدار التى بلغت قيمتها خمسين ألف دينار. وكانت قد أحرقت أبواب المنزل التى هى فى غاية اللطف والأناقة، والتى كان يقدر ثمنها بما يزيد على ألفى دينار. كما خربت أماكن أخرى.

فإذا كان ـ على هذا المنوال ـ حال دار رجل معمم يتولى منصب الإفتاء فى المدينة وينتمى إلى هيئة القضاء فإنه يمكننا أن نقيس على ذلك كيف تكون أحوال الأهالى والأفراد والرعايا؟! إن الأمر الذى لا شك فيه أنه لن تكون للسادة والأكابر والأصاغر من الرعايا قضية أصعب وأعقد من هذه. **[ص٤٦٠]** وبحجة إيفاد الرسل كانوا يسلبون الآلاف العديدة من السجاجيد وثياب النوم وقدور طهى الطعام والأوانى وأدوات الناس، ويسوقون الدواب إلى بساتينهم. وكانوا يخربون فى يوم واحد الحدائق التى كان أصحابها قد عمروها بمائة ألف مشقة خلال مدة تزيد على عشر سنوات. وإذا تصادف أن كانت هناك قناة فى ذلك البستان وسقطت فيها دابة يمتلكونها، كانوا يعتقلون صاحب البستان، ويقطعون الأشجار فى الشتاء لتدفئة. وإذا رأوا شجرة باسقة فى إحدى الحدائق، فإن الحكام والأشداء يقطعونها بحجة أنها تصلح لصنع رماح الجند. وفى بعض الولايات كان هناك كثرة هائلة من الجباة والغلمان وساداتهم من القواد، وهؤلاء يكونون فى الحقيقة ضعف عدد أفراد السكان.

وقد ذكر أنه فى سنة إحدى وتسعين وستمائة (٦٩١هـ/١٢٩١م) كان عليخواجه بن عمر شاه السمرقندى حاكمًا على ولاية يزد، فذهب أحد الملاك إلى قرية تدعى "فيروزآباد"، وهى من أهم وأعظم القرى هناك كى يحصل شيئًا من عوائد ملكه الذى كان يمتلكه. ومهما سعى هذا الرجل فى سبيل ذلك ثلاثة أيام بلياليها، لم يستطع العثور على أى مخلوق قط من الأعوان. هذا على حين أنه قد أقام فى القرية سبعة عشر من المحصلين

وأصحاب الحوالات. وقد قبضوا على أحد الحراس واثنين من السكان من الصحراء وأحضروهم إلى القرية، وقيدوهم بالحبال، وصاروا يضربونهم، وذلك كى يحضروا الآخرين، وحتى يحصلوا على طعام لهم. ولكن لم يتيسر لهم ذلك مطلقًا. وكان من اللازم لمجموع هؤلاء المحصلين وأتباعهم الحصول على العلف والمؤن والشراب والسرارى. ويمكن أن نقيس على هذه التصرفات: كيف كانت أنواع الظلم الأخرى. وينبغى التفكير فى أن هذه البدع الكثيرة والرسوم السيئة التى أصبحت بمرور الأيام عادة أهل السوء كيف يمكن تداركها فى وقت قصير؟! خصوصًا وأنهم فى كل زمن أرسلوا المراسيم إلى الأطراف بخصوص استمالة الرعايا، [ص٤٦١] ودفع بعض الظلم عنهم. ولكن لم يعمل بها فى أى وقت، ويئس منها كافة الخلق.

وفى هذا الوقت الذى يمثل العهد المبارك لسلطان الإسلام غازان خان – خلد الله سلطانه، وأدام عدله وإحسانه وجه رأيه المبارك الذى هو محض العدل والخير، وصرف كل همته إلى تدارك الخلل الذى كان قد تطرق إلى شئون الملك، والقضاء نهائيًا على البدع والمفاسد. وقد سعى سعيًا جديًا فى سبيل أن يعيش الناس دائمًا فى راحة تامة، وصرح بأن الفائدة من حاصل عمر المرء فى الدنيا إنما تكون فى تحقيق هذه الأمور، وألزم نفسه أن يجد ويجتهد إلى أقصى حد فى هذا المجال لتدارك هذه العيوب المذكورة فى الولايات التى تدفع الضرائب، وقال فى هذا الصدد: فى الوقت الذى فسدت فيه القوانين، تعطلت السياسة وتطرق إليها خلل بالغ، فينبغى البدء بتنظيم الأمور الصغيرة قبل أى شىء آخر حتى يعرف أهل العالم أن المؤاخذة والعقوبة إذا وقعت بسبب الأمور البسيطة فإن العقاب على الكبائر يكون بالضرورة أضعافًا مضاعفة. وهذا من شأنه أن يرغم الناس على أن يكفوا أيديهم عن ارتكاب هذه المخالفات. وقال أيضًا: إن أساس كل عمل، وأصل الوصول إلى كل غرض هو المحافظة على كل الجزئيات داخله؛ لأن المسئولين إذا تداركوا تلك الجزئيات واحدة فواحدة إلى أن تستقيم واحدة منها، ثم شغلوا بإصلاح جزئية أخرى، فإن ما تم إصلاحه أول الأمر قد يختل مرة أخرى، ويتعذر إصلاحه. ثم أضاف السلطان قائلاً: إن قومًا تعودوا على طريقة ما زمنًا طويلاً، وصارت طبيعة لهم، يصعب جدًا منعهم من انتهاج هذا السلوك، وانتزاع تلك العادة من طبعهم. كما أن الحكام المستبدين الذين اعتادوا فى هذه

الأعوام الإسراف فى الجور على الرعايا والاستيلاء على الأموال مضاعفة، ولا يعطون الديوان شيئًا منها قط. وكل سنة يحالون إلى المقاضاة والمحاكمة، ويرشون ويقضون فترة من الزمن فى اختلاق الحكايات العديدة. وإذا قتل أيضًا نفر من هؤلاء يظن الآخرون أن قضاياهم وقعت صدفة، ولا يعتبرون ويتعظون، بل يقولون: إن الشخص الفلانى لم يساعدهم ويهتم بهم. وإلا فلو كان ما وقع من أجل المال والرقابة عليه، لكان يلزم اتخاذ هذا الإجراء [ص٤٦٢] مع العديد من الأقوام الأخرى.

وصفوة القول أننا إذا عاقبنا نصف هذه الجماعة، فليس من الممكن أن يرتدع الآخرون فيكفوا أيديهم عن الظلم والاعتداء، ويظل الرعايا على هذا النحو فى عذاب دائم، ولا تصل أموال قط إلى الخزانة والجند. وإذن فالمصلحة تقتضى أن نفكر فى طريقة تكف نهائيًا أيدى حكام الولايات عن التصرف فى الأموال، حتى لا يجدوا بالطبع منفذًا إلى التعدى تحت أية حجة أو ذريعة، فيكون مثلهم مثل الثعلب الذى قال: سوف أخلص نفسى من الكلب بألف حيلة وحيلة. ولكن أفضلها هى ألا أراه ولا يرانى. وإذن فالأفضل أيضًا فى هذه القضية هو ألا يستطيع متصرفو الولايات تحرير حوالة على الرعية ولو بدانق ذهبى واحد.

وبناء على هذا أمر السلطان غازان خان بأن يذهب كاتب نشيط إلى كل ولاية، ويكتب بالتفصيل مجموع المناطق التى تضمها تلك الولاية قرية قرية، وأن يقرر الضرائب بالتساوى بموجب الحسابات السابقة، ولا يتقيد بالزيادة والنقصان. وعلى هذا النحو يعمل حتى يصبح الرعايا مرفهين هانئين. كذلك أمر السلطان بأن يتفحص الكُتّاب كل أملاك الخاصة (اينجو) والأوقاف والملاك الذين كانت فى حوزتهم هذه الأملاك دون منازع منذ ثلاثين سنة، ويكتبوها موضحًا بها أسماء الحكام ويثبتوها فى سجلات القوانين؛ حتى إذا ضاعت قبالة من أحد الأشخاص، أو أراد شخص آخر أن يستولى عليها فإنه يمكن الرجوع إلى تلك السجلات، والالتزام بما هو مدون بها. وبهذا لا يبقى لأى مخلوق مجال للتلبيس أو التعدى.

وعلى هذا ذهب الكُتّاب إلى البلاد حسب الأوامر الصادرة إليهم. ورغم أن الرجال الموثوق بهم تمامًا والصالحين قليلون فقد سعى هؤلاء الكتاب بقدر المستطاع، ودونوا قوانين الولايات وأحضروها. وبعد ذلك أمر بألا يؤشر مطلقًا أى ملك أو حاكم أو كاتب بقلمه

على ورقة لتحرير حوالة. وإذا كتبت حوالة، فإن الحاكم الذى أذن بكتابتها، يقتل وتقطع يد الكاتب الذى حررها، حتى يراه الكتاب الآخرون، فيأخذوا من ذلك العظة والعبرة. كذلك عيّن لكل ولاية كاتبًا يكون ملازمًا هنا للديوان الأعظم. وفى أول العام يكتب الحوالات الموجهة حسب ما نص عليه القانون، قرية فقرية [ص٤٦٣] مع ذكر الأسماء والتفاصيل الأخرى اللازمة. ثم يؤشر عليها نواب الديوان الأعظم، ويؤكدونها بالختم الرسمى للدولة أى الختم الذهبى (التون تمغا). وبعد ذلك ترسل إلى الولاية كى يسددها الرعية على قسطين مع العشر ونصف العشر وحق الخزانة، وأتعاب جابى الضرائب الذى ينصَّب فى كل ولاية. وهو الذى يصرف لأصحاب الحوالات بعضًا مما حصله نقدًا بموجب الحوالات المختومة بالختم الرسمى للدولة (التون تمغا)، ويرسل الباقى إلى الخزانة العامرة، ويسلمه للخَزَنة مع سداد رسوم الخزانة. وإذا حمل الجابى أو الرئيس الأموال أحيانًا إلى ملتزمى الضريبة، فإن عليه أن يسلمها نقدًا مع عشر ونصف عشر الدانق، ويدفع عن مائة دينار نصف دينار رسومًا للخزانة، وإلا فإن هؤلاء الجباة يحضرون المال نقدًا، ويسلمونه للخزنة مع رسوم الخزانة.

وأمر السلطان كذلك بأنه إذا ما سدد الرعايا الضريبة نقدًا ذهبيًّا فإنه لا يجوز للجباة أن يستبدلوا به بضاعة عينية، ولو بدينار واحد. وإذا جاء أحدهم ببضاعة بدل النقد، فإن عليه أن يحملها إلى السوق ويبيعها، ويأتى بثمنها نقدًا إلى الخزانة. وعلى المسئولين أن يدفعوا أموال المرتبات والرسوم والنفقات المقررة المعمول بها فى كل مكان، ولا ينتقص منها دانق واحد؛ حتى يقوم الرعايا كلهم بالدعاء للدولة الخالدة. وبموجب الحوالات المميزة بالختم الرسمى للدولة، والتى تُحمل من هنا إلى الولايات، يقف جميعهم على الرسوم المستحقة عليهم، ويعرفون أنه لا ينبغى دفع زيادة ولو بمقدار دانق واحد. كما يكتبون إلى رجال القانون مستفسرين عن جملة استحقاقاتهم، وكيف حسبت لهم.

ولما نفذ هذا الحكم الذى يقضى بألا يكتب الحكام الحوالات، ظن ملك "روداور" من أعمال همذان أن هذا الحكم مثل الأحكام السابقة فأجاز للكاتب أن يكتب عدة حوالات على الولاية، فصدر الحكم بقتله وبقطع يد الكاتب. وعندما علم الكاتب بمسير الرسول لتنفيذ هذه المهمة الخطيرة لاذ بالفرار. وبعد ثلاث سنوات، توفى فى المكان الذى كان قد

هرب إليه. وبعد مدة قبضوا على كاتب فى نهاوند، وقطعوا يده. كذلك قبضوا على بقال من الشخصيات المرموقة فى همذان، كان قد حول لحسابه مَنَّيْن من السماق مفضلاً نفسه على شريكه، [ص٤٦٤] وصدر الأمر بقتله، فتشفع له الكثيرون، وخفف عنه الحكم بالإعدام واكتفى بجلده مائة وعشرين جلدة، ودفع غرامة قدرها ألف دينار.

وفى الآونة الأخيرة كانوا يأتون بالفيلة من الهند، حتى إذا بلغوا همذان، حل الشتاء، ولم يكن يوجد علف. فقال الحكام هناك: يجب الحصول على العلف من البساتين. فلما بلغ هذا الرأى السمع الأشرف لغازان، قال: إننا نوفر العلف للفيلة، ونرصد ميزانية لذلك. وإذن فكيف يؤخذ من بساتين الناس؟! فليشتر أينما وجد، وإذا لم يوجد فكيف يستساغ الحصول عليه من البساتين؟! ومهما يكن من أمر فلنتسامح هذه المرة. أما إذا أقدم المسئولون بعد ذلك على مثل هذا التصرف فسوف نعاقبهم.

وجملة القول أنه خلال هذه السنوات لم يبق هناك مجال لأى مخلوق فى كل الولايات كى يكتب حوالة بمنٍّ من تبن أو حبة من ذهب. وبذلك سُدَّ طريق كتابة الحوالات نهائيًا. وفى العام الماضى تبين أن الحكام لم يجرؤوا على إضافة شيء على المبالغ المقررة؛ لذلك وزع الرؤساء والعمد فى القرى الزيادات فيما بينهم. ومن الطبيعى أنه إذا علم كل واحد من الرعايا المبلغ المقرر عليه، فإنه لا يدفع شيئًا زيادة على المطلوب. وكذلك لا يستطيع المسئولون مطالبة الغرباء وغيرهم ممن لم ترد أسماؤهم فى السجلات بسداد مبالغ قط.

وبسبب هذه الإصلاحات شغل جميع الرعايا بالدعاء لدولة سلطان الإسلام – خلد سلطانه وعاد الغائبون إلى مقارهم دون أن يسعى أحد فى طلبهم. وقد ترتب على هذا أيضًا أن المنزل الذى كان ثمنه مائة دينار، صار لا يباع الآن بألف دينار. وقد توافرت أموال كل الولايات من مسكوكات "دار الضرب". وفى كل سنة يوافى بها المسئولون الخزانة مرتين أو ثلاث مرات دون إبداء عذر أو تعلل كما يشاهد ذلك أهل العالم. وخلال هذه السنوات المعدودة لم تصدر مطلقًا إلى أية ولاية حوالة بدانق من ذهب أو "تغار" من غلة، أو حمل حمار من تبن أو خروف أو منٍّ من شراب أو هدية أو حرير أو ذخيرة أو مئونة. [ص٤٦٥] كما لم يؤخذ شيء من هذه الولايات.

وقد منح الحق تعالى البركة فى الأموال وحقوق الديوان؛ بحيث إنه مهما أمر السلطان بالإغداق على الجند، وإجابة المحتاجين إلى ملتمساتهم، والإنعام على المقربين، وسداد نفقات كل طائفة، تكون كلها نقدًا من الخزانة. ولم يصادف فى أى وقت أن تكون الخزانة خالية من الذهب والثياب. وإنه معلوم وواضح من السجلات القديمة والجديدة أنه لم يصرف فى أى عهد وزمان هذا القدر من الذهب والنقد والثياب الذى يأمر به ويمنحه فى كل عام السلطان غازان خلد سلطانه كما أن هذا القدر من الأموال لم ينفقه الآخرون خلال خمسة أعوام. والخزانة لا تزال باقية ومليئة بالذهب والثياب وأموال الولايات. وقبل هذا لوحظ أيضًا أنه على الرغم من أن الحكام لم يعطوا أحدًا شيئًا بموجب الحوالات والتراخيص؛ فإنهم فى نهاية العام كانوا يكتبون كشفًا بالحساب يبين أن الأموال كلها قد صرفت. وكان الواحد منهم يحصل على مبالغ أخرى إضافية.

أما فى هذا الوقت، فإنه بيمن عاطفة السلطان خلد سلطانه وحسن تدبيره، عمرت الممالك، وبقى فى عهدة حكام الولايات وفر وزيادة فى المبالغ. كما أن غلة العام الماضى لا تزال جملتها موجودة فى المخازن حتى لا يرغم الناس على شرائها قسرًا. ولا ينبغى التسرع فى بيع المحصول الذى ينضج كل عام. وأما ما كان غير ناضج من الغلال فإنهم كانوا يحصلون عليه بمجرد دفع العربون. والآن تتوافر للديوان كل سنة زيادة فى الغلال الموجودة فى المخازن.

بعد ذلك صرح سلطان الإسلام قائلاً: حيث إننا قررنا هذه التدابير، وكففنا أيدى الحكام عن تحرير الحوالات، وعلم الرعايا بالتفصيل القدر المعيّن لحقوقهم، صارت تلك القاعدة مقررة ومعتادة، وسهل على الرعية إلى أقصى حد أداء ما هو مقرر عليهم، وصاروا يؤدونه برغبة تامة.

وما ينبغى التفكير فيه هو أنه فى الوضع الثانى بقيت هذه القاعدة مضبوطة ومستحكمة ومستمرة لا يتطرق إليها وهن بسبب الانقلابات وكثرة الأشغال ووقوع الحوادث والوقائع التى تحدث فى العالم؛ إذ إنه بتوافر هذه الأمور لا تدعو الحاجة إلى كتابة كل هذه الحوالات الصادرة عن الديوان الأعظم، والمطالبة بأموال الولايات على وجه السرعة، أو يتوانى النواب ووزراء العهد عن ضبط هذه المسائل، فيأذنون للحكام [ص٤٦٦] بتحرير

الحوالات، ويصل المستبدون النهازون للفرص إلى مقصودهم، ويبسطون أيدى التطاول فيتعذب الرعايا من جراء ذلك، ولا يكون هناك مجال للسؤال والجواب، وتبطل هذه القاعدة الحميدة التى أمكن إرساؤها بمشقة بالغة. وبهذا يخرب العالم مرة أخرى، وتتبدد أموال الخزانة، ونفقات مؤن الجيش.

وحيث إن السعادة حلت بنا، وكانت عونًا لنا، وصار التوفيق حليفنا أسند إلينا الحق تعالى أمور السلطنة، ومنحنا القوة والقدرة. فينبغى مداومة السعى، وبذل الجهود الجبارة وتجنب الإهمال والغفلة. وبذلك تتوطد هذه الضوابط والقواعد، وتصير ثابتة ومؤكدة بحيث إنه لا يمكن أن يتطرق إليها بأى وجه من الوجوه أى تغيير أو تبديل.

بناء على هذا أمر السلطان بأن يكتب مرسوم مصاغ فى عبارة واحدة، وتحفظ صورة منه فى كل ولاية. وهكذا يفعلون حتى تكون الأحكام واضحة ومعينة لدى الجميع كبيرهم وصغيرهم.

وهذا هو نص المرسوم نذكره على النحو الآتى:

نص

المرسوم الخاص بدخل الولايات الذى يكتبه الديوان بالتفصيل، ثم يقوم بتوزيعه، ويقضى بألا يكتب الملوك وحكام الولايات حوالات بتاتا

بسم الله الرحمن الرحيم

فرمان السلطان محمود غازان

ليعلم جباة الضرائب والملوك والنواب والحكام والقضاة والسادات والأئمة والصدور وملاك الأراضى والأعيان والوجوه والرؤساء والعمد، وعموم الرعايا وأهالى المدن والبلاد من ضفاف نهر جيجون إلى تخوم الشام والافرنج أن كل همتنا وتفكيرنا ونظرنا كان

موقوفًا على أن تكون هذه الأيام المعدودة من العهد المبارك لسلطتنا سائرة بمقتضى نص الآية: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ (١). وبموجب قوله تعالى أيضًا: ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ (٢). فننهض لإزالة أنواع الظلم (ص٤٦٧) والتعدي والجور واستبداد المستبدين والظالمين الذين اعتادوا ذلك بمرور الزمن حسب فحوى الآية الكريمة: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ (٣)، فجعلوا دماء المسلمين وأموالهم رزقًا وطعمة لهم، فعلينا أن نقضى على ذلك قضاء مبرمًا؛ بحيث لا يطمع بعدها أحد فى الرجوع إلى عادة طمعه وخيانته الأولى، فرتبنا ونسقنا شئون الملك، ودبرنا الأمور؛ بحيث تعود فوائدها عاجلاً أو آجلاً إلى كافة خلق الله تعالى، وتكون سببًا لرفاهيتهم وراحتهم، وحتى يحصل لنا ببركة ذلك حسن السمعة فى الدنيا والآخرة. وذلك بموجب قوله (صلى الله عليه وسلم) "من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها"(٤)؛ إذ قد تحقق لدينا أنه لا توجد فائدة فى العالم أعظم من العمل بمقتضى قول النبىﷺ: "عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة". فلا يمكن الحصول على زاد للآخرة أفضل من هذا الوجه.

والآن قد تحقق وتبين لأهل العالم أنه بتوفيق الحق تعالى، وعملا بما جاء فى الحديث النبوى الشريف "أحب الناس إلى الله تعالى وأقربهم إليه السلطان العادل، وأبغضهم إليه وأبعدهم منه السلطان الجائر"(٥)، قد خرج ذلك إلى حيز التنفيذ. وبقدر الوسع والإمكان

---

(١) الآية: ﴿إن الله يأمركم بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾. (سورة النحل، آية ٩٠).

(٢) الآية: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾. (سورة ص، آية ٢٦).

(٣) الآية: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾. (سورة الزخرف، آية ٢٣).

(٤) ورد فى مسلم بعبارة "من سن فى الإسلام سنة حسنة" (باب الزكاة ص٦٩ وباب العلم ص١٥)؛ النسائى: (باب الزكاة، ص٦٤) ابن ماجه: المقدمة، ص١٤).

(٥) ورد هذا الحديث فى كتاب سنن الترمذى على هذا النحو: "إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسًا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلسًا إمام جائر". (سنن الترمذى، وهو الجامع الصحيح للإمام أبى عيسى بن سورة الترمذى، ج٢، ص٣٩٤، حققه وصححه عبد الرحمن محمد عثمان، المدينة المنورة بدون تاريخ).

أمكن تدارك بعض تلك المظالم والاعتداءات التى كانت مستمرة قبل هذا. وقد تعين شرح وتفصيل ذلك على حدة:

من جملة هذه الإصلاحات تعيين وتقرير أموال وأحوال الممالك وإزالة الحيازة، والقضاء على المضاربات، وإلغاء الضرائب الاستثنائية وأنواع الحجوزات الديوانية، ومنع تحصيل نفقات توفير العلف لدواب الجباة والرسل الذين كانوا يوفدون تباعًا إلى كل ولاية لجمع الأموال. وكانت تصرفاتهم سببًا رئيسيًا فيما حل بالرعايا من أنواع المشقات والتخريب.

من أجل هذا أرسلنا الكتاب إلى كل الممالك، كى يكتبوا بالتفصيل أسماء الولايات والنواحى والقرى، ويحددوا ما عليها من الأموال والضرائب؛ بحيث يكون جميع الخلق مستريحين من ذلك الإصلاح، وشاكرين راضين؛ إذ إنه قبل هذا كان المستبدون والظالمون يأخذون أضعاف تلك الأموال باسم الإتاوات والضرائب الاستثنائية والمؤن وأمور أخرى كثيرة؛ بحيث إننا لو رحنا نكتبها، فإن الشرح يطول. ؟ [ص٤٦٨] ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن أكثر العمال وكذلك الأراذل والقواد كان يسلبون الأموال ولا تعود فائدة تذكر على الديوان وبيت المال، بل كان ذلك يؤدى إلى الخلل وخراب الملك وتبديد المال. ثم إن الأشخاص الذين كانوا يقبلون أموال الديوان وفق نظام الإقطاع والضمان، وغرضهم أن يصيروا ملاكًا يفعلون ما يريدون، فكانوا يستولون على أضعاف أموال الإقطاعية، ولا يؤدون جزءًا منها إلى الديوان. ولهذا السبب لم تكن هناك أموال للإنفاق منها على تجهيز الجيش والمحافظة على الثغور وإبرام مصالح الملك، فكانت الضرورة تدعو إلى مصادرة الأموال وفرض ضرائب استثنائية على كافة الناس، وإرغامهم على تقديم إعانات.

ولهذا السبب كان المُلك دائمًا وكذلك الولايات والرعايا فى زعزعة وعدم استقرار وتعب ومشقة، والجيش بلا مئونة وضعيف الحال. أما الآن فقد تيسر بمعونة الحق تعالى وانفسح المجال كى ندون كل القواعد والقوانين بالتفصيل عن أكثر مواضع الممالك قرية فقرية، بصورة لم يسبق لها مثيل مطلقًا فى أى عهد، ولم يجمع نظيرها من السجلات والكتب. كذلك قررت أموال تلك المواضع ورصدت. ولو أنه لا يستطيع أى شخص مطلقًا أن يأتى بما يساوى هذه المجهودات وذلك بسبب عدم الاطلاع عند بعضهم، وبدافع الأغراض والمطامع عند البعض الآخر. وقلما يوجد الشخص الذى لا تكون فيه هذه

الصفات الذميمة. ولكن القوانين دونت بقدر ما تيسر. ثم عرضت علينا. وإذا كان فيما عرض قد حدث تفاوت فاحش أو سهو واضح من أحد الأشخاص، فإن نواب الديوان الأعظم قد تداركوه. وأكثر المواضع الديوانية التي تقتضيها المصلحة وتوجبها الضرورة قد سلمت للعاملين من القضاة والمزارعين ورجال القانون، بشروط مؤيدة مخلدة وموشحة بالتوقيعات الديوانية، ومهورة بختمنا الرسمي للدولة كي يتصرفوا بموجبها، ويؤدوا حقوق الديوان سنة بسنة.

وحيث إنه قد زالت أنواع الظلم والاعتداء والضرائب الاستثنائية والأعباء الديوانية التي كانت موجودة قبل هذا، فإن ما وقع من تفاوت وسهو لم يقم له وزن بالقياس إلى المظالم والأضرار التي كانت موجودة سابقًا. وعلى هذا لم يضايق الناس الواحد منهم الآخر. [ص٤٦٩] وصار جميع الخلق شاكرين راضين مادحين. وقد تخلصوا من متاعب الحيازة والاستيلاء والضرائب الاستثنائية والأعباء الديوانية التي يكثر عددها ويطول شرحها. أما الأشخاص الذين كانوا لا يخشون الله والمارقين وقصار النظر فلكي تكف أيديهم عن تحرير الحوالات التي يستعملونها في جذب أموال الناس وامتصاص دمائهم أمرنا - بخصوص تلك الأموال المفصلة والمقررة على كل موضع بموجب القانون - بألا يتدخل الحكام والولاة في الولايات في كل ما يتعلق بشئون الحوالات حتى تقصر أيديهم نهائيًا عن تحريرها ومنعهم من إصدار التراخيص. وبهذا الإجراء تُغل أيدي المستبدين وقواد الجيش الكثيرين الذين يزيد عددهم على عدد الرعايا ممن يدفعون الضرائب. ولما كانت عوائدهم وأقواتهم من دماء وأموال الرعايا العاجزين الذين يصدق عليهم قوله تعالى:﴿وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه﴾ (1) وكانوا لا يتحرجون من أكل ذلك المال الحرام. ومن الضروري كذلك أن يزاول هؤلاء أعمالاً من قبيل التجارة والفلاحة وزراعة البساتين وأنواع التعمير من أجل الحصول على رزق حلال، وهم بهذه الأعمال الشريفة والرزق الحلال يكفون عن العادات السيئة. وإذا ما انصرفوا عامين أو ثلاثة عن الأعمال السيئة إلى الأعمال الصالحة، فإنهم ينسون تلك العادات والتصرفات والحركات المذمومة، وتسود العالم

(1) الآية بتمامها: ﴿يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾. (سورة الحج، آية ٧٣).

قواعد ونظم جديدة؛ ذلك أن الانفطام عن المألوف أمر صعب. ومهما فكرنا فيه لا يمكن تداركه إلا بهذه الطريقة لا بالسيف والضرب والزجر والحبس. وكان الحكام والمستبدون فى الولايات قد اعتادوا أيضًا أنه فى حالة ما إذا منح سلطان الزمان شخصًا قرية أو موضعًا على سبيل الإدرار أو التعطف أو الإقطاع أو الخيرات أو الهبات والإنعامات أو أنه أوقف وقفًا، أو أن إحدى الخواتين أو واحدًا من الأمراء الأنجال والأمراء قد حمى شخصًا وأقطعه موضعًا، ولم يؤد حقوق الديوان، أو تصادف أن خربت قرية فإن هؤلاء يتخذون ذلك ذريعة لفرض أضعاف النفقات [ص٤٧٠] المطلوبة للديوان الأعظم، ويسجلونها فى الحسابات، ويستولون عليها لأنفسهم. وإذا لم يكن لنواب الديوان الرئيسى علم تفصيلى بالخدمات اللازمة لكل موضع، فكيف يعرفون ما يدعيه الحكام فى تقاريرهم وبياناتهم؟! كذلك الذين كانت لهم مآرب خاصة صاروا يدفعون الحكام كى يشهدوا زورًا. وبهذه الوسيلة كانوا يبددون مبالغ طائلة من النقد العينى.

أما الآن فلأنه وردت تقارير وتفصيلات عن كل موضع بموجب قانون الديوان الأعظم لم يبق بعد مجال لأى شخص كى تمتد يده إلى مثل هذا التمويه والتخليط، وتكون أيضًا مثل هذه الأمور المذكورة وغيرها سهلة وواضحة لدى ملوك العصر ونوابهم، ولا يستطيع أى شخص فى عهدهم أن يظلم غيره أو يشق عليه؛ إذ إن فوائد ذلك القانون مفصلة والإحصاءات المالية واضحة بينة لدى العقلاء والمطلعين، وتؤدى إلى الغرض المطلوب. وإذن ليست هناك حاجة تدعو إلى التطويل والإسهاب فى شرحها وبيانها.

ولما صار التوفيق حليفًا، ونجحت التجربة، وتحقق أن القانون قد نفذ فى كل موضع وتيسر لهذا السبب تحرير الحوالات بالتفصيل وصدورها عن الديوان الأعظم، مختومة بالختم الذهبى الرسمى للدولة. وقد ظهرت ثمرة ذلك؛ إذ استراح الرعايا، وعمرت البلاد وتحقق سر فحوى الآية الكريمة: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليه الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ (١). ولم يبق مجال لأى مستبد انتهازى كى يتصرف فى دانق

---

(١) الآية بتمامها: ﴿يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾. (سورة الحج، آية ٥).

ذهبى أو منٌّ واحد من الثمر. وقد علم رعايا كل قرية وموضع، مقدار المال المقرر عليهم. وكل شخص يأخذ منهم ما يزيد عليه، يكون ضالاً عديم الإنصاف. ولا سند له. وخلاف حكم المرسوم وإجازة الديوان الرئيسى الذى لا يجنى فائدة تذكر من ذلك الضلال وتلك الزيادة، ولا يشعر بغبطة. وعلى الرعية أيضًا ألا يطيعوا أوامر الظالمين، ويسددوا ما تقرر عليهم فقط بموجب الحوالات المختومة بالختم الذهبى الرسمى للدولة. ثم يعود مجموع ذلك النقد إلى الخزانة والجيش وبيت المال.

وفى هذا الوقت فكرنا قائلين: "حيث إن الغرض من هذا التدبير والترتيب هو رفاهية الخلق ونيل الثواب، كان علينا أن نسعى بقدر ما نستطيع حتى تصير تلك القاعدة أكثر استحكامًا وثباتًا، فيزداد ثواب تلك الإصلاحات، ويستمر بقاؤها مدة أطول. [ص٤٧١] ومع أننا قد نصبنا فى كل ولاية كاتبًا فى الديوان الأعظم لتحرير الحوالات المفصلة؛ وذلك حتى يقوم النواب بتوشيح الحوالات المكتوبة بالتأشيرات الديوانية، ويختموها بختمنا الذهبى فإن وضع الإشارات على الحوالات وختمها يحتاج إلى وقت وتفرغ تام. وقد لا تتيسر كتابة عدد وفير من الحوالات المفصلة، والتأشير عليها وختمها بسبب تبدل الزمان والانقلابات وإبرام الأمور الضرورية للمُلك والثغور والاضطرابات والمشقات التى لا يمكن أن يخلو منها عالم الكون والفساد. وحيث إنه من المتوقع أن يتطرق إليها عائق أو يحدث إهمال، تدعو الضرورة – لهذا السبب – إلى أن تكتب الحوالات المقررة على الولايات بصورة مجملة فينفسح المجال بهذا – مرة أخرى – للانتهازيين ليكتبوا الحوالات وتمتد إليها أيديهم ويتجرأون ويخربون العالم بنفس الطريقة، وجريًا على العادة القديمة. وبهذا يلحق الكساد ببيت المال على نحو ما كان عليه الحال سابقًا، وينفد ما فيه من نقد، ويؤجل أيضًا تدبير النفقات المقررة للبلاد التى يصرف منها على ضروب الإصلاحات من قبيل تشييد العمارات وتنفيذ المشروعات، وتوفير المنح والإعفاءات والصدقات وغيرها بحجة أن الأموال لا تصل مطلقًا إلى الخزانة، ويسوقون أعذارًا أخرى وحكايات مقنعة جريًا على عادتهم. وبهذه الذريعة يمضون وقتهم سنة بعد سنة، ويبقى الجميع محرومين. ويترتب على هذا أن تبطل هذه القاعدة التى كان قد مهد لها خلال مدة طويلة وبجهود بالغة؛ فكان أن استراح أهل العالم لهذا السبب. أما هؤلاء الانتهازيون فإنهم يحرصون على الظلم ويتجرأون ويسخرون

الرعايا العاجزين. ومرة أخرى يتعذر تدارك الأمر، فتكسد كل الأموال والمعاملات وتستهلك، ويزول الحق على النحو الذى كان سائدًا حتى الآن. ومن الطبيعى ألا يكون هذا الوضع ملائمًا لملوك العصر ولا الجند ولا الرعية. وقد فكرنا فى تدارك هذا الأمر فقررنا بموجب القانون ما على الولايات قرية قرية وموضعًا موضعًا، وذلك بالتفصيل والتقنين. ثم أمرنا بجمع كل السجلات الخاصة بالولايات وإيداعها المكتبة الملحقة بالقبة والخانقاه وأبواب البر التى أقمناها فى تبريز. وقد أودعت لدى المسئولين الثقات، وصدر المرسوم بالمحافظة عليها، وخصصنا للمكتبة وقفًا لما جاء فى شروط الوقفية. كذلك كتبت "وثيقة اللعنة" نص فيها على لعنة كل من يبطل ما جاء فى هذه السجلات **[ص٤٧٢]** التى يرجع إليها فى كل مشكلة تقع بعد ذلك. وإذا ما فقدت نسخة أو لائحة كانت قد أعطيت لأحد الأشخاص، فإنه يزود بنسخة أخرى من المكتبة؛ حتى يحصل بذلك الثواب. وقد أودعنا نسخة منها فى الديوان الأعظم، وواحدة مثلها فى كل ولاية. وتوجد نصوص اللوائح والقوانين فى يد القضاة والملاك والرعايا. كذلك أمرنا بكتابة هذه البيانات على النحو الذى قرر فى كل قرية وموضع على رقعة أو حجر أو صحيفة من النحاس أو الحديد حسب رغبة الأهالى، وذلك بأن ينقشوها عليها. وإذا رغبوا، فلهم أن يكتبوها بالجص المحفور، ويعلقوها على باب القرية أو المسجد أو المئذنة والمواضع الأخرى التى يقع عليها اختيارهم. وتعلق هذه البيانات لليهود والنصارى على أبواب معابدهم، وفى القرى والمواضع التى يريدونها. كذلك تقام لسكان البادية فى المواضع التى يرونها صالحة لذلك.

أما المبالغ المقررة على الولايات، فتعلن بياناتها للأهالى دون زيادة أو نقصان بحضور القضاة والسادات والأئمة والعدول والأكابر فى المدينة، ويُلزَم كل واحد من السكان فى كل قرية وموضع بأن يسدد سريعًا الأموال والرسوم وفق كل قائمة معلنة فى تلك الولايات، وذلك خلال عشرين يومًا. وكل ذلك بموجب القانون على النحو الذى سبق ذكره. ثم تثبت هذه القوائم بالجص والمسامير فى المواضع المختلفة؛ بحيث تبقى سنوات عديدة، لا يغيرها أو يبدلها أى مخلوق على أن يخصص موضع لبيان الأموال العينية، وكذلك البضائع المقررة ومقدارها؛ بحيث يكون سداد كل قسم من تلك الأقسام فى الموعد المحدد. كذلك تُعَين رسوم الدمغة كى تسجل على اللوح وفى كل قسم من تلك الأقسام المسجلة

على اللوح، تكتب له مسودة المرسوم على ظهر هذا اللوح حتى يُعرف أن كل قسم خاص بالأموال المختلفة فى الولايات المتباينة مقنن ومعين وعلى أى نحو ينبغى أن يكتب، ثم يحدد موعد سداد كل نوع، وكيف يكون الإيداع والتسليم. وينبغى أن يسجل كل قسم على لوح على نحو ما هو مذكور فى المسودة [ص٤٧٣] كى يتخذ وجوه القوم من الرؤساء والرعايا فى كل قرية أماكنهم فى موعد الموسم المعين، فيحضرون إلى الميدان؛ إذ إن المقرر أن يقيم المحصل خيمة وسط المدينة. ومنذ بداية الموعد المحدد حتى اليوم الذى تنتهى فيه المهلة يدق الطبل خمس مرات كل يوم. ثم يستدعى موظف الخزينة والمسئول عنها الذى عينه فى كل ولاية كى تسلم له الأموال كلها أو بعضها. وقطعًا لا يتقاضى المحصل من أى موضع شيئًا آخر باسم المؤن أو الخدمة وغير ذلك. كما لا يرسل المسئولون الحوالات من الديوان بأى وجه من الوجوه، ولا أى محصل إلى أى موضع أو ولاية. وإذا أهمل الرئيس والرعايا وتهاونوا، ولم يسلموا أموال الضرائب فى الموعد المحدد، فإن المحصل يقبض عليهم ويأخذ منهم دينارًا واحدًا عن كل مائة دينار من أصل الضرائب المقررة. وكل من يقصر فى هذا الشأن يجلد سبعين جلدة إلى أن تبقى هذه القاعدة مضبوطة ومحكمة، وتعم فائدتها الخاص والعام، وحتى لا يقع بسبب الإهمال والتغافل والجهل عدد من الناس مرة أخرى فريسة جور المستبدين والمارقين والذين لا يخشون ربهم.

والآن حيث إن مواعيد جمع الأموال العينية والمحاصيل قررت وحددت بمقتضى القانون المؤبد المخلد على النحو الذى سبق شرحه قمنا بترتيبها وتعيينها على هذا النسق:

موعد سداد الضرائب العينية لكل ولاية تختلف أقسامها كى يكتب كل قسم معيَّن منها على الألواح فى موضع خاص بذلك النوع الذى صار مقننًا، والممولون يستجيبون لهذا النظام، ويسددون ما عليهم على النحو التالى:

١ الضرائب والرسوم التى يدفعها الرعايا من سكان القرى. وقد جرت العادة على أن يؤدوها على قسطين كل سنة.

٢ من جملة الرسوم السنوية التى تقررت لكل موضع اشترط أن يؤدى نصفها من بداية حلول "النوروز الجلالى"[1]. وتستمر هذه المهلة عشرين يومًا بالكامل. أما النصف الآخر

---

(١) النوروز الجلالى نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقى. يقول ابن الأثير فى ذيل حوادث سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٩م: "فيها جمع نظام الملك والسلطان ملكشاه جماعة من أعيان المنجمين، وجعلوا النيروز أول نقطة =

فيؤدى ابتداء من طلوع الشمس فى أول برج الميزان، وتستمر هذه المهلة عشرين يومًا بالكامل.

[ص٤٧٤]

٣ الضرائب والرسوم التى يدفعها سكان الصحراء التى جرت العادة على أن يستجيبوا لدفعها مرة واحدة فى أول العام.

٤ خراج المال الذى كان مقررًا من قديم أن يدفع كضريبة عينية، تقرر سداده مرة واحدة فى أول السنة من بداية (النوروز الجلالى). وتستمر المهلة عشرين يومًا.

٥ خراج الضرائب العينية تقرر أن تسدد فى بعض المواضع مثل بغداد وغيرها وقت حصاد المحاصيل الصيفية.

٦ رسوم الدمغة بموجب ما تقرر أن تسددها كل ولاية على حدة. ويكون هذا مناسبًا لها، وذلك على النحو المكتوب على ظهر المنشور الذى يوضع على باب كل موضع خاص بالدمغة حتى تسلم على أقساط وفق هذا الترتيب. وليس لأى مخلوق أن يحدث بدعة أو يضيف رسمًا جديدًا، ولا يأخذ الجباة حاليًا أكثر من الرسوم المقررة بحجة أنهم أضافوا زيادة جديدة على الدمغة، كما لا يحدث رسمًا جديدًا.

٧ موعد وكيفية تسلم وتسليم أنواع المحاصيل الخاصة بالمناطق الحارة والمناطق الباردة من صيفية وشتوية، وبعضها خاص بالصحراء التى ليس فيها صيف؛ وشروط ذلك على هذا النسق والمنوال المسجل والمشروح.

٨ الاتفاقية الخاصة بالولايات الواقعة فى المناطق الحارة من شتوية وصيفية. وذلك على النحو الآتى:

= من الحمل. وكان النيروز قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت. وصار ما فعله السلطان مبدأ التقاويم. (الكامل فى التاريخ، ج٨، ص١٢١، الطبعة الأزهرية، تحقيق الشيخ عبد الوهاب النجار، القاهرة ١٣٤٨هـ). ومما هو جدير بالذكر أن شاعر الرباعيات الذائع الصيت عمر الخيام كان من بين العلماء الذين عهد إليهم بوضع هذا التقويم. (انظر براون: تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، ص٢٢٦).

أ   الشتوية: من القمح والشعير وغيرهما. وكل ما تقرر لكل موضع من المواضع المستثناة. وهذه المحاصيل يجب نقلها على الدواب من أول الشهر إلى مخزن يعين فى تلك النواحى، وتسلم للصراف. وأقصى مهلة لتسليمها عشرون يومًا.

ب   الصيفية: من الأصناف المستثناة بموجب القانون. ومن المقرر أن تنقل فى شهر ...[1] على الدواب إلى المخزن المعين فى تلك المنطقة؛ حيث تسلم للصراف. وأقصى مدة لتسليمها عشرون يومًا.

٩   الاتفاقية الخاصة بالولايات الواقعة فى المناطق الباردة، ولها محاصيل صيفية، وتلك التى ليس لها محاصيل صيفية، فهى لا شك تدرج ضمن المحاصيل الشتوية فحسب، بموجب ما قرره القانون. وذلك على النحو الآتى:

[ص٤٧٥]

أ   الشتوية: بموجب ما قرره القانون. فعلى المزارعين بعد حصاد محاصيلهم أن ينقلوها فى شهر ..[2] بالتمام والكمال بدوابهم إلى المخزن المعين فى تلك المنطقة، وذلك خلال مهلة أقصاها عشرون يومًا.

ب   الصيفية بموجب ما قرره القانون. فعلى المزارعين بعد حصاد محاصيلهم أن ينقلوها فى شهر ..[3] بالتمام والكمال بدوابهم إلى المخزن المعين فى تلك المنطقة، وذلك خلال مهلة أقصاها عشرون يومًا. وهكذا يكون الوضع فى كل ولاية منح فيها الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء أراضى ومزارع أو إقطاعيات أقطعت للجند. وكذلك ما أعطيناه بمقتضى الرسائل والمراسيم والإعفاءات، وما أعطى على سبيل الإحسان والإنعامات والهبات والصدقات لتكون تحت تصرف كل شخص. وبمقتضى القانون، عليهم أن يضعوا لوحًا فى كل موضع كى لا يستطيع الجباة المذكورون أن يأخذوا ـ وفق أهوائهم ـ زيادة على حقوق الديوان، وأيضًا لا يتحمل أهالى ذلك الموضع مشقة تذكر ذلك أن عدل الملك ينبغى أن يكون كالشمس تسطع فى كل مكان، وتعلو رؤوس أهل العالم.

---

(١)، (٢)، (٣) هكذا فى المتن.

(بيت من الشعر العربى فى الأصل:)

كالشمس فى كبد السماء وضوؤها   يغشى البلاد مشارقًا ومغاربًا

وحيث إن الغرض من هذه الجهود فى العهد المبارك للسلطان كان رفاهية الخلق، وضبط شئون الجند، والمحافظة على الثغور، وترويج أموال الخزانة وبيت المال، ودفع المفسدين واللصوص والانتهازيين أثبتت التجربة أن الرعايا صاروا راضين ومستريحين وداعين بالخير.

وقد نظمت هذه الأمور التى سبق ذكرها على هذا الوجه؛ بحيث إن ما يحصَّل الآن من الأموال صار أضعاف ما كان يصل سابقًا إلى خزائن آبائنا، ولم تعد هناك حاجة إلى المصادرة والتشدد فى المطالبة.

ومن المؤكد أن هذه الإنجازات التى مر ذكرها تكون مناسبة لجميع السلاطين الذين اتصفوا بالعدل، وذوى الرأى السديد والتدبير المحكم. وكذلك بالنسبة إلى الأمراء والوزراء والنواب الأمناء المشفقين والأكفاء المحنكين فى كل عصر وزمان. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب﴾ (١). ﴿ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ (٢). أما إذا ما تجاوزوا ذلك، فإنه يصير موجبًا لسوء سمعتهم، وإنزال العقاب بهم. وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فمن ابتغى وراء ذلك، فأولئك هم العادون﴾ (٣)؛ فلا غرو أن صار الخير العام والترتيب والضبط مبادئ جارية وسائدة. [ص٤٧٦] وبسبب ذلك أيضًا عاش الرعايا وكافة الخلق فى رفاهية وأصبحت الأموال مقررة ومعينة. وإذا استساغ ظالم أيضًا أن يغير ويبدل، فإن عليه أن يخشى آلام القلب وتأنيب الضمير، والتشنيع عليه، وتفجع الخلائق منه؛ إذ إنه لا يتصور أن تكون هناك عاقبة أو خم وجحيم، أشد إيلامًا من ذلك. ﴿وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾ (٤). كذلك لا يرضخ أهل العالم لمثل هذا التصرف، ويتلون قوله تعالى:

---

(١) الآية بتمامها: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يجعله حطامًا إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب﴾ (سورة الزمر، آية ٢١).

(٢) الآية بتمامها: ﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾. (سورة يوسف، آية ١١١).

(٣) سورة المؤمنون، آية ٧. وقد وردت أيضًا فى سورة المعارج، آية ٣١.

(٤) سورة الشعراء، آية ٢٢٧.

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ [1]. فلا جرم أن كل شخص يغير ويبدل يكون مستحقًا للعنة الخالق، وسخط الخلائق. ﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه. إن الله سميع عليم﴾ [2].

وعلى هذا المنوال أصدرنا مرسومًا إلى الممالك، وأرسلناه إلى ولاية.. [3] حتى تكتب نسخ من كل قسم من الأقسام المتعلقة بالأموال والمعاملات فى تلك الولاية على النحو المعين، وعلى المسئولين أن يسجلوا مسودة كل منها على ظهر المرسوم. ثم يكتب على اللوح ذلك القسم المناسب لتلك الولاية كما تم شرحه، وينجز ذلك بسرعة. وكل من يقصر فى ذلك يكون آثمًا.

كتب هذا المنشور فى أواسط شهر الله الأصم "رجب" سنة ثلاث وسبعمائة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م) فى مقام اولجايتو "بوينوق" بهولان موران. والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله.

وأما عن تلك الولايات التى تجبى منها حقوق ورسوم الديوان من المحاصيل الزراعية والنقود العينية، فإن أكثرها كان يحصل بالحيازة والتجزئة، وكان هناك مجال واسع فى هذا الباب لأهواء الحكام والعمال والمتصرفين فى الأموال. وكانوا قد أحدثوا رسومًا وقواعد فى كل عهد، وعينوا عمالاً كثيرين بأسماء مختلفة. وفى أكثر السنوات كانوا يطالبون بالأموال قبل حلول الميعاد المحدد لتحصيلها. وعند وضع التسعيرة كانوا يشقون ويثقلون على الرعايا والمزارعين إلى أقصى حد؛ بحيث إن أنواع تلك المظالم وأساليبها كانت تفوق حد الحصر. وقد حدث هذا فى بغداد وشيراز تلك المدينتين المعظمتين.

غاص السلطان غازان فى أعماق هذه الأوضاع، وأمر بتدارك وتلافى ما فيها من نقص فحدد المسئولون الرسوم طبقًا للقانون، وأسندت المناصب إلى القضاة والجباة على سبيل التأبيد والتخليد وذلك بطريقة تتيح للأموال أن تصل بصفة مستمرة، وبأضعاف ما كانت عليه سابقًا. وبهذه الإجراءات صار المزارعون والملاك والرعايا مستريحين شاكرين

---

(١) سورة البقرة، آية ٤٢.

(٢) سورة البقرة، آية ١٨١.

(٣) هكذا فى المتن.

[ص٤٧٧] وكفّت أيدى الحكام نهائيًا عن المطالب غير المشروعة، وقضى على ظلم المستبدين دفعة واحدة. وقد سُجّلت أنواع الخلل الذى كان مستشريًا فى ذلك الوقت. وإن بيان طرق التخلص منها مشروحة ومفصلة فى المراسيم التى كتبت لتلك الولايات. وكانت واضحة ومشهورة لدى الجميع. ولهذا ذكرت باختصار.

فليمتع الحق تعالى هذا السلطان الراعى والباسط العدل بطول العمر ودوام الإقبال أبد الدهر، وليمنحه مثوبات هذه الحسنات فى عهده المبارك، تلك الحسنات التى يحسده عليها دارا واردوان ويغبطه عليها أردشير وأنوشروان. والسلام.

الحكاية السابعة عشرة

فى المحافظة على الرعايا ورعايتهم ودفع الظلم عنهم

لما كنا قد شرحنا فى الفصول السابقة أنواع الظلم والجور والتطاول؛ تلك المظالم التى كانت تنزل بالرعايا، ووضحنا المتاعب من كل صنف تلك المتاعب التى كانت تحل بهم – نتجنب الآن التكرار. وقياسًا على تلك الحكاية تبين أنه كان للتوافه والمهملات أهمية كبيرة فى نظر الحكام وغيرهم. على حين أن هذه الأهمية لم توجه للرعايا. والواقع أن الأشواك الملقاة فى الطرق العامة لم تكن تجد ذلك الإعياء والتعب ما تجده الرعية.

أما سلطان الإسلام غازان خان خلد سلطانه فإنه بسبب كمال عدله، سبر غور الأحوال، فنهض لتدارك هذا الخلل. وبفضل يمن معدلته، استراح الجميع على النحو الذى سبق ذكره. وما نخصه بالذكر فى هذا الفصل هو أن السلطان كلما شاهد بنفسه، أو عرض عليه أن أحدًا من المقربين أو الجند قد ألحق بالرعية مشقة أو أذى، أو اغتصب شيئًا، أمر فى الحال بأن يستردوه منه بضربه بالعصى والهراوات؛ ليكون عبرة للعاملين. وعندما كان يركب باليمن للصيد، ويصل الركب إلى إحدى القرى، يأمر أتباعه بأن يشتروا بالعملة الذهبية الخراف والدجاج، وكل ما يحتاجون إليه مما يستعمله الخاصة [ص٤٧٨] وكذلك ما يلزم من القطعان أو من بيوت المغول، وذلك بأن يدفعوا دينارين أو ثلاثة لكل ما يساوى دينارًا واحدًا.

والمقصود من ذلك أنه عندما يرى الآخرون هذا السلوك يلزمون حدودهم، ويتجنبون الجور والطغيان، ويقتدون بتلك الطريقة المحمودة. وفى كل وقت يبدو للرأى الأعلى أن أحد الأمراء أو الجند أطلق يد البطش فى إحدى الولايات، وبالغ فى استبداده، أمر بمؤاخذة الأمراء الصغار، وضربهم بالهراوة، وعاتب الكبار ووبخهم. وذات يوم صرح بقوله: أنا لا أحابى الرعية التازيك. وإذا كانت هناك مصلحة لأن أغير على الجميع، فليس هناك من هو أقدر منى على القيام بهذه المهمة. ولكن إذا توقعتم منى بعد ذلك زادًا أو طعامًا، أو التمستم هذا أو ذاك، فسوف أغلظ لكم فى القول، وآخذكم بالشدة والعنف. وينبغى أن تفكروا

جيدًا أنكم لو أثقلتم على الرعية، وأكلتم لحوم أبقارهم، واستوليتم على بذورهم وغلالهم فما عساكم تفعلون بعد ذلك؟ كما أن عليكم أن تفكروا فى أنكم إذا ضربتم نساءهم وأطفالهم وآذيتموهم فإن عليكم أن تفكروا كيف أن نساءنا وأبناءنا أعزاء علينا وأن حال فلذات أكبادهم تكون هى نفس حال أطفالنا، وهم أيضًا آدميون مثلنا تمامًا. وقد فوض الحق تعالى أمرهم إلينا، وسوف نسأل عما يصيبهم من خير أو شر. فكيف نجيب، ونحن عندما نؤذيهم نكون جميعًا شبعى، ولن يعود علينا ضرر نتيجة وجودهم. فما الداعى إذن إلى إيذائهم وإلحاق الضرر بهم، وأية عظمة وشهامة تحصل لنا من وراء ذلك؟ وماذا نجنى غير الشؤم الذى سوف يحيق بنا نتيجة سوء عملنا، ولن ننجح فى أى عمل نقوم به. يجب أن يظهر فرق واضح بين المطيع والعاصى من الرعية. والفرق بين الحالتين هو أن الرعايا المطيعين فى أمان من الحاكم، والعصاة غير آمنين. وإذن فكيف يجوز ألا نؤمن المطيعين فيكونون منا فى عذاب ونصب؟ .... لا بد أن تستجاب دعوتهم بلعنتنا والدعاء بالسوء لنا.

وعلى هذا ينبغى التفكير فى هذه الأمور، وأنا دائمًا أسدى إليكم هذه النصائح، وأنتم عنها غافلون. ولكن بواسطة أمثال هذه النصائح بقى واحد من ألف من تلك المتاعب التى كانت تلحق بالرعايا قبل هذا. فلا غرو أن ازداد جمهورهم فى مختلف الممالك توجهًا بالدعاء للدولة. فليكن هذا الدعاء مقرونًا بالاستجابة بحق الحق وعزته.

الحكاية الثامنة عشرة

فى إبطال تسخير دواب البريد، ودفع أذى الرسل ومنع المتاعب التى ينزلونها بالخلق

ولو أن إيفاد الملوك الرسلَ والسفراء إلى الأطراف والجوانب يكون أمرًا ضروريًا، ويمكن أن تقوم وتنتظم بهم شئون المملكة، لكن المعتاد أن يوفد الرسل لإبلاغ أخبار الأمن والسلامة، وإيصال التحف والهدايا، ومن أجل مهمات الثغور وشئون الجند وأسرار الملك. ومن البديهى أن الحاجة كانت تدعو إلى إيفاد الرسل عدة مرات كل سنة لإنهاء تلك المصالح.

وقبل هذا كان الأمر قد وصل بالتدريج إلى حد أن جميع الخواتين والأمراء الأنجال وقواد الجيش وأمراء (التومان والهزاره والصده)[1] وحكام الولايات والمشرفين على السلاح والبزاة وسيَّاس الخيل والمشرفين على الذخيرة، وذوى المناصب الأخرى الذين نُصِّبوا للقيام بكل عمل، كانوا يوفدون رسلاً قليلين أو كثيرين إلى الولايات لتصريف كل مهمة. وقد جرت العادة أن أخذ الناس يقدمون أبناءهم إلى الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء ليكونوا غلمانًا ومعاونين فى التجارة. وكانوا يرضون بأجر ضئيل. وكان كل واحد منهم يوفد رسولاً لإنجاز مهماته بطرق مشروعة وغير مشروعة. هذا على حين أن مديونيهم قد بلغت روحهم التراقى من شدة المتاعب والتشريد؛ فكانوا يلجأون مضطرين إلى حماية آخرين، ويرسلون رسولاً، ويجازونهم على سوء أعمالهم. وهؤلاء بدورهم كانوا يوفدون رسولاً مرة أخرى. وبواسطة هؤلاء القوم كان الرسل يترددون على هؤلاء وهؤلاء. وكذلك يرسل حماتهم الرسل بجدٍّ تام. وهناك أيضًا طائفة أخرى، كان إذا مات منهم شخص، واختلف ورثته مع بعضهم البعض، فإن كل واحد منهم طمعًا فى زيادة الميراث كان يحتمى بشخص قوى من ذوى النفوذ فيوفد هذا، الرسل تباعًا الواحد تلو الآخر. وهكذا كانوا يشغلون طوال حياتهم بذلك الأمر، ويقتدى بهم أناس آخرون؛ بحيث إن ذلك صار عادة وحرفة للجميع.

---

(١) المقصود الفرق المكونة من عشرة آلاف (التومان) والألف (هزاره) والمائة (صده).

[ص٤٨٠] وثمة طائفة أخرى هم رؤساء القرى، كان كل منهم يبحث عن شخص يحتمي به. وبسبب خلافهم وتنازعهم على الرئاسة، كانوا يصحبون الرسل إلى الولايات. وهناك طائفة أخرى كانوا يأخذون الرسل بحجة أنه يمكن الحصول على التحف النادرة من الولاية الفلانية. وبهذا كانوا ينفقون أضعاف أضعاف ما كانوا يحضرون. كذلك كان المشرفون على تموين المحاربين، يرسلون بعض الرسل إلى الولايات بحجة إعداد الذخيرة والطعام، وتقديم الخدمات؛ بحيث كانت الدواوين في المدن تكتظ بهم. وكان هذا شأن أمراء السلاح والاصطبلات والدواب وغيرها؛ حتى وصل الأمر إلى حد أن الرسل في الطرق كانوا يزيدون على أفراد القوافل وجميع المسافرين. ولو كان لهؤلاء الرسل خمسة آلاف حصان في كل مرحلة لما كفاهم؛ فلا جرم أنهم كانوا يستولون على كل قطعان المغول التي كانت ترعى في المصايف والمشاتي ويسوقونها. وكانوا ينزلون جميع أفراد القافلة والمسافرين عن ظهور دوابهم ممن يجيئون من جهات الخطا والهند والنواحي الأخرى القريبة والنائية. كذلك كانوا يفعلون بالأمراء والحكام والملوك والكتاب والقضاة والسادات والأئمة وأرباب الحاجات الذين كانوا يترددون على المعسكر السلطاني، فينزلونهم عن ظهور دوابهم ويستولون على خيولهم، ويتركونهم على قارعة الطريق. كما يتركون بعضًا منهم في الأماكن الموحشة.

ولكثرة ما كان الرسل يمارسون هذه الأعمال وصل الأمر إلى حد أن اللصوص كانوا يظهرون على هيئة الرسل، ويقفون على قارعة الطريق قائلين: "إننا رسل". ثم يستولون على خيولهم، وفجأة يقبضون عليهم ويقيدونهم وينهبونهم. وكثيرًا ما كان الرسل يستولون على خيول زملائهم بحجة أن طريقهم أطول. وقد أدى الأمر إلى أن كل من له أتباع كثيرون، ويتمتع بنفوذ زائد، كان يستحوذ على حصان الآخر.

وحيث إن اللصوص قد اطلعوا على هذا الأمر، صاروا يقولون للرسل الموفدين الأقل منهم عددًا: "إننا رسل". ثم ينتزعون منهم خيولهم بالقوة وينهبونهم. [ص٤٨١] كذلك يستولون على ما معهم من مراسيم وپايزات[1]. وقد انتهى الأمر إلى حد أن أكثر اللصوص

(١) انظر ترجمة الحكاية الثانية والعشرين.

استطاعوا بما استولوا عليه من اليايزات والمراسيم أن يوقفوا الخيول أثناء سيرها وكانوا يذهبون إلى مفترق الطرق للسرقة، وذلك بالحيلة والمكر وبحجة أنهم موفدون لتبليغ الرسالة صاروا يداهمون أفراد القبائل ويسلبون دوابهم وملابسهم. وكان الرسل لا يكتفون بالخيل والعلف، بل يتذرعون بأنواع الحيل لابتزاز ما بيد كل شخص مهما كان تافهًا، وينزلون بالناس شتى المتاعب، ويسلبون أموالهم. أما سياس خيولهم فكانوا يأخذون ملابس الناس وعمائمهم، وكل ما يرونه فى أيديهم ويتعمدون الاستيلاء على المزيد من الخيول، ثم يبيعونها، ويغتصبون كل ما يجدونه فى القرى. وإذا مروا ذات يوم فى الطريق بعشر من القرى أو عشرة اصطبلات فإنهم يطالبون بالمئونة من تلك المواضع عشرة أضعاف ما يجيزه الشرع والقانون. ولما كان ما يستولون عليه يزيد على ما يلزم لطعامهم، كانوا يبيعون الفائض. وكان اهتمامهم دائمًا مصروفًا إلى التعامل ببيع العلف، بحيث إن تجار الخطا والهند لم يفعلوا مثل هذا فى ذهابهم وإيابهم.

وبالكشف عن هذه الأمور تتضح هذه الحقائق التى تدعو إلى التساؤل: كم ألفًا من الرسل كانوا يروحون ويجيئون كل سنة، وكم من الخيول وأطنان المؤن قد استولوا عليها بغير حق، وكم من الخلق ضربوهم وعلقوهم وأنزلوا بهم التعب والألم؟ ولما كانت الرعية طوع أمرهم صاروا يحققون مطالبهم من المؤن، ويلبون رغباتهم الأخرى، ويقومون ليلاً بحراسة دوابهم وأمتعتهم. وعلى هذا فإن المرء ليعجب كيف يمكن أن يتصور أن هذا القدر من الزراعة يتوقف عليه قوت الناس يكون كافيًا وميسرًا اللهم إلا بالبركة التى تكرّم بها الحق تعالى على عباده؛ فلم يحرمهم من الرزق.

ومن بين حيل الرسل أيضًا أنهم كانوا يسيرون متفرقين على غير هدى وعلى غير أساس، وأنهم حيثما حلوّا كانوا يقولون: إننا أبناء أو إخوة الأمير الفلانى الذى يذهب لأداء مهمة دقيقة خطيرة. وكان موظفو البريد والحكام والرؤساء والرعايا يعرفون أن كل ذلك كذب محض لا طائل وراءه. **[ص٤٨٢]** وإذا تصادف أن رسولاً عظيم الشأن كان يذهب لأداء عمل هام، فإنه قياسًا على الآخرين، لم يكن له وقع يذكر فى نظر الناس، كما لم يكن له اعتبار فى قلوبهم. ولهذه الأسباب لم يبق احترام قط للرسل. وكانوا هم أسوأ الخلق فى نظر الرفاق. وحيث إنه بسبب هذا اللبس لم يكن قد بقى قط وقع فى

النفوس للرسل الحقيقيين، ولم يكن أحد يعبأ بهم، ولم تعد لهم خيول للبريد، أو أنهم كانت تقدم لهم هزيلة عجفاء. وكان المسافرون وسكان الصحراء قد صاروا خائفين فزعين فاجتازوا الطرق على غير هدى، وأقاموا منازلهم بين الجبال.

ولهذه الأسباب فإنه عندما يقوم رسول بأداء مهمة دقيقة تخص مصالح الدولة، لا يستطيع الوصول إلى الجهة المقصودة إلا بعد فوات الوقت بيومين أو ثلاثة. ولا بد أن تنشأ أضرار عن ذلك. ودائمًا ما يجب مؤاخذة سعاة البريد بسبب ما يصيب الخيول من هزال. ورغم أنهم كانوا يربطون خمسمائة حصان فى كل محطة للبريد، لم يكن يوجد اثنان منها يصلحان لركوب الرسل. وفضلاً عن ذلك فإنهم كانوا يأخذون العديد من التومانات من كل مدينة لسد نفقات محطات البريد ومتطلبات الرسل. ولهذا السبب فإن حكام الولايات كانوا يأخذون من الرعايا مبالغ أخرى من الأموال، ينفقون بعضها، ويسلبون بعضها. كذلك فإن حصيلة الدمغة التى كانت أوفر الأموال فى البلاد، وفى كل الولايات، كانوا دائمًا يخصصونها لسد نفقات الرسل، ولم تكن تكفى لتنقلاتهم. وكان الحكام يكتبون حوالات بنفقات المؤن تصرف من أموال الدمغة ثم يهربون. ولما لم تكن حصيلة الدمغة كافية لسداد قيمة الحوالات، كان متعهد الدمغة يختفى أيضًا. كذلك كان الخصام يقع بين الرسل فتكون العاقبة أن من كانت له الغلبة يستولى على الأموال. ولما كانت هذه الغلبة تستلزم كثرة الأتباع، كان الرسل يسعون فى أن يجتمع حولهم أتباع كثيرون، يختارونهم من أقاربهم وأصدقائهم. وفى الطريق كانوا يستولون على كل ما فى أيدى الناس من أصناف. وكان الرعاع والسفلة يتبعونهم. وقد أدى الأمر إلى أن الرسول الذى يعرفه الملك والأمراء الكبار كان يصطحب معه فى أقل مهمة كلف بها مائتين أو ثلاثمائة فارس، وبعض الرسل الذين كانوا أكثر تقربًا وشهرة، **[ص٤٨٣]** كان يذهب معهم حتى خمسمائة فارس بل ألف فارس. وقد يتصادف أن يضعوا ما يقرب من مائتى كرسى فى الديوان بإحدى المدن لجلوس الرسل. وكان الحكام يقولون: "إننا نقدم فى الجلوس هنا كل من تكون مهمته أكثر ضرورة". ولهذا السبب صار الرسل ينازع بعضهم بعضًا، فمن كانت له الغلبة يجد الحكام – اعتمادًا على حمايته الخلاص من أذى الآخرين. وعلى هذا يمهلونه قليلاً؛ وينجزون له مهمته. على حين أنهم يهملون سواه. وهكذا صار الحكام يمضون وقتهم. وفى نهاية

السنة، كان جميع هؤلاء الرسل يعودون بخفى حنين دون أن ينجزوا أعمالهم. هذا على حين أنهم ينفقون نفقات باهظة. وفى الواقع فإن أنواع الخلل والضرر التى كانت تقع بسبب هؤلاء الرسل تفوق الحد الذى لا يمكن شرحه.

ولكمال معدلة سلطان الإسلام خلد سلطانه أوجب على نفسه ضرورة تدارك تلك العيوب، فقال فى هذا الشأن: إن أمرًا استفحل ضرره بالتدريج حتى وصل إلى هذا الحد واعتاده الناس جميعًا، لا يمكن القضاء عليه دفعة واحدة، وإنما علاجه يتيسر عن طريق التأنى. ثم بدأ بالفعل فى تدارك هذا الخلل. وفى العام الأول قال: ينبغى أن نخصص لنا محطة واحدة للبريد، يقصدها الرسل مسرعين لتصريف عظائم الأمور، والقيام بمهمات الثغور ولا يمتطى أى شخص آخر جواد البريد حتى يتميز هؤلاء الرسل على الآخرين، ويصلوا إلى مقصودهم سريعًا. ثم أصدر مرسومًا يقضى بإنشاء محطة للبريد فى الطرق الهامة. وعلى بعد ثلاثة فراسخ يربط فيها خمسة عشر حصانًا سمينًا سليمًا، ويقل هذا العدد فى بعض المواضع التى لا تدعو الحاجة إلى ذلك. كذلك أمر بألا يعطى أحد حصانًا ما لم يكن هناك تصريح عليه تأشيرة بالخط المبارك، ومختوم بالختم الذهبى الخاص. ثم عهد بكل محطة للبريد إلى أمير كبير يشرف عليها وترك للأمراء التصرف فى الإنفاق على مختلف المصالح فى تلك الولايات المعينة، بحيث تزيد هذه النفقات عما تدعو إليه الحاجة؛ وذلك حتى لا تبقى هناك حجة لأحد. وقال فى هذا الصدد. إننى أعطيكم زيادة عن المطلوب من النفقات؛ حتى لا يقع تقصير. فأنفقوا هذه الزيادة لتصريف مصالحكم الخاصة، وحتى لا تصدر كل يوم وشاية مؤداها أن النفقات كانت كثيرة عما تدعو إليه الحاجة، وهذا يؤدى إلى اختلال العمل، أو أن يقال: كان ينبغى أن يوكل هذا العمل إلى شخص آخر. **[ص٤٨٤]** فيختل بهذا نظام البريد. وبما أنكم أمراء كبار، فإنه لا مانع من زيادة النفقات لكم. ويجب عليكم أنتم أيضًا أن تنظموا المهام التى تسند إليكم. ولما كان من الضرورى أن يرسل أمراء الثغور إلى محطة البريد بيانًا عن أحوال الرسل كان على الأمير أن يعطى كل رسول عدة رسائل، وعليها التأشيرة المعهودة، ومختومة بالختم الذهبى. ثم يعطى بعض الرسل جوادين وبعضهم ثلاثة أو أربعة جياد. ويتعين على رجال البريد أن يعرفوا أنه لا ينبغى أن يعطى الرسول حصانًا ما لم تكن التأشيرة مكتوبة على الرسالة التى يحملها. ثم قال: إن الغرض من إيفاد الرسول العدّاء هو أن يصل بسرعة لإنجاز المهمة المكلف بها. وإذا كان ابنًا لأحد الأمراء، فإنه لا يحصل على أكثر من أربعة جياد. وصرح السلطان أيضًا بقوله: إنه إذا كانت المهمة تستلزم

الإسراع إلى أقصى حد، فإنه يجب تحرير رسالة مختومة، ثم ترسل على يد رجال البريد الموجودين فى محطة البريد كى يغذوا السير، ويكتب فى أعلى الرسالة عبارة: "من المكان الفلانى إلى المكان الفلانى". كذلك أعطى كل أمير من أمراء الثغور الدمغة الخاصة بالفرسان كى يضعها على تلك الرسالة. ورجال البريد السائرون فى الطريق يعرفون أن هذه الرسالة قد أرسلت من قبل الحضرة. وحيث إنه توجد محطة البريد على بعد ثلاثة فراسخ، فإن سعاة البريد العدائين يقطعون عَدْوًا فى اليوم بأكمله ليل نهار ستين فرسخًا، فتصل الأخبار سراعًا من خراسان إلى تبريز فى أربعة أيام. أما فى السابق، فكان إذا قدم رسول، فإنه لا يستطيع الوصول قبل ستة أيام. كذلك خصص السلطان شخصين من السعاة فى كل محطة للبريد حتى إذا طرأت مهمات فى الولايات، فإن عليهما أن يضعا طابع دمغة البريد على الرسائل ثم يختم، ويكتبان عبارة تفيد أن الرسالة أرسلت من الموضع الفلانى إلى الموضع الفلانى. وقدأثبتت التجربة أن السعاة يعدون فى اليوم بأكمله ليلاً ونهاراً من موضع إلى آخر ثلاثين فرسخًا. وبهذا يبلغ كل خبر فى زمن قصير. ثم قال السلطان بعد مدة: إن حراسنا وملازمى حضرتنا يلازموننا ليلاً ونهارًا فى الحر والبرد، أثناء الصيد والحرب، ويسيرون بخيولهم ومؤنهم. فلماذا لا يركب الأشخاص الذين يكلفون بأداء أعمال للدولة، ولا يحصلون على المؤن؟! وإذا ما حلوا بالولاية فإن عليهم أن يقدموا الكشوف بالنفقات وحيث إن هذا يكون أمرًا معقولاً، نفذت أحكام المرسوم الصادرة فى هذا الشأن، ومضت مدة على تطبيق هذا النظام، وألغيت محطات البريد الأخرى البالغ عددها عشرة آلاف وبذلك عادت إلى الخزانة، [ص٤٨٥] الأموال التى كانت تنفق سلفًا، ولما لم تكن هناك خيول مخصصة للرسل الذين يوفدهم السلطان، فإن علينا أن نتصور: كيف يمكن للآخرين أن يأخذوا خيولاً؟! ولقد صدر فرمان السلطان أيضًا، ويقضى بألا يرسل أى مخلوق رسولاً إلا أن يكون من قبل السلطان. ولهذا السبب صار إيفاد الرسل من قبل الآخرين أمرًا مرفوضًا. كذلك صدر أمر ينص على أنه إذا أوفد شخص رسولاً – لمصلحته الخاصة – إلى إحدى الولايات أو الأماكن الأخرى، فإنه لا يعطى علفًا. وعلى الحكام أن يعتقلوا ذلك الشخص ويقيدوه ويحبسوه؛ فترك هذا العملَ الأشخاصُ الذين كانوا يستدعون الرسل لإنجاز مصالحهم.

بعد ذلك صرح السلطان قائلاً: إن الرسل الذين يذهبون إلى الولايات نعطيهم نفقات السفر من الخزانة ذهابًا وإيابًا، حتى لا يأخذوا شيئًا من أحد فى أى موضع. وعندما يصلون

إلى المكان المحدد، يتناولون الطعام فى المبنى المعين. وكل رسول أوفد إلى إحدى الولايات يعطى نفقات السفر نقدًا من الخزانة. وقد ذاع هذا الأمر واشتهر فى كل الولايات والأماكن. وإذا كان الرسل الذين يوفدون بأمر السلطان خلد ملكه لا يملكون نفقات السفر فكيف كان الناس يعطون غيرهم؟! ولهذا السبب ألغيت خلال هذين العامين نفقات علف الخيل ومئونة الرسل من المدن والقرى والحظائر، بل إنه لم يعد أى مخلوق يرى رسولاً فى البلاد؛ ذلك أن الرسل الذين يغذون السير بسرعة فائقة ليلاً ونهارًا يكونون منشغلين بقطع المسافات، وليس لديهم فراغ لتناول القليل من الطعام. وبلا شك يسير من تلك الولايات ثلاثون رسولاً تقريبًا. وحيث أنه ليست هناك أوامر بأن يأخذوا زادًا فى الطريق لا يميزهم أحد عن المسافرين الآخرين.

بمثل هذا العدل الشامل، يكون كافة الخلق فى راحة. فالمغول والبدو يكونون فارغى البال فى مواطنهم، ويصير التجار مطمئنين، وتكون البضائع الصادرة والواردة آمنة فى الطرق، ويدعو جميع الرجال مع نسائهم وأطفالهم من أعماق قلوبهم وأرواحهم بدوام إقبال السلطان. فليستجب الله هذا الدعاء. وأمر السلطان أيضًا بأنه فى حالة الضرورة وإذا لزم الأمر أن تعطى جماعة عددًا من الجياد أو الحمير [ص٤٨٦] كى ينتقلوا من ولاية إلى أخرى، فإنه يدفع لهم ثمنها كى تصير ملكًا لهم. ومن المقطوع به أن اسم خيل البريد لم يكن واردًا من قبل. وقبل هذا كان الصيادون ومتعهدو النمور والأسود يحضرون الحيوانات والفهود من الولايات بواسطة خيل البريد، فأمر بأن يدفع لهم ثمن هذه الحيوانات، وكذلك نفقات الذهاب والإياب، حتى لا يأخذوا فى الطريق شيئًا مطلقًا، وتصير الدابة التى كانت قد بقيت بعد الوصول ملكًا لهم.

بهذه الأنظمة عمرت البلاد ووجدت من جديد الرفاهية والنظام. والأموال التى كانت تنفق على دور البريد، والنفقات المخصصة للرسل كانوا يأخذونها إما بالزيادة وإما تئول إلى الخزانة. وما كان يضيع على الرعايا بتلك الحيل يبقى لدى رؤسائهم.

فليوصل الله تعالى بركات هذه المعدلة إلى أيامه المباركة بمنّه وجوده وخفّى لطفه وكرمه.

الحكاية التاسعة عشرة

فى القضاء على اللصوص وقُطاع الطرق
والمحافظة على الطرق منهم

لا يخفى على أهل العالم إلى أى أحد بلغ قبل هذا تطاول قطاع الطرق واعتداء اللصوص على الناس. ورغم أن أجناسهم كانت كثيرة لا تحصى من قبيل المغول والتازيك والمرتدين والكرد واللور والشول والسوريين، فإنه كان ينضم إليهم أيضًا الغلمان الهاربون من سادتهم. ويدخل فى زمرتهم كذلك بعض القرويين وسكان الأطراف. وكانوا يَدَّعُون بأنهم مرشدون. وكان لهم جواسيس ينهون إليهم أخبار كل طبقات الناس. وإذا ما وقع فى مأزق فى وقت من الأوقات حيث ظلوا يهددون الطرق مدة طويلة ونالوا شهرة فى هذا العمل، فإن طائفة من الناس تسرع لحمايتهم قائلين عن كل واحد منهم: كيف يمكن إعدام مثل هذا البطل؟! ينبغى الإبقاء عليه ورعايته. ولهذا السبب صار اللصوص الآخرون يزدادون وقاحة وجرأة ورغم أن القانون السابق كان يقضى بأن يتحد جميع أفراد القوافل والرسل وعابرى الطرق فى مواجهة اللصوص عندما يظهرون ويقاومونهم، فى خلال تلك الحقبة لا تُعاون تلك الأقوام بعضها البعض عندما يهدد اللصوص الطرق. [ص٤٨٧] وأكثر من هذا فإن اللصوص كانوا يعرفون أحوال تلك الجماعة بالتفصيل، فيجاهرون بقولهم: ليس لنا شأن بهؤلاء الذين لا يملكون شيئًا أو يملكون القليل؛ فكان أفراد تلك الجماعة ينفصلون عن بقية الطوائف، وينتحون جانبًا؛ فينتهز اللصوص الفرصة ويهاجمون الآخرين ويقتلونهم. وكان اللصوص إذا سطوا على بعض المواضع، ونهبوا مجموعة من الخيول أو قرية أو مدينة، فإن سكان تلك النواحى لا يتحدون بل يلتزمون الحياد؛ رغم أنهم قريبون بعضهم من بعض، ومن الممكن مقاومة هؤلاء اللصوص. وقد انتهى الأمر بأن صار للصوص أعوان وشركاء بين كل قوم من سكان البوادى والقرى. وكان هناك أناس كثيرون مطلعون على أحوال اللصوص، غير أنهم كانوا يخفون الحقيقة. وأحيانا إذا انكشف أمر هؤلاء اللصوص فإن الناس لا يعرضون على الحضرة ما حدث فى الوقت المناسب. وبمدد الرؤساء وبعض عمد القرى الذين كانوا مقربين إليهم وأصدقاء لهم، يحصل هؤلاء

اللصوص على كل ما يلزمهم من نفقات. وكثيرا ما كانوا يذهبون إلى منازل تلك الجماعة وينزلون ضيوفا عليهم. كما كانوا يلجأون إليهم عند الخوف والفزع. كذلك كان لهم أشخاص مقربون إليهم في المدن يبيعون بضائعهم للناس. وكانوا يعاشرونهم أوقاتا قد تمتد شهرا أو شهرين، ويقسمون الأموال المسروقة فيما بينهم. وقد بلغ اعتداء اللصوص إلى حد أنهم كانوا يسطون فجأة أثناء الليل على منزل أحد الأمراء ويغيرون عليه. وكان رجال الأمن وحراس الطرق لا يقلون عن اللصوص ظلما؛ إذ كانوا يستولون على كل ما يريدون من المسافرين وكانوا يمنعون القوافل من السير بحجة أن بين أفرادها لصوصا وأوغادا فيعرف اللصوص ذلك، ويسيرون إليهم، ولا يتعقبهم الحراس مطلقا. وفي الحقيقة لم يقلق الرائحون والغادون من اللصوص بقدر قلقهم من رجال الأمن وحراس الطرق؛ ذلك أن ضرر اللصوص يقع أحيانا ومصادفة لكن هؤلاء الضحايا كانوا يقعون فريسة في يد القائمين على الأمن والحراسة في موضعين في كل مرحلة. **[ص٤٨٨]** وما أكثر القوافل التي كانت تختار السير في الطرق المجهولة والنائية إلى أقصى حد، والمليئة بالأهوال والمشقات كي تتخلص من رجال الأمن وحراس الطرق.

إزاء هذه الأوضاع رأى سلطان الإسلام خلد سلطانه أن من الواجب عليه تدارك هذه الأمور، فقرر أولا أن كل مخلوق ينفصل عن رفاقه وقت هجوم اللصوص، ولا يتعاون مع الآخرين في العمل على مقاومتهم يكون مذنبا، وتقع عليه إراقة دماء رفاقه وإزهاق أرواحهم.

وأصدر قرارا ثانيا يتلخص في أن كل موضع من المرابط والقرى يتعرض لسطو اللصوص تقع مسئولية اقتفاء أثرهم والعثور عليهم على عاتق من يكون أقرب إلى المكان الذي تعرض للسرقة خصوصا إذا أخبروا بهجوم هؤلاء اللصوص؛ فإنه يكون لزاما عليهم أن يتعقبوهم فرسانا ورجالا سواء أكان الوقت ليلا أم نهارا حتى يعثروا عليهم.

كذلك أصدر قرارا ثالثا مؤداه أن كل مخلوق من المغول والرعايا المسلمين يكون قد تواطأ مع اللصوص في المرابط والقرى والمدن، وثبت عليه ذلك يقتل فورا دون محاباة.

وقد عهد السلطان غازان خان بمهمة تنفيذ هذه الإجراءات إلى الأمير أيتقول أحد المقربين إلى الحضرة، والمشهور بصراحته ونزاهته وهو لا يحابي أحدا على الإطلاق، فقبض

على كثير من طائفة اللصوص وأعدمهم جميعًا، وقدَّ بعضَهم نصفين، وجعل الشخص الذى كان يمشى بهؤلاء اللصوص "طرخانا"، وأصدر أمرا بأن يكون شغله الشاغل التحرى واستقصاء أخبار هذه الطائفة. ولما كان السلطان قد استحسن إقدام الأمير أيتقول على قتل هؤلاء اللصوص، منحه كل أموالهم ودوابهم، وأمر بإعدام كل مخلوق يسرق ولو بقدر دانق واحد.

بهذه الإجراءات ظهر الخوف والرعب فى البلاد، بحيث إنه لم يجرؤ - بعد ذلك - أى مخلوق على التواطؤ مع اللصوص. ولما عرف هؤلاء أنه لن يتيسر لهم معين، ولن تتهيأ لهم الوسائل والمقام، قللوا سرقاتهم وساد الأمن إلى حد كبير. **[ص٤٨٩]**.

بعد ذلك قرر أن يرابط حراس الطرق فى كل البلاد، وفى كل موضع يكون مخوفًا موحشًا، وأن يؤخذ نصف درهم من القافلة عن كل أربعة من الحمير المحملة، وعن كل جملين نصف درهم أيضا، وذلك باسم الضريبة وقطعًا لا يؤخذ أكثر من هذا. أما الدواب غير المحملة، وما ينقل من المأكولات والغلال، لا يطلب عنها شيء قط. وإذا حدث سطو فإنه على كل حارس للطريق يكون أقرب من مكان الواقعة أن يقبض على اللص، وإلا فعليه أن يسدد من ماله الخاص قيمة الشيء المسروق. وبموجب هذا أخذت منهم جميعًا إقرارات خطية.

وقد عهد بالإشراف على جميع حراس الطرق إلى الأمير بورالغى وهو ابن الأمير جنقور الذى كان أميرا كبيرا للدرك فى عهد أرغون خان. وأمر السلطان بأن يعهد الأمير بورالغى إلى شخص موثوق به لحراسة كل طريق. والباعث على ذلك هو اتخاذ الحيطة والحذر حتى لا يتوقف الحراس فى المواضع الآمنة، ويرابطوا فى الأماكن السهلة، ويتركوا المواضع المخوفة المحفوفة بالأخطار معطلة، ولا يرابطوا أيضا فى المواضع مدة تزيد على الضرورة.

وأمر كذلك باتخاذ الحيطة والحذر، وذلك بإقامة أعمدة من الحجارة والجص فى المواضع الضرورية. ثم يوضع على كل عمود لوح مثبت تثبيتا محكما، ويسجل عليه عدد الحراس المكلفين بحراسة ذلك الموضع، وشروط القانون المخصص فى هذا الشأن؛ وذلك حتى لا يتجاوز الحراس تلك المواضع، والعدد المعين للحراسة، ولا يتقاضوا ما يزيد على الرسوم المقررة. ويطلق على هذا اللوح اسم "لوح العدل". وأمره واضح وظاهر.

وقبل هذا كان كل مخلوق يدعى أنه من رجال البريد، ويرابط فى مفترق الطرق. وكان يأخذ الإتاوات بعلة السماح بالمرور. أما الآن فى هذا الزمان، فلأنه قد كتب صراحة على اللوح أن كل مخلوق يرابط خارج هذه المواضع المحددة يعتبر لصًا، لم يستطع أى شخص من المغول والتازيك أن يرابط فى مكان آخر [ص٤٩٠] وخلال هذين العامين عندما أصدر السلطان هذا القانون، هاجم اللصوص طرقًا قليلة فى البلاد. وإذا اتفق أحيانا وحدث سطو فإن اللصوص يساقون ومعهم الأموال التى اغتصبوها ويقتلون. وعلى هدى هذه الإجراءات، انتهج جميع أقوام الترك هذا الأسلوب، فعم الأمان، واستتب الأمن فى الطرق.

كذلك أصدر السلطان قرارًا آخر يقضى بأن أفراد كل قافلة وكذلك المسافرون الذين ينزلون في الطرق الكبيرة بالقرب من إحدى القرى أو فى دار البريد عليهم أن يسألوا أكثر أشراف القوم الموجودين فى هذه المناطق: "هل يوجد لصوص أو لاً؟! فإذا أجابوا: نعم يوجد، فإن على هؤلاء المسافرين أن ينزلوا فى دار البريد أو فى القرية. ويجب على المسئولين ألا يمنعوهم من النزول هناك. أما إذا قالوا: لا يوجد لصوص، وهم ينزلون فى الصحراء وتصادف أن ظهر لصوص وسلبوا شيئًا، فإن المسئولية تقع على عاتق هؤلاء القوم. لكن هذا الحكم لم ينفذ فى أطراف المدن، لأنه يتعذر تنفيذ ذلك هناك.

وحيث إن الطرق نظمت على هذا النحو، وزُوِّد الأمير بورالغى بأسماء حراس الطرق ورؤسائهم بالتفصيل، فبلغ عددهم ما يقرب من عشرة آلاف شخص؛ بحيث إنهم صاروا يكونون جيشًا معدًا إعدادًا تاما، وجنود هذا الجيش يقومون بهذه المهمة خير قيام. كذلك صدر أمر بألا يشتغلوا بعمل آخر، وعليهم أن يحافظوا على حياة جمهور المسافرين وأموالهم وذلك على نحو يتيح لهم أن يروحوا ويجيئوا فى أمان واطمئنان. وهم فارغو البال مطمئنو الخاطر، يدعون لسلطان الإسلام بإخلاص تام.

فليكن دعوهم مقرونًا بالاستجابة بمن الله ولطفه العميم.

الحكاية العشرون

فى تخليص عيار الذهب والفضة من الشوائب بصورة لم يسبق لها مثيل مطلقًا وليس من الممكن أن يوجد أفضل منها

لا يخفى أن السكة لكل الممالك منذ قديم الأيام حتى الوقت الحاضر لم تكن فى أى عهد قد ضربت كلها باسم ملك واحد كان يسيطر على كل العالم؛ وخصوصًا فى العهود التى كانت هذه الممالك فى يد عدة ملوك وسلاطين. وكان عيار الذهب والفضة مختلفًا دائمًا فى هذه المواضع. وقد أرادوا أيضا فى عدة ممالك أن يضبطوا المسائل الخاصة بالعملة وذلك بأن يجعلوا العيار فيها متساويا. ولكن هذه المحاولات لم تتحقق برغم الأحكام الصادرة بشأنها، ولم يستطيعوا ضبطها. [ص٤٩١].

وليس هناك شك فى أن أحد نواميس الملوك أن تكون الخطبة والسكة باسمهم. وحتى هذا الوقت كانت السكة تضرب فى بلاد الروم وفارس وكرمان وجورجيا وماردين بأسماء الملوك والسلاطين هناك وبعيارات مختلفة. وفى عدة مواضع فى عهد أرغون خان وگيخاتو خان صدر مرسوم يقضى بأن تضرب هناك سكة الفضة ذات عشرة عيارات بتسعة عيارات. وكان هذا من الناحية الاسمية فقط؛ إذا الواقع أن العشرة عيارات لم تزد عن سبعة عيارات أو ثمانية. والعملة الرومية التى كانت أحسن بالنسبة إلى غيرها من المواضع الأخرى وصلت إلى حد أن عيار الفضة فيها لم يزد عن دينارين فى كل عشرة دنانير. وكانت البقية كلها نحاسا. وكان رسل المغول يذهبون مرات عديدة مع الكتاب التازيك إلى الولايات المختلفة لفحص العيار بناء على حكم المرسوم. وكانت تصرف نفقات طائلة فى هذا السبيل. وهم يؤدون واجبهم اسميا فقط دون أن يعاقبوا أى مجرم. ولم يستحوا من أن يسكوا مثل هذه العملة التى تبدو نحاسا دفعة واحدة دون أن يظهر فيها أثر من زيادة تذكر من الفضة. ولأنها كانت ترسل بالعدد كانوا يقتطعون من العملة الفضية حواشيها. ولما كان العيار فى الولايات مختلفا كان التجار يتاجرون فى الأقمشة الحريرية على سبيل الضرورة.

وكان يشترون الذهب والفضة من أى بلد يذهبون إليه حيث كان العيار فى الموضع الذى يقصدونه؛ لأن الفائدة من ذلك تكون لهم أزيد. ولهذا السبب لم تكن الأقمشة الحريرية موجودة فى أغلب المواضع. وقد أدى الأمر إلى حد أنهم كانوا يشترون النقود بأقل من قيمتها الحقيقة، وإلا ما كانوا يأخذون شيئا. وكل من أراد أن يأخذ معه مائة دينار لينفقها فى بلد آخر كان يخسر من هذا المبلغ ما يزيد على عشرة دنانير. وكثيرا ما كانت الخسارة تصل إلى عشرين دينارا. وليس هناك غرامة أفدح من أن يخسر غير التجار من المال – الذى يفى بحاجاتهم الضرورية – كل شهرين أو ثلاثة أشهر عشرة أو اثنى عشر دينارا. ومع هذا كانوا مضطرين إلى تحمل مشقات كثيرة حتى يستوفوا تلك النقود منهم لا سيما فى القرى ومضارب البدو وسكان الصحراء الذين لا يعرفون العيارات، ويترددون فى أخذها عاجزين عن إدراك ما هو أفضل لهم.

وفائدة وجود الذهب والفضة إنما تتمثل فى أن حاجات الناس تقضى بواسطتهما وسرعان ما يحصلون على الأشياء التى يريدونها. وعندما يصير حال الذهب والفضة على هذا النحو [ص٤٩٢] تروج الأقاويل وتظهر المتاعب، ولا يقبل أحد هذه العملة وقت الصرف، فيكون ذلك خلافا لوضع العالم وطبعه.

فكر سلطان الإسلام خلد الله ملكه فى أن يتدارك هذا الخلل وذلك على الوجه الآتى:

أولا ضرب السكة وفق طبعه، ووضع عليها علامة لا يتيسر لكل شخص تقليدها وأمر بأن تضرب السكة فى كل البلاد من الذهب والفضة كى ينقش عليها اسم الله واسم الرسول واسمه هو أيضا. وفى جورجيا [1]كذلك لم تكن السكة هناك تحمل على الإطلاق

---

(١) خضعت إمارة جورجيا للمغول فى إيران، وكانت تدفع لهم الخراج نقدا أو عينا، وتعمل جاهدة لتبنى نفس السياسة التى اتبعها المغول. وكان على الكرج أن يمدوا المغول بعدد من جنودهم فى زمن الحرب. وقد اعتبر المغول الجيش القادم من جورجيا جيشا مثاليا وكفئا كما أن المغول أظهروا ميلا وولعا بالكرج بسبب مهارتهم العسكرية ولكونهم الحراس الطبيعيين للحدود القوقازية. وفى مقابل ذلك سمح لهذه الدويلة بقسط وافر من الاستقلال فى الشئون الداخلية والمالية، وكان باستطاعتهم أيضا البت فى شئونهم العسكرية دون تدخل المغول. (انظر كتاب العالم الاسلامي في العصر المغولي، تاليف برتولد شپولر، نقله الى العربية خالد اسعد عيسى، راجعه وقدم له سهيل زكار، والطبعة الأولى / ص٦٨–٦٩، دمشق ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م).

اسم الله واسم الرسول، فسكت غازان على سبيل الضرورة على النحو المقرر عند الگرج (الجرج)، إذ لم يكن يروج عندهم غير تلك العملة. وكان نظام التعامل قبل ذلك يسير وفق ما تعارفوا عليه؛ إلى أن دعت الضرورة إلى أن تضرب هناك أيضا هذه السكة المعمول بها فى إيران؛ وإلا فإن نقدهم ما كان يتداول فى أى موضع آخر. هذا على الرغم من أن السكان هناك كانوا عصاة متمردين. وهكذا تقرر ضرب السكة من الذهب والفضة وتداولها فى كل البلاد على النحو المذكور.

ثانيا فيما يتعلق بتقرير العيار، قال: إننا لو سمحنا بإنقاص شيء قليل من عيار الذهب الشرعى المتداول كالنقد الخليفى والمصرى والمغربى، لأنقصوا كثيرا من العيار بمجرد الترخيص، وبالحيل والتلبيس يظهرون ذلك العيار بشكل آخر. ولم يكن مفتشونا على علم بذلك، أو أنهم يتقاضون رشاوى فيهملون الأوامر.

وإذن فالمصلحة تقتضي أن تضرب النقود بصورة مطلقة من الذهب الخالص؛ بحيث يمكن سكه بالورق. وإما الفضة الخالصة فيمكن تحليلها بالزئبق، حتى إذا داخلها تخليط ولو بقيد شعرة فإنه يمكن إظهاره ومعرفته إما من اللون، وإما من ..[1]، وإما من النعومة. وإذا صهرت بالنار فإن التخليط يظهر فى الحال، ويسهل على كل شخص معرفة قيمتها. وحيث إن السلطان أراد أن يكون العيار فى كل البلاد على هذا النمط، وكانت مواضع التفاوت كثيرة فى العيارات أمر قائلا: "إذا نفذ هذا القرار فجأة فإن كافة الخلق سوف يلحقهم الضرر، ويضجون بالشكوى. فالأولى إذن أن يسك كل درهم بأربعة دوانق من غير أن تكون هناك مصلحة من وراء ذلك، ولو بنصف أو ربع دانق. **[ص ٤٩٣]** ولم يكن هناك سكة يضربونها فى هذا الزمن بنصف مثقال مما كان يساوى نصف الدانق خالصا، ونصفه الآخر مزيفا. أما الآن فيساوى نصف مثقال فضة خالصة. وحيث إن قيمة الذهب والفضة تكون بمقدار عيارهما فإن كل شخص يملك نصف نصف دانق أى (ربع دانق) خالصا والنصف الآخر مزيفا، ثم يصرفه بدرهم واحد، أو يجعله خالصا فى نصف مثقال، يصرفه بذلك الدرهم الواحد. وبالتدقيق تبين أنه قريب من القيمة المحددة، ولا يحدث ضرر كبير. ومن هنا أخذ الناس يستبدلون راضين كل ثلاثة مثاقيل فضة خالصة مسكوكة بثلاثة مثاقيل

---

(١) هكذا فى المتن.

ونصف مثقال من الفضة التي كانت فى أيديهم. وكان السلطان يستفسر عن قيمة الذهب المتداول ويأمر بسكه وتثمينه على نحو مرض؛ بحيث لا يحدث تفاوت قط. وأما الذهب الهرموزى الذى لا يستطيع أحد تمييزه عن المزيف المطلي بالذهب، وكذلك أنواع الذهب الأخرى القليلة العيار، والأقل قيمة، فإنه أمر بأن يسعر بسعر أرخص ومقصوده من ذلك أن الصيارفة عندما يدركون أن فى صهر الذهب ربحا لهم يشترونه كله، ويصيرونه ذهبا خالصا. ومتى عرفوا تلك الفائدة فإنه خلال عام واحد لم يعد أحد يرى فى البلاد مثقالا واحدا من الذهب القليل العيار.

ولما كان الذهب الأحمر (الإبريز) الخالص يوجد نادرا فى الأسواق فيما مضى فإنه إذا توافر منه قدر محدود فإنه مائة مشتر كانوا يظهرون لشرائه. وكان المشهور أن الثياب والأقمشة المنسوجة وما شابهها تلك التي كانت توشي بالذهب، وتستهلك كثيرا من الخيوط الذهبية متوافرة فى عصر المغول. كما أنها من البضائع التي تروج فى الهند وتحمل إلى هناك. ولهذا قل الذهب فى ذلك الوقت. أما الآن فإن الذهب الأحمر يتداول بكثرة فى الأسواق بيد كل قروى، ولا نهاية له، وبه تنجز كل المعاملات. وعلى هذا لم يبق فى البلاد من الذهب والفضة غير المضروبين بهذه السكة.

ثالثا: بالإضافة إلى ذلك صدر قرار يقضي بأنه إذا عثر على ذهب وفضة مزيفين فى يد أحد الأشخاص فإنه يعتبر مجرما. وجريا على العادة القديمة لا يقولون: دلنا على ذلك الشخص الذى أعطاك هذا الذهب؛ إذ إنه فى ذلك الزمان كانت أنواع **[ص٤٩٤]** الذهب المزيف موجودة. أما فى هذا الزمان (أى فى عهد غازان) فالأمر يقتضي ألا يتعامل أى مخلوق بغير الذهب والفضة. ومن لا يعرف الذهب يعرضه على شخص آخر كي يحتاط لنفسه.وحيث إن الأمر يجرى على هذا المنوال لا يقدم أى مزيف على تزييف الذهب؛ لأنه يعرف بالتأكيد أنه لن يقبل منه؛ ولأن الجميع يحتاطون. وفى هذه المدة التي نفذ فيها أمر عظيم كهذا فى كل البلاد، لم يكن الأمر محتاجا لأن يقتل أحد جزاء مخالفته. ولقد ذاع الخبر وانتشر فى كل البلاد، ويقضي بألا يكون هناك سكة أخرى قط ولا عيار آخر غير المذكورين. وأمر أيضا بالتعامل بالفضة المسكوكة، بحيث يزن الدينار المتداول ثلاثة مثاقيل حتى لا يزيفه أى مخلوق.

ولما صار النقد متساويا في كل البلاد استراح الناس، وأخذ التجار يستبدلون الأمتعة بالنقود التي كانوا يدخرونها. والآن يحملون أنواع البضائع إلى كل بلد. وقد رخصت أسعارها، وتمتع جميع الناس بفوائدها، وانتشر اسم سلطان الإسلام خلد سلطانه وذاع بالاستحسان والثناء. وقد قرئت الخطبة وضربت السكة باسمه المبارك. كذلك أمر السلطان غازان بسك عملة من أجود أنواع الذهب، تزن كل واحدة منها مائة مثقال، ونقش عليها اسمه بخطوط كل الولايات، حتى يعرف الجميع عندما يقرأونها في كل المواضيع أنها من ضربه. وقد نقش عليها آيات القرآن الكريم وأسماء الأئمة الاثنى عشرية (رضي الله عنهم). وكانت هذه العملة تمتاز بالجودة واللطف إلى أقصى حد؛ بحيث إن كل شخص يعثر عليها، لا يميل إلى تركها. وقطعا يريد أن يحتفظ بها. وعلى سبيل الشهرة وإذاعة الصيت صرح السلطان قائلا: "عندما ننعم على أحد نعطيه من تلك العملة الممتازة"[1]. مثل هذه الاعمال العظيمة التي لم تتح لأى واحد من الخلفاء والسلاطين السابقين قد تيسرت ومهدت لسلطان الإسلام خلد سلطانه وهى لازمة لراحة الخلق. فليبقه الله تعالى أبد الدهر بمنه وكرمه.

---

(١) يبدو أن هذه العملة كانت للإهداء فقط وليست للتداول. هذا ويذكر شپولر أنه لم يعثر حتى الآن على نموذج من هذه المسكوكات (تاريخ مغول در ايران، ترجمة دكتر محمود مير آفتاب، ص ١٩٤ ١٩٥).

فى تعديل أوزان الذهب والفضة والأحمال والمقاييس والمكاييل والمساحات والأوزان الأخرى وغير ذلك

قبل هذا كانت أوزان الذهب والأحمال والمكاييل والمساحات والأوزان الأخرى مختلفة في البلاد، بل حتى هذا الزمن، كانت تختلف أيضا فى نواحي كل ولاية. ولهذا السبب كان يقع خلل كبير فى محيط الأسعار. وكان التجار يقللون من شراء البضائع؛ لأنهم كانوا كلما حملوا نقودا من موضع إلى موضع زادت قيمتها. وبمجرد ما كان الوزن يتفاوت كان يتحقق الربح للتجار. وقد ترتب على هذا أن كسدت سوق البضائع فى بعض الولايات وانعدم وجودها فى بعضها كذلك. وكانوا يتعاملون بالأصغر منها مع الغرباء، وبالأكبر فيما بينهم. وإذا كان الغريب يعرف ذلك أو لا يعرف فإنه للضرورة يرضى بالأمر الواقع. وكان القرويون يشهد الواحد منهم للآخر كذبا وزورا على أن المكيال عدل وصحيح. أما مكاييل الحبوب التي كانت تعطى للجند، أو تقدم كهدايا، والتي ينبغي أن يزن كل مكيال مائة من فإن ما يظهر منها سبعون أو ستون منا فقط، بل أقل من ذلك أيضا. لكن الأشداء يأخذون حقهم كاملا، بل وأزيد أيضا، وذلك بضرب الهراوة. ولهذا السبب كان الناس دائما فى شقاق ونزاع.

عن هذه الأحوال المختلة قال سلطان الإسلام: "حيث إن كل الممالك طوع أمرنا، فما الداعي إذن لوجود هذا الاختلاف؟! علينا أن نضبط تلك الأمور ونصلحها؛ بحيث تكون كل المواضع متساوية ونعمل حتى لا تبقى أوزان مختلفة فى الأسواق والولايات والقرى كى لا يستطيع التجار التلاعب والسرقة.

وبخصوص هذا الموضوع أعمل السلطان فكره المبارك، فأصدر مرسوما ينص على وجوه الإصلاح والتدبير والترتيب على النحو الذى نسجله ونوضحه ونبينه فيما يأتي:

[ص٤٩٦] نص المرسوم الصادر بشأن عيار الذهب والفضة الذى أمر به السلطان على الوجه الذى هو أفضل كل الوجوه

بسم الله الرحمن الرحيم
بقوة الله تعالى وميامن الملة المحمدية
فرمان السلطان محمود غازان

ألا فليعلم الشحن والملوك والكتاب والنواب والقضاة والسادات والأئمة والصدور والأعيان والوجوه والمشاهير وكافة السكان والمسافرون وتجار الممالك أن كل أنظارنا وهممنا السلطانية متجهة إلى رفاهية أحوال الرعايا وجميع الخلق، ونشر العدل والصدق فيما بينهم وإقامة الأعمال الخيرية وتريد أن نزيل من بين سكان العالم الظلم والجور والبدع والأكاذيب التي انتشرت آمادا مديدة بين الخلق. ذلك أن كافة الناس صاروا فى تعب ومشقة، ومثار اعتراض وجدال ودعاوى باطلة، وحروب وخصومات؛ فنرغب فى أن نرفع عن كاهلهم أنواع التزوير والمظالم كي يتخلصوا فى هذه الدنيا من الفتن والمشقات، وفى الآخرة من العقوبة ومن نار جهنم.

فى هذه الآونة عندما كنا نتفحص شئون الملك ومصالح الخلق، ونضع قانونا لكل أمر تبين لنا أن كل شخص يعد لمصلحته ومنفعته أوزانا من الحجارة واللبن والحديد وغير ذلك يستعملها فى أسواق المعسكرات والمدن. وفى كل وقت يزيد وينقص فى الوزن حسب هواه. وهكذا يبيع ويشترى بهذه الطريقة، فيصير الفقراء مغبونين ومتضررين. هذا التصرف لم يكن مناسبا لرأينا الذى يزين الدنيا، ولم نستحسنه، فصدر أمرنا بتعديل أوزان الذهب والفضة والأحمال والمكاييل والمقاييس، وذلك فى كل البلاد الممتدة من ضفاف نهر جيحون حتى حدود مصر، وأن تصنع كلها من الحديد. ثم تختم وتضبط بحضور الشخص الذى عيناه لهذه المهمة. وبموجب هذا النظام يباشر الناس أعمالهم فى كل البلاد، ولا يحيدون عنه. وإن تفصيل وبيان ذلك إنما يكون على هذا النحو الذى نشرحه فيما يأتى:

[٤٩٧] أولا: يجب أن يكون وزن الذهب والفضة فى كل البلاد موازيا ومساويا لوزن تبريز كي لا يستطيع أحد أن ينقص أو يزيد فيتحمل مظالم الناس، وأيضا لا ينقل النقود من ولاية إلى ولاية أخرى بسبب تفاوت الوزن. ومثلما يتساوى عيار الذهب والفضة فى المملكة تتساوى الأوزان أيضا. ولهذا السبب عينا الأستاذين فخر الدين وبهاء الدين كي يصنعا أوزان الذهب والفضة بالشكل المثمن وأن يعينا من قبلهما فى كل ولاية اثنين من الثقات وأمينا من قبل قاضي تلك الولاية كي يعدلوا الأوزان بحضور المحتسب، ويتم ترتيب وضبط ذلك، على نحو يراعي فيه أن تكون سنجات الذهب مثمنة الشكل طبقا للنموذج الذى وضعه فخر الدين وبهاء الدين الخراساني. فأى شخص فى كل ولاية يحتاج إلى أن يعد لنفسه وزنا، عليه أن يصنعه بالشكل المعين من الحديد الخام. ثم يذهب إلى الأربعة الثقات المذكورين الذين عينوا فى كل ولاية كي يعدلوا العيار باحتياط تام، ويضعوا عليه السكة، ويسلموها لأصحابها، ولا يصنع تلك السكة أى شخص آخر كائنا من كان، ولا يضعها على حجر الوزن. أما الشخص الذى يصنع تلك السكة وفق هواه، ويضع العلامة على الحجر على سبيل التمويه فيعتبر مجرما ويستحق الإعدام.

ثانيا: يجب على كل شخص يعطى السنجات والسكة أن يسجل اسمه فى السجلات حتى لا يستطيع الآخرون تزييف الوزن حسب هواهم، وأن يتفحص المسئولون كل شهر – على سبيل الاحتياط كل السنجات لكافة الناس، ويقارنوها بالأصل، فإذا ما زاد عليها شخص أو نقص منها، أو أخفاها أو وضع السكة خفية أو سرا حسب هواه، أو استعمل وزنا آخر ليس عليه ذلك الختم وتلك النقوش ثم تداوله أو أنه زيف تلك الأوزان – فإنه يقبض على ذلك الشخص ثم يساق إلى الشحنة كى يعاقب بموجب حكم المرسوم.

ثالثا: أوزان الأحمال لها نفس الحكم والترتيب والطريقة. ولكن المقرر هو أنه فى كل موضع يكون الوزن أقل من وزن تبريز يعدل ليكون مناسبا ومساويا لوزن هذه المدينة. [ص٤٩٨] وكل ما كان حتى هذا الوقت زائدا على وزن تبريز يطبق عليه القرار المتبع بالنسبة إلى السنجات ومراعاة الاحتياط حتى يتركوا وزن تلك الولاية. لكن ينبغي أن تصنع كل تلك الأوزان من الحديد بشكل مثمن طبقا للنموذج، وأن يراعي الاحتياط فتوضع عليه السكة، ثم يقر المسئولون الثقات الإجراءات على هذا النحو من الضبط والترتيب.

وينبغي أن تصنع أوزان الأحمال ابتداء من عشرة أمنان حتى الدرهم الواحد فى إحدى عشرة قطعة وفق هذا الترتيب: عشرة أمنان خمسة أمنان منان من واحد نصف من ربع من ثمن من عشرة دراهم خمسة دراهم درهمان درهم واحد.

وعندما يكون الحمل ثقيلا ومكونا من قطعة واحدة يجب على موظفى الدمغة فى المدن أن يصنعوا قبانا معتمدا عليه، يوزن بـه الحمل؛ بحيث لا تكون هنـاك زيـادة أو نقصـان فى الوزن.

رابعا: بسبب اختلاف المكاييل فى كل بلد من كيل وقفيز وجريب وتغار قمح أو شعير ونظرا لاصطلاحاتها الكثيرة فإنهم يزيدون وينقصون فيها، وكل شخص يصنع مكيالا وفق هواه. ولا شك أن ضبط ذلك كله أمر صعب. ثم إن كل شخص لا يـدرك ذلك، وبخاصة أفراد القوات المتطوعين من المغول. وكذلك التجار والغرباء الذين يصلون إلى كـل ولاية. وقد ينشب الخلاف بينهم وبين الرعايا فيما يتعلـق بشراء مكيـال الديوان وتسلمه. على أن كل من له غلبه ونفوذ يأخذ بالقوة ما يزيد عن المقرر. أما الأشخاص الضعفاء فيعطون أقل من المعهود. وهذا من شأنه أن يسبب النقصان والخسران والمشقة والقيل والقال بين النـاس أجمعين.

لهذه الأسباب أمرنا بأن يكون الكيل متساويا فى كل البلاد. وكـل كيلـة تسـاوى عشرة أمنان بوزن تبريز، ويسـاوى المن الواحد ٢٦٠ درهمـا، وكـل عشر كيلات تسـاوى تغارا واحدا. وباستثناء الكيلة والتغار المذكورين لا يستعمل أى مكيال أو اصطلاح آخر بـين الخلق حتى تكون المعاملة والمحاسبة صحيحة، ولا يحتال الواحد منهم على الآخر. وعنـد تسليم التغار يقدر بالمكيال حتى لا تكون فيه زيادة أو نقصان. ولما كـانت الحبـوب من القمح والشعير والأرز والحمص والفول والسمسم والجاورس وغير ذلك، وبعضها أخف أو أثقل من بعضها الآخر، ينبغي أن يصنع لكل نـوع من تلك الحبوب **[ص٤٩٩]** مكيـال خاص به، بحيث يعادل عشرة أمنان بالضبط. ثم يكتب اسم محتوى كـل مكيـال على أربـع جهات بعنوان "مكيال الحب الفلاني"، على أن تفوض دار القضـاء "المعتمـد" للقيـام بهـذا العمل، إذ إنه الشخص الـذى عهد إليه بالإشراف على أوزان الذهـب والفضـة والأحمـال. وعلى المسئولين أن يحتاطوا لذلك المكيال بالاتفاق مع المحتسب، وأن يضعوا على أطرافه أيضا علامـة خاصـة بـه، بحيث لا يمكن حدوث أى تزوير أو محاولة للنقصان أو الزيـادة.

وكل شهر تتخذ الحيطة فى المدن والولايات؛ بحيث إن كل شخص يصنع مكيالا بغير العلامة الخاصة به، ويكون فى حوزته، يقبض عليه ويسلم للشحنة، ويعتبر مجرما، وتقطع يده، ويؤخذ بجرمه وجنايته. وبأى حال من الأحوال، ولأى سبب من الأسباب لا يكون هناك بعد ذلك فى كل الممالك ابتداء من ضفاف نهر جيحون إلى تخوم مصر أى مكيال أو قفيز أو جريب سوى المكيال ذى العشرة أمنان، والتغار ذى المائة من. وإذا وجد فإنه لا يهتم به، ولا يصنع مكيال أو مقياس آخر. وإذا أريد صنع نصف ذلك المكيال ذى خمسة أمنان فإنه يجوز ذلك؛ بحيث يتكون من العشرين ونصف المكيال تغار واحد.

خامسا: يجب تحديد مكيال الدبس والخل والسمن، بحيث يكون كل مكيال عشرة أمنان مساو لوزن تبريز. وإذا أريد صنع نصف مكيال فإنه يجوز ذلك؛ بحيث يكون خمسة أمنان بوزن تبريز. وأما قرب الدبس فما كان يقدم منها طعاما للجنود أو الإهداء فإن الواحدة منها تقدر بخمسة مكيالات، وتزن خمسين منا. وأما ما يقدم فى المآدب والحفلات فإنها تكون أربعة مكيالات تزن أربعين منا.

سادسا: تقاس كل الأذرع التي يقيسون بها الأقمشة بالذراع التبريزى، ولا يقيسونها بالذراع الرومي الذى يختلف كثيرا عن الذراع التبريزى. لكن يوضع على أعلى كل الأذرع الختم الذى صنعه الأستاذان فخر الدين وبهاء الدين الخراساني: أما النموذج الذى يعطى للمسئولين، فإنه يوضع على طرفى الذراع ويكون تنفيذ ذلك على النحو الذى سبق شرحه. وفى المدن يشرف على هذه العملية المعتمدون المذكورون. وكل من يغير ويبدل فى المقاييس يعد مجرما ويستحق الإعدام.

أوصل الله تعالى بركات مثل هذا العدل والإنصاف إلى أيام السلطان المباركة الميمونة.

الحكاية الثانية والعشرون

فى تنظيم شئون المراسيم والپايزات وتسليمها للناس

[ص٥٠٠] بخصوص المراسيم قرر السلطان أن يعرض عليه فى الوقت المناسب كل كلام فى حالة صحوه و يقظته. ولو أن سلطان الإسلام خلد ملكه - حتى وقت تناوله الشراب أيضا لا يستطيع أى مخلوق أن يموه عليه على سبيل الحيلة والتلبيس والمغالطة. كما لا يستطيع الحصول على إذن يسمح له بعرض كلام غير مستساغ ولا جدوى منه. ولا يمكن أن يعرض عليه موضوع غير منطقي لا فائدة منه، أو أن يطلب إليه البت فى أمر على سبيل العجلة والتسرع؛ فلم يأذن بأن يعرضوا عليه كلاما فى مثل هذه الأحوال.

كذلك أمر السلطان بأن يعد الأمراء صور المراسيم بعد عرضها عليه، إذ إنهم يعرفون مصالح الملك، ويدركون كل أمر. وإذا كانت هذه المراسيم غير معقولة وبعيدة عن العمل الذى يمارسونه، فعليهم ألا يكتبوها بناء على التماس كل شخص. وهناك أيضا كثير من المهمات التي ينبغي أن تراجع بشأنها السجلات الديوانية مع ذكر المواضع والمبالغ. ويجب الاحتياط عند كتابة المسودة، فيقرأونها لفظا بلفظ بحضور كتاب المغول، ثم يعرضونها على الحضرة، حتى إذا لزم إصلاح فإنه يصحح بقلم السلطان المبارك أو بلفظه المبارك. وبعد تبييض المسودة يعرضونها عليه مرة أخرى، ثم يختمونها، ويقولون: إن المرسوم الفلاني الخاص بفلان قد عرض فى اليوم الفلاني وقرئ فى اليوم الفلاني، وذلك حتى يؤذن لهم بوضع الدمغة.

وقبل هذا كان مفتاح صندوق أختام الدمغة الكبيرة فى يد الكتاب. أما الآن فهو فى عهدة الحضرة المباركة، ويسلم وقت الحاجة كي يختم به الكتاب المراسيم متفقين، ثم يعيدونه إلى موضعه. كذلك عين السلطان أربعة أمراء من أربع فرق، وأعطى كل واحد منهم على حدة ختما أسود (قرا تمغا)؛ حتى إذا ختموا به المرسوم سجلوا ذلك على ظهره بحيث لا يمكن إنكاره مطلقا، أو أن يقولوا: إن ذلك لم يتم بمعرفتنا. بعد ذلك تعرض هذه المراسيم على الوزراء وأصحاب الديوان مرة أخرى كي يحتاطوا للأمر ويتأكدوا متسائلين: هل حدث تلاعب أو لا؟ وهؤلاء يضعون أيضا دمغة الديوان على المرسوم، ويسلمونه

للشخص المعين. ثم عين كاتبا كي يكتب في السجل صورة المرسوم لفظا بلفظ ويختمه ويذكر [ص٥٠١] اليوم الذى ختم فيه بالدمغة، ومن كتبه، ومن عرضه. وبعد انتهاء العام ينشأ من جديد سجل آخر تسجل فيه المراسيم؛ بحيث يخصص سجل جديد لكل سنة. والمقصود هو ألا يتيسر حدوث تزوير أو تخليط، ولا يستطيع أحد قط أن ينكر عرض المرسوم أو كتابته وختمه. وكذلك إذا أعطى أحد مرسوما، ووجده شخص آخر، وأراد أن يحصل على حكم يخالف ما نص عليه المرسوم فإنه يرجع إلى السجل كي تعلم الحقيقة، ولا يحدث خلاف ما عرض. وإذا ما اتهم صاحب المرسوم فإنه من ذلك السجل، يمكن معرفة ما إذا كان قد أدخلت زيادة على ما هو مقرر له أم لا. وبناء على هذا يؤاخذ هو أو من اتهمه؛ وذلك حتى تنتظم أمور الأحكام بصورة دائمة، وتغلق أبواب الاعتراضات المغرضة. وأمر السلطان كذلك بألا يأخذ الرسل من أحد شيئا فى مقابل ختم المرسوم بالختم الأحمر.

والحق أنهم بهذه الإجراءات قللوا كثيرا من أولئك الذين كانوا يطمعون بالنسبة إلى ما كان عليه الحال قبل ذلك.

كذلك عين لكل أمر هام دمغة خاصة؛ فالدمغة الكبيرة المصنوعة من اليشم[1] خصصت لحكومات السلاطين والأمراء والملوك العظام ومعظمات الأمور. وخصصت للقضاة والأئمة والمشايخ دمغة أخرى من اليشم أيضا، وهى أصغر قليلا. أما للأمور المتوسطة فقد خصصت دمغة كبيرة من الذهب وهى أقل قيمة من اليشم. ومن أجل ركوب الجند ونزولهم تستعمل دمغة خاصة من الذهب بنفس ذلك الخط والنقش المعهودين، على أن ينقش على أطرافها صورة قوس وهراوة وسيف. ويقضي الفرمان بألا يركب الجنود أو ينزلوا بناء على كلام الأمراء أو أى مخلوق ما لم يروا تلك الدمغة، وذلك باستثناء جنود الطليعة الذين يقومون بمباشرة مهمات الثغور وحراستها. كذلك هناك فئة قليلة من الجند لمراقبة الطرق على سبيل الاحتياط، فعلى هؤلاء أن يركبوا وينزلوا بناء على أوامر أمرائهم. واتخذوا أيضا ختما ذهبيا صغيرا تختم به حوالات الخزانة والولايات وملحقاتها والمفاوضات والرسائل الديوانية التي تكتب بخصوص المعاملات والرى والفلاحة؛ وذلك بعد أن يكون كتاب الديوان قد كتبوها بموجب التأشيرة، وكتبوا على ظهرها عبارة مختصرة بالخط المغولى حسب التعليمات حتى يختموها بتلك الدمغة.

---

(١) اليشم: مصطلح عام يشمل مجموعة من المعادن الصلدة التى تتدرج ألوانها من الأبيض تقريبا إلى الأخضر الأدكن وتتكون من سليكات الكلسيوم والمغنسيوم غير المتبلورة. (انظر المعجم الوسيط، ج ٢ ص ١٠٦٥).

والآن عندما تتجمع الحوالات والرسائل الكثيرة [ص٥٠٢] تعرض على الحضرة فيأخذ المسئولون مفتاح الصندوق ليختمها الوزراء ونواب الديوان بمعرفة "صاحب الدمغة" (تمغاچي). هذا على حين أن الآخرين يثبتونها فى السجل المحفوظ أيضا فى ذلك الصندوق حتى تتضح معرفة أى شخص ختمها بالدمغة، وفى أى وقت تم ذلك. ومع توافر مثل هذا الضبط والترتيب كيف يبقى مجال يمكن معه كتابة حوالة بدانق من الذهب دون الإذن المبارك ؟!

وعندما قررت هذه الضوابط ونفذت خطر للفكر المبارك أنه لما كانت مهمات الملك ومصالحه وملتمسات الناس أكثر من أن تتيح الفرصة الكافية لقراءة كل مسوداتها؛ ينبغي أن يفكر فى اتخاذ قرار آخر فى هذا الشأن حتى لا تتعطل مصالح الناس، ولا تلحق مشقة بأرباب الحاجات لهذا السبب. وحيث إنهم أيضا يكتبون صورة لكل مهمة فلا بد ألا تبقى فى ذهن الكتاب مضامينها لكثرة ما يكتبون: ومرة أخرى يحدث اختلاف فى العبارات ويظهر الاختلاف فى تلك الأحكام التي تكون قد كتبت لمهمة واحدة. ولتلافى هذا النقص أمر بأن تضبط أنواع المهمات وملتمسات الناس مما قد يمكن وقوعه؛ وذلك اعتمادا على القياس وإعمال الفكر، وأن تكتب لكل منها صورة تشتمل على جملة الشروط اللازمة لتلك المهام بتفكير تام وعناية فائقة.

وعندما دونت كل هذه القواعد والشروط، استدعى السلطان الأمراء وقال لهم: إن الأحكام التي تصدر إنما هى بأمرى، وتعرض بواسطتكم. وحيث إنه يجب على كل مخلوق ألا يكون قادرا على إحداث تغيير فى هذه الشروط بسبب تلونه وعدم ثباته يلزم أن نقرأ هذه المسودات، ونعمل الفكر فى كل باب من تلك الأبواب، بحيث نحتاط للأمور، ولا يبقى أى شيء مهما دق أو صغر، ويترك مهملا وغير مرعي. وبذلك يكون ما نقره موافقا لرأينا ورأيكم، ونجعله دستورا لنا. بعد هذا نبت فى كل القضايا على هذا النحو، ونحكم بناء على ذلك، حتى تجرى كل الأمور على منوال واحد وقانون واحد، ولا يتطرق الاختلاف إلى أقوالنا. ويجب على المسئولين أن يتشاوروا فى الأمر. وعلى سبيل الاحتياط يصلحون ما يرونه فى حاجة إلى إصلاح؛ بحيث يستقر رأيكم بالإجماع على قرار واحد. وبعد ذلك يقرأ ما كتب مرة أخرى بحضوركم؛ فإذا ما بدا لكم شيء من خلل فعليكم أن تتشاوروا وتصلحوه. [ص٥٠٣]

وبعد إتمام هذه الخطوات الإصلاحية استقر الرأى حسب الأوامر الصادرة على أن تكتب كل تلك المسودات فى سجل، سماها "قانون الأمور" ، وأمر بأن تنسخ الأحكام فيما بعد من تلك المسودات دون زيادة أو نقصان. وإذا اتفق – وهذا نادر – أن وجدت صورة لم تذكر فى السجل فإنه تعد لها مسودة ثم تعرض. وأحيانا إذا لزمت إضافة جديدة تتناول الشخص والموضع واقتضاء الحال والوقت فإن على المسئولين أن يكتبوا – على حدة تلك الألفاظ القليلة، ثم يعرضونها.

وحيث إن مثل هذا الضبط والترتيب لم يكن لهما مثيل فى أى عهد سدت أبواب المجادلات والمنازعات التى كانت تحدث فى الأحكام نتيجة اختلاف العبارات. وبذلك انتهت حيرة أصحاب الحاجات، وتهيأت لهم الفرص المناسبة، واستراح الخلق، وتحقق للجميع وثوق تام فى شئون الأحكام، ورسخت حرمة المراسيم وعظمتها فى القلوب. وقد زال سعي وأراجيف المفسدين والفضوليين الذين كانوا يستنبطون الأحكام وفق أهوائهم ووضحت مراتب الخواص والعوام والحكام والمحكومين والظالمين والمظلومين. ولا شك أن منافع هذه الضوابط أكثر من أن توصف.

أما بخصوص ترتيب وتدبير منح الپايزات[1]، فقد أمر السلطان بصنع پايزات كبيرة خاصة بالسلاطين والملوك والشحن، وهى مستديرة على هيئة رأس الأسد، ومكتوب عليها اسم ذلك الشخص الذى يمنح الپايزة. ثم يسجل ذلك فى السجل، وتظل فى يده طوال مدة عمله. ثم تسترد بعد عزله؛ إذ إن الپايزة تظل سنوات عديدة مخصصة لتلك الولاية. ومن المقطوع به أنها تمنح للملك بعينه، ولا تعطى شخصا آخر غيره. وكان المعتاد قبل ذلك أنهم إذا كانوا يرسلون – خلال عشرين سنة – عشرين حاكما إلى إحدى الولايات، فإنهم يمنحون كل واحد منهم پايزة. وكان كل حاكم يعتقد حتى بعد عزله أن الپايزة أصبحت ملكا له، فكان يرسلها فى الخفاء إلى أحد الأماكن لإنجاز مهماته الخاصة.

---

(١) الپايزة لوحة من الذهب أو الفضة أو الخشب حسب رتبة المهداة إليه. وهى تشبه الميدالية فى العصر الحديث. وينقش على وجهها اسم الله واسم صاحب الخان المانح وعلامة خاصة. وقد أمر غازان بأن يكتب عليها أيضا اسم الشخص الذى يمنح الپايزة. أسمى أنواعها ما كانت تزينه صورة الأسد. وهذه خاصة بالملوك. وتهدى الپايزة إلى من يثق بهم المغول من كبار الشخصيات ورجال الدولة، ويتمتع حاملها بامتيازات خاصة فله الطاعة على كل من فى دولة المغول.

وأما بخصوص الملوك والشحن ذوى الرتبة المتوسطة، فقد خصص لهم بايزات أصغر من السابقة. وهى ذات نقش مخصوص ومكتوب عليها اسم الشخص الذى تمنح له الپايزة وفقا للضوابط المذكورة، ومنع ما كانوا يعطونه قبل هذا من وسائل كي يصنعوا الپايزات فى الولايات وعين السلطان صائغا يلازم البلاط، وهو الذى يصنع الپايزات. وعند تسليم الپايزة المصنوعة من الفولاذ ينقش عليها نقش معين؛ بحيث لا يستطيع شخص أن يقلده بسهولة. ويشترط أن يتم ذلك فى حضرة السلطان، ثم يطرق بالمطرقة حتى يثبت عليها **[ص٥٠٤]** والمقصود هو أن تظهر الپايزة المزورة بواسطة تلك العلامة.

وبخصوص الرسل الذين يركبون خيول البريد فقد خصصت لهم نفس الپايزات المستديرة، ويكتب عليها پايزة الخزانة ثم يسجل اسم الرسول فى السجل. وعند عودته تسترد منه.

وأما بخصوص الرسل الذين يذهبون بالبريد الرسمي للدولة، فقد أمر لهم السلطان بپايزة مستطيلة على رأسها صورة القمر، وتمنح هذه الپايزة أيضا وتسترد وفقا لهذه القاعدة. وعندما تقرر إيفاد أمراء الثغور دعت الضرورة إلى استخدام البريد الرسمي، كما تقرر أن يمنح كبارهم خمس پايزات مصنوعة من النحاس. أما ذوو الرتبة المتوسطة، فيمنحون ثلاث پايزات يسلمونها للرسل السريعى العدو.

وقبل هذا كان أمام كل واحد من الأمراء الأنجال والخواتين والأمراء أنواع من الپايزات. وكان هؤلاء يسيرون الرسل تباعا إلى الولايات لإنجاز كل عمل يريدونه.

وقد ثبت واتضح للجميع كيف ظهر أثر هذا التدبير المحكم وكيف ظفر الناس بأى نوع من الراحة.

أوصل الحق تعالى بركات هذا العدل والإنصاف إلى أيام السلطان المباركة.

الحكاية الثالثة والعشرون

فى تدابير استعادة المراسيم والپايزات المكررة التى كانت فى أيدى الناس

تقتضي طبيعة العالم أنه فى عهد كل ملك توجد طائفة من الناس تناسب أساليب حكمه، وتتفق مع عاداته وميوله. وهؤلاء القوم صاروا مقدمين على غيرهم، وإليهم تفوض شئون الملك والولاية، وهم ينفذون الأحكام على طريقة ذلك الملك إن عدلا وإن جورا ويسلمون للناس المراسيم والفرمانات. وعندما ينتقل الحكم إلى ملك آخر فلا مفر من أنه يرغب فى إحالة تلك المهمات إلى أشخاص يسيرون وفقا لعاداته ورسومه، ويصدرون أحكاما بصورة تتناسب مع طبيعة عهده؛ ذلك أن كل عهد يقتضى نوعا خاصا من الحكم.

والمشاهد قبل هذا أنه فى عهد آباء وأجداد سلطان الإسلام – خلد ملكه – أن كل ملك إذا ما أراد أن يجمع المراسيم والپايزات السابقة التي كانت فى أيدى الناس بالحق أو بالباطل فإنه يسير [ص٥٠٥] رسلا مشهورين يحملون الأوامر المحكمة العظيمة والمصوغة فى أسلوب من المبالغة والتهويل. ومجمل الفرمانات هو أن من يخفى مرسوما من المراسيم أو پايزة من الپايزات يعتبر مجرما. وكان هؤلاء الرسل ينفقون نفقات باهظة فى طريقهم إلى الولايات بحيث لا يحتويها الحصر والعد، وصاروا يعتقلون جميع من عندهم مراسيم ومن ليس عندهم. وكانوا يضربونهم ويرتكبون فى ذلك المخالفات. ولكن حامل المرسوم الذى سحب منه فإنه على الرغم من أن هذا المرسوم لم يكن يصلح له، لكنه فى سبيل المحافظة على كرامته، وحتى لا يبدو فى نظر الناس حقيرا ينفق نفقات باهظة كي يعيدوا إليه المرسوم. وبذلك يتحقق له الإجلال والاحترام.

وبخصوص الپايزات كان يحدث مثل هذه التصرفات. وكان الرسل يطوفون حول العالم بصورة مستمرة، ويحصلون بهذه الذريعة على أموال طائلة. ومع هذا لم يكونوا يستطيعون إحضار مرسوم واحد من مائة مرسوم. ومع ذلك كانوا يحضرون هذه المراسيم فى تلك السنوات. ثم يكتب الكتاب مراسيم أخرى لتأييد المراسيم التي بأيديهم. ومع أنهم كانوا يستردون المراسيم الباطلة صاروا يعطون كل شخص مراسيم كثيرة مختلفة متناقضة

لأن الطريقة المتبعة فى ذلك الزمان فيما يتعلق بإعطاء المراسيم، كانت تتطلب لجوء كل واحد من الناس فى العالم إلى أحد الأمراء، ويأخذ مرسوما حسب رغبته. وبسبب اختلاف المتنازعين، وتعصب الحماة كانوا يرسلون كثيرا من المراسيم المتتالية المتعاقبة مما لا يمكن شرحه. وهكذا كانت تمضي الأيام بتلك الطريقة، ويموت هؤلاء الخصوم وهؤلاء الأمراء ثم يجيء أبناؤهم، ويسلكون نفس السلوك، وبيد كل واحد منهم خمسون مرسوما، بحيث إنهم إذا حضروا للتحقيق معهم فإنه – خلال عشرة أيام لا تتضح صورة أحوالهم، ولا كيفية حصولهم على المراسيم. وسنة بعد أخرى لا يفهمونها، وإذا ما فهموها اتضح أنها كلها على غير أساس وباطلة. وقد كتبوها بدافع التعصب، أو أنها عرضت عن طريق الرشوة، أو أنها صدرت بغير إذن السلطان، ودون إشارته. وكثيرا ما كان يحدث أيضا أن يتفق الأمراء الكبار، ويعرضوا مرسوما معينا لمصلحة أحد الأشخاص، فكانوا يعطونه التأشيرة، وتكتب صورة المرسوم على وجه التحقيق. ولكن ذلك الشخص يضيف عدة ألفاظ مختصرة يدخلها على المرسوم، فيتغير ذلك القرار الذى اتفق عليه الأمراء تغيرا كليا **[ص٥٠٦]** يوافق مصلحته. وكان يحتال كي يضيف هذه الزيادة إلى الصورة، أو يعطي الكاتب هدية قيمة حتى يكتبها ثم يتمسك بها. وكثيرا ما انتهز الكتاب الصغار الفرصة وأعطوا كل شخص مرسوما وفق رغبته دون مشورة الأمراء الكبار. كذلك الحال عندما يعطي أحد مرسوما بأمر السلطان، ووجد شخص آخر يماثله فى منزلته وصنعته، فإن الكتاب يتشبثون بذلك، ويعطون أيضا ذلك الشخص مرسوما على غرار زميله؛ فكان يترتب على تلك القضايا الألف المتناقضة مائة ألف إشاعة وفتنة بين الناس. ولما كان الخصوم جميعهم أصحاب مراسيم فإن المحققين والحكام والقضاة مهما أرادوا أن يبتوا فى قضة واحدة، ويحكموا فيها حكما قاطعا، اختلط عليهم الأمر وغمض، وذلك لكثرة ما بيد كل واحد منهم من المراسيم والپايزات. وقد أدت المنازعات إلى حد أنه فى كل سنة كان يقتل كثيرون من الأشخاص بعضهم بعضا. بالإضافة إلى ذلك صار تجميع تلك المراسيم والپايزات المكررة واستردادها أمرا عسيرا. ومع هذا كانوا يعطون الناس عددا كثيرا منها بنفس الطريقة المذكورة.

أما الآن فقد أعمل السلطان غازان – خلد ملكه – فكره المبارك فى تدارك هذا الخلل وأمر بإصدار المراسيم إلى كافة الممالك، وكلها مصوغة فى عبارة واحدة مضمونها أنه على

الشحن والملوك وحكام الولايات أيضا ألا يقبلوا على الإطلاق ما يقدم إليهم من الپايزات القديمة والحديثة التي فى أيدى الناس، وألا يهتموا بها؛ إذ إننا أصدرنا أمرنا بإلغائها كلها. وكذلك المراسيم التي منحناها، وصدرت خلال الأعوام الثلاثة الأول من حكمنا عندما كنا لا زلنا منهمكين فى تدبير وترتيب شئون الجند، وإزالة المفاسد، والقضاء على الاضطرابات والفتن التي حدثت، ولم نشغل بجزئيات الأمور. ولا شك أن تنفيذ الأحكام السابقة كان أمرا ضروريا لتطييب خواطر الخلق كى تستقيم الأمور.

وبناء على هذا فإن المراسيم التي منحها الناس نوروز وصدر الدين والنواب الآخرون وفق مرادهم وهواهم **[ص٥٠٧]** كلها باطلة حتى هذا التاريخ الذى باشرنا فيه بأنفسنا ضبط أمور الممالك؛ فقررنا أن يعرض المرسوم علينا، ثم يسلم للناس. وينبغي أن يعترف الجميع بصحة كل ما يصدر من المراسيم بعد هذا التاريخ المذكور، وألا يهتموا قط بالمراسيم الأخرى التي صدرت عنا وعن السابقين علينا، فتقدم كلها إلى حضرتنا لنقر ما فيه المصلحة. ولا شك أن مراسيم الملوك السابقين كانت حسنة ومعتدلة، وما دمنا قد وقعنا على المراسيم التي ينبغي أن تكون حماية وسندا وناموسا وبركة، فكيف يجوز لنا أن نستردها؟! إننا سوف نضع دمغة معينة على ظهورها، ونعطيها الرؤساء لتكون فى أيديهم وتكون أكثر تدعيما. وسوف نعد پايزة بشكل آخر. وكل من يحوز پايزة، عليه أن يحضرها ويسلمها خلال ستة أشهر، وذلك حتى نعطي پايزة جديدة كل من يسلك طريق الصواب. وبعد ستة أشهر سوف يقبض على كل شخص تكون فى حيازته پايزة قديمة، ويعتبر مذنبا وتسترد منه.

ولما أصدرنا هذا القرار دعت الضرورة جميع الناس إلى إحضار مراسيمهم لتجديدها. وكل ما كان منها صحيحا يعتمد بالتوقيع، وكل ما لم يكن صحيحا يسترد من حائزه. وبهذا الإجراء ظهر الحق من الباطل والصدق من الكذب، وتخلص أرباب النواميس من عار خسة الدخلاء. وحيث إنه لم تعد هناك أهمية للمراسيم القديمة لا سيما المكرر منها، لم يستطع أحد أن يظهرها إذا كانت لا تزال فى يده، ففضلا عن أنه لن يلتفت إليها، توقع صاحبها فى الذنب. وتخضع الپايزات أيضا لمثل هذا النظام. وما أن نفذ هذا القرار حتى اختفت مجموعة تلك المراسيم والپايزات؛ لأن أصحابها أخذوا بعضها مجددا، ولم يجرؤوا

على إبراز بعضها الآخر. ولقد ذاع القرار وانتشر، وينص صراحة على عدم الالتفات إلى المراسيم والپايزات القديمة في أي عهد من العهود؛ إذ إن الناس يعلمون على وجه التحقيق أنه لو كان هذا الإجراء صحيحا لاتبع على الفور في عهد مثل هذا السلطان العادل. ولاشك أن هذه الطريقة الصحيحة هي دستور جميع الملوك والأمراء والحكام في كل عصر. وإذا كانت قد بقيت پايزة ذهبية أو فضية في حوزة أحد الأشخاص فإنه مـا لم يسلمها فلن يعطي أخرى عوضا عنها. وإذا كان متبصرا بعواقب الأمور فإن عليه أن يبادر بتسليمها **[ص٥٠٨]**، وإلا فإن عليه أن يصهرها وينفق ما صهره.

ومن المؤكد أنه سوف يصل الأمر عن قريب إلى حد أنه لن تبقى واحدة من الپايزات التي أخذت خلال مدة سبعين سنة بعلل وأسباب مضللة. وهكذا نفذ سلطان الإسلام مثل هذا العمل العظيم بتدبير يسير قرره بفطنته وكياسته. أدام الله ظل معدلته. والسلام.

الحكاية الرابعة والعشرون

فى منح جند المغول الإقطاعيات فى كل ولاية

قبل هذا لم يكن لكافة جنود المغول مرتبات وملابس وإقطاعات ومؤن. وكان بعض الأكابر منهم يأخذون قدرا من الزاد، والأغلبية لا يأخذون شيئا. كما أنه فى العهد السابق عندما كانت عادات المغول ورسومهم لا زالت مرعية كان جميع الجنود يمنحون كل سنة مراعى للخيول والأغنام والأبقار، وتزود المعسكرات كما يزود الجنود الفقراء المعدمون باللباد واللبن الخثير.

بعد ذلك فى أوائل عهد هذا السلطان كانوا يعطون الجنود المرابطين فى أقرب مكان قليلا من المئونة، ثم تزداد تدريجيا، وأضاف إليها سلطان الإسلام -خلد ملكه- مقادير أخرى. ولما كانت تلك المؤن تحول إلى الولايات، ويحتال المتعهدون فى صرفها، كان المغول يتعقبونهم. وبسبب مطالبة هؤلاء المتعهدين بالمؤن كان الظلم الفادح يلحق بسكان الولايات لأنهم يتحملون نفقات باهظة يدفعونها باسم الدواب والزاد والعلف. وفضلا عن أن الحكام والمتعهدين كان يلحقهم نصب ومشقة من جراء ذلك فإن الرعايا كانوا يضيقون ذرعا بما يطالبون به من تقديم المؤن. ومع هذا لم تكن تصل مؤن كافية إلى الجنود. وكان بعضهم فى نصب بسبب مماطلة المتعهدين، وبعضهم بسبب المشرفين على تموين الجيش، إذ إنهم كانوا يأخذون هدايا ثمينة ويهملون أداء واجبهم، وبعضهم بسبب أن الكتاب العسكريين لم يعدوا الحوالات فى وقتها المناسب، فيعجز الجنود عن التحصيل. [ص٥٠٩] وأخيرا كان المتعهدون يشترون المؤن لأنفسهم بنصف الثمن. وكانت الحوالات دائما بيد الجنود، وهم فى نزاع وجدال مع المتعهدين. وكانوا دائما يعرضون تلك الأحوال على السلطان فتنتزع لذلك مسامعه المباركة، وتكون عاقبة الأمر أن أكثرها يسقط من الحساب ويضاف إلى القضايا القديمة. هذا على حين أنهم كانوا يحوزون حوالات كثيرة مستحقة للصرف.

شاهد السلطان هذه الأوضاع مدة أربع سنوات أو خمس، فأمر بأن يجمعوا المؤن فى كل ولاية أثناء الشتاء والصيف، وقت جني المحاصيل ويقوموا بتخزينها فى المخازن وتودع فى

عهدة شحنة الولاية، ثم تسلم من المخازن إلى المسئولين بعد سداد قيمة الحوالة نقدا، ولا يأخذ المشرفون على تموين الجيش هدايا في مقابل أداء واجبهم، ولا يطلبون زادا ولا علفا. فكانت تسير الحوالات على هذا المنوال. وكان السلطان يعطي نقدا ذهبيا من الخزانة، بحيث إنه خلال ثلاث سنوات أو أربع لم يستطع أحد أن يقول: لقد بقى لى على الديوان من واحد من المئونة. وبعد ذلك فى أوائل شهور سنة ثلاث وسبعمائة هجرية (٧٠٣هـ / ١٣٠٣م) هداه تفكيره المبارك إلى أن يصرح قائلا: إن كمية المؤن التي عينت للجنود لا تكفى شخصين من كل عشرة أشخاص. وإني أريد أن يكون إنعامنا عاما للجميع. كما أن الجند عند مسير الاحتياطيين منهم إلى الولايات يسببون المتاعب لسكان الولايات. وأيضا يقول كل واحد منهم سواء بالحق أو بالباطل: إنـي لا أملك شيئا؛ فيحدث الإخفاق والعجز. ويقول أيضا: لقد نفقت دوابنا بسبب البرد وانتشار طاعون الماشية والآفات الأخرى. وهنا تدعو الضرورة إلى جمع المال فى كل وقت وإعطائه المتضررين؛ لأن العالم لا يخلو من الأحداث. وقد يجيء وقت لا يتيسر فيه تحصيل المال بسرعة. وهذا ما يحتم العمل دائما على تدبير وترتيب نفقات الجند ومؤنهم. وهناك ولايات فى الممالك تقع على طريق عبور الجند، وفيها مصايفهم ومشاتيهم، ودائما ما يسلكون سلوكا معيبا فى تلك الولايات ويستولون على القرى قوة واقتدارا، ويستبدون بالرعايا.وإذن فمن المصلحة أن نقطعها بأكملها للجند، ونعين نصيبا لأفراد كل كتيبة، ليكونوا هم المتصرفين فى هذه الأراضي ويعتبرونها ملكا لهم. وبذلك تشبع عيونهم وقلوبهم.

ولما كان أكثر الجنود فى هذا العهد يميلون إلى اقتناء الأملاك والزراعة فلا شك أنهم يحققون رغبتهم عندما يملكون إقطاعا. وبذلك لا تكون هناك حاجة إلى الخزانة **[ص٥١٠]** للإنفاق على مصالحهم؛ لأن كل واحد منهم يحصل على حصته ومعاشه من الإقطاعية، وتتوافر لهم عمارات كثيرة أخرى، ويكون لهم أتباع وخدم وأبقار وبذور ويحصلون على التبن والشعير. وإذا حدث أيضا وباء بين الدواب فإن كل واحد يستطيع أن يربط اثنين أو ثلاثة من الخيول، يحتفظ بها بدينة قوية، حتى يستطيع – عند الحاجة – ركوبها فى وقت أسرع؛ إذ إن أكثر الخلل الذى يلحق بجنودنا إنما ينتج عن هلاك الدواب لأنهم فى هذا العهد لا يمدونها بالماء والعلف بالقدر الكافي.

وإذن فنحن إذا سلمنا الولايات للجند بوجه من الوجوه، وأعددنا محطات القوافل الضرورية، ووفرنا الطعام للأمراء الأنجال والخواتين، وكذلك اللوازم الأخرى الضرورية وسلمناها لهم وأصبحت كلها تحت تصرفهم، فسوف تقل نفقاتنا، ويقل المتقاضون وأرباب الحاجات. أما الولايات الأخرى التي ليست معبرا ومقاما للجنود فإنها تبقى في موضعها لسد النفقات الخاصة، وهذه يمكن ضبطها دون تعب أو مشقة، ويكون المال الذى يحصل منها كافيا. وعلى هذا النحو تضبط الأعمال الكبيرة التي يقوم بها الجنود وغيرهم. وفيما بعد تبقى الأمور مرتبة طبقا لهذه القاعدة، وتعم فوائدها كافة الملوك والأمراء والوزراء والجنود والرعايا.

وعلى هذا النمط أعمل السلطان فكره، وعين لجميع الجنود إقطاعيات من ضفاف جيحون حتى تخوم مصر خلال شهرين أو ثلاثة، وفصلها تفصيلا. وفى هذا الصدد نفذ حكم المرسوم. ونحن نثبت صورته فى هذا الفصل حتى إذا قرأه الناس، فإنهم يطلعون على الدقائق التى روعيت فى هذا الباب إن شاء الله العزيز.

نص المرسوم بخصوص منح جنود المغول الإقطاعيات

بسم الله الرحمن الرحيم

[ص٥١١] بقوة الله تعالى وميامن الملة المحمدية

فرمان السلطان محمود غازان

فلتعلم الأمهات، وليعلم الأحفاد والحفيدات والخواتين والبنون والبنات والأصهار وقواد العشرة آلاف (تومان) والألف (هزاره) والمائة (صده) والعشرة (دهه) والسلاطين والملوك والكتاب وعموم أهالى كل الولايات من ضفاف جيحون حتى تخوم مصر أن جدنا الأكبر جنگيز خان اختص فى بدء الفطرة بالتأييد الإلهي والإلهام الرباني. وكان يراعي دستوره بعناية تامة أدق من الشعرة، ولم يترك المجال لأى مخلوق من بني آدم حتى ينحرف برأسه عن ربقة أمره أو أن يخرج قدمه عن جادة الاستقامة، فلا جرم أنه استطاع – بهذه الوسائل –

أن يسخر ساحة الدنيا مشارقها ومغاربها، وأن ينقش على صحائف الدهر اسمه الطيب وصيته الخالد. وقد تحمل كل أنواع المشقات والشدائد فى سبيل زيادة رقعة المملكة وفسحتها، وأورث أبناءه وذريته جميع الطوائف والرعايا والممالك، وصيرها لهم ممهدة مرتبة وذكرى حسنة منه.

بعد ذلك سلم آباؤنا الخيرون تلك الممالك لأبنائهم على نفس النسق والترتيب؛ فاستطاع كل واحد أن يضبط قوانين الملك ونظمها، ويضمن التكفل بإدارة شئون حكم العالم. بهذا خلد هؤلاء الأبناء لهم ذكرا جميلا على صفحات الدهر. أما أولئك الذين لم يحافظوا على رعاياهم، ومارسوا الظلم والتعدى فإنهم بلا شك قد خلفوا لهم سمعة سيئة.

"إن آثارهم تدل عليهم فانظروا بعدهم إلى الآثار"، ولما كان صدق هذه المعاني ثابتا ومقررا ومعينا لنا، وعلمنا أن البقاء الأبدى وخلود الحياة فى هذه الدنيا أمر غير ممكن للجميع، وأنه لا يتصور أن تكون هناك فائدة من هذه الدنيا سوى ادخار الاسم الحسن. لما كان ذلك كذلك فكرنا نحن أيضا فى هذه الأيام القليلة المعدودة عندما وصلت نوبة الملك إلينا فى ادخار السمعة الطيبة، فنشمل بمزيد من الراحة والرفاهية مجموع الرعايا الذين سلموا قيادهم لنا، حتى نكون **[ص٥١٢]** قد سجلنا على صفحات الدهر الذكر الجميل والثواب الذى هو عبارة عن الحياة الباقية والعيش الخالد، ويبقى صيت معدلتنا على الأيام دائما ومؤبدا وباقيا ومخلدا. والله يوفقنا بلطفه ويؤيدنا بنصره. والآن لا يخفى على الجميع أنه قبل هذا فى عهد آبائنا الصالحين كان رعايا المغول مطالبين بكل أنواع المطالب والالتزامات والمشقات من قبيل سداد ضريبة المواشي والإيفاء بحاجات دور البريد الكبرى وتحمل أعباء الياسا القاسية، ودفع النفقات اللازمة للمحافظة على سلامة الجنود، تلك الأعباء ألغيناها كلها دفعة واحدة فى زماننا هذا.

فى ذلك الوقت كان الرعايا محرومين مما احتوت عليه المخازن من الذخائر والمؤن. ورغم وجود تلك الأعباء كانوا يرحلون برضاء الخاطر، ويقومون بواجب الطاعة ويتحملون مشقات الأسفار البعيدة. ومع هذا كانوا قانعين. والأمر الذى لا شك فيه أنه حتى هذه اللحظة لم يتوافر لجند المغول زيادة ملموسة فى الجاه والمال.

والآن وقد أنعم الحق تعالى علينا بالرعايا والممالك التي حكمها آباؤنا، ومنحنا سرير ملك العالم وعاصمته الكبرى، بذلنا كل الهمة، وصرفنا كل حرصنا السلطاني فى سبيل الإصلاح حتى ننظم ونرتب مصالح الرعايا الكثيرين على نحو نطمئن إليه؛ بحيث إنه بعد ذلك لا ينسى أبدا جميع أفراد القوات الاحتياطية فى جيوش المغول - ما توالدوا وتناسلوا - هذه الجهود، ويقضون أيامهم فى رفاهية ورغد من العيش. وبعد أن يحل دور غيرنا نكون قد سلمنا له المملكة والجيش؛ بحيث لا يقف فى سبيله أى عائق، ويحل وضع يؤدى إلى الاستقرار واستقامة أمور المملكة والرعية، ويؤدى إلى الخلود والذكر الجميل ودوام حسن السمعة، وازدياد دعوات الخير. ولا يخفى على الجميع أنه قبل عهدنا كان المسئولون يعطون جميع المتطوعين من جنود المغول ممن يقيمون فى المناطق الممتدة من ضفاف نهر جيحون إلى تخوم مصر قدرا محددا من المؤن، ونادرا ما كانوا ينعمون على بعض منهم فى كل وقت. هذا على حين أن أكثرهم ظلوا محرومين وبقوا بغير نصيب. **[ص٥١٣]** ولعلاج هذا الوضع أمرنا فى الوقت الحاضر بمعاملة أفراد قوات المغول الاحتياطية معاملة واحدة فتشملهم عاطفتنا وتعمهم عطايانا؛ حتى لا يبقى أى واحد منهم محروما من إنعامنا. وعند رحيل الجنود وزحف الجيش تتوافر لهم القدرة والحركة والطاقة للمحافظة على الممالك ذلك أن استقامة شئون الملك وانتظامها منوطة بهم

وبناء على هذه المقدمات أمرنا بأن يقطعوا لهم الأراضي فى الولايات والقرى، ويوفروا لهم المياه مما يكون قريبا ومناسبا لهم من أملاك الخاصة وأملاك الديوان والمزارع العامرة والخربة حسب ما هو مثبت فى السجلات والقوانين، ويعينوها باسم الإقطاع فى كل كتيبة مكونة من ألف جندى، ثم يسلمونها لهم كي يتصرفوا فيها؛ وذلك على النحو المفصل فى الكتيبة الفلانية.

وأما عن الأحكام الخاصة بهذه الإقطاعية وشروطها وكيفية كل قسم من أقسامها فإنها تكون على النحو الذى نشرحه فيما يأتى:

أولا: ما يتعلق بأملاك الخاصة وأملاك الديوان من المواضع: تقرر أن تبقى فيها تلك الجماعة من الرعايا الذين كانوا يقطنونها من قديم الزمان، وكانوا يزرعونها. فهؤلاء يستمرون فى زراعتها جريا على تلك القاعدة بشرط أن يعطوا الجنود المتطوعين نصيبهم

بصدق وأمانة، وأن يسددوا دون زيادة أو نقصان الضرائب والرسوم الديوانية، وذلك حسب التعهدات والتفصيل الذى مر ذكره.

ثانيا: يجب ألا يتدخل جنود الاحتياط فى شئون أملاك الملاك ومياههم وأراضيهم وأصحاب الأوقاف، ولا يتصرفون فيما تنتجه، وأن يدفعوا بصدق وأمانة الأموال والضرائب والرسوم الديوانية بموجب سجلات القانون وطبقا للتفصيل المذكور.

ثالثا: القرى والمزارع والمواضع التابعة للديوان التي تخرب، وتدخل فى حيز مواطن هؤلاء الجنود، عليهم أن يحرثوا منها ما صار مزارع صالحة للزراعة، ويتركوا الأراضي الباقية لأسراهم وغلمانهم يزرعونها ويحصدون محاصيلها، ومعهم أبقارهم وثيرانهم وبذورهم. وإذا ظهر مالك لذلك الموضع الخرب، وأقام دعوى بملكيته أو بتوليته وقفيته [ص٥١٤]، وظل مدة طويلة تحت تصرفه، وثبت استحقاقه له بموجب الشرع المطهر. وكان هؤلاء المتطوعون قد زرعوه بواسطة أسراهم وغلمانهم، فإن عليهم أن يدفعوا العشر من عوائده للمالك، ويأخذوا الباقي لهم ولمزارعيهم.

رابعا: السكان الذين منحوا قرى عامرة أو خربة، ثم تفرقت منذ ثلاثين عاما، ولم تدخل فى حساب وقانون الولايات الأخرى ولا زال يحتفظ بها كل واحد منهم، عليهم أن يعيدوها. وإذا كان سكان الولاية الأخرى يعملون عندهم أيضا فإن عليهم أن يعيدوهم. ومن المقطوع به ألا يقبلوا بأى وجه سكان الولايات والمواضع الأخرى وألا يرتبطوا بالغرباء بحجة أنهم سكان الولايات البعيدة، ولا يجمعوهم بأى وجه ولا يحموهم، ولا يسمحوا لهم بالدخول فى قراهم. وعلى المتطوعين ألا ينقلوا سكان القرى التي أقطعت لهم من مخيماتهم فى إحدى القرى إلى القرى الأخرى، ولا يقولوا إن كلتا المزرعتين والقريتين ضمن إقطاعنا، وسكانهما هم رعايانا. وعلى سكان كل قرية أن يزرعوا فى مناطقهم المحددة لهم، ولا يقولوا إن سكان هذه المناطق التي أقطعت لنا إنما هم أسرانا؛ إذ إنه ليس للجنود على الرعايا أكثر مما لهم على زراعة قراهم، وعليهم أن يأخذوا منهم بالحق ما هو مقرر عليهم من المال ورسوم الديوان، وألا يسخروا السكان فى عمل آخر سوى أن كلا منهم يزرع فى الموضع المخصص له. أما السكان الذين لا يعرفون الزراعة أو لا يمارسونها فلأن أصحاب الأراضي قد تسلموا حقهم من المال المعين المقرر لهم من الديوان لا يصح أن يجبروا هؤلاء السكان على الزراعة بالقسر والعنف ولا يظلموهم، بل يعاملوهم بالحسنى.

خامسا: على المتطوعين من الجنود ألا يتدخلوا فى شئون القرى الواقعة على حدود قراهم والمجاورة لهم، فلا يزرعوها، ولا يستولوا على الماء والأرض بحجة أنها واقعة فى موطنهم، [ص٥١٥] وألا يمنعوا ذلك المقدار من الأعشاب التي هى مرعى لأبقارهم وأغنامهم وحميرهم.

سادسا: حيث إننا منحنا المتطوعين الأنعام والعطاء، وعينا لهم هذه المواضع باسم الإقطاع، وأنعمنا عليهم بها، يكون غرضنا هو راحة كافة الخلائق، وابتغاء الذكر الجميل والقانون والعدل. وهم جميعا مؤيدون ومغتبطون بهذه الهبة وتلك الرعاية. وقد قدم قواد الفرق المكونة من عشرة آلاف وألف ومائة وعشرة، والمتطوعون الكثيرون وثيقة خطية يتعهدون فيها بأنهم بقدر ما فى وسعهم وقدرتهم سوف يبذلون جهدهم فى نفاذ العدل ونشر الصدق، ولا ينحرفون من بعد عن جادة الصواب ولا يعتدون ولا يضطهدون الناس، ولا يقدمون على أنواع الظلم والجور وتلك الأفعال التي كانوا يمارسونها من قبل. هذا وينبغي أن يكونوا عند كلمتهم، ولا يطلبون من الرعية شيئا باسم الهدايا والمؤن والضرائب على السلع وغير ذلك

سابعا: تقرر كذلك ألا يكتبوا لأى سبب من الأسباب حوالات من الديوان على الإقطاعيات، وألا يحولوا إليه شيئا أبدا. وبموجب ما تقرر يسلم لكل شخص من الجنود المتطوعين خمسين منا بوزن تبريز من المستودعات الخاصة، ولا يطلبون من الرعايا شيئا آخر غير ذلك.

ثامنا: أمرنا كذلك بأن توزع الإقطاعيات وما يلزمها من ماء وما تشتمل عليه من أراض خربة وعامرة على أفراد الكتيبة المكونة من ألف جندى، وذلك على النحو الذى سبق تفصيله. ثم يحضر جماعة من تلك الولاية ممن هم أهل الخبرة مع هذا الكاتب فلان الذى عيناه، وتقسم هذه الإقطاعيات إلى عشرة أقسام. ثم تجرى قرعة بالسوط. وبعد ذلك تقسم بين الفرق المكونة من مائة، وتجرى القرعة أيضا بالسوط.

وهذا الكاتب الذى فوضناه باسم "العارض" يسجل فى السجل نصيب كل واحد من المائة والعشرة خرابا كان أم عامرا، وذلك على انفراد وبالاسم، ويحفظ بالسجل، ويسلم نسخة منه للديوان الأعظم، وأخرى لأمير الفرقة. ثم تسلم سجلات الفرق المكونة من مائة لأمرائها.

بعد ذلك يتفحص ذلك الكاتب العارض هذه السجلات كل سنة ويعرض علينا اسم ذلك الشخص الذى جد واجتهد فى الزراعة، أو اسم ذلك الذى قصر. كما يعرض علينا ما سجله عن خراب وعمران كل جزء محدد؛ حتى يختص برعايتنا ذلك الشخص الذى أبدى اجتهادا ونشاطا. أما ذلك الذى قصر وخرب، فإنه يؤخذ بذنبه.

[ص٥١٦] ولا يبيعون هذا الإقطاع الذى منحناه إياهم، ولا يعطونه هذا أو ذاك، ولا العبيد والكبار والصغار والأقارب والأصهار وغيرهم. وكل من يقدم على هذا العمل يعتبر مجرما ويقتل.

وإن صداق المرأة بمقتضى الحديث النبوى الشريف كما نفذناه بصورة مستقلة بمقتضى المرسوم الصادر فى هذا الباب، وهو ما تقرر أن يكون تسعة عشر دينارا ونصف[1].

تاسعا: لیکن معلوما أيضا أن هذا الإقطاع قد خصص للجنود المتطوعين الذى صاروا حراسا ثم رحلوا. وإذا توفى شخص من تلك الجماعة، فإنه يقوم مقامه أحد أبنائه أو أسرته فيقطع إقطاع المتوفى ثم يسجل. وإذا لم تكن له ذرية فإنه يسلم لأقدم غلمانه. وإذا لم يكن له غلام أيضا فإنه يعطى من يكون أجدر من بين الفرقة المكونة من مائة جندى. وإذا كان من بين المائة أو العشرة من يغير القانون، فإنه أمراء الألف والمائة يعتبرونه مذنبا، فيعطون الإقطاع شخصا آخر يستطيع التنقل ويسجل باسمه. ثم يعرض السجل علينا كل عام. كذلك أمرنا بأنه إذا طالب المتطوعون بشيء يزيد عما هو مفصل من الأموال والضرائب وغير ذلك، وعما هو مدون فى سجلات القوانين والتعهدات، فإن العارض يمنعهم من ذلك. وإذا ما أخذوا الإقطاع بالعنف والقوة، فإن على العارض ألا يخفى الحقيقة، بل يسجل اسمه ويعرضه علينا.

عاشرا: عندما يسير هؤلاء المتطوعون بعد عرضهم بموجب حكم المرسوم يطلع الكاتب الفلانى أولا أمير المائة، وبعد ذلك أمير الألف، ثم أمير التومان – على السجل المخصص الذى كتبه، ويواجههم ويعرضه عليهم. ثم يطلع عليه قائد المتطوعين. وتقرر أيضا أنه عندما

---

(١) الحديث هنا عن صداق المرأة فيه استطراد وبعد عن الموضوع الرئيسى الذي يعالجه رشيد الدين، وهو الذى يتناول منح غازان خان جنود المغول الإقطاعيات، هذا من جهة ومن جهة أخرى لم يرد نص صريح عن النبى صلى الله عليه وسلم يحدد فيه صداق المرأة، وإنما نهى عن المغالاة فى الصداق، وحث على المياسرة (انظر قضية تحديد الصداق، تأليف الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، ص ٦، الدوحة ١٣٩٦هـ).

يعين إقطاع أمير الألف ويخصص له، لا يتصرف فى إقطاع المتطوع. وحيث إننا أقطعنا العارض كذلك من ولاية أخرى، لا يكتب حوالة على إقطاع المتطوع، ولا يحول إليه شيئا.

لقد قرنا كل هذا، وأنعمنا على المتطوع بإقطاع على النحو المذكور. وإذا ما أخذ المتطوعون أيضا شيئا من المزارعين يزيد عما هو مذكور ومدون بالتفصيل فى سجل القوانين، **[ص٥١٧]** أو تعرضوا للمزارعين الذين لم ندعهم تحت رحمة المتطوعين، أو أنهم حموا المزارعين فى الولايات الأخرى وآووهم، أو أنهم اعتدوا على مواضع الماء والأراضي الواقعة على حدود قراهم أو اغتصبوا الأراضى الزراعية ومراعى الأبقار والأغنام والحمير ولا يعلنون كل سنة عدد الحيوانات وإنتاجها ويتلكأون وينتحلون الأعذار، ويرسلون أشخاصا آخرين بدلا منهم تحت اسم المتطوعين. وإذا حدث شيء من هذا فإن هؤلاء أيضا يصيرون مجرمين.

وعلى الشخص الفلاني الذى عيناه للقيام بأعمال الكتابة فى الكتيبة المكونة من ألف جندى أن يضبط جيدا كل الأقسام التي ذكرت فى هذا المرسوم، ويبين كذلك المواضع التي لم تدخل فيها، وكل من قام بتعمير وإصلاح فى محال الإقامة، ويكتب أيضا بالتفصيل كل ما صار بوار تماما من الأراضي، وذلك على حدة وبالتحديد والتفصيل، ثم يحضر هذه المعلومات إلى الديوان كي يثبت فى السجلات، وتجمع فى قسم الإضافات.

ولقد سلمنا هذا المرسوم للكتيبة الفلانية حتى يعتبر الجميع من الآن فصاعدا نفاذه مؤبدا ومخلدا، ولا يدخلون عليه تغييرا ولا تبديلا ﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم﴾ (١).

حرر هذا المرسوم فى الشهر الفلاني والسنة الفلانية وفى المكان الفلاني.

---

(١) سورة البقرة، آية ١٨١.

الحكاية الخامسة والعشرون

فى كيفية إعداد جيش خاص مستقل للسلطان غازان خان

قبل هذا كان جيش المغول أقل منه الآن نسبيا، فزاد سلطان الإسلام - خلد ملكه - بتدبيره وكفايته جنود المغول والتازيك، وقال: إن حدودنا وثغور ممالكنا هى: خراسان وفارس وبغداد وديار بكر وبلاد الروم ودربند[1]، وهى متباعدة جدا الواحدة عن الأخرى. ورغم أنه قد أقيم فى كل موضع من تلك المواضع جيش مستقل للدفاع عنه، فإنه إذا ما دعت الحاجة إلى انتقال جند من ناحية إلى ناحية لمدد ناحية أخرى يتأخر وصول [ص ٥١٨] القوات بسبب بعد المسافة. وفضلا عن أن الجنود كانوا يتعرضون للجوع والعرى، وتهزل دوابهم وتنفق، لا يؤدى هذا بالقطع إلى نتيجة حاسمة. ولهذا السبب أمر السلطان بتعيين شخص واحد أو اثنين إضافيين من كل منزل فيه ولدان وأخ وسائس خيل، وكون من مجموعهم جيشا مستقلا، وعينهم مددا للأطراف ليرابطوا مع الآخرين. كما عين جند التازيك للمرابطة على المضايق والأماكن الوعرة على الحدود التى يمكن أن يحافظ عليها المشاة، ومنح الجميع المرتبات والإقطاعيات. ولم يكن هؤلاء الجنود يخضعون من قبل لأى نظام مع أن قوادهم كانوا يتقاضون عدة مرتبات وذلك بانتحال الأعذار المختلفة. هذا على الرغم من أنه لم يكن هناك جنود قط.

وفى هذا الوقت أيضا أمر بتعيين الكتائب والفرق منهم، وكتابة أسماء الجنود ورتبهم فى السجل، وهم مطالبون بالعرض فى كل شهر لتفقد عتادهم وعددهم من فرسان ومشاة بموجب الضبط والقانون الساريين، وبحكم المرسوم الصادر فى هذا الشأن. كذلك أمر بإعداد جيش المغول على هذا النمط الذى بيناه فى الفصل السابق. وفى المرسوم الذى سجلناه بخصوص إقطاعيات الجنود. فما الحاجة إذن إلى التكرار؟

كذلك عين لكل ثغر عددا من الجند يكفى لحمايته. أما الجنود الذين لهم موطن ومحل إقامة فى الولايات فقد عين منهم من يكون أقرب إلى الثغور، ليكونوا عونا للجنود الذين

---

(١) "دربند" يسميها العرب باب الأبواب، وتقع فى أقصى شمالى بلاد شروان. وهى أعظم موانئ بحر قزوين. (انظر بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢١٤ ٢١٥).

يدافعون عنها وقت الحاجة. وهكذا نظم الأمور بحيث إنه في أى وقت لا يسرع طرف لنجدة طرف آخر بغير ضرورة ملحة. وزيادة عن المعهود أعد جنودا آخرين ليكونوا مرابطين وعلى أهبة الاستعداد.

بهذه الإجراءات استمال السلطان الحراس والقواد وحثهم على أن يختار كل منهم واحدا أو اثنين من إخوته وأولاده الذين ليسوا ضمن تعداد الجيش الرسمي، فزاد بذلك كل ألف جندى مائة أو مائتين، وأحضروهم جميعا خلال عام واحد. وقد أمر لهم سلطان الإسلام خلد ملكه بالإنعامات و المرتبات والإقطاعيات [ص٥١٩] ومنذ عدة سنوات نشب نزاع وخلاف بين أعقاب جوجي و جغتاى وأوگتاى الذين هم بنو أعمام السلطان خلد ملكه، فكان جنودهم يغير بعضهم على مواطن البعض، ويأسرون أبناءهم ويبيعونهم للتجار، بل إنه بسبب الفقر كان كثير منهم يبيعون أولادهم أيضا. فأخذت سلطان الإسلام الغيرة من تلك التصرفات، وقال: كيف يجوز لأقوام المغول، وأغلبهم من نسل الأمراء العظام الذين رحلوا في عهد چنگيز خان، وأعقابهم في هذا الزمان ولا زالوا يبيعون أنفسهم عبيدا للتازيك، أو أن أغلبهم يضطرون إلى التسول؟ ولإزالة هذه الأمور السيئة يلزم رعاية حقوق تلك الجماعة، والمحافظة على شرفهم؛ إذ إنه بدون هذا تتحطم الصلات وتضيع هيبة جنود المغول التي كانت قد وصلت إلى نجم العيوق (أى إلى عنان السماء) ويصبحون محتقرين في نظر التازيك، ويحمل أكثرهم أيضا إلى الولايات الثائرة.

لهذا كله أمر بأن يشتروا لحساب الحضرة كل من يحضرونه من أبناء المغول، وأن يدفعوا أثمانهم بالنقد الذهبي حتى يحصل الذكر الطيب، ويتحقق الثواب، ويتكون منهم الحرس للجيش الخاص الملازم للحضرة. وقد اشترى السلطان خلال هذين العامين كثيرا من أبناء المغول، وعين لهم المرتبات والمؤن، وأنزلهم في ولاية "مراغة" وعهد بإمارة كتيبتهم المكونة من عشرة آلاف جندى إلى پولاد جينگسانك. كما عين قواد الفرق المكونة من الألف والمائة من المقربين إلى الحضرة. وبذلك اجتمع ما يقرب من عشرة آلاف جندى وهم يشترون وفقا لهذه القاعدة كل من يجلبونه منهم حتى كونوا منهم كتيبة كاملة، بل ما يزيد على ذلك، وصار جميعهم حرسا خاصا وملازمين السلطان. وفي أى عهد من العهود لم يكن هناك جيش بمثل هذا الإعداد والترتيب على النحو المتبع الآن في هذا الزمان. وقد

الحكاية السادسة والعشرون

فى منع إقراض المال بالربا والقضاء على التعامل بالربح الفاحش

عندما بسط سلطان الإسلام خلد ملكه ظل معدلته وتفحص بنظر البصيرة مصالح الخاص والعام عرف على وجه التحقيق أن الإقراض بالربا وأنواع المعاملات غير المشروعة تؤدى إلى اختلال أحوال الجمهور، وخصوصا فى هذا الزمن الذى انحرف فيه الناس دفعة واحدة عن جادة الإنصاف، وامتدت أيديهم إلى ممارسة الأعمال غير المشروعة. فقال فى هذا الصدد: إن تدارك هذا الخلل من الواجبات حتى لا يؤثر ولا يسرى شؤم هذا العمل غير المشروع، والمؤدى إلى الخلل إلى كل الشئون. وقد نفذ السلطان أحكام المرسوم المطاع فى العالمين حتى لا يقدم أى مخلوق على تلك الفعلة المذمومة غير المشروعة. ولما كانت الفوائد العظيمة التي تضمنها هذا الحكم ليست خافية على أبناء هذا الزمان وأنها إذا ذكرت فى الكتاب فإن الجميع يدركون أنها محض الصدق وسيعرفون فى المستقبل أن حكم سلطان الإسلام خلد ملكه يقضى باستئصال مفاسد عديدة استئصالا كليا.

لهذا السبب نسجل هنا عدة أنواع من المفاسد، حتى يعرف أهل العلم أن ارتكاب عمل واحد منها أمر غير مشروع، ويتولد عنه كثير من الخلل والفساد والانحراف. وتوضيح ذلك على النحو الآتى:

أولا: فى عهد آبا قاخان الذى اشتهر بين الجمهور بأنه كان ملكا عادلا. وفى أيامه كان الناس آمنين مستريحين، لأنه أبقى على نظم والده هولاكو خان الذى كان فى الحقيقة "صاحب قران"[1] العهد، وذلك من حيث مراعاة القوانين وتوخي العدل، وانتهاج سياسته. وكان الأمراء وأركان الدولة ووزراء أبيه، وبعض ممن دخل الخدمة فى أيام حكمه يزاولون

---

(١) لقب يوصف به من تنعقد نطفته أو يولد عند اقتران كوكبى المشترى وزحل على حسب الأصول الفلكية القديمة وتأثيرها فى الموجودات؛ فكانوا يعتقدون أن مثل هذا المولود سيكون له شأن عظيم (القاموس الفريد فى العصر الجديد، تأليف الشيخ أحمد النجفى، جلد دوم (د،ظ) ص ٨٨٣، تهران ١٣٥٤هـ،ش).

أعمالهم. وفى ذلك الوقت أعد بعض التجار على نفقتهم الخاصة عدة مجموعات من الأسلحة تضم الجواشن والخيول المدرعة وآلات الحرب [ص٥٢١] وبعضا من الخيول الفارهة، وقدموها إلى حضرة آباقاخان. وبواسطة أمراء السلاح والمشرفين على الاصطبلات أخذوا أثمانها بطريقة كان فيها ربح لهم. وعندما شاهد الآخرون تحقق ذلك الكسب اقتدوا بهم. وقد وصل الأمر إلى حد أن هؤلاء الذين لم تكن لديهم ثروة، كانوا يقترضون الأموال بالربا، وأخذوا ينفقونها فى هذا الغرض ظانين أنهم سوف يسددون الدين من الربح ويحققون من رأس المال منافع لهم. وقد جرت العادة أن كل ما يودعونه يحمله أمراء السلاح والمشرفون على الاصطبلات إلى الديوان، ويأخذون به الحوالات ويطالبون بتحصيل قيمتها نقدا. وبهذه الوسيلة أتيح لكثير من الرعاع وكذلك الأشخاص الذين لم يكونوا يملكون شيئا قط فى عالم الله أن يحصلوا على أرباح طائلة سددوا منها ديونهم، وصاروا من جملة الأثرياء، وفجأة ركبوا الخيول العربية والبغال المريحة السريعة وارتدوا الملابس الفاخرة وجمعوا حولهم الغلمان الملاح والخدم الكثيرين. وكانوا يسيرون بالبغال والإبل المحملة ويطوفون بالطرق والمدن والأسواق،. فكان الناس يتعجبون من أحوالهم ويسألون: من أين وكيف توافر لهؤلاء بهذه السرعة مثل هذه السلطة؟! وعندما يقفون على حقيقة الأمر تتحرك فى نفوس الشحاذين والمفلسين ولع ممارسة ذلك العمل، ويسيطر على رؤوسهم ذلك الهيام والولع. وهناك عدة آلاف من المسلمين واليهود من الخصافين والبائعين الجائلين الذين كانوا يعلقون فى أعناقهم الغرارات المحتوية على الكمون والكزبرة والأشياء البالية ويبيعونها. وكذلك صغار النساجين الذين لم يكونوا قد رأوا مطلقا بأعينهم دانقا واحدا من النقود، ولم تكن بطونهم قد شبعت من الخبز. هؤلاء أيضا قد شغلوا باقتراض المال بالربا ولم ينفقوا ما اقترضوه فى تهيئة السلاح وإعداد الخيل، بل صاروا يصرفون كل أموالهم فى شراء ملابسهم والاهتمام بمظهرهم، أو يقدمونها رشوة إلى الأمراء المذكورين، ويأخذون صكا ينص مثلا على أن ألف مجموعة كاملة من السلاح وعددا كبيرا من الخيل قد تم تسليمه. ثم يحملون ذلك الصك إلى الكتاب. [ص٥٢٢] ورغم أن هؤلاء كانوا واقفين على حقيقة الأمر فإنهم التزموا الصمت، لأنهم أخذوا ثمن صمتهم، فكانوا يكتبون المراسيم والحوالات بالأموال النقدية للولايات. ونظرا لأن الأمور قد تيسرت لتلك الجماعة، وصاروا فى نعمة

وثراء، شرعوا يقرضون الآخرين بالربا. ولهذا السبب اتخذوا أغلب الناس هذا العمل حرفة لهم وسلموا كل ما كان لديهم من الدراهم والدنانير والمشغولات الذهبية والآلات والملابس، وأنواع الأموال من "صامت وناطق"[1] للناس الذين كانوا يطمعون فى تحقيق الفائدة. وما كان يرضى الشحاذون ببيعه بعشرة تومانات أى مائة ألف دينار، وصل إلى درجة أنهم لم يرضوا ببيعه بمائة تومان. وأولئك النصابون الذين أطلقوا على أنفسهم اسم تجار ورجال أعمال أخذوا يجلسون فى الدار كل مخلوق كان له إلمام بمعرفة الخط المغولى كي يكتب لهم الصكوك كما يريدونها، وليضع تأشيرة كل أمير كانوا يطلبونها، ثم يحملونها إلى الكتاب الذين كانوا على علم بمقدار ما يدفعه هؤلاء الناس عن كل تومان حتى يكتبوا لهم المراسيم والحوالات. وقد تضاءلت قيمة التومان؛ بحيث إنهم اعتبروه لا شيء.

بعد ذلك كانوا يقدمون تلك الدعاوى إلى الديوان، ويعرضونها على حضرة آباقاخان. وكانت الحوالات والصكوك من الكثرة؛ بحيث إنهم لو جمعوا كل ما فى ممالك العالم من الذهب والفضة، وضموا إليه كل ما هو فى باطن المناجم لما وفى بهذا المقدار. والعجيب فى الأمر أننا إذا فرضنا أن ألف رجل يجمعون فى إحدى الصحارى مجموعة من الأسلحة تبلغ ارتفاع جبل فإنه لا يستوعبها مائة مستودع، أو أن عشرة آلاف حصان تكاد تستوعبها إحدى الصحارى والمزارع، فكيف أن مائتين أو ثلاثمائة ألف رجل مسلح، ومائة ألف أو مائتي ألف رأس من الخيول، وهم كانوا يدعون أضعاف ذلك مائة مرة وزيادة، وكانت بيدهم المراسيم والحوالات؟!

ولما كانت علو الهمة والعظمة من شيم الملوك، لم يفكر آباقاخان فى أن يسأل: أين عرضوا كل هذه الخيول والأسلحة التي لا حصر لها؟! **[ص٥٢٣]** وعلى أى الجيوش وزعوها؟ و فى أى خزانة؟ أودعوها؟ وفى أى مرعى يرعونها؟ أما الأمراء وأركان الدولة الذين كانوا واقفين على حقيقة الأمر؛ فقد رضوا بحق السكوت المختصر، ولم يكن لهم مجال لتدارك الأمر بسبب تلوثهم. وكان كل واحد من أولئك الأفاقين قد تشبث بأحد الأمراء

---

(١) الصامت: الذهب والفضة، والناطق: الإبل والغنم. (انظر الصحاح للجوهرى، ج ١، إعداد وتصنيف نديم مرعشلى، وأسامة مرعشلى، ص ٧٣٢، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٤م).

أو بإحدى الخواتين، وصار يؤدى لهما أحقر الخدمات كي ينال رضاهما بما يقدمه لهما من خروف أو قنينة شراب. ولما تجاوز الأمر حده، أراد الصاحب السعيد الخواجة شمس الدين صاحب الديوان – رحمة الله عليه – أن يتدارك هذا الخلل، فجمع هؤلاء الأفاقين، وقال لهم: إن هذه الأموال التى تطالبون بها، لا توجد فى العالم كله. وأنا أعرف أنكم لم تنفقوا شيئا أكثر من تقديم الهدايا. والآن أصير شريكا لكم، وسوف آخذ من الملك (المقصود آباقاخان) مائتي دينار فى مقابل كل ألف دينار نتقاسمها فيما بيننا. وحيث إنهم لم يكونوا قد صرفوا نصف دينار فى مقابل كل ألف دينار، رضي الجميع بذلك. واسترضى هو نفسه الأمراء، وعرض عليهم قائلا: سوف أوفر ثمانية تومانات، وأكتب حوالة على الولاية بتومانين، بحيث تسلم للتجار، فوقع هذا الحل موقع الاستحسان. وكان صاحب الديوان يتسلم مراسيم ويكتب فى الحوالة تومانين فى مقابل كل عشرة تومانات بالنسبة إلى المبالغ التي يأمل تحصيلها. ولما كان نصفها عائدا إليه كان يعطيهم حصتهم من البضائع التي لم تكن تساوى ربع ثمنها، ويتسلم هو نصيبه نقدا. أما الجماعة الذين كانوا يقرضون النصابين بالربا فقد ظلوا يطالبون مدة بقروض أخرى، حتى إذا استوفوا مطالبهم من المال، سددوا ما عليهم دفعة واحدة، لكن الدائنين كانوا يائسين من الحصول على الربح ورأس المال، فلم يدفعوا لهم شيئا.

فى هذا الوقت الذى حدث فيه هذا السلوك مع صاحب الديوان وراجت هذه الإشاعة التي تقول: إن الأموال تصل تباعا، فسر جميع المتعاملين، وأعطوهم كل ما معهم من البضائع بالمشاركة. فكان هؤلاء المحتالون لشدة حرصهم وجرأتهم يمكثون فى بيوتهم، ويحررون الصكوك ويحملونها إلى كتاب المغول، ويأخذون المراسيم والحوالات. فأدرك صاحب الديوان هذا الأمر. ولكنه ظل عاجزا. ومن بين تلك الجماعة، كان هناك رجل يهودى يعمل خصافا[1]، التجأ إلى المعسكرات فى عهد هولاكوخان [ص٥٢٤] وأحضر معه جمعا من المغول إلى صاحب الديوان يطالبون بأموال المشاركة فسأله الصاحب: كم مستحقاتك؟! أجاب خمسمائة تومان. وأطلعه على المرسوم والحوالة، فتعجب صاحب الديوان، وسأله: أتملك منزلا فى تبريز؟ قال: بلى. فعاد وسأله: أكبير هو أم صغير؟! أجاب: صغير. فقال

(١) الخصاف من يخصف النعال. (المعجم الوسيط، ج ١، ص٢٣٨).

الصاحب لو حمل مبلغ خمسمائة تومان من الذهب إلى سطح منزلك لتنثرها عليه فهل يستوعبها أو لا؟! فاعترف اليهودى بأنه لا يستوعبها، وهكذا كان تعسف هؤلاء القوم على هذا النمط. وقد أخفق صاحب الديوان أيضا فى معالجة أمثال تلك القضايا، ولم يستطع تداركها. ولما انتشرت هذه الإشاعة كان الناس ينفقون يوما بعد يوم كل ما فى أيديهم فى هذا الشأن. وإذا لم يكن لديهم مال كانوا يقترضون؛ إلى أن صار أكثرهم فقراء معدمين. وعلى أمل الحصول على تلك التومانات المثبتة فى الحوالات، صاروا يضيعون وقتهم عبثا. وبعد مدة نظرا لأن تلك الأموال لم تكن تصل إلى التجار يئس المتعاملون معهم، وكفوا عن مساعدتهم لسد حاجاتهم، وذلك بالحصول على قرض أو نقد. وأخيرا انتهز النصابون هذه الفرصة وقالوا لعملائهم: إننا لا نخفى عليكم شيئا، ولأن لكم أنواعا من الحقوق علينا لن نسبب لكم ضائقة مالية. لقد أعطونا بموجب المرسوم حوالات مختومة بالدمغة لصرف مبالغ كبيرة من الأموال العينية محولة على حساب الممالك، فنشاركم فيها. وسوف نأخذ رسولا من الخاتون الفلانية أو من الأمير الفلانى حتى نحصل على أموالنا، ونعطيكم نصيبكم. ولكن الحرص كان يسيطر عليهم عندما يرون المراسيم والحوالات التى كانت تتضمن أضعاف المبالغ التى اقترضوها، والتى اتفقوا على مشاركتهم فيها فصاروا يدبرون ما يحتاج إليه هؤلاء القوم. ولما كان يتحتم عليهم أن يقترضوا بالزيادة باعوا أملاكهم، وذهب معهم أكثر عملائهم إلى الولايات. وهكذا اتبعوا هذه الطريقة، فكانت عاقبة الأمر أنهم لم يصلوا إلى شىء قط وخسروا ديارهم ومقومات حياتهم، وظلوا مفلسين مدينين.

وبعد عهد السلطان آباقاخان أى فى عهد أحمد (تكودار) وأرغون وگيخاتو استمرت تلك الجماعة تجد وتسعى فى طلب الأموال. وكان كل من الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء يتخذ رسلا يقبلون عروضا جوفاء، ويذهبون إلى الولايات، فكانت الأموال النقدية اللازمة للارتحال إلى الممالك تستهلك فى توفير العلف لدوابهم وسداد نفقاتهم. كما أن حكام الولايات راحوا بدافع الطمع يعطون الصنف الذى يساوى عشرة دنانير بثلاثين دينارا أو أربعين. وينبغى أن تسدد الأموال نقدا للخزانة. **[ص٥٢٥]** ومن مظاهر طمعهم أيضا أنهم كانوا يعطون العملاء الأحزمة المرصعة واللؤلؤ والأصناف الأخرى بأثمان مرتفعة وهؤلاء كانوا أيضا يرضون بذلك لأنهم إذا كانوا يأخذون حتى الحجارة والخزف لسداد

تلك النفقات، فإنهم يعتبرون ذلك بلا مقابل. ولهذا السبب كانوا هم أيضا يبيعون تلك المرصعات بثمن بخس، وكانوا يرهنونها فى مقابل شىء حقير. وقد ترتب على شؤم تلك التصرفات انحطاط قيمة الجواهر وكساد سوقها كسادا تاما، ومع هذا لم يستطيعوا الحصول على دخل أكثر من هذا؛ بحيث يفى بسداد نفقات الرسل وتعهداتهم.

وعاقبة الأمر أن التجار المنحرفين وعملاءهم ظلوا جياعا عراة. ولهذا السبب كانوا يعجزون عن القيام بأى عمل يحصلون به على الكفاف لمعيشتهم. وكانت أموال الخزانة تتعرض للتلف والتبديد، ولم يستطع شخص قط أن يتدارك هذا الخلل.

وعندما وصلت نوبة الحكم إلى سلطان الإسلام غازان خان خلد ملكه أمر:

أولا: بعدم إقراض المال بالربا، فكفت تلك الجماعات أيديها عن التعامل به، ولم تكن لديهم أية حيلة أخرى يلجأون إليها. وفى هذه السنوات القليلة اختفى المرابون العديدون مع كل المراسيم والحوالات، وتركوا تلك المعاملات التى لم يكن لها سند ولا أساس على الإطلاق، ولم يذكرها أحد. وهكذا انصرفت تلك الجماعة التى كانت تزاول هذه الأعمال وعاد كل منهم إلى حرفته الأولى، وظهر الفرق بين الكريم والشحاذ، والشريف والوضيع. وقد اتخذت تلك الطوائف القناعة شعارا لها، وهم يتوجهون بالدعاء لدولة سلطان الإسلام – خلد ملكه –.

وبعد، فهذه كانت إحدى مساوئ التعامل بالربا على النحو الذى شرحناه.

ثانيا: الأشخاص الذين كانوا يتعاملون بالربا خلال هذه الفترة الطويلة أكثرهم من المغول والأويغور. والحقيقة أن الناس إذا اقترضوا المال بالربا، فكيف يستطيعون أن يكونوا سعداء؟! عاقبة الأمر أنهم كانوا يعجزون عن أداء ديونهم، فيظلون فى ذل أسر مدينيهم مع نسائهم وأولادهم. ولكن بيمن معدلة سلطان الإسلام خلد ملكه زالت تلك المذلة عن أهل الإسلام.

ثالثا: مسألة أخرى تتعلق بخلل خطير كان يحدث خلال هذه الفترة الطويلة حينما لم يستطع الملوك وحكام الولايات ممن كانوا أناسا يتصفون بالأصالة والشرف – أن يتعهدوا بتحصيل أموال الولايات حسب المقرر. **[ص٥٢٦]** وكانوا يتجنبون تلك الأعمال. وإذا كان الشحاذون والأشرار يستطيعون أن يعيشوا عشرة أيام فى نعيم الملوك بدلا من عشر

سنوات يقضونها مفلسين فإنهم كانوا يأخذون المال بالربا، ويقدمون الهدايا الثمينة ويتسلمون الحكم فى الولايات، ويصلون إلى مناصب الملوك والسلاطين المشهورين ويجمعون لأنفسهم ضرائب باهظة من الولاية. ولما كان عليهم أن يدفعوا نفقات المعسكر وثمن الغلمان والدواب والملابس الفاخرة والكماليات الأخرى كان من الضرورى أن يقترضوا المال بالربا. وحيث إن ذلك الشخص الذى كان يقرض المال يعرف أنه يعرض ماله للتلف فإنه لا يعطى هذا المال إذا لم يتصور أنه يحقق له ربحا كثيرا إلى أقصى حد. فلا شك أنهم كانوا يستطيعون أن يأخذوا ثلاثة دنانير أو أربعة نظير كل دينار يقرضونه. وعندما كانوا يذهبون إلى الولايات كان مجموع إيرادات الديوان لا يفى بسداد قروضهم. ولهذا كان من الضرورى أن يأخذوا من الرعايا أضعاف المقرر عليهم؛ فتقع آلاف عديدة من الناس من عباد الله وممولى الضرائب فى تعب ومشقة، ويبقون معذبين. ولما كان أصحاب الديوان مطلعين على عدم استقامة تلك الجماعة. ولأنه كان ينبغى أن تكون الأموال موجودة، فبددها كلها هذا الحاكم، ولوث سمعتهم. وما دام ذلك كذلك فإنهم ما كانوا يستطيعون منعه. وقد كان هو أيضا شخصا مفلسا. وبالإضافة إلى ذلك سمح مضطرا للرعايا العديدين بأن يأخذوا مالا أزيد مما يستحقون. وقد أبدى فى ذلك إهمالا وتغافلا. كذلك كان يلزم أن يقدم هدايا ثمينة للشحنة وكتاب الولايات حتى لا يمنعوه. وإذا لم يأخذوا لما تيسر الدفع. ومع هذا لم يكن يصل مطلقا أى مبلغ من النقد إلى الخزانة. وإذا أحضروا أحيانا بعض البضائع فإنه لم يكن ثمنها يساوى ربع قيمتها. ولهذا السبب كانت شئون الجيش مضطربة بسبب ندرة المئونة. وسنة بعد أخرى كانوا يتسلمون منهم الولاية بهذه الطريقة. وكان الكبار المحترمون مطلعين على أفعال أولئك المفسدين الأخساء، ومع هذا لا يسند إليهم عمل مطلقا. وقد قال كبار الحكماء: إن الملك يختل ويزول عندما ينحى الأشخاص الأكفاء عن مزاولة الأعمال المناسبة لهم، وتسند إلى غير الأكفاء. **[ص٥٢٧]** وقد ظلت هذه الطريقة متبعة فترة من الزمن. وعندما صار صدر الجاوى وزيرا، وصل أمر الإقراض بالربا إلى حد يصعب تصديقه إذا حاولنا الشرح والإفاضة، بيد أننا نرى أن نذكر نبذة عن الموضوع أمر ضرورى، إذا ما أردنا الإحاطة به. وحيث إن جميع أهل الزمن الحالى قد شاهدوا هذه الأحداث لا يمكن أن نقول جزافا. أما بالنسبة إلى القراء فى الأزمان

المقبلة، فسوف يبدو لهم ذلك أمرا مستبعدا وتوضيح ذلك أنه فى عهد الوزير صدر الدين كان المتعهدون فى الولايات أخس أبناء عصرهم. وحيث إنهم كانوا يعرفون عادته، وهى أنه يبيع بقرة بعجل صغير. وكان المتعهد يقترض المال بالربا، ويقدم الهدايا على سبيل الرشوة؛ فما كان يساوى عشرة دنانير يأخذه صدر الدين بعشرين دينارا. ثم يعطيه له بثلاثين، فكان يرضى بذلك. ثم يقول له: ينبغى أن يدفع قسط من المال للديوان، فينطلق المتعهد قائلا: هنا يقرض المال بالربا. وإن ذلك المقدار الذى أعطيته على سبيل الهدايا قد تيسر بصعوبة بالغة (بألف حيلة)، فكان الوزير يقول له: لن يصيبك ضرر. وإذا أخذت مالا فسلمه لنا. وبمجرد أن كان ذلك الشخص يسلم القبالة ويحسب الأصل والربح من المال يأخذ بسهولة كل ما يساوى عشرة دنانير بثلاثين دينارًا. ثم يعطيه إياه بأربعين. وفى الحال يصرف تلك الدنانير العشرة المتوافرة. ولما كان صدر الدين يريد الحصول على المال بسرعة قال نوابه: إن هذا الشيء يساوى عشرة دنانير، لكنهم لن يشتروه بأزيد من ستة دنانير ويحصلون لأنفسهم على الدنانير الأربعة الباقية.

والخلاصة أنه لم يكن يصل إلى صدر الدين أزيد من ستة دنانير من أربعين دينارا هو أصل المال. وذلك أيضا هو مال الديوان الذى كان يبدده. وكان من بين عملائه شخص اشترى من أحد التجار عدة آلاف من الغنم لخاصة صدر الدين، ثمن كل رأس منها خمسة دنانير. وقد أعطى التاجر مهلة شهرين لسداد الثمن. ولما حل ميعاد الدفع لم يكن النقد موجودا. وكان أكثر ما تبقى من تلك الأغنام قد صار هزيلا نحيفا فأمر ببيعها كلها بثمن بخس، وإعطاء التاجر ربح شهرين بالإضافة إلى ثمنها. ثم أحالوا القبالة الأصلية وفق هذا القرار إلى شهرين آخرين. فلا جرم أنه بشؤم تداول مثل هذه الأرباح تبددت أموال الممالك، ولم يسلموا للخزانة شيئا منها قط. وكل حوالة أصدرها گيخاتو باسم المروءة والسخاء لم يكن يصل منها مطلقا دانق واحد [ص٥٢٨] لشخص من الأشخاص. وكذلك الحال بالنسبة إلى المؤن والمرتبات والنفقات المقررة. ولهذا السبب نفر الجند من گيخاتو. ورغم كل هذا ظل صدر الدين مفلسا دائما. ولما قتل كان فى عنقه الآلاف المؤلفة من مظالم الخلق. وما أكثر الديار المليئة بالأموال والنعم التى صيرها خاوية على عروشها. أما ولاة الأقاليم من السلاطين والملوك الذين كانوا يقصدون البلاط فقد صاروا

بهذه الطريقة مدينين يقترضون من مائة ألف مسلم ومغولي. وعلى هذا النحو تبددت أموالهم جميعا. ولقد توفى بعض هؤلاء القوم والمظالم فى أعناقهم. وعلى هذا المنوال خسر بعضهم أهلهم وأملاكهم وأثاثهم مثلما رأى الجميع بأعينهم وسمعوا بآذانهم. وقد أدرك الجميع أنه لم تكن هناك مبالغة بل إن هذا القول إنما هو مثال وقليل من كثير بالنسبة إلى الواقع.

وعلى هذا النحو صار من الصعب تدارك مثل هذه الأمور العظام التى رسخت فى أدمغة الخواص والعوام. وبسبب الأغراض والأهواء المذكورة، فإن جميع الأمراء الأنجال والخواتين والأمراء والوزراء والكتاب والأكابر والأتباع كانوا يرعون هؤلاء المفسدين وكان لبعضهم ديون عليهم، وكان بعضهم يقبل الهدايا منهم. وليس هذا فقط، بل إن بعضهم صاروا شركاء لهم. ومهما يكن السلطان عادلا وذا سياسة وصاحب شوكة فإنه يكون من الصعب أن يستطيع التغلب على هذه الصعاب إلا إذا كان مزودا بالحكمة والكفاءة والعقل الكامل.

أما سلطان الإسلام خلد ملكه فقد فكر فى فكرة مباركة؛ إذ عرف أن أس كل هذه المفاسد هو التعامل بالربا. فإذا منع ذلك فإنه يكون قد قوى الشرع الإسلامى من جهة، وأخرج الخلق من ورطة الضلال إلى جادة الهداية من جهة أخرى. وببركة منع الربا قضى السلطان على كثير من الأضرار الجسيمة.

وعلى أثر اهتدائه إلى تلك الفكرة أصدر مرسوما فى شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) يقضى بألا يتعامل أى شخص بالربا فاستنكر ذلك أكثر الناس الذين كانوا قد اعتادوه، وصار بعض الأكابر من ذوى النفوذ يقولون: إنه بصدور هذا المرسوم سوف يغلق طريق المعاملات نهائيا. فرد عليهم سلطان الإسلام – خلد ملكه إننا قرننا إغلاق طريق المعاملات المذمومة. كذلك قال بعض الجهال من أصحاب الغرض والهوى **[ص٥٢٩]** إنه يلزم للخزانة أموال نقدية فى كل وقت، وإذا لم يقرضوا حكام الولايات فسوف يعجزون عن أداء المال، فقال سلطان الإسلام ووزراؤه: إننا لن ندع أى شخص يتعامل بالربا فى مصالح الديوان، أو أن يأخذ أى شىء من أصل المال أو ربحه. وقد نبه السلطان مرارا على الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء بألا يقرضوا على الإطلاق تلك الجماعة.

وعلى هذا أمر المسئولين بأن ينادوا صراحة بأننا لن ندع أحدا قط يقرض هذه الفئة مالا، أو أن يطلب شيئا منهم أثناء حياتهم أو من تركاتهم بعد مماتهم؛ لأننا لا نريد منهم مالا نأخذه كسلفة. وإذا ما بددوا أموال الديوان، فسوف نصادر أمتعتهم وأموالهم فى مقابل ذلك.

رابعا: مسألة أخرى هى أن المعارضين قالوا: إن القروض ضرورية لأرباب الحاجات لإنجاز مهماتهم. وقد رد عليهم السلطان بقوله: لماذا يجيء الشخص الذى لا يملك نفقات الطريق وما يحتاج إليه السفر؟ وأية فائدة تعود علينا منه، أو تعود عليه منا؟! يجب أن يجلس مستريحا فى منزله لا يبرحه. وحيث إنهم كانوا يسوقون تبريرات أخرى من كل نوع، كان يرد عليهم بقوله: إن الله تعالى والرسول عليه السلام يعلمان مصالح العالم أفضل منا. أو كان ينبغى أن نرد عليهم نحن بالضرورة بهذا المعنى فنقول: هذا ما أمر به الله[1] ورسوله، ولن أسمع قط كلاما يخالف ذلك. ومنذ ذلك التاريخ لم يعطوا مالا أى مخلوق أراد الاقتراض بالربا. وإذا ما استبد شخص ذو نفوذ فإنهم يمنعونه بحكم المرسوم.

ولأن الناس جميعا فى زماننا هذا لا يتعاملون بالربا بحمد الله ومنه زالت كل الأضرار التى كانت تحدث، واستقامت المعاملات، وعم الإنصاف الناس، وصار أكثر الأموال النقدية يصل إلى الخزانة ذهبا أحمر؛ لأن القانون لا يبيح تسليم الأموال العينية بدلا من النقدية. كذلك ثبتت قيمة الجواهر والمرصعات. وكل من يملك مالا لا يسلمه ليد مفسد من المفسدين فيبتزه بالحيلة. وبذلك صار أكثر أرزاق الخلق حلالا، وعمت البركة، واشتغل **[ص ٥٣٠]** أكثر الناس بالزراعة والتجارة والحرف النافعة. وبهذه الوسيلة انتظمت أمور العالم من جديد، ووجدت رونقا وبهاء. ولا شك أن أهل هذا الزمان يدركون قيمة هذه الأمور؛ إذ إنهم شاهدوا هذه المفاسد. أما الذين يعيشون بعد هذا، ولم يروا حقيقة ما حدث فأنى لهم أن يدركوا فائدة هذا القانون؟! وخلال هذه المدة التى نفذ فيها هذا الحكم كان بعض الناس ممن سيطرت عليهم لذة التعامل بالربا يبيعون بالقروض كثيرا من البضائع بأثمان باهظة، بحجة أن ذلك من قبيل التعامل والبيع المشروع، ولأنه لم يتخذ شكل الربا.

---

(١) نهى الله خلقه عن التعامل بالربا؛ فقال فى محكم كتابه: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (سورة البقرة، آية ٢٧٥).

وعاقبة الأمر أن هؤلاء الغرماء كانوا يأتون إلى الديوان ويقولون: لقد باعوا لنا بضائع بهذه الطريقة، وأنهم يطلبون شنها، فغضب السلطان خلد ملكه وقال: إنهم إذا لم يتركوا هذه الحيل والتزويرات فإننا سوف نأمر بأن كل شخص يأخذ قرضا بهذه الطريقة لا يعيد على الإطلاق رأس المال ولا ربحه. فإذا وجد المال متوافرا إمام الناس فما الداعى لإقراضه؟! .. ينبغى أن يشتروا به أملاكا، ويستثمروه فى التعمير والزراعة والتجارة فصار الناس خائفين من ذلك، وقل التعامل بالربا، كما قلت المعاملات المجحفة. ومن المؤكد أنه سوف يقضى نهائيا على هذه الطريقة وفى أسرع وقت.

فليوفق الحق تعالى هذا السلطان كى يقضى دائما على هذه الرسوم المذمومة، وحتى يجعل قواعد الشرع الشريف ممهدة وراسخة.

الحكاية السابعة والعشرون

فى منع المغالاة فى صداق الزواج

قال سلطان الإسلام: إن الحكمة الإلهية فى تشريع الزواج هو أن يكون هناك تناسل وتوالد بين الآدميين. ولهذا السبب فإن حكم الشريعة يقضى بأنه إذا تفوه شخص بكلمة الطلاق سواء أكان جادا أم هازلا، وسواء أكان راغبا أم غاضبا فإنه يقع الطلاق فى الحال لأنه إذا لم يكن هناك وفاق بين الزوجة وزوجها [ص٥٣١] فالأولى أن ينفصلا، وإلا فسوف يؤدى عدم الوفاق إلى الحدة والغضب. وإن استمرار الحياة مع الغضب لهى عادة الوحوش، ولا محالة أن ذلك يؤدى إلى النفور، ولا يتحقق التوالد والتناسل مع وجود النفور. ولهذا السبب أصبح طريق الطلاق مفتوحا دون مانع قط.

أما إذا عقد النكاح على امرأة بصداق باهظ فلن يستطيع أى مخلوق أن يبادر بطلاق زوجته، وذلك خشية أن يدفع المال الكثير. وإذا كانت علاقة الزوج بزوجته ليست على ما يرام وغير محتملة فإن الزوج يضطر إلى التحمل. وهذا الأمر خلاف المشروع والمعقول ذلك أنه بموجب ما تقرر، تقتضى حكمة الشارع أنه إذا ما تردد شخص فى إظهار المحبة لزوجته، ولم يحرص على اتفاق وجهات النظر بينهما فإنه يستطيع أن ينفصل عن زوجته دون جدال أو تفكير أو مانع.

كذلك تقتضى حكمة الشارع أن تكون رعاية الناس لأبنائهم وتوفير مؤنهم ولوازمهم أمرا واجبا على الآباء. وهؤلاء الآباء معرضون فى كل وقت لمنع الإعانات عنهم، أو أن بعضهم يرحل كجنود احتياطيين بعيدا عن أولاده. فإذا ما استهلك صداق الزوجة فمن أين يتوافر المال لتربية الأبناء، وسد حاجات الباقين ورعاية شئونهم؟!

وبناء على هذه المقدمات، ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد استحسن المهر القليل فى الزواج ينبغى أن يخفض الناس الصداق إلى أقصى حد؛ بحيث لا تجب عليه الزكاة. وبناء على هذا تقرر ألا يزيد كل الصداق على تسعة عشر دينارا ونصف؛ ذلك أنه ليس هناك إثم قط فى الصداق القليل. ولا شك أن الشخص الذى يحب زوجته لا يمكن التفريق بينهما

مهما بلغ التحايل والإجبار. أما الزوجان اللذان لا يوجد بينهما وفاق فمن الأولى أن ينفصلا بأسرع وقت ممكن كي يتخلصا من المتاعب، ويستفيد كل منهما؛ لأنه ثبت بالتجربة أن بعض الزوجات لا يحببن أزواجهن، فإذا ما طلقن فإن الآخرين يتزوجون منهن ويحبوهن، فتكون هناك فائدة للطرفين.

لهذا السبب أصدر السلطان مرسوما بخصوص هذا الموضوع.

والسلام.

الحكاية الثامنة والعشرون

فى إقامة المساجد والحمامات فى القرى بكل البلاد

لا يخفى أن احتياج الناس إلى الحمامات والمساجد من الأمور الضرورية. وفى بعض من ولايات الممالك لم يبن فى القرى شيء من كلا النوعين، ولم يدبر ملوك الإسلام ذلك من قبل. ومن المؤكد أن الأهالى فى تلك الأماكن لا يقيمون صلاة الجماعة، ولا يتيسر لهم غسل الجنابة والتنظيف، كما هو مشروط شرعا، مما يسبب خللا فى دينهم.

ولعلاج هذا النقص أمر السلطان وأصدر مرسوما يقضى بإقامة مسجد وحمام فى كل قرية من قرى كل الممالك. ويعتبر مجرما وآثما من لا ينفذ هذا الأمر. وخلال ما يقرب من عامين أقيمت فى كل البلاد المساجد والحمامات فى الأماكن التى لم يكن فيها مساجد ولا حمامات. وفى هذا الزمان تحصل أجور مرتفعة من تلك الحمامات، فأمر السلطان بأن ينفق منها على ما يلزم تلك المؤسسات، وعلى شئون المساجد من تعمير وفرش وإنارة وصرف أجور للخدم.

وبمجرد أن تم هذا النموذج الدال على حسن التدبير الذى أمر به السلطان جرى مثل هذا العمل الخيرى فى عدة بقاع من بقاع الممالك، وظهر شعار الإسلام، ونعم الناس بالهدوء والراحة.

أوصل الحق تعالى بركات ومثوبات ذلك إلى أيام السلطان المباركة.

الحكاية التاسعة والعشرون

فى منع الناس من احتساء الشراب

حيث إن أكثر الخلق فى الممالك يقدمون على شرب الخمر وتناول المسكرات وكانوا ينهمكون فى العربدة والعبث بسبب سكرهم فى الأسواق والمجتمعات؛ فيؤذى بعضهم البعض، أو يُجّرح بعضهم أو يحل بهم الإعياء والإرهاق مما يوجب محاكمتهم. والمسكرات حرام ومنهى عنها فى كل المذاهب والملل[1]. وبسبب ما تقرر عنها، وما ورد من ذمها بحصر المفاسد التى تنتج عنها، نرى أنه لا داعى إلى الإطناب فى ذلك. يكفى أن أطلق عليها "أم الخبائث".

وبخصوص تدارك هذا الخلل، قال سلطان الإسلام خلد ملكه بما أن المشرع عليه السلام وسائر الأنبياء قالوا بتحريم الخمر [ص٥٣٣] وأن النصوص قاطعة فى ذلك الشأن هذا على حين أن الخلائق لا ينزجرون ولا يتركون الشراب، وإذا نحن أيضًا منعنا الشراب مطلقًا، فمن المؤكد أنه لن ينفذ ذلك. بناء على هذا قررنا أن نكتفى حاليًا بأن يقبض على كل شخص يجدونه ثملاً فى المدن والأسواق، وأن يعرى، ثم يربط إلى شجرة[2] وسط السوق حتى يمر عليه الناس، ويوبخوه فيتنبه وينزجر.

وبخصوص هذا الموضوع أصدر مرسومًا وأرسله إلى أطراف الممالك. وفى هذا الزمان لا يجرؤ أى مخلوق على أن يخرج إلى الطرق ثملاً. وإذن فكيف يصل به الحال إلى حد المجون والعربدة؟! وبهذا قضى السلطان على الفساد الناجم عن احتساء الشراب وعلى مشاجرات السكارى وخصوماتهم فى الأسواق والمجتمعات.

---

(١) ورد فى الحديث الشريف قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر". رواه الحاكم والبيهقى عن ابن عباس ورواه الطبرانى عن النعمان بن بشير بلفظ: "اجتنبوا كل مسكر". (انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلونى، الجزء الأول، ص٤٩، حلب بدون تاريخ).

(٢) يذكر الوصاف أنه فى عهد غازان إذا رتكب شخص شرب الخمر، فإنه يعذب فى السوق، ويقام عليه الحد الشرعى، ويعلق فى شجرة يطلق عليها أهل شيراز "عروس السكارى" (عروس مستان) (انظر تاريخ الوصاف ص٣٧٨، طبع بمباى).

كذلك أمر السلطان بألا يدخل أى مخلوق منازل الناس للبحث عن السكارى حتى لا يسلك العسس سلوكًا يتجاوز حد الاعتدال، وحتى لا تحل المتاعب والمشقات بالخلق.

ليوفق الله تعالى هذا السلطان الحامى الدين حتى يصدر دائمًا هذه الأحكام.

والسلام

الحكاية الثلاثون

فى إعداد نفقات الطعام الخاص والشراب لجيش السلطان المعظم

ليكن معلومًا للجميع أنه قبل هذا كان يسود الجدل والنزاع دائمًا بخصوص إعداد نفقات الطعام. وكان الكتاب والمتعهدون يوقع بعضهم ببعض، ويتهمون بعضهم بعضًا. وكانوا يغالون فى ذلك الأمر، فكان على الأمراء أن يشغلوا باستجوابهم ومحاكمتهم. وكانت نفقات الشراب والطعام فى أيدى جماعة ينفقون مبالغ تزيد كثيرًا عما صرفوه بالفعل. كذلك كانوا يضيفون بعض النفقات التى لم تكن لها صلة بتوفير الطعام وذلك من قبيل الصدقات ومعاشات الناس وغذاء الحيوانات والفهود وكذلك العلف ومشروب الرسل ورواتب بعض الأمراء الأنجال والخواتين ولوازم البيوت وأدوات المطابخ وأمثال ذلك. ولهذه الأسباب تضخمت ثروات طائفة من هؤلاء المستغلين. يضاف إلى ذلك ما كان ينفق على شئون المآدب وإقامة الحفلات. وأكثر هذه الأموال لم تكن فى الحقيقة تنفق فى هذا الغرض. كذلك حددوا للأصناف المختلفة أسعارًا مرتفعة. [ص٥٣٤] وكانوا يحيلون كل تلك النفقات على الولايات لتتولى تدبيرها. وفى نفس الوقت كانت الشئون المتعلقة بأموال الديوان غير مضبوطة ومضطربة. وفى نية الحكام والمتعهدين ألا يعطوا الديوان شيئا قط وذلك على النحو الذى وضحنا فيه أسباب تلك المفاسد.

لكل هذا اختلت شئون الولايات اختلالا كبيرا. ولم تكن النفقات اللازمة لتوفير الطعام تصل فى وقتها. وكان الرسل الذين يذهبون لتحصيل تلك النفقات يهملون أداء واجباتهم مقابل ما كانوا يأخذونه من هدايا على سبيل الرشوة. كذلك كانوا يعطون المتعاملين معهم فرصا كثيرة لسداد ما عليهم، وأيضا كانت الحوالات تصدر مرة ثانية إلى ولايات أخرى. وهكذا سار الرسل على نفس الطريقة. وفى كل عام كان يذهب العديد من الرسل لتحصيل نفقات الطعام، وكانت تزيد نفقاتهم وعلف دوابهم على أصل المال المخصص للغذاء. ومع هذا لم يكن المال يصل أيضا رغم أن نفقات توفير الطعام قد حددت؛ بحيث تكفى كل من يعمل لتحصيلها، بل كانت تكفى أشخاصا كثيرين آخرين. ولكن حيث إنها

لم تكن تصل فى وقتها، وكان المتعهدون يقترضون المال بربح فاحش. وقد قوموا مائة مَنّ من الشراب بعشرة دنانير. وإذا كانوا يعملون بتدبير، فإن المتحصل يصير خمسة دنانير. وأحيانًا كانوا يشترون مائة مَنّ بعشرين أو أربعين دينارًا.

ونتيجة لذلك فإن المال الكثير الذى كان يصل إليهم، والمبالغ التى كانت تزيد على نفقات توفير الطعام، أصبحت غير كافية. إذن فكيف تكون قيمة الحوالات التى كانت فى أيديهم، وتأخر سدادها عامين؟! ومن جملة ذلك ما كان لا يزال باقيًا على الأماكن المختلفة. وأما الخلل الأكبر حقًا، فإنه يتمثل عندما كان الكتاب يسألون عن النفقات الخاصة بتوفير الطعام. عندئذ كان حكام الولايات يتدخلون بحجة أن أمر تدبير الطعام مسألة خطيرة، ويقولون: إننا نبادر بحصر تلك الأموال، ويكلفون الرسل بمهمة أخرى. وهذه العملية أيضًا لا تخرج إلى حيز التنفيذ. وهكذا كانت تضيع النفقات الأخرى، فتعم الخسارة. وبسبب تعطيل الرسل وتأخيرهم كانت تضيع سدى المبالغ المخصصة للمصروفات. وإذا عزل الحاكم فى نهاية العام فإنه كان ينتحل عذرًا قائلاً: إن المال فى عهدة الولاية، أو أنه ضاع. وإذا لم يعزل فإنه يتحجج بالحساب والتحقيق ومراقبة رؤساء الديوان بحجة مشاركتهم الرسل، وأخذهم الهدايا على سبيل الرشوة. وهكذا يمضى الوقت عبثًا.

ولا شك أن أثر تلك القضايا وسوء التدبير إنما كان يرجع إلى تصرف المتعهدين الذين كانوا فى نزاع دائم مع موظفى الديوان. وكان كلا الطرفين يتبادل التهم، **[ص٥٣٥]** ويلقى بالتبعة والذنب على عاتق الطرف الآخر، وظلت الوشايات والسعايات قائمة فيما بينهم. ولم يتفق مطلقًا أن تعد المؤن لمدة عشرة أيام متتالية ولو أنهم رجعوا إلى السجلات واحتاطوا للأمر، لوجدوا أن الأموال الكثيرة قد ضاعت بهذه الطريقة بحيث إنه لا يمكن شرح ذلك. وكيف يمكن أيضًا إدراك حال المؤن التى تعد بهذه الطريقة؟! كذلك كانوا دائمًا ينقلون الأطعمة والمشروبات مكرهين. وكانت تثور المشاحنات والمشاجرات بشأنها. وعندما كانت تصل إلى الجند وقت مغادرتهم المعسكرات، كانت تبقى متروكة مهملة. وعند الانتقال إلى المصايف والمشاتى كانوا يهتمون بتقديم الهدايا أكثر من اهتمامهم بتوفير المؤن. وفى أثناء ذلك كانت تضيع النفقات المخصصة لها وتنهب. وعندما كانوا يشترون

المشروبات من بائعى الشراب، والأغنام من القصابين، فإنه كثيرا ما يحدث ألا يدفعوا لهم ثمنها. ودائما كانت تلك الجماعة تصيح وتنوح خلفهم. كما كانوا يركعون أمام الأمراء فى ذلة ومسكنة، ولكن دون جدوى. ولهذا السبب أشهر كثير من بائعى المشروبات والقصابين إفلاسهم. وهكذا فإن أمثال هذه المفاسد كانت تزيد على الوصف.

ولتدارك هذا النقص قرر السلطان أن يكون الإصلاح على هذا النحو الذى يقضى بتوفير نفقات المؤن والأطعمة يوميا لمدة ستة أشهر، على أن تعطى هذه النفقات نقدا من الخزانة كسلفة لشراء ما يحتاجون إليه من السلع. ثم ينقل كل ما يكون معدا فى إحدى الولايات. وكل ما يشترى بثمن أرخص يبقى فرق السعر رصيدا للخزانة. ولا يتوقع أى مخلوق أن يستفيد من تفاوت أسعار المشروبات والأغنام والسلع وينبغى أن يشتروا أرخص من الأسعار المحددة فى السجلات. أما ما كانوا يأخذونه قبل هذا من النفقات غير الضرورية ومن المآدب والحفلات العديدة التى لم ينفق عليها كثيرا، وكل ما يتبقى من أيام تقل فيها النفقات، فإن هذا كله يكون رصيدا للخزانة. ومن وفورات ذلك كله، تجمعت فى مدة عامين أموال كثيرة اشتروا منها خمسمائة ناقة وخمسمائة بغل، وأودعوها لدى الحمالين والسياس الرحماء حتى تكون دائما معدة لتلبية متطلبات المشروبات والأطعمة. وكل ما كانوا يدفعونه كل سنة لتأجير الدواب، ينفقون بعضا منه فى شراء العليق ورعاية الدواب. **[ص٥٣٦]** ويشترون بأقل من خمسة دنانير الشراب الذى يقدر بمائة من وكانوا يبتاعونه قبل ذلك بثلاثين أو أربعين دينارا.

والآن صارت المشروبات المؤن والأغنام والحوائج واللوازم الأخرى معدة ومتوافرة. وإذا أرادوا الحصول على أضعاف المقرر فإنهم يجدونه بسهولة ودون صراع أو نزال. وقبل هذا كان سعر الشراب الذى يشتريه المتعهدون من بائعى المشروبات مرتفعا جد ا. هذا على حين أنه الآن متوافر فى الأسواق وفى حالة كساد. كذلك لا يذهب أى رسول أو محصل إلى الولايات للمطالبة بنفقات المؤن. ولهذا السبب لا تلزم مصروفات ولا تتبدد أموال، بل يأتى النقد إلى الخزانة. كذلك أصبحت الشئون المتعلقة بتوافر المؤن وتهيئة أسبابها وترتيبها ونقلها تتم بصورة منسقة ومضبوطة لم يسبق لها مثيل دون شك فى عهد أى سلطان من السلاطين. ومن المقطوع به أنه لا يصرف أكثر من ربع ما كان يتبدد قبل هذا. ولو وضع

فى الحسبان أيضًا النفقات التى كان يتطلبها إيفاد الرسل، فلن تكون المصروفات الحالية أكثر من العشر.

ولا شك أن ترتيب هذه الشئون إنما هو أمر منوط باهتمام النواب ووزير البلاد الخواجه سعد الدين، فهو لا يدع دانقًا واحدًا يتعرض للتلف والضياع.

ليبسط الحق تعالى أبد الدهر ظل هذا السلطان الكامل العقل، الصائب الرأى.

والسلام

الحكاية الحادية والثلاثون

فى إعداد نفقات المؤن للخواتين والجنود

فى عهد هولاكو خان كانت نفقات توفير المؤن للجنود والخواتين تجرى على سنن المغول وعاداتهم، ولا يمكن زيادة هذه النفقات وتلك المقررات. وعندما كانت تجلب الغنائم من حروبهم فى ولايات الأعداء يعطى الجنود شيئًا منها. وكان لكل واحدة من الخواتين عدد من التجار يقدمون لها شيئًا من المال كربح أو أن شخصًا يهديها هدية. وكانت تمتلك عدة قطعان ولها أيضا نتاجها ومنافعها. ومن هذه الأشياء كانت تتوافر للخواتين النفقات اللازمة لتوفير المؤن وما يحتجن إليه. وكن قانعات بذلك.

وفى أواخر أيام آباقاخان ظهرت زيادة طفيفة فى المؤن. وبعد ذلك فى عهد أرغون خصص لكل معسكر مبلغ من المال. وكانت هذه النفقات تحول على الولايات لتحصيلها. [ص٥٣٧] وعندما كان الرسل ورؤساؤهم يذهبون لتحصيل هذه المبالغ، لا يدفعها الحكام، متذرعين ببعض الأعذار التى شرحناها فى عدة مواضع. وكانوا يشغلون أوقاتهم بأخذ العلف والالتزام بتنفيذ الوعود وتقديم الهدايا. وإذا حصلوا على مبلغ ضئيل، كانوا يبددونه فيما بينهم. وحيث إن نفقات توفير الطعام للجنود تجرى على هذا النمط، فإنه يتبين لنا كيف كانت تسير الأمور فى ظل هذه الأوضاع. وفى عهد گيخاتو كان الحال أيضا يجرى على هذا النمط. وهكذا ضاعت مبالغ كثيرة من الأموال على يد حكام الولايات وكبار الشخصيات.

أما فى العهد المبارك لسلطان الإسلام خلد سلطانه فقد وقعت الخصومة بين قواد الجيش. ولهذا كان يكيد الواحد منهم للآخر، فتعرضوا للاتهامات والمحاكمات بسبب هذه التصرفات. وقد بقى بعض تلك الأموال دينا على الولايات، وتبدد بعضها بين كبار الموظفين، فكان السلطان يأمر بمعاقبتهم، وعزل بعض منهم. بعد ذلك صرح قائلا: لا يصح أن تضيع الأموال بهذه الطريقة، أو يختلسها حكام الولايات. وبذلك لا تنتظم الشئون المتعلقة بتوفير المؤن للجنود، ولا تصل الأموال إلى الخزانة أو إلى الجند.

ولعلاج هذا النقص أمر السلطان بتعيين إحدى الولايات لكل جيش من أملاك الخاصة تفصل عن الديوان وتسلم لهم. كذلك تقرر أن تصرف الأموال المخصصة لتلك الجهات من الديوان، ويكتب تعهد لكل فئة تفصل فيه النفقات الخاصة بتوفير المؤن والعلف، وما تحتاج إليه الخواتين من ملابس ودواب وكذلك النفقات اللازمة لدور الشراب والاصطبلات والإبل والبغال وملابس البنات والسادة والفراشين والطباخين والجمالين والمكارين وغيرهم من الخدم والحشم. كما ينص أيضا على ما ينبغى الحصول عليه من اللوازم الأخرى، وأن يحسبوها كلها ضمن مجموع النفقات حسب هذا الترتيب. ثم أمر بإيداع ما تبقى فى خزانة كل خاتون، وأن تضبط الحسابات تماما ثم تختم بختمى الأميرين المعينين على رأس كل جيش. وعلى الجميع ألا يخرجوا عن حكم مرسوم السلطان حتى يكون هناك دائما رصيد فى خزانة الخواتين يستفاد منه عند الضرورة. ثم أضاف السلطان قائلا: إن أملاكى الخاصة تصير من بعدى ملكا خاصا لأبناء الخواتين على أن توقف على أولادهن الذكور دون الإناث[1]. وإذا لم يكن لتلك الخاتون أولاد ذكور [ص٥٣٨] فإنها تكون من نصيب أبناء الخواتين الأخريات. والآن فإن كل تلك الولايات والأملاك فى يد نواب الخواتين وذلك بموجب تعهدات الديوان. وقد صارت كلها عامرة، وتدر أموالا تزيد عما سبق.

أما النفقات الخاصة بتوفير المؤن للجنود وما تحتاج إليه المصالح فإنها صارت كلها معدة ومرتبة، وتصل فى وقتها. كذلك وضحت وتعينت الأموال المودعة بخزائن الخواتين. وفى هذا الوقت الذى كانت تدعو فيه الحاجة إلى زيادة النفقات لتصريف مصالح الجند، أمر السلطان بإعطائهم مبلغ ألف ألف دينار، وحوله إليهم بموجب هذا القرار. وكان هذا مددا كاملا للجند. وفى الحقيقة لم يتوافر مطلقا مثل هذا الضبط فى أى عهد من العهود.

إن شاء الله تعالى سيظل ملك هذا السلطان وطيدا ومزدهرا أبد الدهر.

والسلام

---

(١) هذا الإجراء مخالف للشريعة الإسلامية التى لا تحرم الإناث من أن يرثن أيضا آباءهن، قال تعالى: ﴿يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾. (سورة النساء، آية ١١).

الحكاية الثانية والثلاثون

فى ضبط شئون الخزانة وترتيب مهماتها ومصالحها

قبل هذا لم يكن معتادا تدوين حسابات الخزائن الخاصة بسلاطين المغول، أو يكون لها دخل وخرج ثابتان. ولقد نصبوا عددا من الخزنة كى يأخذوا منهم كل ما يحصلون عليه من أموال، ثم يودعونها متضامنين، ويدفعون كل ما يلزم من نفقات بمعرفتهم جميعا. وعندما ينفد الرصيد يقولون: إنه نفد. وكان الفراشون يحرسون تلك الخزائن، ويحملونها ثم يلقونها بعنف. وقد بلغت الأمور من عدم الدقة وسوء النظام درجة كبيرة إلى حد أنه لم تكن هناك خيمة توضع فيها هذه الخزائن، بل كانت تكدس فى الصحراء، ويكتفى بتغطيتها بلباد. وهكذا يمكن القياس على سائر الأحوال. ومن جملة العادات المتبعة عندهم أنه عندما كان يذهب جماعة الأمراء ومعهم أصدقاء الخزنة ويطلبون منهم الهدايا، كانوا يعطون كل واحد منهم شيئا على قدر مرتبته. كما أن الطهاة والسقاة والخدم وسياس الخيل، كان كل منهم يحمل إلى الخزنة كمية من المأكول والمشروب وغير ذلك [ص٥٣٩]، ثم يطلبون شيئا، فكان الخزنة يتشاورون فيما بينهم، ويلبون طلباتهم. ولأن الفراشين كانوا حراسا للخزنة صار المسئولون يقبلون ملتمساتهم، ويعطون كل واحد منهم نقودا. كذلك كان الخزنة يتبادلون الهدايا، ثم يتشاورون فيما بينهم، وأخيرا يتفقون على أن يحمل كل منهم شيئا إلى منزله. وبهذه الطريقة كان يضيع من تلك الخزائن كل سنة ثمانية أعشار ما تحتويه، ويصل فقط العشران الباقيان من النقود إلى الجهة المطلوبة، فكان السلطان يأمر بإنفاقها. ولأن حكام الولايات قد فهموا هذه الأمور جيدا، كانوا إذا سلموا أموالا لإيداعها فى الخزانة، فإنهم يأخذون بدل الشيء الواحد شيئين. وعندما يحضرون مالا أقل إلى الخزانة فإن ما يحضرونه يجرى ضبطه على هذا النمط. ومن هنا يتضح الموقف فنتساءل كيف يستطيع السلطان أن ينفق عندما تدعو الحاجة إلى الإنفاق؟! وهكذا كان الحال يجرى على هذا المنوال دائما.

وحيث إن حراس الطرق أمروا بالاحتياط، وباعتقال أى شخص يخرج ثوبا أو شيئا آخر من الخزانة، صاروا يعتقلون واحدا كل بضع سنين، وذلك أيضا لغرض خاص فى أنفسهم فكانوا ينتهزون الفرصة كى يوقعوه فى الذنب، ويقدموه إلى المحكمة. وهذا لم يحدث فى كل العهود أكثر من مرتين أو ثلاث مرات. ولهذا السبب يستولون على المرصعات والذهب الأحمر. وإن شرح تلك الأحوال يتجاوز حد البيان.

أما الآن فلضبط هذه الأوضاع وتصحيحها، قرر السلطان أن تكون الخزائن مستقلة فى إدارتها، وأن يضع بيده المباركة كل ما يوجد من المرصعات فى صندوق، بحيث إنه لو يحدث أى تصرف فيها، يعلمه فى الحال. كما قرر أن يثبت فى السجل كل صغيرة وكبيرة بقلم الوزير بالنقير والقطمير. ثم أغلق هذا الصندوق بالقفل وختمه بختمه، وعين شخصا من الخزنة ومعه أحد الخدم من الخصيان ليحافظا على الصندوق، ويكون فى عهدتهما. وباستثناء هذين الاثنين لا علاقة لأى مخلوق آخر بهذا الصندوق.

أما كل ما يكون من الذهب الأحمر والثياب الخاصة التى تصنع فى المصانع، أو الأشياء التى يحضرونها من الولايات البعيدة كالتحف والهدايا فإن الوزير يسجلها بالتفصيل جريا على القاعدة المتبعة، وتبقى كذلك فى عهدة هذين الشخصين المذكورين، وقطعا لا يتصرفان فى أى منها قط ما لم يصرح بذلك سلطان الإسلام تصريحا مطلقا. **[ص٥٤٠]**.

وأما كل ما يكون نقدا فضيا، وكذلك أنواع الثياب التى توزع دائما فقد نصب السلطان خازنا وخادما خصيا آخرين لتكون هذه الأشياء فى عهدتهما، على أن يتولى الوزير إحصاءها ثم يثبتها فى السجل. كذلك أمر السلطان بأن يكتب الوزير إذنا بما يتقرر صرفه، ويعرضه حتى يؤشر عليه بقلمه المبارك. ثم يثبت ذلك نائب الوزير فى السجل. وما لم تكن التأشيرة مثبتة على أذونات الصرف، لا يصرف شىء قط لأى مخلوق. وتسمى الخزانة الأولى "نارين" والثانية "بيدون". وحتى لا يلزم التأشير على الأذونات فى كل لحظة تقرر أن يكتب الوزير كل شهر أذونات الصرف بالتفصيل جريا على المتبع، ثم يعرضها واحدا فواحدا على السلطان وقت الخلوة وانتهاء الفرصة حتى يؤشر عليها.

كما أن على الوزير أن يطلب جرد الخزانة كل ستة أشهر أو كل عام حتى يتأكد من أن كل المبالغ موجودة بالخزانة أو لا؛ وذلك خشية أن تكون هذه المبالغ قد نفدت من الخزانة

لسبب من الأسباب الكثيرة. وقبل هذا كان بعض العظماء والأصدقاء يلتمسون أن يصرف لهم قرض من الخزانة. ولكن لأن المرسوم قد صدر بعدم التصرف فى الأموال بغير الإذن المبارك، رفض ذلك الالتماس. كذلك أمر السلطان بصنع ختم خاص يختم به فى الحال كل ثوب يحضرونه إلى الخزانة، حتى لا يمكن إبداله.

وعن السعاة الذين كانوا قبل هذا يتدخلون فى شئون الخزانة، أمر السلطان بأن يشتغلوا بالفراشة فقط، لأن الخزانة فى عهدة هؤلاء الأشخاص الأربعة فقط. وتصفية الحساب ينبغى أن تكون بموجب الإذن الذى يعطى لهم. وأشار السلطان أيضا بألا يكون فى الخزانة عيار الوزن العادى، بل يكون فقط العيار القانونى المختوم الذى بموجبه يكون التسليم والصرف. وليس لأى مخلوق الحق فى أن يعطى أصحاب الحوالات ذراعا من الكرباس فى مقابل نقد ذهبى، أو أن يماطل فى الدفع لحظة واحدة، بل ينبغى أن يدفع المال فى الحال نقدا لأصحاب الحوالات أو القماش. وينبغى أن يسلم نفس الصنف المطلوب المدموغ بدمغة الخزانة، ولا يتوقع القائمون عليها أن ينالوا شيئا من أحد فى سبيل تسهيل مهمته. **[ص٥٤١]** وقد تقرر تحصيل دينارين كرسم للخزانة عن كل مائة دينار من النقود التى يحضرونها من الولايات ولا يأخذون زيادة قط عن المطلوب.

كذلك أمر بتخصيص خزانة أخرى، نصب عليها أحد الخصيان، وعليه أن يأخذ دينارا عن عشرة دنانير من النقود التى يحضرونها إلى الخزانة وأن يسلموه ثوبا واحدا على حدة عن كل عشرة أثواب ليضعه فى الخزانة أيضا. كذلك أمر السلطان بإحضار أموال الصدقات المحولة إلى الخزانة كى يسلمها بيده المباركة للمستحقين. وقد تم ضبط ذلك بنفس الترتيب الذى سبق شرحه. وهذا النظام يطبق أيضا وبنفس النسق المذكور على الخزانة المخصصة لمستودع الأسلحة. ولا يمكن أن تحفظ بهذه الصورة وتلك الدقة أموال أى حاكم أو صراف أو تاجر كبير ممن هم مشهورون بالمحافظة على المال، فكيف بخزائن الملوك؟! وقطعا لا يمكن أن تتصور الخيانة ولو بدانق واحد من النقد.

وعندما يتوجه السلطان إلى المصيف أو إلى المشتى يراجع الخزانة بنفسه عدة أيام قبل تحركه، ويستثنى كل ما يريد نقله منها. ثم تسجل بالتفصيل الأثقال والأحمال بخط الوزير ويتركها فى تبريز فى صناديق مغلقة ومختومة. وعندما يريد السلطان أن يعرف أحوال

الخزانة من حيث الكم والكيف والدخل والخرج، يسأل الوزير، فيرجع بدوره إلى السجلات، ويعرض المطلوب فى الحال. وحيث أن سلطان الإسلام خلد ملكه مؤيد بالتأييد الربانى. كما أن إمداد المواهب الإلهية بشأنه كامل تماما، واتفق أن وزيره أيضا مع وجود كمال كفايته وكياسته وعلمه وفضله، لا يوجد أوثق منه، فلا جرم أنه لا يمكن أن يضيع دانق واحد من النقد أو ذراع من الكرباس ولم يعد لأى مخلوق مجال للخيانة.

وإنه لبيمن وبركه هذا الضبط، وهذا الصدق اللذين أمر بهما سلطان الإسلام. وبفضل الأمانة والديانة، صارت النقود الذهبية تخرج من الخزانة بكثرة هائلة؛ بحيث إنها لو كانت بحرا لنفد ماؤه. وليس هناك فى سجل قديم أو حديث نطالعه ذكر لمثل هذه الأموال الطائلة والثياب التى لا حصر لها. كما أنه لم يعط أحد مثل هذه المقادير من خزانة أى ملك من الملوك.

ليوصل الحق جل وعلا هذه البركات إلى أيام السلطان المباركة بحق النبى وآله وسلم.

فى ترتيب شئون المؤسسات ودور السلاح

قبل هذا كان يعين فى كل مدينة وولاية صناع كثيرون من قبيل القواسين وشاحذى السهام وصناع الجعبات والسيوف وغيرهم. كما كان للمغول مثل هؤلاء الصناع. وكان كل واحد منهم يصنع آلة أو آلتين. وكانوا يتقاضون أجورهم ومرتباتهم. كما كانوا يتعهدون بتقديم كمية كبيرة من الأسلحة. وكانوا يأخذون ثمنها من الحوالات المكتوبة على الولايات. وفى بعض المدن، كانت هناك مصانع يعمل فيها صناع مهرة. وقد خصصت مبالغ من الأموال لهذا الغرض. وكان على رأس هؤلاء نواب أمراء حاملى السلاح. ومن كل الأموال التى تنفق، لم يستطيعوا أن يحصلوا منها على واحد من عشرين وذلك بسبب أن بعض هذه الأموال يتم صرفها بواسطة الحوالات. ومع أن مائة من أتباع الرسل يذهبون إلى الولايات لتحصيلها، كان يضيع أيضا ما يساويها أو ما يزيد عليها ثمنا للعلف وسد نفقات هؤلاء الأتباع ونفقات دوابهم. وبواسطة الحيل التى ذكرناها كان يبقى بعض تلك الأموال يتصرف فيها حكام الولايات، وبعضها يتبدد نتيجة أطماع وتصرفات النواب وكتاب المؤسسات، وبعضها يضيع هدرا بسبب كثرة الأمراء المشرفين على هؤلاء وهؤلاء. وبناء على هذا كان كل واحد يتصرف حسب هواه.

ولما كان الصناع يرون الأمور تجرى على هذا المنوال، تقاعسوا وصاروا لا يؤدون أعمالهم أداء كاملا على نحو ما يمليه عليهم الحق والواجب، وصارت أوقاتهم مستغرقة فى النزاع والخصومة فيما بينهم. وكان ينبغى أن تصرف فى السعى والعمل. كذلك دبت بينهم المشاحنات، وكثرت الوشايات. وقد وصلت منازعاتهم إلى حد أن الأمراء – بشؤم هذه التصرفات اختلفوا فيما بينهم، وانقسموا على أنفسهم وتخاصموا. وكانت التحقيقات تجرى دائما مع الصناع، ويحتدم الصراع والجدل؛ فترتب على ذلك ظهور العيوب والمفاسد فى شئون الملك. وعندما كانوا يذهبون لمراجعة الحسابات، لم يكن هناك شىء قط. فلا مفر إذن من أن يبقى عجز فى السجلات يقدر بثلاثمائة أو أربعمائة ألف دينار كل سنة، ولا يظهر ما يدل على إنفاق دانق واحد منها.

وعاقبة الأمر أن النواب وكتاب المؤسسات كانوا يقتلون. وعلى أثر ذلك خربت ديارهم. ثم أعقب ذلك القضاء على أسرهم. [ص٥٤٣] وقد آل أمر المباشرين تلك الأعمال إلى أن صاروا مفلسين وأشرارا وساءت سمعتهم؛ فتدارك ذلك كله سلطان الإسلام خلد ملكه وقرر على هذا الأساس أن ينضم أهل كل حرفة من الحرف فى كل مدينة إلى بعضهم البعض، وأمر بألا يعطوا شيئا من العلف والملابس. وقرر كذلك إعداد كميات خاصة من كل نوع من الأسلحة وتقدير ثمنها، وقال: رغم أنهم عمالنا وأسرى لنا ويبيعون ما يصنعونه فى الأسواق بأثمان يتقاضونها مثلما يبيع الآخرون إنتاجهم فإنهم يحاسبون على ما يصنعون، وذلك على نفقة الديوان. وكذلك نصب على رأس كل طائفة شخصا أمينا وموثوقا به ليشرف عليهم ويكون ضامنا إخلاصهم وأمانتهم. وهؤلاء يأخذون أجورهم سنة بسنة، ويسلمون الأسلحة حسب المقرر المفصل، ويتسلمون بها إيصالا. وقد حدد السلطان إحدى الولايات لتتولى سداد نفقات كل تلك الأسلحة حتى لا تدعو الحاجة إلى إيفاد الرسل إلى كل الولايات لتحصيل هذه الأموال.

بهذه الطريقة تقرر أن تعد الأسلحة الكاملة لعشرة آلاف رجل كل سنة. هذا على حين أنه قبل هذا لم يكن يرى أحد مطلقا حتى ألفين من الرجال المسلحين. كذلك عين السلطان لحرسه الخاص خمسين رجلا اختارهم من خواص خواصه. وبالإضافة إلى ذلك أعد عدة آلاف قطعة من الأقواس والأسهم والدروع على نفقة الخزانة لتستعمل عند الحاجة. وعندما عقدت مقارنة بين الماضى والحاضر، تبين أن ما كان ينفق قبل هذا على بند العلف وأجور الحرفيين لا يزيد على نصف ما يدفع الآن ثمنا للسلاح. كما أنه لهذا السبب قد استغنى نهائيا عن النفقات التى كانت تتحملها الولايات. ولكن قبل هذا وفى أوقات أخرى، لم يكن يوجد سلاح قط من هذه الأسلحة التى يتوافر وجودها. وبحسن التدبير هذا تجهز المعدات كل سنة وفق النظام المذكور، وتسلم بموجب إيصال. وبهذا انتهى الصراع وزالت الخصومات، وقضى على محاكمات الحرفيين والكتاب الذين كانوا يعدمون لهذا السبب. وهم الآن محترمون وموقرون، ويعيشون فى راحة وطمأنينة. أما الأمراء الذين كانوا – بشؤم هؤلاء – ينازع بعضهم بعضا؛ فإنهم الآن جميعا متضامنون متآلفون وأحباب أصفياء.

وحيث إنه خلال هذه السنوات جرت الأمور على هذا النحو المقرر فكانت مرتبة جيدة، عرض أمراء السلاح على السلطان قائلين: [ص٥٤٤] "إن أكثر الآلات التى

يصنعها الحرفيون موجودة في الأسواق، ويمكن أن نشترى منها بصورة أنسب وأفضل. وقبل هذا لم يكن الصناع يعرفون رسم وترتيب الآلات المغولية. أما الآن فقد عرفوها في الأسواق. بعد أن كانوا مشغولين بالمفاسد والصراعات والخصومات طوال اليوم، وكانوا يستولون على الأموال والمؤن، ولا يؤدون عملا يذكر. وأخيرا رأوا من الضرورى أن يشتغلوا بحرفهم عندما وجدوا أنفسهم معزولين. وهم الآن في الأسواق يصنعون الآلات والأسلحة على نفقتهم، ثم يبيعونها. ولهذا السبب فإن أنواع هذه الأسلحة موجودة في الأسواق على نحو أحسن وأفضل مما نصنعه نحن الآن. وما أحسن من أن تدفع أموال التعامل نقدا. وبناء على هذا نرى أنه بدلا من أن نعد نحن الأسلحة ونعطيها الجنود، نوزع عليهم المال كي يشتروا به الأسلحة الملائمة لاستعدادهم، وبأسعار رخيصة، ولا تتلف أبدا. فاستحسن سلطان الإسلام خلد ملكه هذا الرأى، وأمر بصنع عدة أنواع من الأسلحة يندر وجودها في الأسواق. أما باقى الأسلحة فتشترى بالمال نقدا.

هذه الحالات من المفاسد والنقائص التى ذكرناها كانت منتشرة بين الحرفيين الذين كانوا يصنعون السروج واللجم ومعدات الاصطبلات. وكذلك انتشرت بين الصناع الذين كانوا يصنعون آلات عديدة تتعلق بأصحاب المظلات والخزنة. وهؤلاء أيضا قد تداركهم السلطان وأصلح شأنهم على النحو المذكور.

بهذه الإصلاحات استقامت الآن كل تلك الأعمال، وصارت مرتبة. وكانت العادة قد جرت قبل هذا أنه إذا احتاج السلطان إلى القليل من الآلات أو أدوات أخرى تبلغ قيمتها خمسين دينارا أو مائة دينار، كانوا يوفدون رسولا لإنجاز هذه المهمة البسيطة. وما ينفقه هذا الرسول يربو على خمسة آلاف دينار لتوفير الدواب والعلف بالإضافة إلى مصروفاته الخاصة.

أما الآن فقد تقرر أن يشترى الخازن كل ما يلزم ثم يحضره، أو أن يدفع ثمنه نقدا ليشتريه شخص آخر، ويسلمه له. وبهذه الطريقة انقطع مجىء خمسمائة من أتباع الرسل والمحصلين كل سنة من الولايات، وبدلا من خمسمائة ألف دينار [ص٥٤٥] كانت تنفق مع مائة ألف من المشقات والاضطرابات والتخريب. والأمر الذى لا شك فيه أن ما يلزم لا يتكلف ما يزيد على خمسة آلاف دينار لإنجاز تلك المصالح.

بذلك زالت نهائيا تلك العادات والرسوم، واستمرت القوانين المستحسنة. وإن فوائد هذه الإصلاحات لتبدو فى أن هذه الطريقة سوف تنتهج من بعد، وتستمر سنوات عديدة. إن شاء الله العزيز.

الحكاية الرابعة والثلاثون

فى ترتيب شئون دواب الخاقان

قبل هذا كانت إبل الخاقان وأغنامه فى البلاد تحت إشراف العمال ولم يكن لها حساب وضبط. وكان ينبغى أن يحافظوا على كل ما سلم لهم بفضل ما توافر من أماكن جيدة وكثرة الحراس والرعاة المتفرغين لهذه المهمة. فكان من المتوقع أن تتكاثر، فيصبح كل منها أكثر من مائة. ولكن عندما تفحصوا الأمر وتحروا الحقيقة لم يجدوا واحدا من بينها، فانتحل المسئولون الأعذار مدعين أنها نفقت وهلكت بسبب البرد. فأمر سلطان الإسلام خلد ملكه بأن ينظروا فيما إذا كان يوجد لديهم عدد من إبل وأغنام الخاصة أم لا؟! فلما تفحصوا الأمر أفادوا بأن لديهم الكثير منها. فرد عليهم السلطان قائلا: إن دواب الخاقان كانت أضعاف دوابهم، فكيف هلكت كلها. هذا على حين أن دوابهم لم تهلك بفعل البرد وطاعون الماشية؟! وبهذا تحقق أنهم يكذبون، وأنهم سرقوها كلها ثم باعوها.

وبناء على هذا صدر المرسوم بإحصاء الدواب، ولكن لم يتيسر ذلك وترك العمال عملهم. ثم إنه بعد تلك التجربة أمر بأن تسلم الإبل والأغنام لأشخاص ثقات يعتمد عليهم. وحيث إنه تتوافر أماكن جيدة وعمال هم عبيد لنا ومتفرغون لهذه المهمة، اى عذر يمكن أن ينتحلوه بعد ذلك؟! وعلى هؤلاء المشرفين أن يتعهدوا مع العمال بتنفيذ الأصول لهذه المهمة، وإعطاء نتاج تلك الحيوانات عدة مرات كل سنة وذلك على النحو الذى يحقق المنفعة بعد أن كانت ضائعة. **[ص٥٤٦]** والآن يكون للعمال الفائدة والوفر فى الأموال. كما أن الأشخاص الذين ليس لهم مواطن خاصة، ولم يكونوا فى زمرة العبيد يفضلون على الآخرين، وتلبى طلباتهم بشروط أخف من غيرهم حتى لا يستطيعوا انتحال الأعذار. وعلى هذا النحو يتقرر إقناعهم. وسنة بعد سنة يزداد نتاج هذه الدواب ويكثر توالدها. هذا وقد عين السلطان الإبل التى يمكن استخدامها على حدة لنقل الأحمال. كما خصص مجموعات أخرى لنقل الخزائن والملابس وما تحتاج إليه المعسكرات، وعهد بالإشراف على ذلك إلى أشخاص ثقات. وكذلك الأمر فيما يتعلق بنقل محتويات أماكن الشراب ولوازم المنازل. وقد بلغ ضبط هذه الأعمال وترتيبها بحمد الله تعالى ومنه درجة لم يسبق لها مثيل

فى عهد أى سلطان من سلاطين المغول والمسلمين من حيث التنظيم والتنسيق. ولم يتوافر هذا المقدار من الإبل لنقل البضائع وتفريغها. وكثير من الإبل ترعى فى مراعيها دون الحاجة إليها فى حمل الأحمال. وهى دائما فى ازدياد يوما بعد يوم. كما أن تزويدها بالمعدات والآلات أصبح أمرا فى غاية الحسن والجودة.

إن شاء الله يكون تقديم العون إلى هذه الدولة دائما متواصلا.

الحكاية الخامسة والثلاثون

فى ترتيب شئون البازدارية وحراس الفهود

قبل هذا كان البازدارية وحراس الفهود يصطادون الحيوانات فى الولايات. وكان يعين لهم أين يذهبون فى كل عام، وفى أى موضع يصيدون ثم يحضرون هنا ما يصيدونه ويسلمونه لأمراء البازدارية وحراس الفهود. وكان مقررا لهؤلاء فى كل ولاية مبالغ من النقود يتسلمونها باسم العلف والمئونة والملابس. وكانوا يزيدون هذه المبالغ فى كل سنة عما قبلها عند تحصيلها من الرعايا الأكثر رواجا، وذلك بضرب العصا وفرض نفقات إضافية على العلف والمئونة، ويأخذون منهم تعهدات بسداد ما عليهم. هذا على حين أنهم يحضرون عددا ضئيلا من الحيوانات إلى محطات البريد. وفى الطريق حيثما كانوا يصلون إلى كل مدينة أو محطة للبريد أو قرية، يستولون على خيول كثيرة، فيركبون بعضها، ويحملون بعضها أمتعة خاصة بأتباعهم ومرافقيهم. [ص٥٤٧] كما كانوا يمنحون أصدقاءهم ومعارفهم، بل أيضا كل شخص مقرب إليهم من تلك الحيوانات التى يحضرونها. وبواسطة اثنين أو ثلاثة من الطيور المفترسة المدربة على الصيد أو ثلاثة من الفهود يصيدونها، كانوا يحصلون على نفقات كثيرة يحتاج الناس إليها فى الولاية. ثم يبددونها فى الطريق متذرعين بحجة الإنفاق على غذاء خيول البريد وتلك الحيوانات، ولا نهاية لما كانوا يستولون عليه لأنفسهم زورا وبهتانا من القرى وطرق عبور المارة والمسافرين. وكانوا يأخذون الأموال حسب إحصائهم هم للحيوانات. ولم يكن يحدد نوعها وعددها وما تقرر صيده منها. وعلى هذا لم يكونوا يحضرون كثيرا من الحيوانات والفهود. كذلك لم يحصوا عدد ما يملكون من حيوانات. وإذا ما اصطاد شخص ضال حيوانا فى صحراء بإحدى الولايات أو أنه اشتراه، وأراد بهذه الذريعة أن يحصل على مرسوم يثبت أنه يمتلك حيوانا، أو يدعى أنه شخصية متميزة فإنه بهذه الطريقة يجور على الناس، ويزيد فى اضطهادهم، ويحصل على مرتب وعلف ومئونة. وفى كل عام كان يجىء عدة أشخاص يحضرون اثنين أو ثلاثة من الحيوانات، ويأخذون مرسوما يثبت أنهم يمتلكون حيوانات، فتعين لهم المرتبات والمؤن والعلف ثم يعودون. فأى إنسان يوجد، ولا يختار هذه المهنة؟!

وهكذا كان هذا النظام يزداد سوءا سنة بعد أخرى. وكان كل واحد من هذه الجماعة يحمى مائة من الناس ويغضب ألفا. أما البازدارية وحراس الفهود وأمراؤهم الذين كانوا يلازمون المعسكر، ويمتلكون طيورا مفترسة مدربة على الصيد، فإن بعضهم كان يزود الحضرة السلطانية بالحيوانات دون حاجة إليها. وكان هؤلاء يكونون عدة من الأمراء ومجموعة من الرجال والأتباع ينضم إليهم بعض الطوائف من سياس الخيل والمكارين والحمالين والقرويين سكان القرى. وقد شد كل منهم عدة ريشات حول وسطه، وهم يضعون فى أحزمتهم دبوسا حديديا يضربون به رأس كل من يصادفهم عدة ضربات، ثم يتحدثون إليه ويخطفون عمامته أو قلنسوته. وكان بعضهم يقول: ليس هناك قانون (ياسا) يسمح بأن يخيط كل شخص ريش البوم على قلنسوته، ويتذرع بهذه الحجة، ويخطف القلنسوة. وكان بعضهم يفعل كل ما يريد دون انتحال أى عذر. **[ص٥٤٨]** وإذا مر أحد بجوار خيام أو منازل أصحاب حيوانات الصيد، فإنه يرى بعينيه ما يرى. أما إذا مر شخص من أفراد القافلة أو غيرهم بمأوى البزاة والبازدارية فى إحدى القرى، فإنه يتعرض لحالة لا تقل عن السلب والنهب. وفى كل قرية كانوا ينزلون بها، يستولون على الأغنام والطيور لطعامهم وطعام حيواناتهم كل على حدة. ناهيك عما كانوا يأخذونه من التبن والشعير لدوابهم.

وعند سيرهم إلى المصايف والمشاتى، كانوا لا يرضون بتلك الكمية، بل كانوا يكلفون رؤساء القرى الواقعة على معابر الطريق بتقديم الأغنام والدقيق والشعير، وما يحتاجون إليه فضلا عن المئونة والعلف. وكانوا ينقلونها على دواب الناس إلى مناطق إقامة هؤلاء السادة. وكانوا يحصلون على مبالغ من الأموال عن طريق اغتصابهم الدواب الكثيرة ثم بيعها. كذلك كانوا يطمعون فى الحمير من الفصائل الجيدة، ولا يعيدونها إلى أصحابها. وكانوا ينهبون أيضا كل من رأوه فى الطريق. وحتى يشتهر اسمهم ويرهبهم الناس كانوا يحلقون لحى بعض الرؤساء والعظماء فى الولاية لأى سبب تافه. وحيثما يوجد شخص فتان يتمتع بحمايتهم، كان له أن ينفذ كل عمل يريده سواء أكان سليما أم معوجا حتى ضرب الناس بالعصا بمؤازرة الحكام وذوى النفوذ من الرعايا. وإذا اتفق أن طالب بعض الشحن والحكام أتباعهم بشيء كانوا يكسرون ليلا جناح أحد طيور الصيد، ويدعون أن الرعاع هم الذين

جرحوا هذا الطائر. ويشهد الواحد منهم مع الآخر. ولا بد أن الملوك إذا ما سمعوا أن شخصا شاغب وكسر جناح طائر الصيد، فإنهم يغضبون، فيكون ذلك حجة وذريعة للشحن والنواب والحكام لأن يقولوا: لقد أقمنا خيمة قاصدين الصيد فى الموضع الفلانى. لكن الرعاع شرعوا فى الصيد فى ذلك المكان أو أنهم مروا من هناك؛ ففزعت الطيور. وهكذا انتهزوا هذه الفرصة فكان إذا مر شخص على تلك الخيمة، وكان بعيدا أو قريبا منها، يأخذون منه على الفور، ودون مناقشة حصانة وملابسه، أو يستولون على مبلغ من المال على سبيل الهدية؛ فكان المسكين يخلص نفسه من تلك الورطة بعد صراع طويل ومشقة بالغة. وتوجد حكايات كثيرة من هذا القبيل يطول شرحها.

فكر سلطان الإسلام خلد ملكه فى تدارك هذه الأمور، فقرر أولا [ص٥٤٩] أنه يكفى ألف حيوان من حيوانات الصيد وثلاثمائة من الفهود مما يحضرونه من الولايات. ثم أمر البازدارية وحراس الفهود بأن يعينوا الأشخاص الذين يرونهم لائقين للقيام بهذه المهمة فى الولايات وأن يكتبوا ذلك بالتفصيل، ولا يؤذن لأى بازدار آخر بممارسة الصيد فى الولايات. ثم حدد مبلغا من المال لما يأتون به من الحيوانات المدربة وغير المدربة؛ بحيث يكفى حاجتهم، ويدخل ضمن ذلك نفقات طعامهم أثناء إقامتهم ورحيلهم وما يلزم دوابهم.

شرح السلطان هذا كله بالتفصيل بطريقة لم يبق معها أى عذر. وقرر بعد ذلك مرتبا لكل من بعهدته ألف من حيوانات الصيد هذه، وثلاثمائة من الفهود. ثم أصدر مرسوما مختوما بالختم الذهبى، وأعطاه تعهدا نص فيه على ألا يؤخذ من أحد فى الطريق مئونة أو علف أو أى شىء آخر. ثم أرسل هذه الأحكام إلى كل الممالك حتى ينادوا بضرورة تنفيذها. وعندما حسبوا التكاليف، وجدوا أن هذا القدر – الذى قرر لهذه المجموعة من الحيوانات والفهود والمؤن والعلف، وكذلك طعام الدواب ويدخل فى ذلك أيضا ما يحتاجون إليه – قد بلغ كل هذا نصف ما كان يجرى عليه الحال من قبل، رغم أنهم لم يكونوا يحضرون ثلث هذه الحيوانات. وكان ما ينفق على الطعام يبلغ ما يزيد على ضعفين أو أكثر مما عليه الآن. وإذن فكيف يمكن حصر المخالفات وزيادة الأعباء التى كانت تقع على الرعية نتيجة هذا السلوك؟!

أما الآن فإنهم يحضرون كل سنة دون مشقة ألفا من حيوانات الصيد، وثلاثمائة من الفهود ويسلمونها. ولما ذاع فى البلاد أنه لا يحق لهؤلاء أن يطالبوا بشىء من الدواب والعلف والطعام سواء أكان هذا سرا أم علنا. وعلى الرعية ألا يعطوهم شيئا، ولا يستطيع أحد المطالبة بشىء من أمثال هذا، فالذى لا يباح له أخذ الزيادات أنى يمكنه أن يسد الطريق، ويمنع السير فيه لو أراد؟! وإذا طالب بشىء من الناس، فالأمر الذى لا شك فيه أنهم لن يعطوه. ومن الضرورى تسليم هذا المقدار المعين كل سنة، وإلا فسوف يضيفونه إلى ما تبقى عليهم ويسترد منهم. ونتيجة لهذا تعطل كثير من البازدارية والصيادين، ولم يعودوا يمارسون هذه المهنة. ومن تاريخ صدور هذا القرار لم ينتظم أحد مطلقا فى سلك البازدارية والصيادين، ولم يستطع هؤلاء أن يقدموا ملتمسا فى هذا الشأن؛ لأن هذا القرار قد شملهم جميعا. أما الذين كانوا فى حمايتهم، فقد دخلوا فى زمرة الأتباع. والأمر الذى لا شك فيه [ص٥٥٠] أنه إذا أراد شخص أن يبقى موقفه ثابتا، فإن عليه أن يفى بما عليه من التزامات مالية. وقطعا ليس هناك أى استبداد أو مشقة. وقد نسيت تلك الطائفة هذه الأساليب المعوجة، وصاروا من جملة العقلاء المنصفين من البشر.

أما عن تدارك حال البازدارية الملتزمين فقد أمر بأن ينص بالتفصيل على مرتباتهم وطعام الحيوانات التى فى عهدة كل منهم، وأن تدفع لرئيسهم مرتباتهم نقدا من الخزانة، وذلك سنة بسنة، وبالتمام والكمال. ولهذا السبب لم يبق لهم أى عذر أو حجة. وعندما يقسمهم ويسيرهم للصيد فى إحدى الجهات، فإنه يعين معهم عددا من البازدارية والطيور المفترسة المدربة على الصيد، ويأمر بإعطائهم خيولا خاصة كى يستخدموها فى حمل لوازمهم على أن يدربوها ويجربوها حتى لا تبقى متراخية منهكة وغير مدربة. ثم عليهم أن يحسبوا ما يستغرقونه من زمن فى الذهاب والإياب. كذلك قرر أن تكتب فى الخريف والشتاء الحوالات المختومة بالختم الذهبى والخاصة بالعلف والمؤن مما يهم تلك المواضع. ولما كانت الحيوانات بالإضافة إلى الطعام العادى تحتاج فى تدريبها على الصيد، وإبان مرضها – إلى الدجاج والحمام، فإنه قرر أيضا أن تهيأ لها بقدر الحاجة هذه الطيور بموجب حوالات، وأن توضع هذه الطيور فى الأقفاص. وكذلك تكتب الحوالات حيث تحمل هذه الحيوانات، موضحا بها العدد المقرر منها.

وحيث إن الأمور تجرى على هـذا النحـو، لم يبـق أى سـبب للانحـراف عـن الطريـق المستقيم. ولما كانت هذه الأحكام قد انتشرت وذاعت تنبئ بأن كل المبالغ من الأموال التى يحتاجون إليها قد عينت وقررت، وأنهم يعطون نقدا من الخزانة، أو أنهم يكتبـون حـوالات مختومة بالختم الذهبى. لما كان ذلك كذلك فإن هؤلاء الصيادين لا يستطيعون أيضا مطالبة أهالى المواضع المختلفة بشىء يزيد عن المقرر وإذا طالبوا بذلك فإن الناس لوقوفهم على الحقيقة، لا يعطونهم شيئا. وفى أول الأمر حدث مرة أو مرتين أن بعض أمراء الصيد طالبوا بالزيادة أثناء سيرهم فى إحدى الولايات على الرغم من أنه قد عينت لهم المؤن والعلف والشعير لإطعام الخيل. وكانت الحوالات قد كتبت لهم وختمت بالختم الذهبى، وأخذ عليهم تعهد بألا يتقاضوا شيئا. ومع هذا وصل خبر يفيد بأنهم تقاضوا ما يزيد عما هو مقرر لهم، فسير إليهم السلطان رسولا موثوقا به، ذهب إلى تلك الولاية التى وقعت بها المخالفة، وحقق معهم، وأثبت إدانتهم، وضرب كلا منهم بالعصا سبعا وسبعين مرة، فاعتبر الجميع، [ص٥٥١] وتركوا ذلك السلوك. والآن نادرا ما يحدث أن يسلك بازدار أو حارس للفهود سلوكا معوجا. ومع أنه لا يمكن أن يتحول الذئب إلى حمل، إلا أن ظلمهم الفادح قل كثيرا عن ذى قبل.

ولا شك أنه بفضل هذا العدل والوثوق التام سوف ينسى سكان العالم وفى أسرع وقت الظلم والتعدى إن شاء الله وحده.

الحكاية السادسة والثلاثون

فى ترتيب شئون كل الممالك

(الإصلاح الزراعى)

قبل هذا كان ولاة الأقاليم يصرحون دائما: إن أكثر الولايات قد صار خربا، والرعايا أصبحوا فقراء مستضعفين؛ بحيث لا يستطيعون أن يعتمدوا اعتمادا كليا فى زراعتهم على ثيرانهم وبذورهم. وقد بقيت كميات كبيره من المياه، ومساحات شاسعة من الأراضى مهملة، ولا يهتم أحد بمطالب الزراع، ولا يتدارك أمورهم. كما أن المقادير المحدودة من البذور التى حصلوا عليها من الديوان فى العهود السابقة قد استهلكوها كلها أيام الغلاء فكان هذا سببا فى الإضرار بالديوان والرعية.

فتدارك سلطان الإسلام خلد ملكه الأمر على هذا الوجه الذى يتلخص فى أن يؤخذ من كل حاكم وصاحب إقطاع مقدار معين من المحصول ثمنا للمعدات والبذور، وما تحتاج إليه الزراعة، وذلك من مجموع ما يجب عليه تقديمه للديوان، ويأخذ إيصالا بذلك حتى يباشر المسئولون العمل فى الولايات بموجب تلك العوامل، وحتى تزيد الرقعة الزراعية. وقرر أيضا أن يكون للمزارع بلا منازع النصف أو الثلث من الريع والإنتاج إذ إن الحاكم أو الوالى كليهما يمكنه أن يزرع الأماكن الأكثر صلاحية للزراعة. كما تتاح له فرصة أكبر للحصول على لوازم الزراعة والعمارة. ثم صرح السلطان قائلا: لكننا تلبية لرغبة الناس، ولكى يكون للحاكم موارد إضافية قررنا أن يسلم له المزارع ثلث أو ربع المحصول. وكل ما يزيد على ذلك، يصبح ملكا له. وقد دفعهم الحرص والطمع من أجل الحصول على كسب وفير إلى بذل الكثير من الجد والاجتهاد فى باب التعمير والتشييد. وعندما تتيسر الزراعة سنتين أو ثلاث سنوات، وتستقيم أمورهم عندئذ يعود ربع المحصول إلى الخزانة، [ص٥٥٢] وذلك على النحو المثبت فى تعهداتهم. كذلك راجت العملة النقدية.

ومن جملة الذين استغلوا النفوذ، كان هناك بعض الحكام ممن يسيرون على نهج الأقوام السابقين، ويتبعون بعض الأساليب الملتوية التى ورد ذكرها فى عدة مواضع. وقد اعتادوا

ذلك، ولم يكونوا يفكرون مطلقا فى وجوب تسديد أموال الديوان. وكانوا يعتبرونها ملكا خاصا لهم لا ينازعهم فيها أحد مطلقا. وفى أول سنة بددوا تلك الأموال. وفى النهاية عندما طولبوا بالسداد لم يبق هناك شىء قط لا من الريع ولا من الأصل. وقد انصرف تفكيرهم فى أنه إذا كان لزاما عليهم أن يسددوا شيئا ولو اسميا مما عليهم، فإنهم يعتبرونه من نفقات الثيران والبذور(1) [ص555](2).

والخلاصة أنهم كانوا ينتحلون الأعذار عن النقصان والخسران بسبب حدوث الآفات السماوية والأرضية. ولكن أكثر هذه الأعذار لم تكن تقبل منهم، وصودر كل ما كان يملك هؤلاء من أملاك ومتاع وبقيت طائفة منهم تحت الحراسة. وكان للبعض الآخر أدوات وبذور. وقد حققوا لأنفسهم ربحا وفائدة. وهذه الفئات لا زالت باقية وقائمة. وقد استراح بذلك كثير من الناس من الرعايا وغيرهم، وشغلوا بالعمارة والزراعة. وكانت تلك المواضع هى التى جرت العادة بإمدادها بالبذور. ولكن ذوى النفوذ كانوا قد أتلفوها بالحيل أو بسوء التدبير ثم باعوها.

وقبل هذا لم يحاول أحد تدارك هذا الخلل. لذلك أمر السلطان بأن تسلم البذور من جديد للزراع جميعا. ولهذا السبب زاد الدخل فى بغداد وشيراز عن خمسمائة ألف دينار على الأموال المقننة. ولقد أثمرت تلك البذور مرة أخرى. كما تحقق للرعايا أضعاف مضاعفة من تلك الفوائد، وقوى شأنهم، وظهر العمران فى كل مكان وعم الرخص. ولما كان السلطان يمنح الجند الإقطاعيات عمر كثير من المواضع بهذه الوسائل. وقد وقر فى ذهنهم أنه إذا لم تكن هذه الإقطاعيات موجودة، فإنه كان ينبغى منح ولايات عديدة وأملاك كثيرة وقد ظل باقيا كثير منها حتى الآن تحت تصرف الديوان، ويصل إليهم ريعها. (يقول المؤرخ رشيد الدين): إننى لم أر ولم أسمع مطلقا أن أحدا فى أى عهد، قام بمثل هذا التدبير الحسن، ولم تكن لديه الرغبة والتفكير فى إقامة مثل هذه العمارات، وفعل هذه الخيرات.

---

(1) حاشية مطولة تستغرق صفحات 552، 553، 554.

(2) الانتقال هنا من صفحة 552 إلى صفحة 555 بسبب الحاشية المطولة التى احتلت بقية صفحة 552 وصفحتى 553، 554. وهذه الحاشية تُرجمت ووضعت عقب ترجمة نص تاريخ غازان بأكمله.

وبخصوص الدواب والطيور التى أمر بتسليمها لكل شخص قرر أن تجرى أيضًا على هذه القاعدة، أى أنها تعادل ثلث الإنتاج، لتحقق لهم فائدة من ذلك وليوفروا لهم ثروة، وتكون الدواب والطيور ولكافة الناس فى حماية تلك الدواب والطيور الخاصة بالسلطان. وبذلك لا يستطيعون أن يمدوا أيديهم إليها مطلقًا، ولا يمكن لأحد أن يمنعهم من ممارسة حقوقهم فى المواطن والبقاع. ومع هذا كان للديوان أيضًا فائدة من هذا الوضع. وعندما تصل الرايات السلطانية إلى إحدى الولايات، ويلزم توفير بعض الدواب للبازدارية وغيرهم. قرر أيضًا أنه لا ينبغى أن تؤخذ الحمير والخيول من الرعايا. وكذلك الحال إذا ما دعا الأمر إلى توفير الطيور والحمام لإطعام الحيوانات أو لاستعمالها فى المطبخ فإنها تعد لازمة لخاصة الديوان. وكان حال هذه القضية مثل حال قضية الوسطاء، فرفضت بذلك عادة الاستيلاء [ص٥٥٦] على الحمير. وقبل هذا كان كل من أراد شيئًا، يستولى عليه دون حياء. وإذا كانت هناك ضرورة فإنهم يتداركون الأمر من الديوان عن طريق هؤلاء الوسطاء، ولا يمكن شرح ذلك، ويكفى أنهم كل سنة، كانوا يستولون على عدد من الحمير يغتصبونها من الرعايا والتجار وغيرهم. وكان الفلاحون دائمًا فى ذهول وحيرة خوفًا على دوابهم. وكان بعض الصيادين يأخذون الدواب نهائيًا ولا يردونها، ويتخلف بعضها فى الطريق ويهلك، فينتج عن ذلك انصراف الفلاحين عن الزراعة والفلاحة.

وحيث إن سلطان الإسلام منع البازدارية من الاستيلاء على الحمام والدجاج من الناس وأباح لهم أخذها من طيور الخاصة، أصدر قرارًا بوجوب تطبيق الأحكام والقوانين على الأمور الصغيرة. وبالضرورة تجرى هذه الأحكام أيضًا على الأعمال الكبيرة. ثم يقول: إننا إذا لم نستطع منع الصيادين من الاستيلاء على الحمام، فإنه يكون من المحال أن نقدر على منعهم من الاستيلاء على الأغنام. ويكون أكثر تعذرًا إذا ما حاولنا منعهم من الاستيلاء على الأبقار.

وعلى هذا النحو أصدر السلطان مرسومًا يقضى بألا يلقى الصيادون شباكهم بتاتًا حيثما يوجد الحمام. وفى الحقيقة للسلطان فى حق الناس الكثير من أمثال تلك التدابير الحسنة والشفقة الوفيرة. يبدو ذلك واضحًا فى اهتمامه بمنع شر الظالمين والقضاء على فساد المفسدين، وفى مراعاته مثل هذه النكات الدقيقة الصغيرة.

بكل هذا يتحقق ويتضح كمال حسن الأخلاق والسيرة الحسنة والعدل والإنصاف لهذا السلطان الراعى العدل أبقاه الله أبد الدهر ولا شك أن أهل العالم فيما بعد سوف يتعجبون من هذه الحالات.

فليستجب الله الدعاء الذى يطلقه كافة الخلق ليلا ونهارا بعز وإقبال دولة هذا السلطان.

الحكاية السابعة والثلاثون

فى ترتيب الشئون المتعلقة بتعمير الأراضى البور

لا يخفى على من تتبع التواريخ الصحيحة، وسلك الطريق المعقول، أنه لم تكن البلاد مطلقا أكثر خرابا مما كانت عليه خلال هذه السنوات خصوصا فى المواضع التى وصلت إليها جيوش المغول؛ [ص٥٥٧] إذ إنه منذ ابتداء ظهور آدم حتى قيام چنگيز خان وذريته لم يتيسر لأى ملك مثل هذه المملكة الفسيحة التى سخروها، وجعلوها تحت تصرفهم، ولم يقتل أحد فى العالم من الخلق مثلما قتل هؤلاء.

وإن ما قيل عن الإسكندر إنه قد استولى على بلاد كثيرة، فهو خبر غير صحيح؛ فقد كان يفتح البلاد، ثم يرحل عنها ولا يقيم فيها. وعندما يبلغ الناس ذيوع صيته، كانوا يسارعون إلى الخضوع له والدخول فى طاعته، وذلك لهيبته وصلابته. وكانت مدة عمره ستا وثلاثين سنة. وفى السنة الرابعة والعشرين من عمره استولى على ملك إيران، وقتل دارا[1]. بعد ذلك أخضع العالم مدة اثنتى عشرة سنة. وعند عودته توفى بالقرب من بابل. وقد استولى على بلاد كثيرة خلال فترة الاثنتى عشرة سنة، لكن لأنه كان دءوبا على السير دائما، ولا يتوقف، كان الناس يثورون عليه مرة أخرى بعد رحيله. وحيث إنه لم يكن له ابن وذرية لم يبق الملك فى أسرته، وآل الأمر من بعده إلى ملوك الطوائف كما سوف يأتى شرح تلك الحكايات فى تاريخه.

---

(١) هذه الرواية تتفق مع ما ذكره المسعودى إذ يقول: لما قتل الإسكندر بن فليبس "دارا بن دارا"، تغلب كل رئيس ناحية على ناحيته، وكاتبهم الإسكندر فمنهم فرس ونبيط وعرب. وكان مراد الإسكندر من ذلك تشتيت كلمتهم وتحزيبهم، وغلبة كل رئيس منهم على الصقع الذى هو به فينعدم نظام الملك والانقياد إلى ملك واحد يجمع كلمتهم ليرجع إليه الأمر (مروج الذهب، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ج١، ص٢٣٤، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م).

وأما الطبرى فيذكر أن الإسكندر حارب دارا وهزمه. فلما رأى ذلك رجلان من حرسه قتلاه لينالا الحظوة عند الإسكندر إلا أنه أمر بضرب رقابهما وصلبهما، وأن ينادى عليهما: هذا جزاء من اجترأ على ملكه، وغش أهل بلده .(تاريخ الرسل والملوك، الجزء الأول، تحقيق "محمد أبو الفضل إبراهيم"، الطبعة الرابعة، دار المعارف ص٥٧٤ ٥٧٧، القاهرة ١٩٧٩م).

أما وضع چنگيز خان فقد كان على نقيضه؛ إذ إنه فتح البلاد، وسخر العباد بتأن وحذر، فبقى جميعهم مطيعين ومنقادين له. ثم حافظ على هذا الملك أبناؤه وذريته وأخضعوه لمشيئتهم. وكما هو معروف استولوا على ثلاثين مملكة أخرى بالإضافة إلى ما كان قد استولى عليه چنگيز خان. وعندما استولوا على الولايات والمدن العظيمة ذات الطول والعرض، قتلوا كثيرا من الخلق، بحيث إنه لم يبق منهم أحد إلا نادرا. وهذه المدن من قبيل بلخ وشبورغان وطالقان ومرو وسرخس وهراة وتركستان والرى وهمذان وقم وأصفهان ومراغه وأرديل وبردع وگنجه وبغداد والموصل وإربيل، وأكثر الولايات التى ترتبط بهذه المواضع. أما بعض الولايات التى كانت تعتبر ثغورا، وصارت طريقا لعبور الجنود الكثيرين فقد قضى على أهلها قضاء مبرما، أو أنهم هربوا. وقد بقيت هذه الأماكن خرابا مثل ولايات ايغورستان والولايات الأخرى التى صارت حدا فاصلا بين الخاقان وقايدو. وكذلك بعض الولايات الواقعة بين دربند وشروان وبعض أقاليم أبلستان وديار بكر [ص٥٥٨] مثل حران وروحه وسروج والرقة، ومدن كثيرة على جانبى الفرات كلها صارت خربة وغير صالحة. وكذلك ما دمر من بلاد تقع بين الولايات الأخرى، ونتيجة للقتل والسفك مثل خرائب بغداد وآذربيجان وغيرهما فى تركستان وبلاد إيران والروم من المدن والقرى المخربة مما هو ماثل أمام الناس. وكل هذا يزيد عما يمكن حصره.

وصفوة القول أنهم إذا أرادوا القياس عن طريق النسبة فإنه لن يكون العمران فى الممالك واحدا من عشرة، والباقى كله خراب. ولم يكن أحد فى هذه العهود يفكر فى بند التعمير وهو أمر نادر إن شرع البعض فى تعمير أحد المواضع إرضاء لأهوائهم مثل هولاكو خان وآباقاخان وأرغون خان وگيخاتو خان، فإنهم عندما أرادوا تشييد عدة قصور فى ألاتاغ وأرمية وسقورلوق وسجاس وخوجان وزنجان وسراى المنصورية فى أران، وتعمير تلك الأماكن، أو أنهم ينشئون سوقا أو مدينة ويعمرونهما، أو يجرون فيها نهرا من الماء، فإنه نتيجة لهذا صارت ولايات كثيرة أكثر خرابا مما كانت عليه رغم ما أنفق عليها من أموال بغير حساب. كما نزح عن الولايات الأخرى رعايا كثيرون دفعة واحدة. وقد خرجوا منها مجبرين، ولم يعمروا واحد من تلك الأماكن. ولم يقف الأمر عند هذا الحد كما نشاهد. بل إنه إذا تمت تلك العمارة فإنه يظهر إلى جانبها ارتفاع نسبة الدمار الذى يلحق بالولايات.

ثم أراد الحق تعالى أن يكون إحياء الملك وتقوية دين الإسلام بواسطة الوجود المبارك لسلطان الإسلام غازان خان خلد الله ملكه وفى الأزل جعل الحق تعالى على يديه تحقيق الخير العميم وإنجاز العمل العظيم. وقد أعلى بحمد الله ومنه شئون الإسلام على النحو الذى أوردنا شرحه. وأما ما يتعلق بشئون العمارات والخيرات بصفة خاصة، فقد سجلناها على حدة على النحو الذى مر ذكره. وكذلك أخبار ضبط أمور المملكة ورعاية الرعية ونشر العدل والإنصاف حسب ما بيناه. ولا بد أن السبب الأكبر لعمران الولايات يمكن أن يكون نتيجة لتلك الأمور، كما أننا نعاين ونشاهد فى المدن التى صارت خربة أنه لم يكن فى كل عشرة منازل خمسة منها مسكونة. [ص٥٥٩] وهذه أيضا خربت رغم أنها كانت عامرة.

والآن بيمن عدل السلطان الشامل يشيد فى كل سنة، وفى كل مدينة ما يزيد على الألف منزل. فالدار التى كانت تقوم بمائة دينار، تساوى الآن ألف دينار وزيادة. ولقد شرحنا هذه الأمور فى الفصول السابقة.

وأما حال الأماكن الخربة فلم يكن أحد يميل إلى تعميرها، ولا تتوافر لشخص قط القدرة على التعمير من ماله الخاص بنسبة واحد من ألف من تلك الخرائب. فتدارك السلطان تلك الأوضاع برأيه الصائب وحسن تدبيره، فكان أن أحضر الأمراء والوزراء وأركان الدولة، وقال لهم: إن هذه الولايات الخربة والقرى القاحلة، والتى كانت ملكا لآبائنا هى الآن ملك لنا، ولها سمة أملاك الدولة والخاصة، وبعضها ملك للناس. ومنذ عهد هولاكو خان إلى الآن لم ينل أحد منها منا من الثمار أو دانقا من المال. ولو أراد أحد أن يعمرها بدون إذن، فإنها تنتزع منه بعد تحمل المشقات الكثيرة والنفقات الباهظة. وعلى هذا لا يقدم الناس على تعمير تلك الأماكن. وإذن فلم لا نعد خطة لتعمير هذه الخرائب؛ بحيث تصل حصة معينة إلى الديوان مما يخص أملاك الدولة والخاصة، وتخصص حصة للمالك مما يعتبر ملكية خاصة. وكذلك نعطى حصة للديوان وللأشخاص الذين يقومون بالتعمير بحيث تكون لهم عونا بصفة دائمة ومدخرا صالحا لأولادهم وأحفادهم، ويكون لهم فى ذلك كسب موفور، ويقبلون على عملهم بصورة أتم وأفضل.

وهم إذا ما وجدوا فى الزراعة فوائد كثيرة، فإنهم يتجنبون متاعب التجارة وتحمل مشقات السفر والمعاملات الأخرى، ويميلون دفعة واحدة إلى التعمير والزراعة، ذلك أن جمهور الناس يجرون وراء ما فيه نفعهم وكسبهم. فلو نفذت الخطة على هذا النحو فسوف تعمر أكثر الخرائب فى زمن قصير. وإنما يتيسر تعمير مثل هذه الخرائب بقوة جميع أهل العالم وتضافرهم. ومحال أن تعمر بغير هذا الطريق. وعندما تعمر تلك الأراضى البور ترخص الغلال، ويتيسر الحصول على المؤن الكثيرة عند مسير الجيوش للقيام بمهام ضرورية [ص٥٦٠] فى المناطق المتاخمة للثغور، وتتدفق الأموال أيضًا على الخزانة، ويعود من جديد التقدم والازدهار على أصحاب الأراضى والملاك، وينعم الرعايا بالاستقرار والرخاء ويحصل لنا الأجر والثواب كاملين، ويبقى ذكرنا الحسن مؤبدًا ومخلدًا. فتعجب جميع الحاضرين وظلوا متحيرين من هذه الأفكار الصائبة والكلام اللطيف. وبعد أن أجمعوا على الثناء والمدح، قالوا: إنه لم يفكر شخص آخر فى العالم فى طريقة خير من هذه الطريقة وفى تدبير أفيد من هذا التدبير. فأنت تُعمر ما خربه آباؤك. وإن الفرق بين هذه المرتبة وتلك لمعلوم ومحقق عقلاً وعرفًا وشرعًا. فأنت تحيى ما أماته الآخرون بصورة مطلقة. وإن هذا القدر من الكلام فيه الكفاية. فماذا نقول أزيد من هذا؟!

بعد ذلك أمر السلطان بكتابة الشروط والمراسيم. وبناء على هذا قرر أن ما كان قديم البوار من أملاك الدولة، وما لم يكن مزروعًا من القرى والمزارع وقت جلوسه المبارك، تعتبر جملتها من الأراضى البور، وأمر بأن تكتب الشروط وتختم بختم الدولة الذهبى، وتنص على أن كل شخص يرغب فى امتلاك تلك الأراضى وتعميرها عليه أن يراعى الأقسام الثلاثة الآتية:

القسم الأول:

ما كان موجودًا به الماء والنهر، ولا يستلزم زيادة فى النفقات والجهد، أو أنه يزرع بواسطة مياه الأمطار، وليس فى حاجة إلى القنوات والأنهار والسدود. هذه الأراضى عندما يشرعون فى تعميرها لا يعطون الديوان شيئًا قط فى السنة الأولى من زراعتها. أما فى السنة الثانية فيدفعون دانقين مما هو مقرر من الحقوق الديوانية على أن تحسب لهم أربعة دوانق جزاء سعيهم وكدهم. وأما فى السنة الثالثة فيدفعون أربعة دوانق ونصف من حقوق

الديوان كالمعتاد فى كل ولاية، وما يزيد ذلك فهو حق المزارع. وكذلك ما فيه من ربح يكون كله ملكا له. [ص٥٦١].

القسم الثانى:

ما يكون إعماره من النوع المتوسط، وإصلاح الأنهار، واستخراج الماء منها قليل التكاليف، وشروطه على نحو ما ذكر، إلا أن الزارع يسلم الديوان أربعة دوانق من الرسوم المقررة.

القسم الثالث:

ما يكون إعماره صعبا وعسيرا. وينبغى أن يقام سد على نهره وما تكون قناته خربة. وينبغى إعادة تعميرها. وذلك القسم أيضا تطبق عليه الشروط المذكورة. ولكن على الشخص الذى يصلح أرضا من ذلك النوع أن يسدد نصفا من حقوق الديوان، ويكون له النصف الباقى تقديرا لجهوده. وقد اشترط السلطان أن تؤدى حصة الرسوم هذه باسم الخراج.

وكل شخص يقوم بإصلاح تلك الأراض، تصير ملكا له، وتبقى له على الدوام، ثم تئول إلى أولاده من بعده. وإذا أراد أن يبيعها لشخص آخر، فإنه يجوز ذلك. وفى هذه الحالة يأخذ الديوان الخراج المقرر من المشترى. واشترط أن كل أرض بور لا تستمد ماءها من نهر خاص بأرض عامرة، ما دام المالك لتلك الأرض لا يريد أن يعطى غيره الماء، حتى لا يقع نزاع بهذا السبب.

بعد ذلك صرح السلطان قائلاً: لما كنا قد أبطلنا الحيازة والمقاسمة، فإنه ينبغى أن تقدر وتعين حصة الديوان أيضًا على الأراضى البور فى كل ولاية حسبما يحدد الخبراء، وتسدد باسم الخراج. ولا يكون للمغتصبين والظالمين سلطة الاستيلاء والمشاركة والإثقال على الرعايا. وبهذا يقضى نهائيًا على تلك المشقات. وحيث إن رقعة ممالك السلطان خلد ملكه عظيمة وممتدة وفسيحة، فكر فى أنه إذا كان على كل راغب يريد أن يأتى إلى المخيم كى يأخذ الوثيقة المبين بها الشروط، فإن كثيرين من هؤلاء الناس لا يقدمون على ذلك بسبب بعد المسافة وتحمل النفقات، وبعض منهم بسبب العجز وعدم القدرة على السفر، وبعضهم لا يعرف ما فى ذلك من فائدة فيحجم عن الذهاب. لكل هذا أمر

السلطان بتعيين واحد أو اثنين من كبار الشخصيات الثقات، وسلموهما وثائق الشروط وعيّن لهما السلطان نموذجًا وقاعدة يسيران عليهما، وأذن لهما فى أن يعطيا كل راغب نسخة من تلك الشروط على أن تكتب على ظهرها صورة مرسوم الوثيقة. وبذلك يكون ذلك الحكم مؤيدًا ومخلدًا ولا يكون لأى مخلوق اعتراض على ذلك حتى ينفذ ذلك العمل بسهولة فى كل ولاية.

وحيث إنهم باشروا الأعمال بموجب هذه التعليمات، توطدت هذه القاعدة، وسار هذا الأمر نحو الغاية المرسومة، **[ص٥٦٢]** وكانت له صفة الدوام والاستمرار. وقد سموا ذلك الديوان (ديوان التخليص). وحتى هذا الوقت أعطى نواب ذلك الديوان الناس كثيرا من سجلات الشروط، فتوافر العمران، وصار فى ازدياد يوما بعد يوم.

أما ما يخص أملاك الناس، فكل ما كان قريبا من العمران، قرر السلطان أن كل شخص يريد تعميره، عليه أن يتشاور مع صاحبه. وأما ما كان قديم البوار من الأراضى، فإنه يقدم على تعميره دون استشارة. وإذا ما ظهر مالك الأرض، وتحددت ملكيته لها تماما عن طريق الشرع والشهرة، فإنه يبت فى أمرها كما لو كانت عامرة. لكن مقدار ما يسدده من الرسوم، هو ما نص عليه فى القسم المختص بالديوان، وعليه أن يدفع للمالك نصف المبلغ المقرر، والنصف الآخر للديوان. وتلك الضوابط إنما تطبق على الولاية التى كانت قبل هذا وحتى الآن حكرا، وكان يدفع للديوان عشر ثمنها. أما الولاية التى كانت فى الأصل خالية من القيود، ولم يكن عليها رسوم وغير خاضعة لنظام الحكر، فإنها تسلم للمالك بأكملها. وليس للمالك أن يعترض لأنها تكون فى حكم من عمر الأراضى الديوانية، فهى باقية ومخلدة.

أما المواضع الخربة التى تقع فى مناطق المغول، وقاموا بتعميرها بأنفسهم، فإنه ينطبق عليها ما شرحناه فى القسمين: الخاص والديوان.

لكن السلطان أضاف قائلا: حيث إن المغول هم الغالبون لن يؤدوا قطعا حقوق الفلاحين فى الولايات، ولن يقوموا بتعمير هذه المواضع سواء جاءت فى عداد الأماكن الأخرى أم لم تأت، ولن يسمحوا لأى شخص من الفلاحين يطالبهم بأى حق من الحقوق بل إنهم سوف يعهدون بتعميرها إلى أسراهم وعبيدهم. وكذلك التازيك فإنهم لا يعمرونها

بواسطة الفلاحين الذين ورد ذكرهم فى موضع آخر. وإذا لم يأت الفلاحون المدونة أسماؤهم فى القائمة إلى موضع من المواضع، فإنه يجوز جمعهم. وطبقا لهذا القرار أصدر سجلات الشروط الموثقة. ونحن لم نذكر أكثرها مراعاة للاختصار، وهى مذكورة بأكملها فى قوائم الشروط [ص٥٦٣] والجميع مشغولون فى كل البلاد فى وقتنا هذا بتعمير الأراضى، والعمران فى ازدياد يوما بعد يوم. وبهذه الإصلاحات يشتد أزر كثير من الناس ويزدهر بذلك شأن (ديوان التخليص) ازدهارا كبيرا وتزداد محاصيل الأراضى كل عام. وعلى هذا سوف تقل الخرائب فى أسرع وقت.

كذلك أمر السلطان بأن تسجل فى السجلات كل الأراضى البور فى كل ولاية، ثم يؤتى بها إلى الديوان؛ حتى إذا سلمت للناس، يمكن عرضها كل عامين للتأكد من أنها قد عمرت بأكملها، أو أن بعضها قد بقى دون تعمير. وإذا ما موه أحد النواب، وحاول إفساد الأمور، وأخفى بعض الأراضى البور، واغتصبها لنفسه أو أنه شارك أحدا، ولم ينص فى السجلات على نصيب الديوان، فإنه يكتشف أمره نتيجة المراجعة وإعادة العرض.

ليوصل الحق تعالى ثواب هذه الخيرات إلى عهد السلطان المبارك بمنه وكرمه.

الحكاية الثامنة والثلاثون

صدور الفرمان بإقامة دور خاصة للرسل فى البلاد ومنع الشحن والحكام من النزول فى منازل الناس

قبل هذا كان ينزل دائما فى كل مدينة فى منازل الرعايا والملاك ما يزيد على مائة أو مائتين من الرسل. وكذلك الحال عندما كان يصل الوافدون من غير الرسل إلى إحدى المدن، فإن الشحن والحكام ينزلونهم فى بيوت الناس بدافع الصداقة والمعرفة. وإذا ما وصل الرسل، فإن مهمة الأدلاء أن يصحبوهم إلى بيوت الناس قائلين لأصحابها: إن هؤلاء الرسل ينزلون ضيوفا عندكم. وفى مقابل ذلك كانوا يأخذون شيئا. وفى ذلك اليوم يستعرضون ما لا يقل عن مائتى منزل. وعاقبة الأمر ينزلونهم فى منازل الأشخاص المتضايقين منهم كى يخشاهم الآخرون. وكانوا يأخذون للرسل من بيوت الناس السجاجيد وملابس النوم وأدوات المطبخ. وأكثر هذه الأدوات كان يستولى عليها إما الرسل وأتباعهم وإما الأدلاء بحجة أن الرسل قد استولوا عليها ولم يردوها. وإذا أعيد بعضها [ص٥٦٤] فأية قيمة لها بعد أن ظل الرسل يستعملونها مدة طويلة. وكان كل حاكم يذهب إلى إحدى الولايات يسلب ما لا يقل عن مائة منزل. وكل هؤلاء الرسل كانوا ينزلون فى منازل الملاك والرعايا. وقد علم مؤلف هذا الكتاب أنه عندما عزل تغاى بن يسودر من شحنة يزد، فإن أعوانه وقت مغادرتهم المدينة احتاطوا للأمر، واحتل أتباعهم سبعمائة وبضعا من المنازل. وبالضرورة كانت دائما أحسن المنازل تلك التى اتخذوها مقرا لنزول الرسل والشحن. وقد ترتب على هذا أن أحدا لم يكن يقدم على بناء منزل من المنازل. وهؤلاء الذين شيدوا بيوتا حولوها إلى مقابر، وأطلقوا عليها اسم أربطة أو مدارس. ولكن لم يجد هذا فتيلا. كذلك استغنى كثير من الناس عن استعمال أبواب منازلهم، واتخذوا لهم ممرات شائكة تحت الأرض حتى تكون سرا مجهولا. وكانوا أيضا يشقون الجدران، وينزلون منها. كما أن الرسل كانوا يسلمون دوابهم للأدلاء، وهؤلاء يرسلون أشخاصا لهدم أسوار حدائق الناس، ثم يسوقون إليها الدواب. وفى اليوم الذى يغادر فيه الرسول المنزل، كانوا يحلون آخر محله، وما ذلك إلا لأن الرسل كانوا دائما يصلون تباعا، ولا ينقطعون. وحيثما ينزل رسول فى إحدى

المحلات، كان السكان هناك يقعون فى عذاب ومشقة إذ إن غلمان هؤلاء الرسل وخدمهم يدخلون منازل الجيران عن طريق أسطحها، ويستولون على الأشياء التى يرونها، ويرشقون حمامهم وطيورهم بسهامهم. وكثيرا ما كانت هذه السهام تصيب أطفالهم. وكانوا يستولون على كل ما يجدونه من المأكولات والمشروبات وأصناف علف الدواب مما يمتلكه أى مخلوق. وبسبب ذلك يتعرض الناس للمتاعب والمشقات. ومهما كانوا يصرخون وينوحون، لم يصل صياحهم إلى أى من الأمراء والوزراء والحكام.

وذات يوم قدم إلى الديوان رجل هرم من الأعيان من ذوى الشرف والهمة، وشرع يقول: أيها الأمراء والوزراء والحكام: "هل تسيغون أن أكون رجلا هرما، ولى زوجة شابة وأولادى مسافرون. وقد ترك كل منهم زوجة شابة حسناء. كما أن لى بنات. وها هم الرسل قد نزلوا فى منزلى، وجميعهم شباب قوى نشيط [ص٥٦٥] يتصفون بجمال الوجه. وقد مضى عليهم زمن يقيمون عندى فيشاهدنهم أولئك النسوة، ولن يستطعن أن يقنعن بى وبأولادى المسافرين. وحيث إننا فى دار واحدة مع هؤلاء الرسل، لا أستطيع مراقبتهم ليلا ونهارا. وكما أرى فإن أغلب الناس معرضون لهذا الوضع. وحيث إن الأمور تجرى على هذا النمط، فإنه لعدة سنوات أخرى لن يوجد طفل شرعى فى هذه المدينة، وسيكونون جميعا أبناء أتراك مختلطين.

ولقد ذكرت عدة حكايات فى هذا الصدد على سبيل التمثيل، ففى عهد أحد سلاطين السلاجقة، كان السلطان مقيما على تخوم نيسابور وكان الأمراء والأتراك ينزلون فى دور الناس، ليس على هذه الشاكلة التى تحدث فى هذه الأيام. وذات يوم نزل تركى فى أحد المنازل، وكانت زوجة رب الأسرة عروسا جميلة وعفيفة، وفى أول عهدها بالزواج، فطمع فيها التركى، وأراد أن يتذرع بحجة لإخراج الزوج من الدار حتى يخلو له الجو، فعرف الرجل قصد التركى، ولم يغادر منزله. فأخذ التركى يضرب الرجل قائلا: "سر بجوادى وارو ظمأه. ولم يكن الزوج يستطيع أن يخلص زوجته، ولم تعد هناك حيلة يلجأ إليها. وأخيرا قال لزوجته: "أنا سوف أبقى فى المنزل. اذهبى أنت بالجواد إلى شاطئ النهر لتسقيه. وجريا على عادة العروس فى الأيام الأولى من حياتها الزوجية، كانت ترتدى ثيابا أنيقة، وازدانت أحسن زينة. وتصادف أن السلطان كان يمر، فوقع نظره على تلك المرأة، فاستدعاها وسألها

قائلا: كيف أنك أمرأة حديثة العرس، وتقودين الجواد كى تسقيه؟! أجابت المرأة: بسبب جورك وظلمك أنت أيها السلطان، فتعجب من قولها وسألها عن السبب، فأعادت عليه شرح قصتها. فأثر ذلك الكلام، وثارت غيرته بسبب تلك الحالة، وأمر على الفور بألا ينزل أى مخلوق منهم منزلا على الحدود هناك **[ص٥٦٦]**. ولهذا السبب أقاموا شاذياخ التابعة لنيسابور التى أصبحت مدينة فى هذا الزمان. كان ذلك الشيخ يتحدث عن تلك المحن وهو يبكى دون أن يؤثر ذلك فى الأمراء والوزراء قط.

وقصارى القول أنه عندما كان سلطان الإسلام يدبر شئون الممالك كان أول قرار له فيما يتعلق بموضوع الرسل هو أنه أمر بألا يرسل رسول واحد من كل مائة أو مائتين من الرسل والأتباع الذين كانوا من قبل يذهبون عبثا إلى الولايات إلا إذا كان إيفاده لتصريف مصالح الملك الضرورية، وأن يذهب لأداء هذه المهمة الرسل العداءون وسعاة البريد الذين لا يرون قرية ولا مدينة، ويكون توقفهم فقط لطعام يتناولونه على عجل، أو لركوب جواد آخر، أو لقضاء حاجة. وإذا دعت الضرورة إلى إيفاد أحد الرسل لتحصيل الأموال – وهذا نادرا ما يحدث فإنه أمر بتشييد دور خاصة لضيافة الرسل كى ينزلوا فيها فى المدن. وقد زودت هذه الدور بالفراش وملابس النوم، وكل ما يحتاج إليه. كذلك خصصت مبالغ من الأموال تنفق دائما على هذه الدور وتعميرها. وأصدر أيضا مرسوما يقضى بأن يقيم الحكام لأنفسهم ولأتباعهم منازل خاصة بهم، أو يستأجرونها.

وبحمد الله ومنه زالت تلك المتاعب، واستراح الناس، ونسوا ذلك العذاب وتلك المشقات، ولم يجرؤ أى وسيط على أن يطلب من أحد رغيفا واحدا من الخبز أو منا من التبن. وبهذا قضى قضاء مبرما على اسم الوسطاء. ونتيجة لهدوء البال ورفاهية الخاطر شيد الناس قصورا رائعة، وخططوا لها الإيوانات وشغلوا بالتعمير وإقامة الحدائق الغناء. وقطعا لم يجرؤ أى مخلوق على أن يدخل دابته فى حدائق الناس. والدار التى كان ثمنها قبل هذا مائة دينار، صارت تباع الآن بألف دينار. أما جمهور الغائبين من السكان الذين كانوا قد نزحوا عن أوطانهم منذ أكثر من خمسين سنة، وكانوا ينتقلون مشردين من مدينة إلى أخرى، فإنهم جميعا قد أخذوا يعودون بمحض إرادتهم إلى مدنهم وديارهم القديمة، [ص٥٦٧] وألسنتهم تلهج بالدعاء لدولة سلطان الإسلام بإخلاص تام من حميم قلوبهم.

فليستجب الله دعاءهم.

الحكاية التاسعة والثلاثون

فى منع المكارين والجمالين والسعاة من إيذاء الناس

قبل هذا كان كل رجل شريف أو سيد يريد الذهاب إلى السوق لتبادل المنافع أو للاستحمام، يلتف حوله عدد من المكارين قائلين له: "ينبغى أن تعطينا مالا كثيرا ننفقه اليوم على عشيقاتنا وسقاتنا ومطربينا وخبزنا ولحمنا وحوائجنا ولوازمنا الأخرى. فأنت عليك أن تدفع الثمن". فإذا لم يعطهم أو اعتذر لهم، بادروه بالسفاهة والوقاحة. وتكون عاقبة الأمر إما أن يأخذوا منه مالا، وإما أن يضربوه ضربا مبرحا. وكثيرا ما كان هذا الرجل المسكين لا يملك مالا، فيضطر إلى الاقتراض. وبذلك يخسر ماله وعرضه وكرامته، ولا يستطيع مغادرة السوق.

وكان هؤلاء الصعاليك يقفون على مفترق الطرق أفواجا أفواجا. ومن استطاع من الضحايا الخلاص من فوج، وقع فى يد فوج آخر. وكان الحال يجرى على هذا المنوال. فإذا ما وصل إلى طائفة الجمالين، وجد نفس السلوك، وكذلك الحال إذا ما وصل إلى فريق الرسل والسعاة، فإنه يجد منهم أسوأ مما وجده من الآخرين. وكثيرا ما تصادف أن شخصا واحدا يقع فى يوم ما فريسة لجميع هذه الطوائف؛ لأنهم احترفوا هذا العمل [ص٥٦٨] وكان هؤلاء يقفون مترصدين صيدهم. كما كانوا جميعا على صلة بالخواتين والأمراء الأنجال والأمراء. وإذا كان لأحد القدرة على مقاومتهم والتغلب عليهم فإنه لم يكن يرى من المصلحة منازعتهم ومجابهتهم؛ لأن هؤلاء الكبار كانوا يتضايقون ويفكرون فى إيجاد مناصب تتيح لهؤلاء المكارين والجمالين والسعاة ممارسة هذه الأساليب وهم قادرون على ذلك. وكانوا يزينون الدواب فى أيام الأعياد ومناسبات النوروز والحفلات وأمثال ذلك. ثم يذهبون فوجا فوجا إلى منازل العظماء. فإذا ظهر لهم رب البيت، فإنهم كانوا يأخذون منه بإلحاح كل ما يطلبون. وكانوا يتلفظون بألفاظ غاية فى الوقاحة والهذيان، ويكيلون له الشتائم والسباب حتى يحصلوا منه على مطالب أكثر. وبالضرورة كانوا يسلبون كرامة الناس كما يستولون على الأشياء التى تخصهم. وإذا لم يكن رب البيت حاضرا، أو أنه اختفى خوفا منهم، فإنهم يرهنون كل ما يجدونه بمبالغ كبيرة لدى السكارى المدمنين

أو أنهم يأخذونها بالإلحاح والإصرار. وفى بعض البلاد كان هناك رسل كثيرون وغلمان وضباط بحيث إنه فى الواقع وحقيقة الأمر كان كل واحد من الرعايا يقابله اثنان من هؤلاء.

وأنا عبد الدولة ومؤلف هذا الكتاب أذكر أنه فى سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م كان اللعين على خواجه بن عمر شاه السمرقندى حاكما على ولاية يزد، فذهب إلى قرية تدعى فيروزآباد من أكبر القرى هناك والتى بسبب ارتفاع أبنيتها وفخامتها يمكن الاستفادة منها واستغلالها. ورغم ما بذله هذا الحاكم من جهد خلال ثلاثة أيام كاملة لم يستطع أن يجد شخصا قط من الرؤساء. وقد رابط فى القرية سبعة عشر محصلا من محصلى الحوالات والسندات. وأخيرا اعتقلوا من الصحراء أحد الحراس واثنين من الرعايا، وأحضروهم إلى القرية مقيدين بالحبال، وصاروا يضربونهم كى يحضروا أشخاصا آخرين ليزودوهم بالأطعمة الكافية. وقطعا لم يتيسر لهم هذا.

كذلك كان ينبغى توفير العلف والمؤن والشراب والمعشوقات لجموع هؤلاء المحصلين وأتباعهم. وقياسا على هذه التصرفات كيف يمكن الوقوف على الأنواع الأخرى من المظالم التى كانت تقع على كاهل الرعايا؟!

كذلك ينبغى التفكير فى أن البدع العديدة والرسوم السيئة إذا تعود عليها الناس الأشرار على مر الأيام، فكيف يمكن تداركها فى زمن قصير؟! خصوصا أن المراسيم قد أرسلت إلى كل الأطراف فى كل مكان لاستمالة الرعايا ومنع بعض هذه المظالم عنهم. ولكن لم ينفذ هذا بأى وجه من الوجوه، ويئس الخلق جميعا من تنفيذ ذلك.

[ص٥٥٣] أما فى هذا الوقت الذى حل فيه العهد المبارك لسلطان الإسلام خلد الله سلطانه، وأدام عدله وإحسانه – فإنه يكون تفكيره المبارك منصبا على ما هو محض خير ومستهدفا العدل. فبذل كل همته كى يتدارك الخلل الذى تطرق إلى شئون المملكة، وعمل على أن يقضى قضاء مبرما على البدع والمفاسد، وسعى فى أن يكون الناس دائما فى راحة وطمأنينة. وفى هذا الصدد صرح قائلا: "إن فوائد محصول العمر الإنسانى فى الدنيا هى تحقيق هذه الأمور".

ولقد تعهد السلطان غازان خان بأن يبدى فى هذا الشأن سعيا جديا واجتهادا تاما فعمل على تدارك هذه العيوب فى البلد الذى يدفع الضرائب وقال فى هذا الشأن: إنه فى الوقت الذى عدل فيه عن اتباع نصوص الياسا وتطرق الخلل التام إليها، ينبغى المبادرة بإصلاح تلك الأوضاع، والبدء بمعالجة الأمور الصغيرة، حتى يعلم الخلق أنه ما دامت المؤاخذة والمساءلة تجرى على الأمور الصغيرة وتوقع العقوبة على المقصرين، تكون هذه العقوبة بالضرورة أضعاف ذلك فى الأمور الكبيرة، فيكفون أيديهم عن ذلك مرغمين. وكان يقول أيضا: "حيث إن الإحاطة بكل عمل تقتضى الوقوف على أصله ومكوناته، تصير كل جزئياته داخلة فيه. ولو يشغل الناس بإصلاح جزئياته واحدة فواحدة، فيصلحون واحدة ثم يصلحون الأخرى، فإنه يختل مرة أخرى، ولا يمكن ضبطه. كذلك صرح قائلا: إن القوم الذين تعودوا هذا الأسلوب مدة طويلة، وصار مألوفا عندهم لن يستطاع منعهم من ذلك الأمر مرة واحدة، ويكون إقلاعهم عنه أمرا صعبا للغاية. كذلك الولاة والحكام قد أصموا آذانهم فى هذه السنوات، ولم يحاولوا الإصلاح، بل شقوا على الرعايا، فراحوا يزيدون عليهم الأعباء ويأخذون منهم الضرائب، ولا يعطون الديوان شيئا. ثم يحاكمون هؤلاء الرعايا المساكين كل سنة، فيضطر هؤلاء إلى تقديم الرشاوى للخلاص منهم، ويسردون عدة حكايات عن كل ما يحدث لهم. وإذا قتل منهم أيضا عدة أشخاص، فإن الآخرين يتصورون أن المسألة حدثت بمحض الصدفة، وأن الشخص الفلانى لم يهتم بهم. وإلا إذا كان هناك حرص على المال والمحافظة عليه، فإنه كان ينبغى أن تطبق هذه القاعدة على الطوائف الأخرى.

وقصارى القول أننا إذا عاقبنا بعضا من هذه الجماعة، فإن ذلك لن يكون ممكنا؛ إذ إن الآخرين يسلكون نفس السلوك، ولن يكفوا أيديهم عن الظلم والتعدى. وهكذا يبقى الرعايا فى عذاب، ولن يصل مال قط إلى الخزانة. وإذن فالمصلحة تقضى بأن نفكر فى طريقة نكف بها أيدى حكام الولايات نهائيا عن التصرف فى الأموال وتبديدها، وحتى لا يجدوا قطعا أى سبب يفتح طريق الاعتداء؛ فيكون مثلهم مثل الثعلب الذى قال: "سوف أستطيع الخلاص من الكلب بألف حيلة. ولكن من المستحسن ألا أراه أنا وهو لا يرانى". وإذن فالأفضل فى هذه القضية أيضا ألا يستطيع الولاة أن يكتبوا حوالة حتى ولو بدانق واحد. ثم أمر بأن يسير إلى كل بلد كاتب جلد يكتب بالتفصيل كل ما يضمه ذلك البلد

من قرى واحدة فواحدة. وبموجب الحصر السابق تحدد الضرائب عليهم، ولا تكون خاضعه للخصم والتجزئة. وهكذا يعمل على أن يكون الرعايا مرفهين مطمئنين. كذلك أمر بأن تفحص كل أملاك الخاصة والأوقاف والملاك الذين احتفظوا بملكيتهم مدة ثلاثين سنة بلا منازع، وأن تكتب موضحة بأسماء المحصلين. ثم يثبت ذلك فى سجلات القانون حتى إذا فقدت أيضا حجة لأحد الأشخاص؛ أو أن شخصا يريد أن يستولى عليها، فإنه يرجع إلى هذا السجل، ويتم التصرف بموجب القانون المثبت فى السجل. وبذلك لا يبقى مجال للتلبيس والتعدى.

وعلى هذا سار الكتاب إلى البلاد حسب تلك الأوامر. وعلى الرغم من أن الناس الثقات المستقيمين قليلو الوجود، فإنهم سعوا بقدر الإمكان فى تسجيل قوانين البلد فى سجلات خاصة ثم إحضارها إلينا.

بعد ذلك أمر بألا يكتب على الإطلاق أى ملك أو وال أو كاتب حوالة أو سندا على ورقة من الأوراق. **[ص٥٥٤]**. وإذا حررت حوالة فإنه يعدم الحاكم الذى أعطى التصريح. كما تقطع يد الكاتب الذى كتبها حتى يراه الكتاب الآخرون فيتعظون ويعتبرون. ثم عين لكل بلد كاتبا يلازم الديوان الكبير، وعليه أن يكتب فى أوائل كل عام المبالغ التى دخلت ذلك البلد، وذلك بمقتضى القانون، ويكتب ذلك بالتحديد والتفصيل فى كل قرية، ويؤشر على هذا السجل نواب الديوان الكبير، ثم يوثق بختم الدولة الذهبى ويرسل إلى البلد حتى يسلم الرعايا ما عليهم على قسطين مع نصف العشر ورسم الخزانة وذلك عن طريق المحصل الذى يعين فى كل بلد. وهذا المحصل يعطى أصحاب الولايات بعضا من المال نقدا بمقتضى الحوالة المختومة بالختم الذهبى، ثم يرسل الباقى إلى الخزانة العامرة، ويسلم الخزنة هذه المبالغ بالإضافة إلى الرسم المقرر. وإذا حصل – أحيانا – أحد المحصلين أو الرؤساء مبلغا أكبر فإن عليه أن يسلم الخزنة نصف دينار كرسم للخزانة عن كل مائة دينار وعشرة دوانق، وإلا فإن على المحصلين أن يحضروا المبالغ التى حصلوها ويودعوها مع رسم الخزانة لدى الخزنة.

وأمر كذلك بأنه عندما يحصل مبلغ نقدى من الرعايا فى البلاد، لن يسمح مطلقا بأى وجه من الوجوه أن يسلموا الخزانة شيئا من البضائع العينية ولو بقدر دينار واحد. وإلا فإن

على الشخص الذى يحضر بضائع عينية أن يحملها إلى السوق ويبيعها، ثم يودع فى الخزانة مالا نقديا. ويراعى أن تدفع المبالغ نقدا للمرتبات والمعدات والنفقات التى يجرى العمل بها فى كل مكان، ولا يقصر المسئولون فى دانق واحد حتى يزيد الخلق جميعا من دعائهم للدولة طالت أيامها.

وبواسطة الحوالات المفصلة والمختومة بالختم الذهبى، والتى تحمل من هنا إلى البلاد صار جميع الرعايا فى الأماكن المختلفة مطلعين على المبالغ المقررة عليهم، وهم يعرفون جيدا أنه لا ينبغى أن يدفعوا دانقا واحدا زيادة عن المطلوب. وأيضا لديهم رسالة رجال القانون الموضح بها المبالغ التى عليهم وكيفية سدادها.

ولما نفذ هذا القرار المسجل، ظن ملك رود آور من أعمال همذان أنه من قبيل الأحكام السابقة التى صدرت ولم تنفذ، فصرح لأحد الكتاب بأن يكتب – مع إيقاف التنفيذ – عدة حوالات على إحدى الولايات فصدر الحكم بقتله، وبقطع يد الكاتب الذى حرر الحوالات. فلما علم الكاتب بذلك القرار لاذ بالفرار. وبعد ثلاث سنوات توفى فى الموضع الذى هرب إليه. كذلك قبض بعد مدة على أحد الكتاب فى نهاوند وقطعت يده. وفى همذان كتب أحد البقالين من الأثرياء حوالة على شريكه بمنين من السماق[1]، فقبض عليه، وصدر الفرمان بقتله. وبمزيد من الشفاعة، خففت عنه عقوبة الإعدام، وضرب مائة وعشرين عصا، ودفع ألف دينار غرامة جزاء جرمه.

وقريبا من هذا الوقت، كانوا يجلبون للحضرة فيلة من الهند. فلما وصلوا إلى همذان حل الشتاء، ولم يكن يوجد علف، فقال الحكام هناك: ينبغى أن نحصل على العلف من الحدائق. فلما بلغ هذا الكلام السمع الأشرف للسلطان، قال: إننا دائما نحتاط للأمر، ونعد فى حسابنا ما يلزم من العلف والمؤن للفيلة، فكيف تؤخذ من حدائق الناس؟! ولكننا نتجاوز هذه المرة. أما إذا أقدم المسئولون بعد ذلك على مثل هذا التصرف فسوف نعاقبهم.

وصفوة القول أنه خلال هذه السنوات لم يكن هناك مجال ولن يكون لأى مخلوق أن يكتب فى حوالة ثمن من واحد من التبن. وبهذا سد نهائيا طريق تحرير الحوالات. وقد علم

---

(١) حب يوضع فى بعض الأطعمة ليكسبها حموضة.

فى العام الماضى أنه لما لم يكن فى مقدور الحكام أن يزيدوا شيئا على المبلغ المقرر، صار الرؤساء وعمد القرى يلتزمون بسداد الزيادة، ويقسمونها فيما بينهم.

وهكذا عندما يعلم كل واحد من الرعايا المبلغ المقرر عليه، لا يعطى شيئا زيادة عن المطلوب. كذلك لا يستطيعون مطالبة الغرباء والأشخاص الآخرين الذين لم ترد أسماؤهم فى الكشوف.

النصوص الإضافية

(النص الأول)

حكاية مسير الأمير نوروز إلى تركستان لدى قيدوخان

[ص٥٧٧] عبر نوروز مع نفر ضئيل من المطرودين نـهر جيحون عن طريق بدخشان وصمم على المسير إلى الأمير قايدو[1] بن قاشين بن اوكتاى قاآن وقال لنفسه: "إن الراجل لا يصير خبيرا ومجربا ما لم يسافر ويرحل". وعندما وصل نوروز إلى حضرة الأمير قايدو أظهر له الصدق والطاعة والإخلاص. ولما سأله قايدو عن سبب جلائه عن وطنه المألوف وترك مسكنه المعروف وعن الباعث على قدومه ووصوله إلى هنا، أجاب قائلا: "إن أمنيتي ورغبتى ودعائى إلى الله أنا العبد المخلص والمحب دون إكراه هى أن أتشرف وأسعد بمشاهدة صاحب البلاط الملكي وطلعة غرته الميمونة. وحمدا لله ومنه فإن آثار الرفعة وعلو الشأن وأخبار رعاية الرعية وآيات السياسة والكياسة وذكر العظمة وصيت الملك لهذا البلاط العالى القدر قد طبق الآفاق". ثم شرح أحواله دون تردد ودهشة وخشية، وختم كلامه قائلا: "إن علام الغيوب مطلع وعليم بأننى برئ من الذنب والخيانة اللذين اتهمت بهما أكثر من براءة الذئب من دم يوسف. كما أننى أطهر من صفاء السماء.

(بيت من الشعر الفارسى ترجمته:)

لم يجر على لسانى ولم يمر بخاطرى

ولم تكن قط هـذه نيتى أنا العبد

---

(١) يكتب أيضا قيدوخان، وهو ابن قاشى بن اوكتاى قاآن. ربى فى معسكر چنگيز خان، وبعد وفاة جده اوكتاى لازم منگو قاآن وبعده كان يلازم أريق بوكا، وسعى فى إجلاسه على عرش الخانية. فلما خضع أريق بوكا لأخيه قوبيلاى قاآن وأطاع أمره، استشعر قايدو خوفا من قوبيلاى، فثار عليه، وطغى وبغى، وارتكب عدة مخالفات. وقد عمر دهرا طويلا إلى أن توفى متأثرا بجراحه فى إحدى المعارك التى خاضها ضد تيمور قاآن حفيد قوبيلاى قاآن (انظر جامع التواريخ: تاريخ خلفاء چنگيز خان من اوكتاى قاآن إلى تيمور قاآن، الترجمة العربية، ص٣٢١ ـ ٣٢٢؛ رحلات ماركوبولو، ترجمها إلى الإنجليزية ونشرها وليم مارسدن، وترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، ص ٣٥١، ٣٥٢، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧م).

عندئذ قال قايدو: "إذن ما سبب الانهزام والفرار والاضطراب؟! " أجاب نوروز: حقـا! إنها مثل أسطورة الثعلب الذى كان يفر هاربا مسرعا. فسأله ابن آوى عن سبب انهزامه. فأجاب الثعلب: إن الملك قد يكون غبيا ساذجا كالحمار. فقال ابن آوى: حيث إنك لست حمارا فلماذا تهرب؟ قال: يا صاحبى إلى أن يثبت أننى لست حمارا، لا بد أن يصيبنى كثير من الجراح المؤلمة القاسية. [ص٥٧٨] فأعجب قايدو بهذه القصة إعجابا شديدا، وشمله برعايته التامة وأجلسه إلى جانبه، وقدم له كل ما يلزم للإقامة والتكريم.

وهكذا ظل نوروز حائرا مدة ثلاثة أعوام متتالية فى إقليم تركستان كالحمار فى الوحل والحرباء فى الماء. وكان يرجئ أيامه التى لا نهاية لها. ولما كان مجبولاً على العناد والكبرياء، لم يكن ينسجم فى غربته ووحشته وكربته مع أمراء قايدو وخواصه جريًا على قاعدة الغرباء والضيوف. والسبب فى ذلك أن نوروز عاش ثلاثين سنة كاملة وسط ممالك إيران، وقلّب ديار خراسان فى هناء ونعيم وحرمة وتعظيم فى دولة خانات المغول. وكان الطى والنشر والقبض والبسط والحل والعقد فى الإقليمين الثالث والرابع فى قبضة والده أرغون آقا[1]. وكان قد ترك له الشيء الكثير من المتاع والأملاك والعقود والنقود والحواشى والمواشى التى لا حصر لها.

لكل هذا رغم زوال الحرمة والحشمة وضياع الأملاك والأسباب والجلاء عن الأهل والديار، لم يعد يحتمل صولة أمراء قايدو وسطوتهم. وهم أيضًا لم يكونوا يسلكون معه طريق العزة والحرمة، وجادة الوفاق والرفاق. ورغم وجود كل هذا لم يحط أحد من قدره، بل ظل يعيش موقرًا ومعظمًا حتى مل طول الإقامة وسأمة البقاء؛ فاستأذن فى العودة.

---

(١) هو من قبيلة أويرات وأبوه تايجو الذى كان أميرًا لألف جندى وتعد قبيلة أويرات من أشهر قبائل المغول. تولى أرغون حكم إيران من قبل خاقانات المغول قبل مجيء هولاكو خان، فقام بمهمته خير قيام، وألحق بخدمته موظفين أكفاء كان منهم المؤرخ عطا ملك الجوينى. قام أرغون بعدة إصلاحات، وخفف الضرائب عن كاهل الرعايا وشعروا فى عهده بالأمن والأمان. وأثناء قيامه بمهام عمله تعرض لحملات مغرضة من قبل الحاقدين الحاسدين الطامعين فى منصبه، ولكنه كان يلزمهم الحجة وينتصر عليهم. وهكذا استمر يؤدى واجبه إلى أن قدم هولاكو بحملته على إيران فاستقبله أروع استقبال، وأقام له سرادقًا فخمًا منسوجًا بخيوط الذهب وصار واحدًا من أخلص أتباعه. تحدث عن أرغون آقا المؤرخ عطا ملك الجوينى فى صفحات عديدة ومتفرقة من كتابه تاريخ جهانگشاى (انظر ترجمة الدكتور محمد التونجى لهذا الكتاب، المجلد الثانى، حلب ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م).

وبعد أن شمله قايدو بعطفه ورعايته، سيّر لمساعدته ثلاثين ألف فارس مع الأميرين النجلين أبوكان وأركتيمور والأميرين يساور وكوپك وغيرهم، وذلك بقصد الذهاب إلى ديار خراسان وقمع أعداء نوروز. ثم أوعز أيضًا إلى الجيوش التى تقيم فى منطقة نهر جيحون بتقديم المساعدة له. كذلك أرسل مع نوروز جنودًا بقيادة ابنه ساربان وكانوا يمضون الشتاء والصيف على ضفاف نهر جيحون، وفى بادغيس وشبورغان بعد ذلك سار نوروز فى الطليعة.

إسلام غازان وكيف تمّ ذلك

[ص٦٠٤] كان غازان المبارك النظر، الميمون المقدم يتشاور مع الأمراء فى تدبير القضاء على الأعداء وقهرهم وقمعهم، وبأية وسيلة يمكن ذلك حتى يصير الخصم قرينًا للبوار ومقضيًا عليه بالفناء. وكان كل أمير يدلى بدلوه فى هذا الشأن بقدر وسعه وطاعته. وبحكم أن الأمير نوروز سبق أن قدّم هدية لغازان – إجلالاً وتعظيمًا – عرض على رأى السلطان ملجأ العالم قائلاً:

(شعر فارسى، ترجمته)

هكذا قال: أيها الملك السعيد المقدم

بعدلك يصير الجو ربيعًا فى شهر "ردى"[1]

فلتبق دائمًا موفقًا فى العالم

وليكن هذا العالم مثلى عبدًا مطيعًا لك

لقد أثر عن علماء الإسلام والمنجمين وأرباب التقويم أنه سوف يظهر خلال سنة ستمائة وتسعين هجرية (١٢٩١م) سلطان عظيم يكون ظهيرًا للدين الإسلامى، فيصير الإسلام – بفضل رعايته وعنايته – ناضرًا مزدهرًا بعد أن كان مندرسًا. وبسبب عدل هذا السلطان فى ملكه تصير الشاه آمنة ومستريحة من بطش الذئب، ويتخلص الغزال من جور الفهد. ولشمول إنصافه تسلم الصعوة[2] الضعيفة من صلابة الصقر، وينجو (القبج)[3] من شوكته ومهابته ويظل التاج وعرش الملك لسنوات عديدة فى مكانهما اللائق بهما. وأحيانًا كان يجول بخاطر العبد أن يكون ذلك العاهل هو غازان خان إذ أن أمارات هذه العلامات ومخائل هذه الشمائل تبدو فى صورة الحال وصفحة آثار الجبين المبين للأمير النجل المانح الدر.

---

(١) دِىْ: الشهر العاشر فى السنة الإيرانية. فيه يشتد البرد، وهو يقابل شهر ديسمبر وأيامًا من شهر يناير فى السنة الميلادية.

(٢) الصحوة والصعوة واحد، وهو طائر صغير أحمر الرأس.

(٣) (القبج) الحجل، معرب كبك (انظر كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، تأليف السّيد ادّى شير، ص١٢٣، بيروت ١٩٠٨).

وإنه لظاهر وواضح أنه لو تقلد الأمير النجل قلادة الإسلام، والتزم عقائد الإيمان وطرائقه، فلا بد وأن يكون ممثلاً لأولى الأمر فى عهده فيمنح رعاياه المسلمين – الذين ظلوا قابعين فى حضيض المذلة وهبوط الوبال – نشو الإيمان ونماء الرعاية؛ حتى يتيسر لهم بعد ذلك نصر الموالى وقهر الأعداء عن طريق نشر الدين وبسط العدل بعد بذل الطاعة التى لا مفر منها، والتى تكون فى الأعماق فرض عين، بل عين فرض. ويصير جميع المسلمين مريدين ومحبين. وبسبب صدقه وإخلاص همته وتوجه القلوب إليه [ص٦٠٥] ينصره الحق سبحانه وتعالى. وإن الدين الإسلامى الذى اندرس وانطوى بسبب تغلب كفار التتار واستيلاء الظالمين والفاسقين ليحيا بيمن تقوية الأمير النجل.

وحيث إن الحق سبحانه وتعالى كان قد زين وأنار فى الأزل قلب الأمير النجل بنور التوحيد، وصارت ذاته الشريفة مخزن أسرار القدس وحاملة المعرفة، وطلع عليه صبح السعادة الأبدية، ورفع عن بصيرته غشاوة العيوب والريب – أثر فى قلبه المبارك كلام نوروز المعقول، وتفتحت زهرة قلبه لحديثه، وظهرت "يد موسى البيضاء من جيب الغيب"، وأزال عن عينه وأذنه حجاب الظلمة وغطاء الغفلة، واختار النور بدلاً من الظلمة، فقال: إن حديث هذا الداعية وشعشعة هذا الباحث كانا نصب عينى وضميرى إذ كيف يقتضى العقل أن يسجد رجل عاقل لجماد مصنوع موضوع على الأرض ولا يتوسل إليه مباشرة، بل يستمد الهمة من شخص آخر يرمز إليه بهذا الصنم. وإن الخضوع أمام جماد وشروط لثمه ومراسم تقبيله لأمر مستنكف.

وإذن فعبادة الأصنام والسجود للأوثان كلاهما أمر فى غاية الضلالة والجهالة ومادة للاحتقار والاستهزاء. وإن الدين الإسلامى هو زبدة جملة الأديان وخلاصة النواميس الإلهية؛ لكن العلائق والعوائق المتواترة والمتوالية كانت حائلة دون هداية نور الإيمان. وحيثما يوجد الماء قريبًا لا تدعو الحاجة إلى حبل طويل.

وهكذا صار اقتراح نوروز مسموعًا ومقبولاً. ثم طلب إحضار قطعة اللعل التى كان قد أودعها خزائنه. وفى اليوم الرابع من شعبان سنة أربع وتسعين وستمائة (١٢٩٤م)، فى جوسق كان يوجد فيه عرش أرغون "بمرغزار لار دوماند" أعدوا حفلاً كبيرًا. ثم اغتسل الأمير النجل وفق الشريعة الإسلامية، ولبس ملابس نظيفة. بعد ذلك صعد فوق قصر مرتفع

ووقف على درجة العرش، مظهرًا الخضوع لحضرة المربى. ثم لقنه كلمة الشهادة الشيخ "صدر الدين إبراهيم" خلف صدق الشيخ صدر الدين حمويه - رحمه الله -.

وهكذا أخذ غازان بعزم صادق ينظم من صميم قلبه الصادق كلمة الإخلاص. وقد ردد عدة مرات كلمة التوحيد بلفظ التكبير.

(بيت من الشعر الفارسى ترجمته)

رفع ذلك الأمير النجل إصبعه

فذكّره بوحدانية الله

وقد أسلم معه جميع الأمراء والجنود، وعددهم يقرب من "مائة ألف"[1] مشرك متمرد. ورغم أن اللامات (بخشيان) قد علموه أيام الصبا وزمان الطفولة عبادة الأصنام وتقديس الأوثان، وكان ثابتا وراسخًا فى هذه العقيدة فإنه عندما دخل فى الدين الإسلامى، أصغى بأذن العقل وسمع الرضا إلى أمة الإسلام والدين الحنيف، فاستقر فى سكينة صدره. وكان فى الإخلاص [ص٦٠٦] أصدق من أويس وسلمان، وصار الجمع مشغولين بهذه الأفراح والمسرات الكثيرة وإقامة الحفلات والمآدب. وكان كل الأمم من الترك والعجم ينثرون على عرشه المبارك الدراهم والدنانير ونفائس الجواهر ورغائب النفائس. وكانو ينشدون.

(شعر فارسى ترجمته)

ليظل باقيا باقيًا فى ملكك على الاستقرار والدوام...

المال والحال والزمن والفأل والأصل والنسل والحظ والعرش

وليبق المال الوافر والحال الحسن والفأل السعيد والسنة المباركة

وليدم للأصل - ثلاثين نسلاً - الحظ الباسم والعرش المطاع

ثم وقف الأمراء والقواد (نوينان) والأئمة والمشايخ. واقتداء بسلطان الإسلام، وباعتقاد صادق مبرأ من شوائب الكدر ومصفى من الرياء، دخلت - فى دين الإسلام أفواجًا - طوائف التتار من الأطراف والنواحى والبوادى والضواحى؛ من الكافر والكافرة ابتداء من سن السابعة إلى سن السبعين، وذلك بدافع الرغبة ومحض الاختيار، وشرفوا بتشريف هداية

---

(١) يذكر المؤرخ عبد الله الشيرازى الملقب بوصاف الحضرة فى كتابه "تاريخ وصاف" ص٣١٧ طبع بمباى أن من أسلم من المغول يزيد على مائتى ألف مشرك.

نور الإيمان، ليظل توالدهم وتناسلهم مؤمنين ومؤمنات حتى نَفْخ الصور. وصار اعتقاد الموحدين بإعجاز أمة أحمد وإظهار دين محمد عليه الصلاة والسلام أكثر تمهيدًا. كما صار صدق إخلاص المؤمنين أكثر تأكيدًا.

وفى ذلك اليوم أمر لجماعة الأئمة والمشايخ والسادات بالإدرارات والإنعامات والمرتبات والمناصب. كذلك بذل النذور والصدقات فى حق الفقراء والمساكين. ثم توجه إلى قبور الأولياء ومزارات "الأبدال"[1]. وكان يطلب بتضرع وابتهال من – حضرة ذى الجلال – القوة للانتقام من الأعداء ودفع الحساد. كذلك أنشأ الخوانق والقبور.

بعد ذلك سيّر – بهذه البشرى – العدائين وسعاة البريد إلى أطراف البلاد وأرجائها وأنحائها. وإن حلاوة هذه السعادة التى هى أصل الحياة وثمرة شجرة التوفيق الخالدة باقية. وهكذا أوصل هذا النبأ إلى سكان الآفاق. فتوجه إلى حضرة غازان من أطراف العراق وخراسان المشايخ والأئمة فى خضوع تام. ثم استقبل شهر رمضان ركن الصيام بدلاً من الأصنام، وكل ليلة كان الخلق الكثيرون من التازيك والترك والأمصار يتناولون طعام الإفطار على بساط سماطه.

وهكذا فإن عروة حبل الدين المتين التى كانت قد وجدت الانفصام والانصرام عادت إلى التنظيم والقوة، وصارت همة غازان مقصورة على تأسيس قواعد الدين وتمهيد مبانى اليقين، وتقوية أساس الشرع ورعاية قوانين الأصل والفرع. وكانت همته باعثة على التزام طريق الورع ونهمته متجهة إلى العفة والتقوى.

جعل الله سبحانه وتعالى الوجود المبارك لسلطان الإسلام غازان خان – فى طوفان الطوارق والحدثان – **[ص٦٠٧]** كفيلاً لمصالح العباد ونجاحهم وسببًا لأمن الخلق وأمانهم

---

(١) الأبدال جمع بدل. وعند المتصوفة أن الحق تعالى جعل الأرض سبعة أقاليم واختار لكل إقليم من عباده الصالحين وليًا فيه يسمى "بدلاً" ليحفظه. ويقال إنهم صور روحانية محضة يبدون فيها. وهم أولياء إذا مات أحدهم خلفه غيره فكان بدلاً منه. كما أن حجاب ظلمة الحواس مرفوع عنهم. ولذلك يبدون فى شكول مختلفة متباينة، وهم معروفون باستقصاء الورع وتصحيح الإرادة وسلامة الصدر للخلق والنصيحة لهم. (انظر دكتور حسين مجيب المصرى: المعجم الفارسى العربى الجامع، ص٢٧، القاهرة ١٩٨٣؛ دكتر سيد جعفر سجادى: فرهنگ لغات واصطلاحات وتعبيرات عرفانى، چاپ دوم، ص٩، تهران ١٣٥٤ هـ.ش).

حتى تصان آلاف النفوس الطاهرة من أذى العذاب والخوف من مخالب التتار الكفار؛ فلا جرم أن صار صيت أيام معدلته وسمعة سوق مكرمته طنين آذان العالم.

وصفوة القول أنه بعد ذلك صارت طاعته واجبة ولازمه على ملوك الإسلام وسلاطينهم بموجب قوله تعالى: ﴿...وأولى الأمر منكم﴾[1].

(تمت الترجمة بحمد الله وفضله)

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ (سورة النساء الآية ٥٩).

قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية

ابن الأثير الجزرى (على بن أحمد أبى الكرم):

– الكامل فى التاريخ، تحقيق الشيخ عبد الوهاب النجار، القاهرة ١٣٤٨ ١٣٥٨هـ = ١٩٢٩ ١٩٣٩م.

ابن إياس الحنفى (محمد بن أحمد):

– بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الأول القسم الأول، تحقيق الدكتور محمد مصطفى، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر):

– تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه: حوادث وتراجم (٦٧٨ ٧٠٨هـ/ ١٢٧٩ ١٣٠٨م)، حققه دكتور محمد محمد أمين وراجعه دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٦م.

ابن حجر العسقلانى (الحافظ شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن على بن أحمد):

– الدرر الكامنة، نشر دار الجيل، نسخة مصورة من طبعة دائرة المعارف بحيدر الدكن، بيروت ١٣٥٠هـ ١٩٣١م.

ابن زيد آل محمود (عبد الله) الشيخ:

– قضية تحديد الصداق، قطر الدوحة ١٩٧٦م.

ابن شاكر الكتبى (فخر الدين محمد بن أحمد):

– فوات الوفيات، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥١م.

ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب الملطى):

– تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٥٨م.

ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيـــى):
– مسـالك الأبصـار فى ممـالك الأمصـار. دولـة المماليك الأولى (٧٠٠ ٧٤٩ هـ / ١٣٠١ ١٣٤٩م): دراسة وتحقيق دوروتيا كراڤولسكى ترجم التمهيد المطول عن الألمانية الدكتور رضوان السيد، الطبعـة الأولى، الناشر المركز الثقافى للبحوث، بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

ابن الفوطى (كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين أحمد):
– الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة (٦٤٢ ٧٢٣هـ / ١٢٤٤ ١٣٢٣م)، وقـف على تصحيحه والتعليق عليه مصطفـى جواد، بغداد ١٣٥١هـ ١٩٣٢م.

أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل):
– المختصر فى أخبار البشر (تاريخ أبى الفداء) نشر مكتبة المثنى، القاهرة بدون تاريخ.
– تقويم البلدان، تصحيح رينود مـدرس العربية والبـارون مـاك كوكين ديسلان، باريس ١٨٤٠ مسيحية.

إدريس (محمد محمود):
– رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٣م

أرنولد (سير توماس):
– الدعوة إلى الإسلام، ترجمه إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم وآخرون الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧م.

الإصطخرى (ابن إسحق إبراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالكرخى):
– المسالك والممالك، تحقيق الدكتور محمد جـابر عبـد العـال الحينى، مراجعة محمد شفيق غربال، القاهرة ١٣٨١هـ ١٩٦١م.

بارتولد (ڤاسيلى ڤلاديميروڤتش):

- تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان راجعه إبراهيم صبرى، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨م.
- تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الثالثة، الناشر دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٨م.
- تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الناشر قسم التراث العربى بالمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

بدر (مصطفى طه) دكتور:

- مغول إيران بين المسيحية والإسلام، القاهرة بدون تاريخ.

البدليسى (شرف خان):

- شرفنامه. ألفه بالفارسية شرف خان البدليسى، ترجمه إلى العربية، محمد على عونى، راجعه وقدم له يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٦٢م.

براون (إدوارد جرانڤيل):

- تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، القاهرة ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م.

بروكلمان (كارل):

- تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٤٩م.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر):

- الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، بيروت ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م.

الجراحى (إسماعيل بن محمد العجلونى) الشيخ المفسر:
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، الجزء الثانى، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٣٥٢هـ.ش.
جرجى زيدان:
- تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٣١م.
جمال الدين (محمد السعيد) دكتور:
- علاء الدين عطا ملك الجوينى حاكم العراق بعد انقضاء الخلافة العباسية الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
جنيد شيرازى (معين الدين أبو القاسم):
- شد الإزار فى حط الأوزار عن زوار المزار، بتصحيح وتحشية محمد قزوينى وعباس إقبال، طهران ١٣٢٨هـ.ش.
حِتِّى (فيليب): دكتر
- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمه الدكتور جمال اليازجى أشرف على مراجعته وتحريره الدكتور جبرائيل جبور، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٢م.
الحميرى (محمد عبد المنعم):
- الروض المعطار فى خبر الأقطار، حققه إحسان عباس، الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٠م.
خصباك (جعفر حسين) دكتور:
- العراق فى عهد الإيلخانيين ٦٥٦ ٧٣٦هـ / ١٢٥٨ ١٣٣٥م: الفتح الإدارة الأحوال الاقتصادية الأحوال الاجتماعية، بغداد ١٩٦٨م.

خليل أدهم:

– تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، نقله عن التركية الدكتور أحمد السعيد سليمان، الناشر دار المعارف، القاهرة ١٩٧٢م.

الدوادار (بيبرس):

– التحفة المملوكية فى الدولة التركية: تاريخ دولة المماليك البحرية فى الفترة من ٦٤٨ ٧١١هجرية، تحقيق دكتور عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

– زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، الجزء التاسع، تحقيق الدكتورة زبيدة محمد عطا، المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ.

– مختار الأخبار: تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق دكتور عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

الدوادارى (أبو بكر عبد الله بن أيبك):

– كنز الدرر وجامع الغرر، وهو الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة ١٣٧٩هـ ١٩٦٠م.

ديماند (م.س):

– الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم الدكتور أحمد فكرى، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٢م.

رشيد الدين (فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة):

– جامع التواريخ، تاريخ المغول المجلد الثانى الجزء الأول: تاريخ هولاكو مع مقدمة كاترمير، نقله عن الفارسية إلى العربية الأستاذ محمد صادق نشأت والدكتور محمد موسى هنداوى والدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، وترجم مقدمة كاترمير عن الفرنسية الدكتور محمد

محمد القصاص، القاهرة ١٩٦٠م.
- جامع التواريخ، تاريخ المغول، المجلد الثانى، الجزء الثانى: تاريخ أبناء هولاكو خان من آباقاخان إلى گيخاتوخان، نقله عن الفارسية إلى العربية الأستاذ محمد صادق نشأت والدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد القاهرة ١٩٦٠م.
- جامع التواريخ، تاريخ خلفاء چنگيز خان من أوكتاى قاآن إلى تيمور قاآن، نقله عن الفارسية إلى العربية الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد الناشر دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٣م.

زكى محمد حسن (دكتور):
- التصوير فى الإسلام عند الفرس، الناشر دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م.
- فنون الإسلام، الناشر دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م.
- الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى، الناشر دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م
- التصوير وأعلام المصورين فى الإسلام، مقالة نشرت فى هدية المقتطف السنوية بعنوان "نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٩٤٨م.

السباعى محمد السباعى (دكتور):
- عطا ملك الجوينى وكتابه جهانگشا، القاهرة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

ستيڤن رنسيمان:
- تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى، الجزء الثالث، بيروت ١٩٦٩م.

شپولر (برتولد):
- العالم الإسلامى فى العصر المغولى، نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى راجعه وقدم له سهيل زكار، الطبعة الأولى، دمشق ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

الصياد (فؤاد عبد المعطى) دكتور:

- مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذانى، الطبعة الأولى القاهرة ١٣٨٦هـ ١٩٦٧م.
- المغول فى التاريخ (من چنگيز خان إلى هولاكو خان)، القاهرة ١٩٧٥م.
- الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكوخان)، منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر، الدوحة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
- النوروز وأثره فى الأدب العربى من منشورات جامعة بيروت العربية بيروت ١٩٧٢م.

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير):

- تاريخ الرسل والملوك: الجزء الأول، تحقيق "محمد أبو الفضل إبراهيم" الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

العبود (نافع توفيق) دكتور:

- الدولة الخوارزمية: نشأتها علاقاتها مع الدول الإسلامية نظمها العسكرية والإدارية ٤٩٠ ٦٢٨هـ/١٠٩٧ ١٢٣١م، بغداد ١٩٧٨م.

العزاوى (عباس):

- تاريخ العراق بين احتلالين، الجزء الأول، حكومة المغول، بغداد ١٣٥٢هـ ١٩٣٥م.
- التعريف بالمؤرخين فى عهد المغول والتركمان (٦٠١هـ / ١٢٣٤م إلى ٩٤١هـ / ١٣٥٤م)، بغداد ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.

عطا ملك الجويني:

– تاريخ فاتح العالم (جانگشاى)، نقله عن الفارسية وقارنه بالنسخة الإنكليزية الدكتور محمد التونجي، المجلدان الأول والثاني، الطبعة الأولى، حلب ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

علي إبراهيم حسن (دكتور):

– دراسات في تاريخ المماليك البحرية، وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٨م.

القزاز (محمد صالح) دكتور:

– الحياة السياسية في عهد السيطرة المغولية، النجف ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.

القزويني (زكريا بن محمد بن محمود):

– آثار البلاد وأخبار العباد، نشر دار صادر، بيروت ١٣٠٨هـ ١٩٦٠م.

القلقشندي (أبو العباس أحمد):

– صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة ١٣٣٣هـ ١٩١٤م.

كراتشكوفسكي (اغناطيوس يوليانوفتش):

– تاريخ الأدب الجغرافي العربي: القسم الأول، نقله إلى اللغة العربية صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة ١٩٦٣م، والقسم الثاني نقله نفس المترجم، القاهرة ١٩٦٥م.

كرافولسكي (دوروتيا):

– العرب وإيران: دراسات في التاريخ والأدب من المنظور الأيديولوجي ترجمة الدكتور رضوان السيد، الطبعة الأولى، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

لسترانج (كى):

– بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية، وأضاف إليه تعليقات بلدانية وتاريخية وأثرية، ووضع فهارسه: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م.

ماركو بولو:

– رحلات ماركو پولو، ترجمها إلى الإنجليزية ونشرها "وليم مارسدن" ترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧م.

الماوردى (أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصرى):

– الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

– المجتمع العربى، تأليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب بجامعة عين شمس، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٦م.

محمود نجيب حسنى (دكتور):

– الموجز فى قانون العقوبات: القسم الخاص، القاهرة ١٩٩٣م.

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على):

– مروج الذهب ومعادن الجوهر، بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م.

المقريزى (تقى الدين أحمد على):

– الخطط المقريزية المسماة المواعظ والاعتبار، طبع بمطبعة الساحل الجنوبى، الشياح، بيروت ١٩٥٩م.

– السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر وتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٣٥٣ ١٣٥٨هـ / ١٩٣٤ ١٩٣٩م.

المؤرخ الإيرانى الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو فى كتابه دستور الوزراء، تأليف وترجمة وتعليق الدكتور حربى أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م.

النسوى (نور الدين محمد بن أحمد بن على بن محمد المنشى):
– سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدى القاهرة ١٩٥٣م.
نظام الملك الطوسى (خواجه):
– سياستنامه أو سير الملوك، ترجمة الدكتور يوسف حسين بكار، الطبعة الثانية دولة قطر، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
نيندهام (جوزيف):
– موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين، ترجمة محمد غريب جوده الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.
هارولد لام:
– چنگيز خان وجحافل المغول، ترجمة مترى أمين، مراجعة وتقديم الدكتور زكى نجيب محمود، القاهرة ١٩٦٢م.
هنتس فالتر:
– المكاييل والأوزان الإسلامية، وما يعادلها فى النظام المترى، ترجمه عن الألمانية الدكتور كامل العسيلى، منشورات الجامعة الأردنية، عمان ١٩٧٠م.
ياقوت الحموى:
– معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت ١٣٧٦هـ ١٩٧٦م.

ثانيا: المراجع الفارسية

إقبال (عباس):

– تاريخ مفصل إيران استيلاى مغول تا اعلان مشروطيت، جلد اول: از حملۀ چنگيز تاتشكيل دولت تيمورى، طهران ١٣١٢هـ.ش.

– مقالة بعنوان: "چـاو چـاپ اسـكناس" نشـرت ضمـن مجموعـة مقـالات عبـاس اقبـال آشـتيانى: شـامل يكصـد ويـك مقالـه بامقدمـه وتصحيح دكتر محمد دبير سياقى، تهران ١٣٥٠هـ.ش.

اقبال يغمائى:

– بسطام وبايزيد بسطامى، تهران ١٣١٧هـ.ش.

بارتولد:

– تذكرۀ جغرافياى تـاريخى إيران، ترجمۀ حمزه سردادور (طـالب زاده) طهران ١٣٠٨هـ.ش.

براون (ادوارد):

– از سعدى تاجامى: تاريخ ادبى إيران از نيمۀ قرن هفتم تاآخر قرن نهم هجرى: عصر استيلاى مغول وتاتار، ترجمه وحواشى بقلم على أصغر حكمت، تهران ١٣٢٧ شمسى = ١٩٤٨ ميلادى.

بيانى (شيرين: اسلامى ندوشن):

– دين ودولت در إيران عهد مغول، جلد دوم: حكومت ايلخانى: نبرد ميان دوفرهنگ، چاپ أول، تهران ١٣٧١هـ.ش.

پطروشفسكى:

– كشاورزى ومناسبات أرضـى در إيـران عـهد مغـول، ترجمـۀ كريـم كشاورز، تهران ٢٥٣٥ شاهنشاهى.

پیکولوسکایا (ن.و) وآخرون:

- تاریخ ایران ازدوران باستان تاپایان سدهٔ هیجدهم میلادی، ترجمهٔ کریم کشاورز، تهران ١٣٥٤ هـ.ش.

جروسیه:

- امپراطوری صحرانوردان، ترجمهٔ عبد الحسین میکده، چاپ سوم تهران ١٣٦٨هـ.ش.

جوزجانی (أبو عمرو منهاج الدین عثمان بن سراج الدین، معروف به منهاج سراج):

- طبقات ناصری (ألف فی الفترة ما بین ٦٥٧ ٦٥٨هـ) تحقیق عبد الحی حبیبی قندهاری، کابل ١٣٤٣هـ.ش.

الجوینی (علاء الدین عطا ملك بن بهاء الدین محمد):

- تاریخ جهانگشای (ألف ما بین سنة ٦٥٠ ٦٥٨هـ) نشر وتصحیح محمد بن عبد الوهاب القزوینی، لیدن ١٣٢٩ ١٣٥٥هـ / ١٩١١ ١٩٣٧م.

حافظ آبرو:

- ذیل جامع التواریخ رشیدی (ألف سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م شامل وقایع (٧٠٣ ٧٨١ هجری قمری)، باهتمام دکتر خانبابا بیانی، تهران ١٣٥٠هـ.ش.

خواندمیر (غیاث الدین محمد بن همام):

- حبیب السیر فی أخبار أفراد البشر (ألف سنة ٩٣٠هـ / ١٤٢٣م چاپ أول، تهران ١٣٣٣هـ.ش جاب دوم عکسی، تهران ١٣٥٣هـ.ش.
- رجال حبیب السیر: از حملهٔ مغول تامرگ شاه إسماعیل أول، گرد آوردهٔ عبد الحسین نوائی، بامقدمه وسه فهرست، طهران ١٣٢٤هـ.ش.

رشيد الدين فضل الله بن عماد الدوله أبي الخير بن موفق الدولة همداني:

– تأريخ مبارك غازانى (داستان غازان خان) بسعى واهتمام أقل العباد "كارل يان"، هرتفورد ازبلاد انگلستان سنة ١٣٥٨ هجرى مطابق سنة ١٩٤٠ مسيحى.

– جامع التواريخ، جلد دوم در تاريخ پادشاهان مغول از اوگتاى قا آن تاتيمور قاآن، نشر وتحقيق ادگار بلوشيه، ليدن ١٣٢٩هـ/١٩١١م.

– جامع التواريخ: مغول إيران، جلد سوم، متن علمى وانتقادى فارسى بسعى واهتمام عبد الكريم على أوغلى على زاده، نشر معهد الدراسات الشرقية بآذربيجان السوڤييتية، باكو ١٩٥٧م.

– جامع التواريخ، جلد أول از آغار پيدايش قبايل مغول تاپايان دورهٔ تيمور قاآن، نشر وتحقيق بهمن كريمى، طهران ١٣٢٨هـ.ش.

– جامع التواريخ رشيد الدين فضل الله همدانى، به تصحيح وتحشيهٔ محمد روشن مصطفى موسوى، جلد اول، تهران ١٣٧٣هـ.ش.

– جامع التواريخ: قسمت اسماعيليان وفاطميان ونزاريان وداعيان ورفيقان، بكوشش محمد تقى دانش پژوه ومحمد مدرسى (زنجانى) بنگاه ترجمة ونشر كتاب، چاپ دوم، تهران 2536 شاهنشاهى.

– تاريخ افرنج يافصلى از جامع التواريخ، با مقدمه وحواشى وفهارس بكوشش محمد دبير سياقى، مدخل كارل يان، تهران ١٣٣٩هـ.ش = ١٩٦٠م.

– جامع التواريخ، جلد ٢، جزء ٥: ذكر تاريخ آل سلجوق، بسعى واهتمام أحمد آتش، أنقره ١٩٦٠م.

– مكاتبات رشيدى، بسعى واهتمام وتصحيح أقل العباد محمد شفيع، بإضافة حواشى وفهارس، لاهور ١٣٦٤هـ ١٩٤٥م.

– وقفنامه ربع رشيدى: الوقفية الرشيدية بخط الواقف فى بيان شرائط أمور الوقف والمصارف. أثر رشيد الدين فضل الله بن أبى الخير بن عالى الهمدانى مشتهر برشيد الطبيب، جاب عكسى از روى نسخهٔ أصل، زير نظر مجتبى مينوى ايرج افشار، سلسلهٔ انتشارات انجمن آثار ملى، شمارة ۸۷، تهران ۱۳۵۰هـ.ش.

زاده (هاشم رجب) دكتر:

– آئين كشور دارى در عهد وزارت رشيد الدين فضل الله همدانى، تهران ۲۵۳۵ شاهنشاهى:

ستوده (منوجهر):

– قلاع اسماعيلية در رشتهٔ كوههاى البرز، تهران ۱۳٤٥هـ.ش.

شبانكارى (محمد بن على بن محمد):

– مجمع الأنساب به تصحيح مير هاشم محدث، تهران ۱۳٦۳هـ.ش.

شبولر (برتولد):

— تاريخ مغول در إيران: سياست، حكومت وفرهنگ ايلخانان، ترجمة دكتر محمود آفتاب، تهران ۱۳٥۱هـ.ش.

صفا (ذبيح الله) دكتر:

– خلاصة تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنگى إيران تاپايان عهد صفوى تهران ۲۵۳٦ شاهنشاهى.

القاشانى (أبو القاسم عبد الله بن محمد)

– تاريخ اولجايتو (بادشاه سعيد غياث الدنيا والدين اولجايتو سلطان محمد – طيب الله مرقده – به اهتمام مهين همبلى، بنكاه ترجمه ونشر كتاب، تهران ۱۳٤۸ هـ.ش.

لوى (حبيب)

– تاريخ يهود إيران، نشر كتابفروشى بروخيم، تهران ۱۳۳۹ شمسى = ۱۹٦۰ ميلادى.

– مجموعهٔ خطابه های تحقیقی دربارهٔ رشید الدین فضل الله همدانی که در مجلس علمی مربوط به او از ۱۱ تا ۱٦ آبان ۱۳٤۸هـ.ش در دانشگاه های تهران وتبریز خوانده شده است، طهران ۱۳۵۰ هـ.ش.

نخجوانی (محمد بن هندوشاه):

– دستور الکاتب فی تعیین المراتب، جزء اول از جلد یکم، نشر وتحقیق عبد الکریم علی اوغلی زاده، مسکو ۱۹٦٤م.

نصیر الدین طوسی (خواجه):

– تنسوخ نامهٔ ایلخانی، بامقدمه وتعلیقات مدرس رضوی، تهران ۱۳٤۸هـ.ش.

وصاف (أدیب شرف الدین عبد الله بن فضل الله شیرازی الملقب بوصاف الحضرة):

– تاریخ وصاف، طبع بمبای، ۱۲٦۹هـ.

– تحریر تاریخ وصاف، به قلم عبد المحمد آیتی، انتشارات بنیاد فرهنگ إیران، تهران ۱۳٤٦هـ.ش.

ثالثا: المراجع الأوربية

Arberry:

- Classical Persian Literature on Rashid Al Din, London 1958.

Barthold.W.

- Mir Islama, St Petersbourg, 1912.

Berthold Spuler:

- Die Mongolen in Iran, Leipzig, 1939.

- The Cambridge History of Iran. Vol 5, The Saljug and Mongol Periods, edited by J.Boyle, Cambridge 1968.

M. Le Baron:

- Histoire Des Mongols depuis Tchinguiz-khan Jusqu' ă Timour Bey ou Tamerlan, Paris, 1824.

- Encylopaedia Judaica, Vol 13, Second Printing, Jerusalem, 1973.

Grousset Ren:

- L'Empire des Steppes. Paris, 1948.

Howorth H.H:

- History of the Mongols. London, 1875.

- Proceedings of the Colloquim On Rashid Al Din Fadlallah: Tehran, Tabriz, II - 16 Aban 1348 (2 7 November 1969), Tehran 1971.

- Rashid al Din,s Knowledge of Europe, by Karl Jpan.

- Rashid al Din Fazl Allah and India, by k. A Nizami.

Walter J. Fischel:

- Jews in Economic and political Life of Mediaeval Islam, Royal Asiatic Socity Monographs, Vol. XXII, London, 1937.



فهرس الموضوعات

الترجمة

النصوص الإضافية

هذه ترجمة كاملة لتاريخ غازان خان الذى يكون قسما مهما من كتاب جامع التواريخ، تأليف «رشيد الدين فضل الله الهمذانى» مؤرخ المغول الكبير والكاتب الموسوعى الذى أحاط علمه بكثير من أنواع المعارف والثقافات. ولكن شهرته كمؤرخ كانت تأتى فى المقدمة دائما.

وتبرز أهمية الكتاب فيما نقرؤه عن المغول فى الأحداث التى كان يعايشها المؤرخ: فقد عاصر هذا المؤرخ دولة المغول فى أبهى فتراتها. وشاهد حصار بغداد وفتحها على يد هولاكو خان. والتحق بخدمة أعظم سلاطين الايلخانيين وبلغ أسمى المراتب فى عهد غازان وأولجايتو وفترة من حكم أبى سعيد بهادر خان. ولعب دورا هامًا فى سياسة دولة المغول وإدارتها.

فإذا جاء هذا المؤرخ وأرخ لهذه الفترة، فإنه يؤرخ لأحداث كان يعاصرها ويشهدها بعينى رأسه، ويصفها وصف المثقف الخبير بشئون الحياة. كذلك استطاع الاطلاع على الوثائق المكتوبة والإفادة منها. وهذه ميزة كبيرة لم تتوافر لغيره ممن كتبوا عن تاريخ المغول من السابقين أو المعاصرين له.




ISBN 977-5875-70-6
90000
9 789775 875709